عصور الجديدة

مجلة فصلية محكمة يصدرها مختبر البحث التاريخي -تاريخ الجزائر-

جامعة وهران - الجزائر-

العدد 2 2011

مما جاء في هذا العدد

ISSN 2170-1636

عصــــور الجديدة

مجلة فصلية محكمة يصدرها مختبر البحث التاريخي

تاريخ الجزائر- جامعة وهران

عدد 2- عدد خاص بتلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011م

صيف 1432هـ /2011م

ISSN 2170-1636 ردمد

Depot Légal -2011 الإيداع القانوني:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

سورة آل عمران- الآية 140.

شروط النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الباحثين المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المستوفية للشروط الأكاديمية التالية:

1- أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره، وأن لا يكون فصلا من مذكرة ماجستير أو أطروحة دكتوراه.

2- أن يتبع الباحث الأصول العلمية المتعارف عليها، وبخاصة فيما يتعلق بتوثيق المصادر، مع إلحاق كشف المصادر والمراجع بالهوامش في آخر البحث، وضرورة كتابتها على الشكل التالي: المؤلف- عنوان الكتاب- المحقق- الطبعة- دار النشر- مكان النشر- تاريخ النشر- الجزء والصفحة.

3- تقدم الأعمال في قرص مضغوط ونسخة مطبوعة على وجه واحد، أو ترسل إلى البريد الإلكتروني للمجلة.

4- يتراوح عدد صفحات البحث ما بين 10 إلى 20 صفحة مكتوبة بخط Traditional Arabic مقاس 14 وتباعد 1. وتكتب الهوامش بطريقة عادية في نهاية البحث، وبمقاس 10 وتباعد فردي.

5- تخضع كل البحوث المقدمة للنشر في المجلة للتحكيم العلمي، ولا تقبل المقالات التي لا تحترم الشروط المذكورة سابقا.

6- لا ترد الدراسات والبحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

7- الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها.

عنوان المراسلة: ترسل البحوث والدراسات باسم:

أ.د.عبد القادر بوباية- مختبر تاريخ الجزائر - قسم التاريخ وعلم الآثار

ص ب 1541 المنور- كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

جامعة وهران- الجمهورية الجزائرية

هاتف/فاكس: 0021341348531/0021341427139

البريد الإلكتروني: oussourrevue@gmail.com

الموقع الإلكتروني: Dahou55.maktoobblog.com

المحتويات

المقالات باللغة العربية

كلمـــة العـــدد

تعيش مدينة تلمسان هذه السنة عرسا علميا وثقافيا بمناسبة احتفاليتها كعاصمة للثقافة الإسلامية، وهي منسبة لاستذكار أمجاد هذه المدينة خاصة، وأمجاد الجزائر بصافة عامة.

لقد كانت تلمسان خلال العصور الوسطى إحدى المراكز السياسية باعتبارها عاصمة لبني يفرن قبل الفتح الإسامية، ثم مركزا سياسيا وثقافيا هاما بعد الفتح الإسلامي، والذي سيتجسد أكثر خلال الحكم الزياني الذي أصبحت معه مدينة تلمسان عاصمة سياسية للمغرب الأوسط، وسيستمر ذلك المركز الريادي إلى غاية استيلاء العثمان على المدينة، والقضاء على الحكم الزياني، وكانت قبل ذلك مركزاهاما شهد قيام الإمارة السليمانية، ثم إمارة بني يفرن؛ فالوجود الفاطمي الذي تلاه الحكم المرابطي فالموحدي.

وتماشيا مع هذا الحدث الثقافي المميز قرر مخبر تاريخ الجزائر إصدار عدد خاص بتلمسان من مجلة عصور الجديدة، وسعينا من خلاله إلى المساهمة في هذه الاحتفالية بعدد تضمن مقالات علمية في غاية الأهمية تتعلق كلها بتلسان وأحوازها، وشارك في كتابتها ثلة من الباحثين الجادين من الجزائر والمغرب الأقصى وتونس والإمارات العربية المتحدة.

كما تضمن العدد أيضا تأبينية الأستاذ أبو القاسم سعد الله لفقيدة البحث التاريخي بالجامعة الجزائرية خاصة والمغاربية عامة الأستاذة عائشة غطاس إضافة إلى نبذة عن سيرتها العلمية، وعلى غرار الأعدد السابقة نواصل في هذا العدد الخاص عرض الإصدارات التاريخية الحديثة حتى نزود الباحثين بما استجد في البحث التاريخي في الجزائر وخارجها، وتضمن العدد أيضا حوصلة عن النشاط العلمي لمخبر تاريخ الجزائر، والمتمثل في الندوة العلمية التي شارك المخبر في تنظيمها في عشعاشة مع مجلسها البلدي وجمعية نشاطات الشباب إقرأ، ودار موضوعها حول جرائم الاستعمار الفرنسي بالجزائر: محرقة غار الفراشيش نموذجا.

وفي الختام نأمل أن يكون هذا العدد لبنة إضافية في الارتقاء بالبحث العلمي الجاد في وقت انتشرت فيه الرداءة، ولا أدل على ذلك من أستاذ محاضر يعجز عن الإجابة عن سؤال طرح عليه في أحد ملتقيات تلمسان حول المناظرات العلمية التي اعتقد أنها مدحُ العالم لأخيه.

مدير المختبر ورئيس التحرير: أ.د عبد القادر بوباية

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

وزارة الثقافة — MINISTERE DE LA CULTURE

رئيسة الديوان — LA CHEF DE CABINET

رقم ..... / ل.ع / ر.د / و.ث — N° ..... / CC / MC

الجزائر في — ALGER LE

11 AOUT 2011

أ.د. بوعزيز عبد القادر
مدير مخبر "تاريخ الجزائر"
جامعة وهران

الموضوع: ف/ع العدد الخاص بتلمسان في مجلة "عصور الجديدة"
المرجع: إرسالكم رقم 008/ المؤرخ في 2011/07/07

ردا على إرسالكم المشار إليه في المرجع أعلاه، المتعلق بدعوتنا للموافقة على تخصيص العدد القادم من مجلة "عصور الجديدة" التي يصدرها مخبركم الموقر لمدينة وحاضرة تلمسان، على اعتبار كونها توجت هذه السنة بلقب عاصمة الثقافة الإسلامية.

ولا أشكر لكم هذا الاهتمام فإن السيدة الوزيرة ترحب بهذه المبادرة الطيبة التي ستعزز لا محالة من إشعاع الاحتفالية وتضفي القائمة على برنامج التظاهرة وتوثق بأسلوب أكاديمي علمي لأحد أهم الحواضر الإسلامية في الجزائر.

وتفضلوا السيد المدير بقبول فائق عبارات الشكر والتقدير والاحترام.

رئيسة الديوان
زهيرة ياحي

رسالة السيدة معالي وزيرة الثقافة

مؤرخون في ذمة الله

تأبينية الأستاذة عائشة غطاس

(1326- 1431هـ/ 1908- 2010م)

أ.د أبو القاسم سعد الله*

رحمك الله يا ابنة الكرام، وعطّر ثراك وبلّل ضريحك بماء الكوثر.

لقد فقدتك الأسرة الأكاديمية وخسرتك الجامعة والبحث العلمي، فمن سيعوّضك في طلب العلم وإتقان العمل والحرص على مستوى الطلبة حتّى لا يتدنّى بهم المتدنّون ويعبث بهم العابثون.كنت طالبة في أعلى طراز في الأخلاق والانضباط والاجتهاد والتفوّق، وكنت ابنة البرواقية الأصيلة وحفيدة الكرام البررة، كنت ابنة الجزائر التي لم تسقط في أوهام الحضارة في منابعها. كنت تشاركين في المؤتمرات واللقاءات العلمية، ثم تعودين إلى وطنك الدافئ كعصفورة غدت تبحث عن غذاء، وعادت إلى عشّها مملوءة الوطاب مما اختارته.

من لنا بعدك بمثلك ممن يؤثرون على أنفسهم ويسهرون على تخريج طلبة أقوياء مؤهّلين لشقّ طريق البحث العلمي في حين راجت بضائع الانتهازيين والوصوليين.

من لهؤلاء الطلبة الأيتام، وقد غبت عنهم وخلا منك الميدان قبل الأوان مكرهة، ولعلمهم سيجدون زعانف ومبتذلين، ولكنهم لن يجدوا مثلك في تقديم النصح وتقويم العوج والانقطاع للبحث والكتابة والمنافسة على التفوّق البريء.

لقد غادرت ساحتنا مبكّرة يا دكتورة غطاس بعد أن عرفناك طالبة وأستاذة ومناقشة للرسائل الجامعية. غادرتنا في أوجّ الربيع الذي تَبكيك أزهاره وعصافيره وشبابه. غادرتنا وأنت في قمة العطاء العلمي رغم أدوات الصحة من الحساسية وغيرها، ورغم العناية بوالدتك المعذّبة بتقدم السن

---

*- أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر وباحث بالمركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر- الجزائر.

وأمراض الشيخوخة. فلها الله بعدك وكفلها برحمته وعنايته. ويكفيها أنها أنجبت للجزائر أستاذة مثلك.

حصلت عائشة غطاس على الليسانس في التاريخ من جامعة الجزائر، والماجستير منها أيضا بإشراف الدكتور مولاي بلحميسي، والدكتوراه بإشراف ناصر الدين سعيدوني من جامعة الجزائر أيضا. وكان إطار تخصصها الزمني هو العهد العثماني والعلمي هو الحياة الإجتماعية، ولاسيما حياة المرأة وتطور المجتمع، وكان موضوع رسالتها للدكتوراه هو الحرفيون في مجتمع الجزائر خلال العهد العثماني.

بالإضافة إلى التدريس بجامعة الجزائر غطّت الأستاذة غطاس مواد تخصّصها في جامعات وطنية أخرى مثل جامعة غرداية وجامعة أدرار، فأصبح لها تلاميذ وطلاب ينيرون خارطة الوطن، وكانت تحتمل مشقة السفر وعدم تناسب المكافأة مع الجهد الذي تبذله. وهي تحسن العربية والفرنسية وتطالع التركية والإنجليزية، وهي تستفيد من هذه اللغات في أبحاثها فتأتي غنيّة بالمعلومات والآراء.

كتبت الأستاذة غطاس بحوثا عميقة وألفت كتبا عن المجتمع الجزائري في العهد العثماني: نقاباته وأمناؤه، وحياة البرّانية وإنتاجهم وحرفهم، وحياة العلماء والمتصوّفة في الجزائر العثمانية، وأنواع وأسباب الأمراض والأوبئة التي نهشت المجتمع، والحجر الصحي والمستشفيات، كما وجّهت بعض الطلبة إلى دراسة دور المرأة وانشغالاتها بزينتها كالألبسة والحلي والكحل والبخور والحمام. ووجّهت آخرين إلى دراسة المجلس العلمي كمجلس الفتوى، وركب الحج، ودُور الوقف، وكذلك الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث والمذاهب الفقهية.لقد شاركتها في مناقشة بعض الطلبة الذين تُشرف عليهم وغيرهم. فكانت صارمة وعادلة وحريصة على سمعة الجامعة وسمعتها العلمية.

وقد أسعفني الحظ حين طلبت مني تصدير أحد كتبها وهو "مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني"، الذي يعالج كثيرا من القضايا التي ذكرتها، وما يزال حسب علمي لم يطبع، ولكنني طبعت التصدير في كتابي "حبر على ورق"، الذي هو الآن تحت الطبع.

رأيت للدكتورة غطاس بحوثا في مجالات جزائرية وأجنبية، وقدّمت بعض بحوثها في مؤتمرات علمية في الجزائر وتونس والمغرب وفرنسا واسطنبول، وأسهمت ببحث جيد عن أوجاق الجزائر في الكتاب المرجع لتاريخ الأمة العربية الذي كنت أشرف عليه بتكليف من الأليسكو (المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة).

رحمك الله يا عائشة، لقد فقدتُ فيك إحدى بناتي وتلميذاتي، وإحدى زميلاتي، وكنت قبل اليوم لا تطلبين مني سوى النصيحة، وها أنت اليوم لا تستحقين مني إلا كلمة وفاء ودمعة أسى .أبو القاسم سعد الله –12 مايو 2011

تعزية الجمعية المغربية للبحث التاريخي:

علمنا ببالغ الأسف بوفاة الزميلة عائشة غطاس في ظروف مأساوية غامضة. وقد سبق للمرحومة أن شاركت في ماي 2003 في إحدى الندوات التي كانت وحدة التكوين والبحث "المتوسط والعالم الإسلامي" تنظمها بمراكش كل سنة، فعرفنا فيها جدية البحث ودماثة الأخلاق وعمق الحرص على بناء أواصر التواصل بين الباحثين المغاربيين. وإذ نشعر بعميق الحزن وشدة الاستنكار أمام هذا الحدث الجلل، فإننا نعبر لعائلتها وأصدقائها وزملائها عن أحر تعازينا وعميق مواساتنا.

C'est avec consternation que nous avons appris la disparition tragique de Aïcha Ghettas, collègue ottomaniste de l'université d'Alger, qui avait participé à une Table ronde à Marrakech, organisée en mai 2003 par l'UFR "Méditerranée-Monde musulman" de la Faculté des Lettres de Rabat, autour du thème "Les études ottomanes au Maghreb à travers les archives locales et méditerranéennes". Nous avions alors pu apprécier outre ses compétences scientifiques et ses grandes qualités humaines, un profond souci de consolider les relations universitaires intra-maghrébines. En cette douloureuse occasion, nous exprimons à sa famille, ses amis et ses collègues toutes nos condoléances et notre profonde sympathie.

Abderrahmane EL MOUDDEN

Secrétaire Général Association Marocaine pour la Recherche Historique Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

RABAT – MAROC

الأستاذة عائشة غطاس في سطور

أ.د.عبد القادر بوباية*

الرتبة العلمية: أستاذة التعليم العالي.

التخصص: تاريخ الجزائر الحديث.

* الحياة الاقتصادية والاجتماعية.
* علاقات الجزائر الخارجية.

الشهادات:

- شهادة المنهجية في التاريخ- جامعة الجزائر- 1980م.
- شهادة الماجستير في التاريخ الحديث: العلاقات الجزائرية- الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694م- جامعة الجزائر- 1986م.
- دكتوراه دولة في التاريخ الحديث: "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر: مقاربة اجتماعية اقتصادية- جامعة الجزائر- 2002م.

المقـــالات المنشـــورة:

- "الوضع الصحي بالجزائر خلال العهد العثماني"- مجلة الثقافة- العدد 76، 1983م- صص 121-130.
- "أول حلقة في العلاقات الجزائرية- الدانمركية: معاهدة 1746م"- مجلة الدراسات التاريخية- 1987م.
- "المعاهدة الجزائرية- البندقية"- مجلة الدراسات التاريخية- 1992م.
- "التجار الجزائريون من 1686-1830م من خلال وثائق القنصلية الفرنسية"- مجلة الدراسات التاريخية- العدد 61/62- 1991م- صص 126-136.
- "إسهام المرأة في الأوقاف بمجتمع مدينة الجزائر"- المجلة التاريخية المغربية- العدد 85/86- 1997م- صص 99-131.

---

* - مدير مختبر تاريخ الجزائر ورئيس تحرير مجلة عصور الجديدة- جامعة وهران- الجزائر.

- "سجلات المحاكم الشرعية وأهميتها في كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي: مثال مدينة الجزائر"- إنسانيات، العدد 3- 1997م- صص 69-86.

- "القضاة الأحناف بمدينة الجزائر 1560-1850م"- المجلة العربية للدراسات العثمانية- العدد 18/17- 1998م- صص 371-377.

- "الصداق بمجتمع مدينة الجزائر 1672-1854م من خلال وثائق المحاكم الشرعية"- إنسانيات- العدد 4- 1998م، صص 47-67.

- "ممتلكات المرأة بمجتمع مدينة الجزائر إبان العهد العثماني"- تاريخ النساء في بلاد المغرب- الثقافة المادية والحياة اليومية- جمع وتقديم دالندة الأرقش- تونس- مركز المطبوعات الجامعية- 2000م.

- "تجار مغاربيون بمدينة الجزائر إبان العهد العثماني من خلال وثائق القنصلية الفرنسية 1686-1830م- دراسات وشهادات مهداة إلى الدكتور سعد الله- بيروت- دار الغرب الإسلامي- 2000م.

- "المرأة بمدينة الجزائر إبان العهد العثماني"- مقاربة اقتصادية- اجتماعية- القنيطرة- 1998م.

- "حول أوقاف الحرمين الشريفين بمدينة الجزائر"- أعمال ندوة الجزائر حول الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر- دراسات إنسانية- عدد خاص- 2002م.

- "نظرة أسير إنكليزي للجزائر إبان النصف الأول من القرن السابع عشر"- أعمال المؤتمر الثاني للحوار البريطاني- المغاربي- إكستير- 2002م- منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلوماتي- 2003م- صص 25-31.

- "من أجل إعادة النظر للبنية الديموغرافية"- إنسانيات- العدد 20/19- 2003م- صص 33-44.

- "اليهود ودورهم بين الضفتين الشمالية والجنوبية"- مشترك- "في مرآة الذاكرة- مرسيليا -الجزائر- باريس- 2003م- صص 69-74.

- "الحرف والثروات بمدينة الجزائر"- مشترك- في مرآة الذاكرة- مرسيليا- الجزائر- باريس- 2003م- صص 59-68.

- "الوافدون "البرانية" على مدينة الجزائر 1787-1830م بين التهميش والإندماج"- المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية- العدد 25- 2002م- صص 167-180.
- "تأملات حول ممارسة الوقف بمدينة الجزائر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"- ندوة حول الوقف بالجزائر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر-آكس آن بروفانس- 2002م- تحت الطبع.

- المشاركة في الملتقيات الدولية:

- "طائفة رياس البحر مقاربة اقتصادية- اجتماعية من خلال وثائق غير منشورة"- الملتقى الدولي حول الجزائر والبحر- الجزائر- 1998م.
- "وثيقتان حول الريس الشهير حميدو"- ندوة حول الريس حميدو- الجزائر- 2000م.
- "مظاهر من الحياة اليومية لطائفة رياس البحر"- ندوة حول رياس البحر- الجزائر-2001م.
- "مدينة الجزائر: المؤسسات والتسيير إبان العهد العثماني"- الملتقى الدولي حول أضواء على مدينة الجزائر- الجزائر- 2002م.
- "أضواء جديدة حول الطائفة اليهودية بمدينة الجزائر من خلال وثائق المحاكم الشرعية"- المؤتمر العالمي حول دور الأقليات الاقتصادي والاجتماعي في العالم العثماني- مؤسسة التميمي- زغوان- 2002م.
- "الوثائق المحلية وأهميتها في كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي- مثال مدينة الجزائر إبان العهد العثماني"- مراكش- 2003م.
- "قراءة في ثلاث رحلات جزائرية إلى بلاد الحجاز في أواخر العهد العثماني- الملتقى الخليجي
- المغاربي الثاني- الرياض- 2006م.

- النشاط البيداغوجي: الوحدات المُدرّسة

- تاريخ الدولة العثمانية- 1984.
- تاريخ المغرب الحديث- 1992م.
- تاريخ الجزائر في العهد العثماني 1986-2002م.
- الدولة والمجتمع في الجزائر الحديثة والمعاصرة- 2002-2005م.

– المسألة الشرقية– 2007م.

*عرض وتقديم أطروحة ذكتوره الأستاذة عائشة غطاس بقلم الأستاذ حميد آيت حبوش (أستاذ وباحث بقسم التاريخ– جامعة أبي بكر بلقايد– تلمسان)

– عنوان الأطروحة: الحرف والحرفيين بمدينة الجزائر 1700 – 1830م: مقاربة اجتماعية– اقتصادية.

– المشرف: الأستاذ الدكتور مولاي بالحميسي.

– تاريخ المناقشة: تمت المناقشة سنة 2200م، وتُوجت بحصول الباحثة على شهادة الدكتوراه بدرجة مشرف جدا.

– محتويات الأطروحة: قسمت الباحثة موضوعها إلى أربعة أقسام:

– القسم الأول الموسوم بعنوان "مجتمع المدينة" وتطرقت فيه إلى الفضاء الذي كانت تعيش فيه شريحة الحرفين، ويضم هذا القسم ثلاثة فصول: تناولت في الفصل الأول منه "التركيبة السكانية"، وهذا لإعطاء صورة عن النسيج الاجتماعي، وتطرقت فيه إلى الحضر والعنصر التركي ومكوناته والكراغلة والدخلاء "العناصر الوافدة"، ثم انتقلت إلى الحديث عن أهل الذمة، وخصصت الشطر الثاني منه للتنظيم الاجتماعي الساري على العناصر الوافدة.

أما الفصل الثاني فقد خصصته للوضع الديموغرافي من خلال البحث في العوامل المؤثرة سلبا في حركة النمو الديموغرافي من مجاعات وأوبئة وزلازل.

وخصصت الفصل الثالث لمسألة طبيعة السلطة المحلية؛ فتعرضت إلى المؤسسات القائمة بالمدينة بشقها الديني والمدني وإلى آليات تسييرها.

أما القسم الثاني الموسوم بعنوان "ملامح التنظيم الحرفي" فقد اشتمل هو الآخر على ثلاثة فصول، خصصت الفصل الأول منه لإعطاء وصف عام طرحت من خلاله موضوع البنية الحرفية وبوجه خاص مشكل عدد الحرف الذي يعتبر إحدى المسائل الهامة التي تعكس أهمية البيئة الحرفية بالمدينة، وتعرضت إلى وراثية الحرفة، وفي نفس السياق تناولت الاختيارات الحرفية في الأسرة الواحدة.

وجاء الفصل الثاني متمما للأول إذ تناولت بالدراسة بنية التنظيمات الحرفية وعلاقاتها مع السلطة وأنواع الضرائب.

أما الفصل الثالث فتطرقت فيه إلى الفعاليات الاقتصادية حيث وصفت طبيعة النشاط الاقتصادي بالمدينة، وخصصت الفصل الأول منه لطبيعة التوزع الطوبوغرافي للأسواق من حيث نظام التخصص كما توقفت عند الأسواق والسويقات والفنادق والرحبات، وهي كلها مؤشرات تدل على طبيعة النشاط الاقتصادي بالمدينة.

وخصصت الفصل الثاني للصناعة والصناع حيث قدمت من خلاله ملامح الصناعة مثلما تبدو من خلال دفاتر المخلفات، كما بحثت في الشرائح التي ينتمي إليها الحرفيون (حضر، أتراك، برانية)، وأنهت الفصل بوقفة عند موضوع المرأة الحرفية.

أما القسم الرابع والأخير فيتضمن الحياة اليومية، ويبحث في الممارسات والسلوكيات الاجتماعية التي ميّزت شريحة الحرفيين، حيث خصصت الفصل الأول لدراسة الثروات ومستويات المعيشة، وتوقفت عند أوجه الممارسات اليومية من حيث توظيف الثروة في أثاث البيت والمفروشات والملابس والمصاغ والاستثمار في المجال العقاري.

وخصصت الفصل الثاني لأماكن الإقامة من حيث توزيع السكان عبر أحياء المدينة.

وعالجت في الفصل الأخير موضوع الحياة اليومية والممارسات الاجتماعية من خلال طرح موضوع المصاهرات كمظهر من مظاهر العلاقات الاجتماعية القائمة بالمدينة، ودور الحرفة في توجيهها، وأنهت هذا الفصل بتناول الصداق ومكوناته والاعتبارات التي حددته.

مقالات في التاريخ القديم

تلمسان وأحوازها في العصور القديمة

أ.د. صندوق ستي*.

مقدمة: ليس من السهل على الباحث التأريخ لمدينة جزائرية ما، والتطرق لفترة تاريخية بعينها والإلمام بجميع جوانبها، خاصة وإن عمد إلى طمس أو تغييب تلك الحقبة من تاريخها، سواء عن قصد أو غير قصد، وهو حال تلمسان وما جاورها من مواقع أثرية، إذ لا نحتكم إلا على إشارة أو اثنتين في المصادر اللاتينية، والتي لا تسمح برسم صورة واضحة عن ماضيها العتيق، لذا كان لزاما الاعتماد والارتكاز بصفة أساسية على المادة الأثرية واستنطاقها بكل موضوعية، فهي بالنسبة لنا عبارة عن وقائع تاريخية ثابتة ليست متغيرة ومتقلبة بحسب ميل الكاتب.

وإلى جانب مدينة تلمسان العائدة إلى الفترة الرومانية، وقع اختيارنا على أولاد ميمون التي ظهرت في نفس الفترة وموقع المويلح الراجع إلى فترة ما قبل التاريخ، وذلك لما كان لهما من تأثير سواء أكان سياسيا أو حضاريا، امتد إشعاعه إلى أبعد من حدودها.

تلمســـــان **Pomania**: كثيرا ما يصطدم الباحث أو الدارس لتاريخ تلمسان خلال فترة التاريخ القديم بقلة وضآلة المادة الأثرية، والتي لا تتناسب مع حجم الشهرة التي اكتسبتها في العصر الوسيط، ولا ريب أنّ جذورها تعود إلى أقدم من ذلك، حيث تضررت آثارها كثيرا جراء إقدام مولاي إدريس خلال بداية القرن العاشر الميلادي على بناء مدينته أغادير على أنقاضها؛ حيث بنى مسجدا فوق حمام المعسكر الروماني **Balneum castrorum**[1] ليأمر من بعده يغمراسن بن زيان خلال القرن الثالث عشر ميلادي ببناء مئذنة له[2]، يبلغ ارتفاعها ثلاثون مترا، ترتكز على قاعدة يقدر طولها بستة أمتار، مصنوعة من الحجارة المصقولة والنصب الجنائزية المقدر عددها بخمسة نصب[3]، والتي من المحتمل أنها جلبت من أسوار المدينة ومقبرتها، فكانت بذلك عبارة عن محجرة استغلت آثارها في تشييد مباني الحضارات الإسلامية التي تعاقبت عليها،

---

*- أستاذة مساعدة أ في التاريخ القديم- قسم التاريخ- جامعة معسكر.

ولا شك أنّ هذا الأمر قد استمر إلى غاية فترة ليست، بالبعيدة عن تاريخنا المعاصر، كما أنّ التوسع العمراني غير المدروس أتى على طمس والقضاء على ما كان ظاهرا من آثارها خلال نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

حظيت تلمسان بنصيب ومكانة متميزة تليق بمقامها الرفيع في الكتابات الجغرافية العربية الوسيطية، التي لم تتوان عن التذكير بجذورها التاريخية القديمة، فقد أشار إليها ابن حوقل خلال القرن الرابع الهجري بالعبارة التالية "مدينة أزلية"[4]، وورد عند البكري خلال القرن الخامس الهجري، ما يلي: "وهي مدينة مسورة في سفح جبل شجر الجوز،... وفيها آثار للأول قديمة، وبها بقية النصارى إلى وقتنا هذا، ولهم كنيسة معمورة، وكثيرا ما يوجد الركاز في تلك الآثار"[5]، وكتب الإدريسي عنها في القرن السادس الهجري قائلا: "...تلمسان مدينة أزلية، ولها سور حصين متقن الوثاقة..."[6]، كما أفاد صاحب الاستبصار بمايلي: "...وهي مدينة قديمة فيها آثار كثيرة أزلية تنبئ أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة، وهي في سفح جبل أكثر شجره الجوز"[7].

ولقد كانت المدينة محل زيارة الرحالة شاو **Shaw** خلال القرن الثامن عشر الميلادي[8]، حيث وقف على بعض آثارها الرومانية والإسلامية، ليعمد إلى زيارتها فيما بعد الأب برجاس **Barges** سنة1846م[9]، كما كانت محل معاينة كل من ماك كارثي **Mac Carthy**[10] الذي نشر مقالا عنها تحت عنوان "إفريقية الرومانية" بالمجلة الإفريقية، وجون كنال، **J.C anal**[11] الذي صدر له مقال عن تاريخها القديم بمجلة الجمعية الجغرافية الأثرية لمقاطعة وهران، أضف إلى هذا قيام السيد ديماط **Demaeght** بنشر النقوش الكتابية المكتشفة ضمن أعداد هذه الأخيرة[12]، وقد خضع موقعها للتنقيب مرتين، الأولى سنة 1954م على يد محافظ متحف تلمسان السيد جاني **Janier**، وظلت نتائجه مجهولة، والثانية عام 1976م، كان الهدف من ورائه إيجاد بقايا مسجد أغادير[13].

أمنت الطبيعة لمدينة تلمسان تحصينا طبيعيا، فهي تقع بسفوح الجبال الحاملة لاسمها، والتي تحميها من الرياح الجنوبية المحملة بالأتربة ورمال الصحراء الضارة بالزرع والإنسان على حد السواء، وتحدها من جهة الشمال بعض الهضاب القليلة الارتفاع

التي تسمح بوصول التيارات الباردة والدافئة القادمة من جهة البحر لتلطف جوها، ووادي مفروش من جهة أخرى، حيث كان يوفر الموارد المائية اللازمة للقيام بالنشاط الزراعي، قبل أن يجف بسبب إقامة السد[14].

وعليه فإنّ كل هذه الخصائص جعلت من سهول تلمسان أحد أخصب أراضي الجهة الغربية من الجزائر على مدار العصور، باعتبارها مصدر رخاء مملكة الماسيسيل النوميدية خلال عهد ملكها صفاقس، وفخر ملوك موريطانيا يوبا الثاني وابنه بطليموس[15]، كما جلبت هذه الميزات والبعد الاستراتيجي للمنطقة أنظار الاحتلال الروماني أثناء حملة التوسع في عمق أراضي موريطانيا القيصرية التي قادتها الأسرة السيفيرية خلال القرن الثالث الميلادي، فأسسوا بها حصنا عسكريا ثابتا **Castra Stativa** لحماية وحراسة الأراضي الزراعية التي استولوا عليها، ولصد هجمات القبائل المورية، أطلقوا عليه اسم بوماريا بمعنى البساتين أو الرياض، مما يوحي إلى أن المحتلين الرومان قد أعجبوا وتأثروا بخضرة المكان وبحدائقه الغناء وبساتين الزيتون والفواكه والخضر ومياهه الغزيرة[16]، وهي الصفات التي لا تزال تحتفظ بها تلمسان إلى يومنا هذا.

وقد قدم جون كنال J.Canal وصفا ورسما تخطيطيا لما كان عليه الحصن، حيث قدر أبعاده بحوالي 350 متر طولا و200 متر عرضا بمساحة تقدر بسبع هكتارات، أسواره من الحجارة المنحوتة رصّت بانتظام فوق بعضها البعض، إلا أنه للأسف لا يمكننا معرفة سمكه، وكان بالإمكان رؤية وتتبع أساساته التي تبعد بحوالي مائتي متر عن مئذنة المسجد، به ثلاثة عشر برجا، منها ثمانية أبراج بالجهة الشمالية، صفت في صفين بالتساوي، في حين تموضعت الأبراج الخمسة المتبقية بالجهة الشرقية، ولعل غيرها كان بالجهة الجنوبية والغربية للحصن لكنها اختفت مما يتعذر علينا معرفة عددها[17]، وقد خصصت فيه مرافق لخدمة الجند المقيمين به منها الحمامات التي أعيد ترميمها من قبل ككليوس جوفينوس Cecilius Jevinus[18] ومذبح أين عبد إله محلي يدعى أوليسوا **Aulisuas** من قبل جند فيلق خيالة الكشافين التلمسانيين Ala exploratorum Pomariensium[19]، وهي وحدة عسكرية مورية محلية، عرفت باسم الكشافين

التلمسانيين السيفيريين severiana pomariensium xploratorum خلال حكم الإمبراطور ألكسندر سيفيروس، لتنعت باسم الكشافين التلمسانيين الغورديين Exploratorum pomariensium gordiana أثناء فترة حكم الإمبراطور غورديانوس، يقدر عدد فرسانها بـ200 رجل، في حين يتراوح عدد المشاة ما بين 300 و400 رجل كلفت بحماية وحراسة المنطقة وما جاورها، بدليل العثور على نقيشة لها بحمام بوحنيفية Aquae Sirenses تعود إلى سنة 242م، وأخرى غير مؤرخة بعين الكيحل[20]، ومن المحتمل اشتراكها في العمليات العسكرية رفقة فرق أخرى كفيلق الساردين الثاني Cohors II Sardorum، ومن الممكن أن فيلق خيالة أوغسطوس البارتين الأول Ala I Augusta Parthorum[21] قد استقر فيها لفترة أو مرّ بها.

وبجانب هذا المعسكر، نشأ مجتمع مدني سرعان ما رقي إلى مصف بلدية رومانية، إذ كانت تلك هي وضعيتها خلال عهد الإمبراطور الكسندر سيفيروس Alexander Severus استنادا إلى معلم ميلي اكتشف بالمقبرة اليهودية للمدينة وردت فيه عبارة جمهورية Respulica[22] لتبلغ قمة ازدهارها خلال فترة حكم الإمبراطور غورديانوس الشاب، حيث بلغت مساحتها الإجمالية حسب ماك كارتي Mac Carthy حوالي ستة عشر هكتار[23].

لا نعرف من الآلهة المحلية المنتشرة بتلمسان، سوى الإله أوليسوا Aulisuas الذي ورد اسمه ضمن ثلاثة نقوش، وهذا دليل على أنّه كان محبوبا بين أوساط سكانها، لتشهد فيما بعد انتشار الديانة المسيحية، حيث شارك أسقفها كونجينوس Conginus بمجمع قرطاجة لسنة 484م حيث جاء ترتيبه في المرتبة الثالثة والأربعين، والذي دعا إليه الملك الوندالي هونريك Henéric[24]، وقد أظهرت النصب الجنائزية وجود مجتمع مسيحي بها وذلك إلى غاية فترة متأخرة، التي تغطي الفترة الممتدة بين القرن الخامس والسابع الميلاديين، منها خمسة نقوش تعود إلى النصف الثاني من القرن الخامس مؤرخة بسنوات 458م[25]-459م[26]- 469[27]- و471[28] في حين تعود تسعة نصب إلى القرن السادس الميلادي، وتحمل تواريخ وفاة أصحابها، وهي كالتالي سنة 505[29]- 517[30]-

520[31]ـ522[32] ثلاثة مؤرخة بسنة 550 [33]ـ 554 [35]ـ 557[36]، أما بخصوص النصب العائدة إلى القرن السابع الميلادي فتقدر بواحدة فقط مؤرخة بسنة651م[37]، مما يدعو إلى الاعتقاد أنّ المدينة كانت عامرة عندما حل بها المسلمون الفاتحون.

ربطت سلطات الاحتلال الروماني تلمسان بخمسة طرق، حيث يصلها الأول بأولاد ميمون **Altava**[38]، الثاني بمغنية Nomerus Syrorum، اعتمادا على معلم ميلي يعود إلى عهد ألكسندر سيفيروس، اكتشف بهذه الأخيرة سنة 1845م، يوضح بداية طريق مزدوج[39]، الثالث بتاكمبريت Siga ومصب وادي تافنة مرورا بوادي يسر وسهلي الرمشي والحناية، ويمتد حسب ماسيارا Masiéra على مسافة أربعة وثلاثين ميلا، أنجز خلال فترة حكم الوالي فلافيوس كليمانس Flavius Clemens[40] والرابع بعين تموشنت Albulae مرورا بسيدي يوسف، والخامس بسيدي العبدلي Tepidae[41]، وتتمثل مجمل المخلفات الأثرية التي عثر عليها خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية للجزائر في النقوش الكتابية المقدر عددها بستة وستين نقيشة والحجارة المنحوتة، وغمد من البرونز مزين بثلاثة رؤوس[42].

ألتافا Altava: تبعد أثار أولاد ميمون بنحو خمس وعشرين كيلومترا شرق مدينة تلمسان، وتقع بسهل خصب عند سفح جبل يسر على الضفة الشرقية لوادي يسر، تمتد آثارها على شكل شبه مربع، تقدر أبعاده حسب ماك كارتي بـ370 متر على 317 متر، أي ما يعادل اثني عشر هكتارا، في حين قدر لوتيلو Lethielleux أبعاده بـ430 متر على 330 متر[43]، زاره ماك كارتي Mac Carthy سنة 1849م، ونشر ملاحظاته ضمن مقال صدر بـ"المجلة الإفريقية"، تحت عنوان "إفريقية الرومانية"، ولم يكتف ديماط Demaeght، بتقديم قراءة جديدة لما ذكره هذا الأخير فقط، بل أثرى دراسته بالنقوش التي عثر عليها، والتي ذكر بعضا منها ضمن دراسته الخاصة بمواقع غرب موريطانيا القيصرية[44].

كما قام كل من كورتو Courtot وبوتيي Pouthier ببعض الحفريات بالموقع، حيث أنجز الثاني دراسة بعنوان "التطور الإداري لألتافا خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين"[45]، وقد نبه محمد البشير شنيتي إلى مكانتها على ليمس القرن الثالث الميلادي خلال العهد السيفيري[46].

أقام الرومان على طول الطريق الحدودي مجموعة من المراكز العسكرية من بينها معسكر أولاد ميمون، الذي عسكر به فيلق الساردين الثاني Cohors II Sardorum القادم من سور الجواب Rapidum[47]، ولعل وحدات أخرى قد التحقت بهذا المعسكر لحماية المصالح الرومانية بالمنطقة، كتلك التي تنتمي لفيلق خيالة أغسطس التراقيين الثاني Ala II AugustaTharacum، وفيلق خيالة أغسطس البارتيين الأول Ala I Augusta Parthorum وفيلق خيالة مليارا Ala Miliaria [48]، ولقد ظهر تجمع مدني بجوار المعسكر، إلا أن المدينة بقيت أجنبية[49]Peregrinorum Oppidum حيث لم ترقى إلى درجة بلدية رومانية، ولا يسعنا للأسف تقديم أدلة شافية حول العلاقة القائمة بين المعسكر والمدينة، وفي هذا السياق يذكر محمد البشير شنيتي أن "معسكرات الجيش الروماني تتصف بالحركية والسعي لإقامة مجتمع زراعي بقربها قوامه الجنود المسرحون وعائلاتهم و المنجذبون نحوهم من أهل البلاد الراغبين في العمل ثم الإقامة في شكل أحياء هامشية ما تلبث أن تصبح مدنا"[50]، فلا ريب أن معسكر أولاد ميمون قد مرّ بهذه المراحل، حتى أصبح مدينة مزدهرة نظرا لموقعه الاستراتيجي الذي يؤهله لحراسة الأراضي الزراعية، والمساهمة بفضل وجوده عند وادي يسر في مراقبة الطريق الوحيد المؤدي إلى سبلو والعريشة وكذلك القوافل التجارية[51].

مرّ الو ندال بالمدينة وهم في طريقهم نحو الشرق، والدليل على ذلك العثور على شاهد قبر درجة حفظه سيئة، لرجل تعرّض إلى طعنة سيف قاتلة على يد الجند البرابرة الوندال خلال النصف الثاني من شهر أوت لسنة 429م[52]، إلا أنهم لم يحكموا المنطقة التي ظلت خارج سيطرتهم.

خلال فترة الاحتلال البيزنطي للمنطقة عرفت المدينة شهرة كبيرة، حيث سمى المؤرخون مملكة مورية باسمها، وهي مملكة ألتافا استنادا إلى نص نقيشة اكتشفت بها مؤرخة بسنة 508م، محفوظة بالمتحف الوطني أحمد زبانة لمدينة وهران[53]، فلولاها لبقيت مجهولة، إذ لا ذكر لهذه المملكة ولا لحكامها في المصادر الأدبية التي أرخت لتلك الفترة، هذا نصها:

Pro salute et incolunitate regis masunae gentium Mauroum etRomanorum.Castrum edificatum a Masgivini, prefecto de safar ider

,procuratorae castra severiena, quem Masuna Altava posuitet Maximus procurator Altavae perficiti, peficti, provinciae anno cccc L VIIII.

وهذه ترجمتها: "من أجل صحة ودوام مازونا ملك شعب المور والرومان بنيت هذه القلعة على يد ماسغفين حاكم سافار وإيدير وكيل قلعة سيفريانا الذي أمر مازونا بإنزاله بألتافا، وأنهى البناء ماكسيموس حاكم ألتافا سنة 469 بتاريخ المقاطعة".

يمكننا من نص النقيشة، استخلاص جملة من الحقائق التاريخية بخصوص امتدادها الجغرافي والزمني وطبيعة النظام السياسي والنسيج السكاني للمملكة.

1- ظهرت بغرب موريطانيا القيصرية، في وقت كانت فيه المنطقة خارج نفوذ سلطة الاحتلال البيزنطي، حيث ضمت مدنا كعين تموشنت (Safar-Albulae، سيدي علي بن يوب Castra Severrianna-Kaputtasaccura وأولاد ميمون Altava، لذا يعتقد أنها بلغت المناطق الساحلية شمالا والسلسلة الجبلية من الأطلس التلي جنوبا، وامتدت إلى غاية الحدود الفاصلة بين موريطانيا القيصرية والطنجية غربا وجبال الظهرة شرقا[54].

2- استنادا إلى تاريخ النقيشة العائد إلى مطلع القرن السادس الميلادي فإن إطارها الزمني لا يمكن أن يكون بعيدا عن منتصف القرن الخامس الميلادي، ولا ريب أنها استمرت في الوجود إلى غاية القرن السابع الميلادي.

3- بلوغ الملك مازونا مكانة متميزة ورفيعة تقارب مكانة الأباطرة الرومان، وذلك ما يتضح من العبارة التي استهلت بها النقيشة، وهي "من أجل صحة ودوام الملك"، والتي كانت حكرا عليهم، وأخذه بالنظم الإدارية الرومانية في تسيير شؤون المملكة، كما هو الحال بالنسبة لماسغيفين الذي كان حاكما لعين تموشنت وإيدير الذي شغل منصب وكيل قلعة سيدي علي بن يوب.

4- حوت المملكة مزيجا من المور والمرومنين المتعايشين جنبا إلى جنب تحت كنف مازونا الموري دون تمييز[55].

يتضح الانتشار الكبير للمسيحية بأولاد ميمون من خلال العدد الكبير للنصب الجنائزية المحفوظة بالمتحف الوطني أحمد زبانة وعددها اثنان وتسعون نصبا، يعود تاريخها للفترة الممتدة بين القرن الرابع ونهاية القرن السادس الميلادي، نذكر من

بينها نقشا للأسقف أوليوس ماكسيموس Ulpius Maximus الذي توفي في 19 أوت من سنة 529م[51]، كما درج اسم أحد أساقفتها وهو أفوس Avus ضمن قائمة الأساقفة المشاركين بمجمع قرطاجة لسنة 484م[56].

وقد تم وصل أولاد ميمون بمدن المنطقة بواسطة أربعة طرق، حيث يتجه الأول نحو تلمسان، ويصلها الثاني بسيدي علي بن يوب، ويربطها الثالث بعين تموشنت مرورا بسيدي العبدلي Tepidae وينطلق الرابع نحو سيق Tasaccura[57]، وتتمثل المخلفات الأثرية للمدينة في أواني فخارية كالصحون والمزهريات إلى جانب المصابيح، والنقوش التي يبلغ عددها مئة وتسعة وخمسين نقيشة أغلبها عبارة عن نصب جنائزية ما بين وثنية ومسيحية، إضافة إلى بعض المعالم الميلية والنصب التذكارية[58].

المويلح: تقع ملاجئ تحت الصخر المعروفة باسم ملاجئ المويلح، على بعد خمسة كيلومترات شمالا من مدينة مغنية، على الطريق الرابط بين هذه الأخيرة وندرومة، وهي على شكل منحدر صخري، يحوي المخابئ المتجهة بطريقة تكون فيها محمية من الرياح الشمالية الغربية السائدة بالمنطقة، قريبة من الوادي الحاملة لاسمه، الذي كان يوفر إلى جانب الغابات التي تكسو جبال المنطقة مجالات جيدة لصيد الأسماك والحيوانات، وهي الركيزة الأساسية لعيش إنسان تلك الفترة، أضف إلى ذلك، أنها لا تبعد عن ينابيع المياه الحارة لحمام شيقر سوى بمائتي متر فقط[59]، ويعتبر بول بالاري Pallary أول من اكتشف الموقع، وكان ذلك سنة 1899م، أثناء جولة قادته إلى منطقة تلمسان، حيث عثر على أدوات حجرية تمثلت في النصال، وبنى نظريته على أساس أن أصحاب هذه الحضارة الحجرية أقوام قدمت من شبه الجزيرة الإيبرية عبر مضيق جبل طارق، فأطلق عليها خطأ اسم الحضارة الإيبيرومغربية [60]، حيث أثبتت الحفريات التي أجريت بالموقع على أنها حضارة محلية أصيلة ببلاد المغرب القديم، ولا علاقة لها بحضارات شبه الجزيرة الإيبرية، وتعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى Epipaléolithique، ورغم محاولات الباحثين الحثيثة لتصحيح الأمر عن طريق اعتماد تسميات أخرى كالحضارة الوهرانية أو المويلحية، والذي نميل إليه نحن بدورنا إلا أن الاسم الذي أطلقه بول بالاري ظل لصيقا بها، وهو الذي تتبناه المدرسة الفرنسية[61].

تنتشر أغلب مواقع الحضارة المويلحية، على غرار موقعها النموذجي بالمناطق الساحلية كجزيرة رشقون بعين تموشنت والأندلسيات وكريشتل والعنصر بوهران، وكس ومغارة راسل بتبازة وأفلوبورمل ببجاية، كما نسجل بلوغها الأطلس الصحراوي، حيث وجدت بقاياها بموقع سيدي الحسني بتيارت، الهامل ببوسعادة والحويطة بالأغواط[62].

خضع الموقع للتنقيب مرتين، من قبل أوغست باريان Auguste Barbin، بعد أن طلب منه بول بالاري P.Pallary ذلك، ووفر له سيتيفان غزال S.Gsell الدعم المالي اللازم، بصفته مديرا للمتاحف الجزائرية آنذاك، حيث أشرف على تنقيبه على مدار تسعة وعشرين يوما من سنة 1908م، ونقلت مكتشفاته الأثرية إلى متحف الباردو بالجزائر، في حين حولت المستحثات الحيوانية إلى مخبر الجيولوجيا التابع للمدرسة العليا للعلوم، ليستأنف العمل به من جديد شهر أوت من سنة 1910م، ونشرت نتائجهما ضمن مقالتين بمجلة الجمعية الجغرافية والأثرية لمقاطعة وهران سنتي 1910 و1912 على التوالي[63].

أسفرت هذه الحفريات عن العثور على جملة من الأدوات الحجرية والعظمية والحلي والبقايا الحيوانية والآدمية، التي تمكننا من رسم صورة لمعيشة إنسان تلك الفترة بالمغارات؛ وتتكون معظم الأدوات الحجرية من النصال والنصيلات ذات الحافة المهذبة، المصنوعة من حجر السلكس والكوارتز، وهي قزمية الشكل حيث يتراوح طولها بين ثلاثة وسبعة سنتمترات، وتتميز بنهاية حادة، وظهر إما يكون مستقيما أو مقوسا، في حين تكون قاعدتها دائرية أو مبتورة بحيث تستخدم كمقبض، ولم تكن هذه النصال مجرد أدوات فقط، بل استخدمت كأسلحة وذلك بعد تثبيتها على ساق خشبي أو عظمي، كما عثر بجانبها وبنسب أقل على المكاشط والأسطوانات والشظايا والحصى[64]، وإلى جانب الحجارة استخدم إنسان المويلح العظم كمادة أولية لصنع أدواته المتمثلة بصفة أساسية في المخارز والمثاقب والنصال المسننة، والتي يتم تعريضها للنار قبل استعمالها حتى تكتسب المتانة والصلابة[65].

رغم انشغاله بالبحث الدائم عن الطعام والصيد وصنع الأدوات، إلا أن إنسان المويلح خصّص وقتا للاعتناء بنفسه وتزيين مظهره لكي يبدو في أحسن صورة بين أقرانه، ويلاحظ هذا من خلال لبسه للحلي، مستخدما في ذلك ما جادت به الطبيعة من رخويات وقواقع بحرية مثقوبة، بهدف صنع العقود والقلائد، كما كان يقوم في بعض الأحيان بإحداث ثقوب بالقواقع التي لا تتوفر بها، إضافة إلى استعماله لأضراس وأسنان الحيوانات كلآلئ ودرر والودع والحجارة الجميلة، حيث عثر على نوط مصنوع من حجارة كلسية سوداء، وممارسته لعادة الوشم والرقش، وصبغ الأجسام بالمغرة الحمراء والصفراء والمنغنيز ليكسب لونا معدنيا وحديد أوليجست من أجل الحصول على لون بني-أحمر[66].

ويظهر بوضوح أن إنسان المويلح المنتمي إلى جنس إنسان مشتى العربي، قد مارس طقوسا جنائزية، إذ كان يحترم موتاه وذلك بدفنهم بمقربة منه داخل الملاجئ التي يعيش بها، حيث عثر على بقايا هياكل عظيمة في وضعية ممددة فوق طبقة من الرماد والرخويات، والتي تبدو أنها كانت ساخنة وقت وضع الجثة عليها وتمت تغطيتها بنفس الطبقة، ويكون الرأس موجها إلى الغرب في حين تكون الأرجل باتجاه الشرق[67].

الهوامش:

1- Lethielleux, Les sites romains de L'Oranie, Manuscrit, 1982, p.321

2-Barges (J.J.L),Telemcen, souvenir d'un voyage ,Duppart, B.I.challamel,1859. محمد البشير شنيق، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، بحث في منظومة التحكم العسكري(الليمس الموريطاني)ومقاومة المور،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر 1995،ص256.

3- Canal(J), « Pomaria,Telemcen sous la domination romaine », B.S.G.A.O.,1888,PP.283-284.

4- ابن حوقل ، صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،ص88

5- البكري، المسالك و الممالك،ج2، تحقيق د. جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت،2003،ص259

6- الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تحقيق مجموعة مؤلفين، مكتبة الثقافة الدينية، 1994،ص248

7- مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر و تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء،1985،ص176

8- Shaw, Voyage dans la régence d'Alger, Traduit par J. Mac Carthy, 2ed, Bouslama, Tunis, 1980, pp.242-243.

9- Barges(J.J.L), Op.cit.,p.06

10- MacCarthy, « Algéria romana », R.Afr. 1865, pp.88-113 ; pp.165-180 ; pp.346-369.

11- Canal(J), Op.cit., pp.264-324.

12- Demaeght(L), « Inscriptions inédites de la province d'Oran » ,B.S.G.A.O. ,1887,p.240 ;id., « Inscriptions inédites de la Maurétanie Césarienne » ,B.S.G.A.O.,1888,p.90 ;pp.299-300 ;B.S.G.A.O.,1890,p.99 ;B.S.G.A.O.,1891,p.269.

13- Lethielleux, Op.cit., p.231.

14- Ibid., p.231.

15- محمد البشير شنيتي ،المرجع السابق، ص.232

16- Bargès(J.J.L),Op.cit.,p.162;Canal(J), Op.cit.,p.272.
17- Canal(J), Op.cit., pp320-323; Lethielleux, Op.cit., p.321.
18- Cagnat®,Schmidt(J)et Desseau(H), Inscriptionum Mauritaniae Latinarum,Supplementum,VIII.(=C.I.L.VIII),Berlin, 1904,n°9908.
19- C.I.L.VIII,n°9907;n°21704;n°9906.
20- C.I.L.VIII,n°21704 ;n°9906.
21-C.I.L.VIII,n°21704 ;n°21779 ;Benseddik(N),Les troupes auxiliaires de l'armée romaine en Maurétanie Césarienne sous le haut-empire, Alger,S.N.E.D.,1979,p.39.
22- Canal(J), Op.cit., p.279 ; C.I.L.VIII, n°10465.
23- Mac Carthy, Op.cit. p.94.
24-Victor deVéta, Registre des provinces et des cités d'Afrique, Les belles lettres, Paris, 2002, IV, 43 ;Sachebant(X),« Un saint évêque de Tlemcen au V siècle, Longinus de Pomaria martyr » ,B.S.G.A.O.,1886,p.43 ;pp.73-74.
25- Demaeght(L), Inscriptions inédites de la Maurétanie Césarienne, p.90 ; C.I.L.VIII, n°21792.
26- Canal(J), Op.cit., p.286 ; C.I.L.VIII, n°21782.
27- C.I.L.VIII, n°9911.
28- C.I.L.VIII, n°9956.
29- C.I.L.VIII, n°9
30- Canal(J), Op.cit., p.287.
31- C.I.L.VIII, n°9944.
32- C.I.L.VIII,n°9940.
33-Canal(J), Op.cit., p.289 ; Bel(A), «Inscription de l'Oued Methlana», B.S.G.A.O, 1903, p.139-140 ; Lethielleux, Op.cit., p.321.
34- Lethielleux, Op.cit., p321.
35- Bel(A),Op.cit.,p.140.
36- Gsell(S), Atlas archéologique de l'Algérie, Alger, 1911, F31n°56;C.I.L.VIII, n°9935.
37- Gsell(S), Op.cit. F31n°56.
38- Mac Carthy, Op.cit. p.93.
39- Masseria(P), « La voie romaine de Pomaria à Siga », B.S.G.A.O., 1947, pp.127-128.
40- Gsell(S), Op.cit. F31n°56; Lethielleux, Op.cit. p.231.
41-Gsell(s),Op.cit.,F31n°56;Cardaillac(F), « Atravers l'Afrique romaine », B.S.G.A.O., 1891, p.123-fign°5et6.
42- Mac Carthy, Op.cit. p.97.
43-Ibid., pp.165-180;Demaeght(L), Géographie de la Maurétanie Césarienne correspondant à la province d'Oran, Oran, 1888, pp64-65.
44-Leglay(M), « L'archéologie algérienne en 1954 »,Libyca.ar.ep.,3.1955,p.185 ;Pouthier(M.P), «Evolution municipale d'Altava aux III et Siècles apr.j.ch » ,M.E.F.R.,1956,pp.208-231.

45- محمد البشير شنيتي، المرجع السابق، ص.234

46- Courtot(P), « Essai historique sur Altava d'après l'épigraphie », B.S.G.A.O., 1936, p.409.
47- Benseddik(N),Op.cit.,p.40 ;p.46 ;p.61.
48-Lepelley(C.L),Les cites de l'Afrique romaine au bas-empire ,II, Etudes augustiniennes,Paris,1997,p.527 ;Courtot(P), « Altava »,EB ,IV,1997,p.544.

49- محمد البشير شنيتي، المرجع السابق،ص.233

50- صندوق سي، دراسة تميطية للمصابيح المحفوظة بالمتحف الوطني أحمد زبانة، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2005-2006، ص44

51- Courtot(P), « Une nécropole romaine d'Altava », B.S.G.A.O., 1934, p.358.
52-Demaeght(L), Catalogue raisonnée du musée d'Oran, I, Oran, 1884, p.114 ; C.I.L.VIII, n°9835.
53-Camps(G), « Recherches sur les royaumes berbères du VI et VII » ,Ant.Afr.,20,1984,p.189.
54-Février(P.A), Approches du Maghreb romain, II, Edisud, Aix-en-Provence, 1990, pp.144-145.
55-Courtot(P), Altava, p.550.
56-Toulotte, L'Algérie chrétienne, évêchés et ruines antiques, Ernest Leroux, Paris, 1912, p.481.

57- صندوق سي، المرجع السابق،ص.45

58-Demaeght(L), « Nouvelles découvertes archéologique à Altava » , B.S.G.A.O., 1887, p.285 ;Courtot(P), « Une nécropole d'Altava »,B.S.G.A.O.,1936pp.9-10 ;Leglay(M), « Chronique archéologique », R.Afr.,100,1955,p.214 ;id., « L'archéologie algérienne1953 »,Libyca.ar.ep.,2,1954,p.274.
59-Barbin(A), Fouilles des abris préhistorique de la Mouillah près de Marnia(Deuxième campagne) B.S.G.A.O., 1912, p.389.
60-Aumassip(G), L'Algérie des premiers hommes, Maison des sciences de l'homme, Paris, 2001, p.67.
61- محمد الصغير غانم، مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم، دار الهدى، الجزائر، 2003، ص.82-83
62-Saouidi(N.E), Les temps préhistoriques en Algérie, Editions Daliman, 2002;p.66-67.
63-Barbin(A), « Fouilles des abris préhistorique de la Mouillah», B.S.G.A.O., 1910, pp.77-90; id, Fouilles des abris préhistorique de la Mouillah(Deuxième campagne), pp.389-402.
64-Barbin(A), Fouilles préhistorique des abris de la Mouillah, pp.392-393.
65-Ibid., p.395.
66-Saouidi(N.E), Op.cit., p67.
67-Barbin(A), Fouilles des abris préhistorique de la Mouillah(Deuxieme campagne,p.396.
68- ك.ابراهيمي،تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر، ترجمة محمد البشير شنيتي ورشيد بوروية،الطباعة الشعبية للجيش،الجزائر،2007، ص77
69-Barbin(A), Fouilles des abris préhistorique(Deuxième campagne), p.399.

Canal(J) , « Pomaria,télemcen »,B
S.G.A.O. 1889
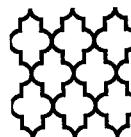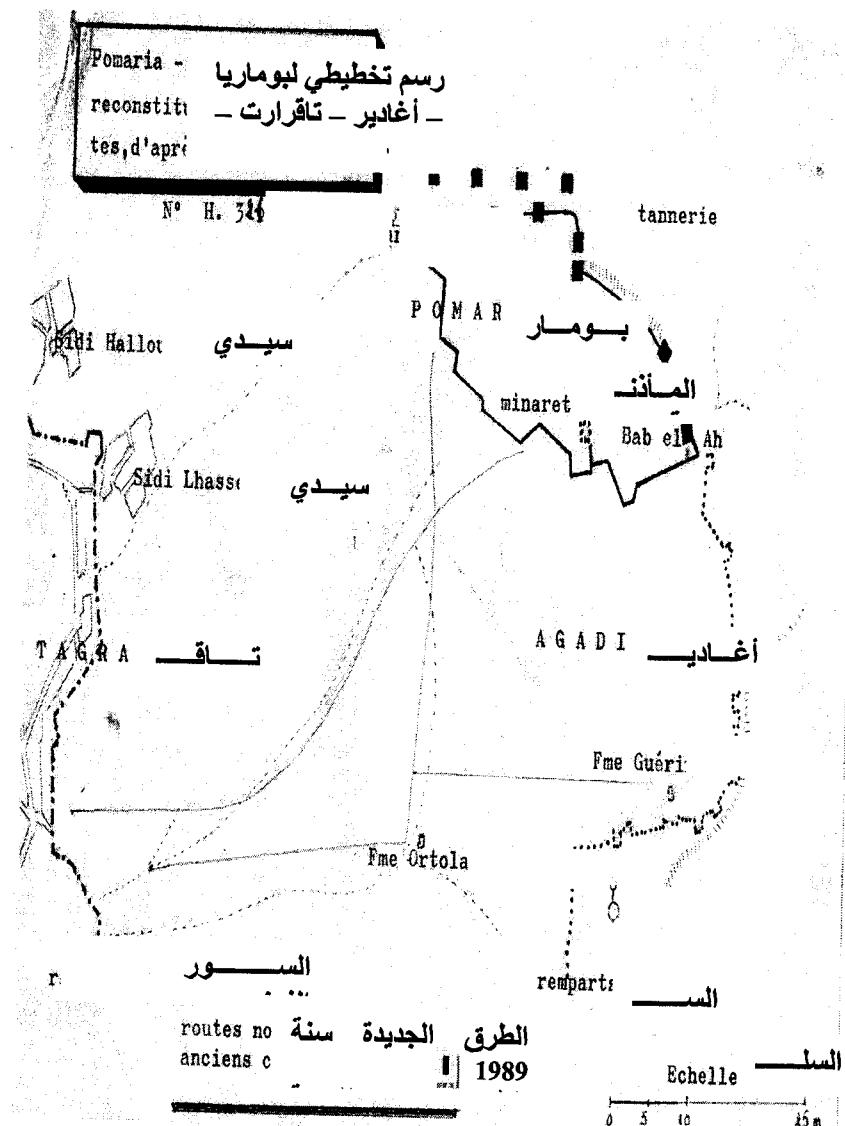
مقالات في التاريخ الوسيط

تطوّر العلاقات بين تلمسان وغرناطة في العصر الوسيط

أ. د عبد الحميد حاجيات*.

لا شك أن أقطار العدوتَيْن، بلاد المغرب جنوبًا والأندلس شمالاً، عرفت تبادُلا حضاريا هامًّا عبر العصور، وخاصّة خلال العصر الوسيط. ورغم أن كُلاًّ من هذه الأقطار كان يَمْتاز بخصائص تُضْفِي على حضارته طابعًا لا يخلو من عناصر أصيلة، فإن هذه البلدان كُلّها قد تأثّرت تأثُّرا عميقا بالحضارة العربية الإسلامية، مما أدّى إلى قيام علاقات وطيدة بينها، وسَهَّل الاتصالات بين أهاليها في شتى المجالات، من سياسية واقتصادية وثقافية وفنية.

وفي هذا الصدد يمكن القول بأنّ مدينة تلمسان، عاصمة دولة بني زيان، كانت لَها صلات وثيقة ببلاد الأندلس، ولاسيَما بمدينة غرْناطَة، عاصمة بني نَصْر، وأنه قد حصل بين الجانبَيْن تأثّرٌ مُتبادَل، وأخْذ وعَطاءٌ مُتواصِل، ممّا ساهم في إثراء حضارة القُطرَيْن مُدَّة قُرون عديدة. وغرضنا في هذا الحديث الوجيز أن نستعرض نَماذج من هذه العلاقات، مُركِّزينَ على الجانب الحضاري والثقافي، الذي يلفت اهْتمامَنا بشكل خاصّ.

والجدير بالملاحظة أنّ هُناك عَوامل لَعِبَتْ دَوْرًا رئيسيـــًّا في خلق شروط الاسْتعداد للتّواصُل والتقارُب، أهَمُّها أنَّ هاذَيْن القطرَيْن نَهلا من مَعين ثقافي واحد، نابِع من حضاراتِ حَوْض البحر المتوسِّط منذ أقدم العصور. فكلاهُما تأثر بالإشعاعات الفكرية والعلمية والفنية، والنُّظُم السِّياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أنتجتها شُعوبُ الْمِنطقة خِلال العصر القديم[1].

ولم يَكُن انتشارُ الإسلام في المنطقة عاملَ انْفصالٍ وتَوَقُّف في المجال الحضاري، بل كان عاملَ تَواصُل وتَفتُّح، وحِوارٍ مُثْمِر بين شعوب العدوتَيْن. فكانت العلوم الإنسانية والاجتماعية والطبيعية والفنون، عند هذه الشعوب، امتدادًا لِما أَنْتجه الْمِصْريّون والبابِلِيُّون والآشوريُّون

---

*- أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان.

والفنيقيُّون واليونان وغيرهم[2]. وكانت الحضارة العربية الإسلامية، خلال العصر الوسيط كُلِّه، عبارَة عن حَصيلة ما وصل إليه العقل الإنساني في ذلك العهد[3]. كما أن الْمَراكز الثقافية الكبرى في العدوتَيْن، بِمُدُن تونس وبجاية وتلمسان وفاس ومراكش وقرطبة وإشبيلية وغرناطة وغيرها، كانت يَنابيع حضارية نَهَلَ منها العلماء والأدباء والفنّانون من مختَلَف الأنحاء[4].

في هذا الجوّ الْمُتَّسِم برُوح الترابُط الثّريّ والاتصال الْمُثْمِر، تَبَلْوَرَت العلاقات بين المغرب الأوسط وبلاد الأندلس، وتَمَحْوَرَتْ، في مرحلة أولى، حول التبادل التجاري بشكل خاصّ. ثم ازدادت قوةً ابتداءً من عهد الْمُرَابطين، حيث إنَّ كِلا القطرَيْن أصبحا تابعَيْن لدولة واحدة، لأول مرة في التاريخ، فتزايد حَجْم التبادل الاقتصادي والحضاري بينهما، وتأثر الفنُّ الْمِعْمارِيّ الْمَغاربي بالفن الأندلسي، كما يشهد على ذلك الجامع الكبير بتلمسان، بينما أخذ العلماء والأدباء يزدادون اتصالا بعضُهم بعضًا، وساهمت الرحلات العلمية في تَطوُّر الحياة الفكرية بالعَدْوَتَيْن[5].

وقد حَفِظت لنا الْمَصادر والآثار أخبارَ كثيرٍ من رجال الدين والعلم والفن الذين قدمُوا من الأندلس إلى تلمسان، وساهَموا في دفع التطور الحضاري بِها، خلال هذه الفترة، مثل ابن غَزْلون[6] الذي نزل تلمسان في عهد الْمُرابطين ونَشَرَ العلم بِها، وتوفي بها سنة 524 هـ/ 1130 م، ومثل الولي الصالح أبي مَدْيَن بن الحسين الإشبيلي[7] الذي ذاعَ صِيْتُهُ في مختلف أنحاء المغرب الإسلامي، أيام يعقوب المنصور الْمُوَحِّدِيّ، وتوفي قرب تلمسان سنة 594 هـ/ 1197 م، فدُفِنَ في رابطة العُبّاد، خارج المدينة شرقـًا، وكان ضريحُه محلَّ احترامِ الزائرين الوافدين إليه من سائر أنحاء المغرب العربي. ولأبي مَدْيَن شُعَيْب أشْعارٌ وحِكَمٌ كان لها أثرٌ هامٌ في انتشار التصوُّف بين أهالِي المنطقة، وعِنايَتِهم بالشعر الصُّوفِيّ الأندلسي وبتآليف كبار الصُّوفِيَّة. ومن علماء الأندلس الذين نزلوا مدينة تلمسان، آنذاك، واستقرُّوا بها، أبو بكر بن سَعادَة الإشْبيلي[8]، الذي تخرّج على يده كثيرٌ من علمائها في الحديث وغيره من العلوم الدينية، وتوفي بها سنة 600 هـ/ 1203 م. ولا يفوتنا، في هذا الصدد، أن نذكر الولي الصالح أبا عبد الله الحلوي الإشبيلي[9]، الذي عاصر أواخرَ عهد الموحدين، وساهم أيضا في نشر التصوف بتلمسان، في شكله الشعبي المتمثل في نزعة الزهد والخلوة، ودُفِنَ بها خارج باب علي، فكان قبرُه محلّ إقْبال الزائرين.

والجدير بالملاحظة أن تلمسان كانت، خلال هذه الفترة، تَمْتاز بنشاط ملحوظ في المجال الاقتصادي، نظرًا لأهَمِّيَّة صناعتها التقليدية، من نسيج وحِياكةٍ وطَرْز وغير ذلك، التي كانت لها شهرة في العديد من الأقطار، ولِمُنْتَجاتها الزراعية الوافرة، ولموقعها الهامّ في مُلتقَى الطرق التجارية، مما جعلها مركزًا رئيسيًا للتجارة الرابطة بين بلاد السودان جنوبًا وأوربًّا الغربية شمالا، من جهة، وبين الشرق والغرب، من جهة أخرى. وقد نتج عن ذلك ازدهارُ تلمسان في سائر المجالات، وتطَلُّعُها الحثيث للتعامل مع الأسواق الخارجية، وأقربُها بلادُ الأندلس[10].

غير أن صِلات تلمسان بالأندلس لم تبْلُغ أوْجَها إلا عندما تأسّست الدولة الزيانية سنة 633 هـ/ 1235 م. فكانت العلاقات قائمة، بالدرجة الأولى، مع غرناطة في عهد ملوك بني نصر. وقد تظافرت العوامل لتوطيد هذه العلاقات بين تلمسان وغرناطة، وإرسائها على أسُسٍ مَتِينَة، إذ أن هناك تشابُهًا كبيرًا بين المدينتيْن، من حيث موقعهما الجغرافي ومناخهما، وكونهما عاصمتين للدولتين تَمَّ ازدهارهما في نفس الفترة، ولعبتا دورًا هامًا في تاريخ المنطقة خلال مرحلة حاسمة تزامنت مع بداية عصر النهضة في أوربا الغربية وازدهار الحياة الثقافية في أقطار المغرب. ثم إن الْمُنافسة الطويلة الْمَدَى التي قامت بين دُوَل المغرب الثلاث، الحفصية والزيانية والمرينية، وتَطَلُّع الْمَرِينيين خاصة إلى توسيع نفوذهم وسلطتهم عبر سائر أقطار المغرب الإسلامي، كان لهما أثر ملحوظ في تقارُبِ ملوك تلمسان وغرناطة في المجال السياسي، وتحالُفهم في مُناسبات عديدة، وارْتباطِهم الوثيق في سائر المجالات. ومِمّا دَعّم هذا التقارُب أنَّ كلْتا الدولتيْن عَرَفتا تقلبات سياسية كثيرة، واستُهْدِفتا لأخطار عديدة، فكانت العلاقات بينهما تَخْدُمُ مصلحتَهما، وتمتاز دائمًا بطابع التحالف والتضامن والتعاون الْمُستَمِرّ من الجانِبَيْن[11].

وهكذا، انتعشت الحياة الثقافية والفنية، وازدهرت تحت ظلّ التعامل الودّيّ بين بَلاطَيْ غرناطة وتلمسان. ومما دعّم هذا الازدهار بتلمسان هجرات الأندلُسِيِّين الْمُتتالية، خلال هذه الفترة كلها، ووفود الكثير من العلماء والكتّاب والتجّار والصنّاع عليها، واستقرارهم بِها، ومساهمة الكثير منهم في تشييد مَبانِي الدولة الزيانية، وإثراء تراثها المِعْماري والفني، وإنْماء نشاطاتها الاقتصادية. ولا شك أن بَلاط ملوك الدولة الزيانية ازدان بإقبال العديد من الأنْدَلُسِيِّين عليه، فأكرَمُوا مَثْوَاهم، وأسندوا إليهم وظائف هامّة. فكان عهدُ أبي تاشفين الأول من أزهى

عهود الإنجازات العُمْرانية، وتَمَّ خلاله تشييدُ أفخم قصور تلمسان، مثل قصر أبي فهر، ودار السرور، ودار الْمُلك، وتأسيس المدرسة التاشفينية. وقد أشارَ يحيى ابن خلدون إلى إنجازات أبي تاشفين الأول، قائلاً: " فخَلَّدَ آثـارًا لم تكن قبله لِمَلِك، ولا عُرِف لَها بِمَشارق الأرض ومغارِبها نظير "[12]. وذكر أنه استَعْمَلَ في إنجاز هذه الأعمال آلافـًا عديدة من فَعَلة الروم، أي الأسبان، " من نجّارين وبنّائين وزَلِّيجيين وزوّاقين وغير ذلك، مع حَذْقِه رحمه الله بالاختراع، وبصره في التشكيل والابتداع "[13].

وكان لِملوك بني زيان مؤسسة " دار الصَّنَعَة " التابعة للدولة، لإنتاج الأسلحة والعتاد الذي هي بحاجة إليه. وقد وصفها يحيى ابن خلدون، متحدّثا عن حوادث سنة 767 هـ/1366 م، أيام السلطان أبي حمّو موسى الثاني، فقال: " إن دار الصنعة السعيدة تموج بالفعَلة على اختلاف أصنافهم وتَبايُن لغاتهم وأديانهم، فمن درّاق ورمّاح ولَجّام ودرّاع ووشّاء وسرّاج وخبّاء ونجّار وحدّاد وصائغ ودبّاج وغير ذلك، فتستَكُّ لأصواتهم وآلاتهم الأسْماعُ، وتَحارُ في إحْكام صنائعهم الأذهان، وتقف دون بحرهم الهائل الأبصارُ، ثم تُعْرَض أصيلانَ كل يوم مَصْنُوعاتُهم فيه بين يدي الخليفة أيده الله "[14].

فهذا القول، إن دلَّ على شيء، فإنما يدلّ على أن الصناعة التقليدية، التي أشاد بأهميتها الجغرافيون مثل البكري والإدريسي والزُّهْرِيّ، خلال عهد الْمُرَابطين والْمُوَحِّدين، قد ازدادت نُمُوًّا وازدهارًا أيام الزيانيين. ولا شك أن العديد من الأندلسيين الْمُسْلِمين والنصارى قد ساهموا في ذلك التطوّر الْملْحوظ بقسطٍ وافر، إلى جانب العناصر الْمَحَلِّيَّة.

ويلاحظ نفس التواصُل في المجال الثقافي، حيث إن كثيرًا من علماء وفقهاء وأدباء تلمسان كانوا يرحلون إلى الأندلس للقاء رجال العلم والأدب أو لأغراض أخرى، ويستقرّون بها أحيانا، مثل الشاعر أبي عبد الله ابن خَمِيس، الذي رحل إلى غرناطة، وأقام بها في خدمة الوزير ابن الحكيم إلى أن تُوُفِّيَ بِها سنة 708 هـ/1308 م[15]. هذا وقد استفادت تلمسان كثيرًا من هجرة العلماء والأدباء والكتّاب وكبار الْمُوَظَّفين إليها، قادمين من مختلف أنحاء الأندلس. وقد نَبَهَ ذِكْرُ الكثير منهم وذاع صيتهم، وكان لهم أثرٌ فعّال في تدعيمِ النشاط الثقافي والفني، والْمُشاركةِ في

سيّر شؤون البلاد. وإذا كان من الْمُستَحيل حصرُ عددهم، فلعَلّنا نستطيع تبيُّنَ الدوْر الهامّ الذي أدّوْهُ في هذه الْمَيادين بذكر بعض الْمَشاهير من بينهم كنماذج وأمثلة.

فمن أشهرهم أبو بكر محمد ابن الْخَطَّاب الغافقي الْمُرْسِيّ، الكاتب البارع، الذي كان كاتبـاً لِمُلوك بني نصر بغرناطة، ثم عاد إلى بلدته مُرْسِيَة. غير أن أوضاعها لم تكن مُستَقِرَّة، فغادر بلاد الأندلس، وقدم إلى تلمسان في عهد يَغْمُرَاسَن بن زيَّان، وكتب له، ثُمَّ لولده أبِي سعيد عُثْمان إلى أن تُوُفِّيَ سنة 686 هـ/ 1287 م[16].

ومنهم بنو الْمَلاَّح، من أهل قرطبة، الذين كانوا يشتغلون بحرفة صياغة الذهب والفضة، ونزلوا تلمسان في جملة مَنْ هاجَرَ إليها من جالية قرطبة، فزاوَلوا بِها حرفتهم، واستعملهم ملوك بني زيان في أشغال دولتهم، وعُيِّنوا في وظيفة سكَّة الدنانير والدراهم. وزادت حظوتُهم في عهد أبي حمو موسى الأول، الذي عَيّنَ في الحجابة محمد بن ميمون ابن الْمَلاَّح، وبقيت الحجابة في أسرته إلى وفاة هذا السلطان، سنة 718 هـ/ 1318 م[17].

ومن أشهر العلماء أبو عبد الله الآبلي، الذي يرجع أصل أجداده إلى مدينة آبلَة بالأندلس. نشأ بتلمسان في كفالة جَدِّه القاضي ابن غَلْبُون، وأخذ العلم بها، ثم رحل إلى المشرق ولقي كثيرًا من علمائه، ثم عاد إلى تلمسان. وفيها ظهر نُبوغُه في الرياضيات والعلوم العقلية. ثم رحل إلى المغرب الأقصى، فلقِيَ أبا العباس ابن البَنّاء بمراكش. ثم استقرَّ بفاس حيث عيّنه أبو الحسن المريني في مجلسه العلمي، وصحبه مع غيره من العلماء في حركته إلى الأندلس. ثم انتقل معه إلى تونس سنة 748 هـ/ 1347 م، فمكث بها إلى سنة 753 هـ/ 1352 م، عندما استدعاه السلطان أبو عنان المريني، وتوفي بفاس سنة 757 هـ/1356 م. لقد كان الآبلي من أنبغ رجال عصره وأذكاهم، وساهم في تكوين جِيلٍ من مشاهير العلماء. فمن تلاميذه عبد الرحمن ابن خلدون، الذي أخذ عنه كثيرًا من نظرياته اللامعة في التاريخ وعلم الاجتماع، وكذلك أخوه يحيى، مؤلف كتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، والمقري الكبير، وأبو عبد الله الشريف، وابن مرزوق الخطيب، وسعيد العقباني[18].

ومن كبار رجال غرناطة الذين حَلُّوا بتلمسان، لسانُ الدين ابن الخطيب الوزير الأديب والمؤرخ والشاعر، الذي أقام بتلمسان حوالي سَنَتَيْنِ، قادمًا إليها من غرناطة سنة 772 هـ/ 1370

م، أيام استيلاء عبد العزيز المريني عليها، فأخذ عنه كثيرٌ من علماء تلمسان واستفادوا من علمه وأدبه. ولازمه يحيى ابن خلدون، كاتب السلطان أبي حمو الثاني، وأخوه عبد الرحمن. ثم رحل لسان الدين إلى فاس، حيث حظي بتكريم السلطان عبد العزيز المريني.

ولما ضاقت أحواله بعد وفاة هذا الأخير، وألقي به في السجن، بذل يحيى ابن خلدون ما أمكن من الجهود لإنقاذه، ولكن بدون جدوى. وبعث لسان الدين إلى أبي حمو موسى الثاني رسالتين ضمّنهما قصيدتين رائعتين استصرخه بهما، طالبًا منه أن يشفع فيه لدى سلطان غرناطة الغني بالله محمد بن نصر، من أجلِ التَّدَخُّل في شأن السماح بإطلاق سراحه، وذلك في أوائل سنة 776 هـ/1374 م. إلا أن الْمَنِيَّة عاجلت الوزير الغرناطي قبل أن يتمكن أبو حَمُّو الثاني من تَلْبِيَةِ طلبه[19].

هذا وقد أعجب لسان الدين ابن الخطيب بمدينة تلمسان، واستطاب المقام بِها. ومن شعره في وصفها قوله:

حَيَّـا تلمسانَ الحَيَـا فرُبوعُهـا صدف يجـودُ بدُرِّهـا المكنـون
ما شئتَ من فضل عَميمٍ إن سَقى أرْوَى ومَـنَّ ليـسَ بالممنـون
أو شئتَ من دينٍ إذا قدح الهدى أورَى ودنيـا لم تكـن بالـدون
وَرَدَ النسيمُ لهـا بنشر حديقـة قـد أزهرَت أفنـانُهـا بفنـون
وإذا حَبِيبَـة أمّ يحيى أنجبَـت فلها الشُّفوفُ على عُيون العين[20]

ووصفها نثرًا فقال: " تلمسان مدينة جَمَعَتْ بين الصحراء والريف، ووُضِعَتْ في موضع شريف، كأنها ملِك على رأسه تاجه، وحَواليْه من الدوحات حَشَمُه وأعْلاجُه. عُبّادُها يَدُها، وكهْفُها كَفُّها، وزينَتُها زَيّانُها، وعَيْنُها أعْيانُها، وهَواها الْمَقْصور بها فَريد، وهواؤها الْمَمْدود صحيحٌ عَتيد، وماؤها بَرُود صَرود، حَجَبَتْهُ أيدي القدرة عن الجَنوب، فلا نُحول فيها ولا شُحوب، خزانة زَرْع، ومَسْرح ضَرْع، فواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرها فريدة الانتفاع، وبرانسها رقاق رفاع، إلا أنها بسبب حَبِّ الْمُلوك، مَطْمَعَةٌ للمُلوك، ومن أجل جمعها الصيدَ في جوف الفرا، مغلوبة للأمرا، أهلها ليست عندهم الرَّاحَة، إلا فيما قبضت عليه الرَّاحَة، ولا فَلاحة، إلا لمن أقام

وَسْمَ الفَلاحة، ليس بها لسْعُ العقارب، إلا فيما بين الأقارب، ولا شطارة، إلا فيمن ارتكب الخطارة "[21].

وكان السلطان أبو حمو موسى الثاني، الذي وُلِدَ بغرناطة، أديبًا شاعرًا، فشجَّع العلماء والأدباء والشعراء، وأحَلَّهُمْ منزلة سامية في بلاطه[22]، ومن بينهم جماعة كانوا من أصل أندلسي، مثل كاتبه يحيى ابن خلدون، مؤرخ الدولة الزيانية[23]، والشاعر أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري الأندلسي، المشهور بقصائده القيِّمَة التي كان يلقيها بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف[24]، والقاضي سعيد العقباني[25]، وغيرهم مما لا يمكن حصرهم في هذا الحديث.

والذي ينبغي التأكيد عليه أن العلاقات التي تربط بين تلمسان وغرناطة لم تفتأ تتَّسِمُ بطابع التعاون والتضامن وحُسْن الجوار طيلة عهد دولة بني نصر، حيث إنّ جيش هؤلاء كان يشمل كثيرًا من فُرْسان بني عبد الواد ضمْن فرقة الغُزاة، كما أن العديد من أهل غرناطة وأنحائها، الذين غادروا بلادهم، نزلوا مدينة تلمسان واستُقْبلوا بحفاوة. ومن أشهر هؤلاء أبو الحسن القَلَصَاديّ البَسْطِيّ الذي نَبَغَ في الرياضيات والفرائض وغير ذلك من العلوم، وحَلَّ بتلمسان في أواخر عهد بني نصر، أثناء رحلته عبر بلاد المغرب والمشرق، ولقي معظم علمائها، ثم قدم إلى تلمسان عندما غادر غرناطة نهائيا، فأقام بها مدة قضاها في التدريس والتأليف، وتُوفي ببَاجَة، من بلاد إفريقية، سنة 891 هـ/ 1486 م[26].

وممن هاجر إلى تلمسان أيام سقوط مملكة غرناطة، أبو عبد الله محمد ابن سعد الزغل، الذي توفي بعاصمة بني زيان سنة 899 هـ/ 1494 م، وهو عَمّ أبي عبد الله بن أبي الحسن، آخر ملوك بني نصر. ثم استمرّت هجرة الأندلسيين إلى تلمسان وغيرها من أمصار المغرب إلى حوالي سنة 1017 هـ/ 1609 م.

ويستنتج ممّا سبق أن مدينتي غرناطة وتلمسان تشكلان أحسن نماذج التأثير والتأثر الحضاري، الذي ظل سائدًا بين أقطار المغرب العربي والجزيرة الإيبيرية، مدة ثمانية قرون، وأن التأثير الثقافي والعلمي والفني، الذي شمل سائر عناصر جزيرة إيبيريا، من مسلمين ومسيحيين وغيرهم، لم ينقطع بسقوط مملكة بني نصر، بل استمرّ بقوة، وانتشر في سائر أقطار أوربا الغربية،

مما ساعد على تطوّر العلوم والثقافة والصناعات فيها، وسمح لها بتحقيق نهضتها الحضارية، التي أدّت إلى الثورة الاقتصادية الأوربية الحديثة[27].

كما أن الترابط الذي ميّزَ العلاقات بين غرناطة وتلمسان قد ترك بَصَماته في عاصمة بني زيان بأشكال متنوعة، وتتمثل في تقاليد أهلها وعاداتهم ولَهْجَتهم وحِرَفِهم وتُراثِهم الثقافي والمعماري والفني. وليس أدلّ على ذلك من ازدهار الموسيقى الأندلسية والصناعات التقليدية بتلمسان إلى عصرنا هذا، وحرص أهلها على الحفاظ على هذا التراث[28].

الهــوامش:

1. انظر: محمد الصغير غــانم، معالم التواجد الفنيقي البــوني في الجزائر، دار الهدى، عين مليلــة، 2003، ص 18–109 و235–243 ؛ ألدو ميلي، العلم عند العرب، دار القلم، القاهــرة، 1962، ص 32–73؛ قدري حافظ طوقــان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلــك، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1963، ص 35–46.
2. انظر : ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، بيروت، ص77–111.
3. انظر: قدري حافظ طوقــان، المرجع السابق، ص 47–465 ؛ ألــدو ميلي، المرجع السابق، ص 351–422.
4. انظر : عبد المنعم مــاجد، العلاقــات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبــة الجامعة العربية، بيروت، 1966، ص 227–260 ؛ ألدو ميلي، المرجع السابق، ص 423–484.
5. انظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، دار الثقافة، بيروت، 1969، ص 182–416؛ أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج 4، القاهرة، 1969، ص 120–156؛ عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص 218–226.
6. عن ابن غزلون، انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج 1، رقم 169، ص 77.
7. عن أبي مَدْيَن شعيب الإشبيلي، انظر: ابن الزيات التادلي، التشوف، رقم 162، ص 316–325؛ ابن الأبــار، التكملة، ج 2، رقم 2015، ص 715؛ المقــري، نفح الطيب، ج 9، ص 342–351؛ ابن مريــم، البستــان، تحقيق محمد ابن أبي شنب، الجزائر، 1908، ص 108–114؛ ابن قنفــذ القسنطيني، أنس الفقير، ص 11–20 ؛ محمد رشيد مولين، عصر المنصور الموحدي، الربــاط، مطبعة الشمال الإفريقي، 1946، ص 259.
8. عن أبي بكر بن سعادة الإشبيلي، انظر: ابن الأبار، المصدر السابق، ج1، رقم 879، ص 284؛ يحيى ابن خلدون، بغية الرواد، ج 1، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ص129؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص 227.
9. عن أبي عبد الله الحلوي، انظر : يحيى ابن خلدون، المرجع السابق، ص 127–128.

10. الزهري، كتاب الجعرافية، تحقيق محمد الحاج صادق، مجلة الدراسات الشرقية،المعهـــد الفرنسي بدمشق، سنة 1968، ص 194 ؛ الإدريسي، المغـــرب العربي (من كتاب نزهة المشتاق)، تحقيق محمد حاج صادق، ص 100-101؛ يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 91-92.
11. حول دولة بني نصر بغرناطة، انظر : لســـان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، الرباط، 1934، ص 330- 391.
12. انظر: يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 216.
13. نفســـه.
14. يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج 2، تحقيق ألفريد بيل، ص 161.
15. انظر: يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 109- 112.
16. نفسه، ص 129.
17. عن بني الملاح، انظر: عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر ج7، ص 217- 218.
18. عن الآبلي، انظر: عبد الرحمن ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص 21، 22، 33، 38؛ يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 120؛ المقـــري، المصدر السابق، ج7، ص 167- 171؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص 214- 219.
19. حول ظروف وفاة لسان الدين ابن الخطيب، انظر: يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج 2، ص 286- 307.
20. المقري، المصدر السابق، ج 9، ص 335- 336.
21. نفسه، ج 9، ص 341- 342.
22. انظر: عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزيـــاني، حياته وآثـــاره، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص 69- 155.
23. نفسه، ص 174- 177.
24. نفسه، ص 172- 173.
25. حول سعيد العقبـــاني، انظر: ابن فرحون، الديبـــاج المذهب في معـــرفة أعيـــان علماء المذهب، القاهرة، 1951، ص 124- 125؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص 106- 107؛ عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 170- 171.
26. انظر: أبو الحسن القلصادي، رحلـــة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفـــان، تونس، 1978، ص 17- 74.
27. انظر: عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص 248- 258.
28. أنجز هذا البحث بمناسبة المُلتقى الدولي حول تاريخ حضارة تلمسان ونواحيها، في إطار نشاطات " تلمسان عاصمة الثقافة الإسلاميّة، سنة 2011 "، تلمسان، 20-22/02/ 2011.
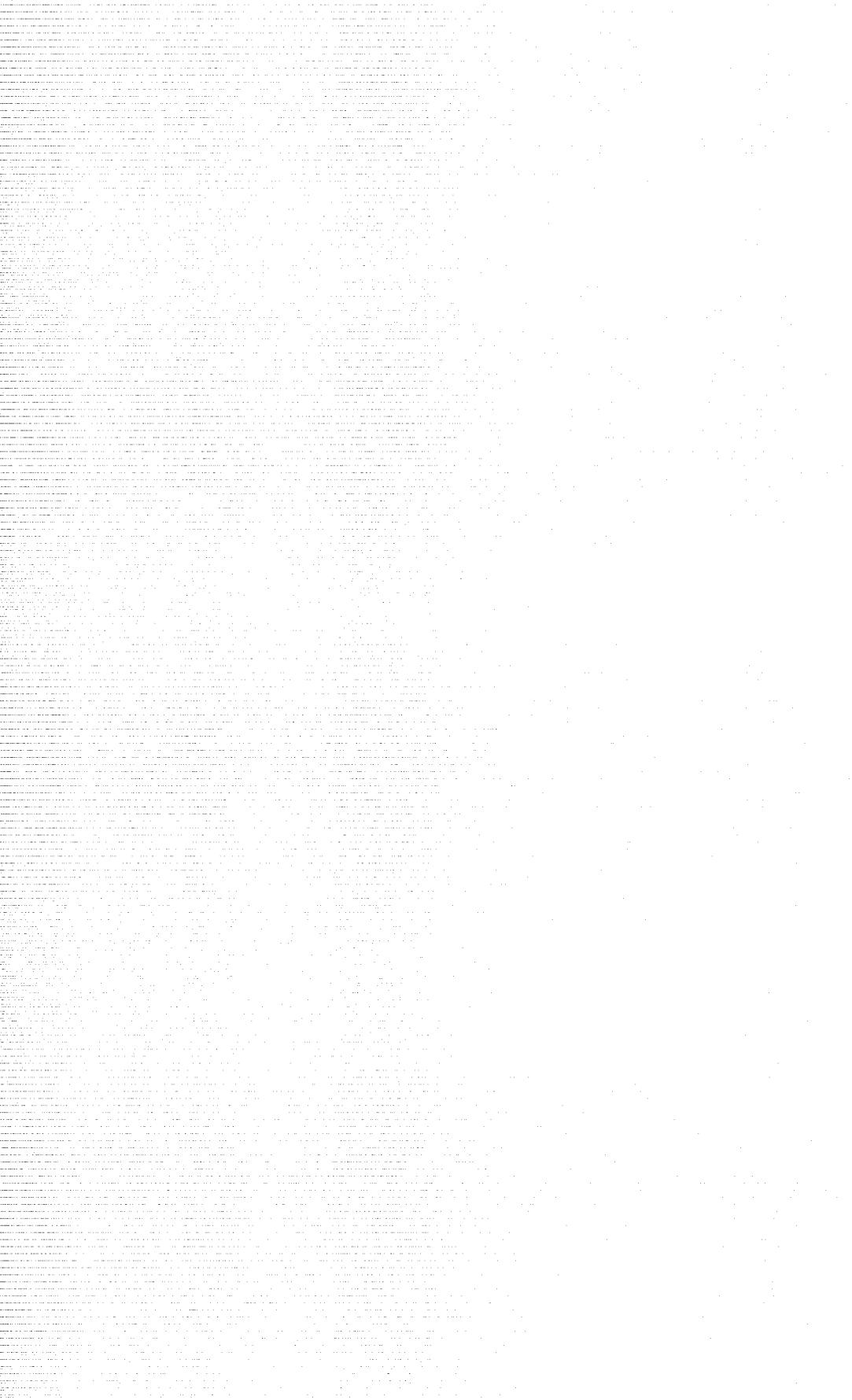
تِلِمْسَانِيَانِ فِي سَبْتَة

أ. رشيد العفاقي*.

وَصَفَ أبو عبيد البكري مدينة سبتة في كتابه "المسالك والممالك"، وفي أثناء ذلك صرّح بأنها "لم تزل دار علم"[1]، وقد وضح من هذه العبارة أن المدينة لها سابقة في العلم، وأن البكري لما زارها وجدها لاتزال محافظة على ذلك المستوى العلمي الرفيع الذي كانت تتمتع به في القرون الماضية. وقد توفي البكري سنة 487هـ أي بعد حوالي 11 سنة من مَوْلِد عَلَمِ سبتة الأشهر وقاضيها الأفضل والأعدل أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي (476هـ-544هـ)، ولاشك أن البكري زار سبتة وأصدر حُكمه على العلوم فيها قبل تاريخ وفاته بأعوام عديدة.

فماذا كان البكري سيقول عن سبتة لو أن العمر امتد به إلى الربع الثاني من القرن السادس الهجري وأدرك عصر ذلك العالم الجليل والقاضي النزيه الذي يُمثّل ذَروة الازدهار العلمي السبتي بطابعه المغربي؟ وماذا كان أبو عبيد سيقول أيضا لو أن الله -عزّ وجلّ- قدّر له أن يعيش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ويرى مظاهر الرقي والازدهار العلمي بطابعه الأندلسي تسود المدينة ؟

لا شكّ أن أبا عُبيد كان سيذهل من تنوع المؤسسات العلمية وتعدّد خزائن الكتب التي تنتشر في كل حارات المدينة، وسيتفاجأ بالأعداد الهائلة من العلماء المبرّزين الذين احتشدوا في هذه المدينة الصغيرة التي كانت -حتى ذلك الحين- لاتزال تستقبل الوافدين من حواضر مغربية وأندلسية كان لها شأن علمي فيما مضى مثل إشبيلية وفاس وغرناطة وتلمسان، جميعهم قصدوها من أجل التعليم أو التعلّم، أو لأجلهما معا.

إن لكل وافد من هؤلاء العلماء الذين قصدوا سبتة في القرن السابع الهجري حكَايَة، ولعلّ أطرف تلك الحكايات هي حكاية أخويْن تلمسانيين عالمين ضريرين نزلا سبتة وأقرآ بها وعاشا

*- باحث بمركز عُقبة بن نافع للدراسات والأبحاث حول الصحابة والتابعين - طنجة- المملكة المغربية.

فيها ردحا من الزمن، وقد أُقبر بها أحدهما بينما كُتب للآخر يُتوفَّى بالأندلس، وفي أحوال هذين الأخوين غرائب ونوادر تثير العجب والإعجاب.

هما أخوان من مدينة تلمسان العريقة، فيها ولدا، ونشآ في أحضان عائلة متوسطة الحال، كان والدهما -على ما ينطق به لقب الأسرة- يبيع الخُضَار في سُوق تلمسان، ومع ذلك فإنَّ هذا الخَضَّار تَنبَّه لقيمة العلم فدفع بابْنَيْه إلى تحصيله واكتساب طرف صالح منه. تَلقّيا التعليم الأوَّلي بتلمسان على بعض شيوخها الأجلاء، وظلا بها إلى مرحلة الشباب، ثم في وقت من الأوقات – غير معروف لنا بالضبط الآن- قصدا سبتة التي كان صداها العلمي قد وصل إلى مكان بعيد. وللتلمسانيين علاقة وثيقة بحواضر المغرب العلمية، فعندما كان الفتى في تلمسان يرغب في تطوير معارفه والاستزادة من العلم فإنه كان يُوَلِّي وجهه شطر فاس أو سبتة، وظل الأمر على هذا الحال طيلة العصر والوسيط وشطرا من العصر الحديث، وحسبنا هنا أن نذكر أبا العباس المقري مؤلف "نفح الطيب" و"أزهار الرياض" الذي نَهل من مكتبات فاس وأخذ عن مشايخها، وكان بارًّا بالبلد الذي احتضنه ووَفِيًّا للثقافة التي أنجبته، لقد قدّم هذا التلمساني بكتابيْه المذكورين خدمة جليلة للتاريخ المغربي الأندلسي لم يُقدِّم مثلها أحد في المغرب ولا في المشرق. الكلام نفسه يُقال عن بلديِّه أبي العباس أحمد الونشريسي الذي جمع في موسوعته الفقهية المسماة "المعيار المعرب" عددا لا يُحصى من النوازل، ووَفَّر للفقهاء والعدول كما كبيرا من القواعد والفتاوى، كما وَفَّر للباحثين في التاريخ مادّة غنيّة لدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية لبلدان الغرب الإسلامي في العصر والوسيط. ومما يؤسف له أن تلك الصِّلات العلمية، التي كانت تجمع بين تلمسان وبين حواضر المغرب الأقصى، أصابها اليوم فتور كبير، ولا مجال هنا لذكر الأسباب فهي معروفة.

وقد كان هذان التلمسانيان ضريرين، أي فاقدين للبصر[2]، غير أن الذي يظهر من ترجمتهما أن تلك العاهة (فَقْد البصر) لم يكن لها أي تأثير على نشاطهما العلمي وحياتهما الوظيفية وأحوالهما اليومية، فقد كانا يُسافران ويتنقّلان من مكان إلى آخر ولأحدهما رحلة حجّ عاد بعدها إلى بلده الثاني سبتة، وقد أخبرنا من التقى به أنه كان يخترق أزقة هذه المدينة بدون دليل، وكانا الأخوان يجلسان للإقراء والتحديث، ويقومان بما يقوم به الناس العاديين وزيادة، دونما أيّ مركب نقص، بل ثقةً في النّفس، وتسليماً بالقضاء، ورِضًى بقدر الله عزّ وجلّ.

وعلى الرغم من فقدانهما للبصر، فقد وهب الله -عزّ وجلّ- لهما توقّد البصيرة، فأصبحا [...]ين، واستطاعا أن يبذّا البصراء في عدد من ضُروب المعرفة، وأن يتفوّقا عليهم في شتّى الفنون [وا]لعلوم، وقد قعدا للتدريس وتخرّج على يديهما تلاميذ كثر كان لهم إسهام صالح في تنشيط [الح]ركة العلمية في سبتة وغيرها من حواضر المغرب والأندلس. إننا نتكلم عن التلمسانيين: علي [بن] محمد ابن الخضّار وأخيه محمد بن محمد ابن الخضّار.

1 – علي بن محمد ابن الخضار: ترجم له ابن الزبير الغرناطي، فأورد اسمه ونسبه واسم [كنيت]ه واسم شهرته كما يلي: "علي بن محمد بن عبد الله الكتامي الضرير، من أهل تلمسان، يكنى [أب]ا الحسن، ويعرف بابن الخضّار"[3].

* مولده: قال ابن الزبير: "مَوْلِدُهُ بتلمسان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة"[4].

* شيوخه: قال ابن الزبير في ترجمته: "أخذ القراءات عن أبي الحسن علي بن ابراهيم بن عبد الكريم بن حسان، وعن المقرئ أبي نصر فتح بن يحيى، وأجاز له من المشارقة جميع من أجاز لأخيه"[5]، وسوف نتعرّف على أسماء مُجيزي أخي المترجم الحاج أبي عبد الله حين يصل بنا الكلام إلى ترجمته.

لم ترد في ترجمة علي ابن الخضّار إلا معلومات قليلة عن حياته في المرحلة التلمسانية، من ذلك قول الجزري أنه "قرأ عَلَى عليّ بن عبد الكريم بتلمسان"[6]، ويُفهم من هذا أن المترجَم اجتاز مرحلة القراءة الأولية ببلده تلمسان، وسنعرف -من خلال النص الذي سنأتي به بعد قليل- أنه لم يُغادر تلمسان إلى سبتة إلا بعد أن استوى عوده في العلم، وأصبح مقرئا مرموقا بالتقدير والاحترام في مسقط رأسه. وأول من وجدنا يذكره هو المقرئ الأندلسي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن داود بن مطروح الشريشي[7]، في تأليفٍ له مفقود الآن، ولكن وقع النقل منه عند ابن القاضي في "الفجر الساطع"، قال: "قال ابن مطروح: وقد لقيتُ في رحلتي إلى المشرق مُقرئا أعمى في جامع تلمسان يأخذ بالتمطيط الزائد والتفكيك المفرط، وكان مدّه في ﴿الم﴾ بقدر ما يبلغ نفسه، لا يزيد على ذلك إلا الذّال من ﴿ذلك﴾ ليبتدئ بها، ثم انتقل إلى سبتة وأقرأ بها، كان يُعرف -فيما ذُكر لي- بابن الخضّار"[8].

* في سبتة: وصل ابن الخضّار إلى مدينة سبتة مكتمل الشخصية العلمية، بحيث لم يرد في ترجمته أنه جلس إلى عالم سبتي سواء كان من أهلها أو من الطارئين عليها، لكن من المؤكّد أن

معارفه في سبتة ستصبح أكثر متانة من ذي قبل بفضل البيئة العلمية الممتازة التي كانت تعيشها حاضرة الزقاق آنذاك، والتي تتجلّى في تعدّد مدارس العلم بها، وكثرة خزائن الكتب العامة والخاصة فيها، ويُمكننا أن نُقرِّر أيضا أنّ عليًّا ابن الخضّار التقى بطائفة من علماء المغرب والأندلس الذين كانوا قد اتخذوا من سبتة دار إقامة، واستفاد منهم، ولا شك في أنه كان يُشاركهم في السجالات العلمية التي كانت تثار بينهم بين الحين والحين. ومن الذين نصّوا على دخوله سبتة ابن الزبير الغرناطي، قال بعد أن أثنى على علمه ومدح مهارته في علم القراءات وفي غيرها من ضروب المعرفة: "نفع الله به أهل سبتة وغيرهم"[9]، ويُسَمِّي الجزري بعض أهل سبتة الذين أخذوا عنه وانتفعوا به، فيقول: "علي بن محمد أبو الحسن التلمساني الضرير الكتامي، يُعرف بابن الخضّار،.. إمام مقرئ، نزل سبتة وأقرأ بها،.. قرأ عليه الأستاذ أبو إسحاق الغافقي"[10].

* مؤهلاته ومكانته العلمية: نبغ علي ابن الخضار في علم القراءات، ولذلك نَعَتَهُ ابن عبد الملك بـ"الأستاذ المجَوِّد"[11]، أما ابن الزبير فقال في حقّه: "وكان- رحمه الله- معتمَدًا في تجْويد القرآن، ذاكراً لخلاف الأئمة، متصرّفا في ذلك، متقدّما فيه، ناصحاً في التعليم، نفع الله به أهل سبتة وغيرهم. وذُكِر أنه كان يحفظ "تيسير" أبي عمرو، و"ايجاز البيان"، و[كان] عالما بالعروض"[12]، ووصفه ابن عمران الحضرمي "بإحكام القرآت وحفظها"[13].

*دخوله الأندلس ووفاته بها : ذكر ابن الزبير أنّ عليًّا ابن الخضّار "دخل المرية مجتازا إلى سبتة، فاستقرّ بها مستوطنا، وأقرأ بها إلى أن توفيّ"[14]، ولم يتيسّر لنا معرف التاريخ الذي غادر فيه أبو الحسن ابن الخضّار مدينة سبتة إلى الأندلس، غير أن الذي يُفهم من كلام ابن الزبير هو أن ابن الخضّار دخل الأندلس وتجوّل في عدد من مدنها، وفي طريق الإياب إلى سبتة اجتاز على مدينة المرية **Almeria**، وواضح من هذا أيضا أن ابن الخضّار كان يرغب في الانتقال إلى سبتة حيث داره وكتبه، ولكن إرادة الله- عزّ وجلّ- شاءت أن ينتقل إلى جواره. وقد روى الذّهبي تاريخَ وفاته عن أحد أبناء سبتة الأصلاء من بيت آل الحضرمي، فقال: "قال لي ابن عمران الحضرمي إنه توفي سنة ست أو سبع وسبعين وستمائة"[15]، والتاريخ المضبوط لوفاته هو الذي نجده عند ابن الزبير، قال إن علي ابن الخضار "توفي يوم الجمعة الخامس والعشرين لربيع الأول عام ستة وسبعين وستمائة"[16]، رحمه الله رحمة واسعة.

2 – محمد بن محمد ابن الخضّار: ترجم له ابن عبد الملك المراكشي في "الذيل والتكملة"، فقال: "محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى بن مسعود الكنامي، تلمساني سكن سبتة، أبو عبد الله ابن الخضار– أخو الأستاذ المجوِّد أبي الحسن–"[17]، وعرّف به ابن الزبير الغرناطي، فقال: محمد بن محمد بن عبد الله الكنامي الضرير، من أهل تلمسان، يكنى أبا عبد الله، ويُعرف بابن الخضّار"[18].

*مولده: قال ابن عبد الملك: "مولده منتصف ذي قعدة تسعة وستمائة"[19]، وحدّد ابن الزبير يوم الولادة، فقال: "مولده بتلمسان في يوم الاثنين الخامس عشر من ذي قعدة عام تسعة وستمائة"[20].

* ارتحاله إلى سبتة: ليس في لائحة شيوخ أبي عبد الله ابن الخضار مَنْ يُمكن أن نُعِدَّهُ أستاذاً له في المرحلة التلمسانية، ثم إننا لا نعرف متى حلّ بسبتة، ولكن يبدو أن ذلك كان في فترة مُبكّرة من حياته، كما يظهر أنه استوطنها قبل أخيه الذي تقدّمت ترجمته، ولما حلّ بها كان لايزال في مرحلة الطلب، فقعد للقراءة على شيوخها. قال ابن عبد الملك: "سمع بسبتة على الرئيس الفقيه أبي القاسم العزفي "سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم"، و"الدر المنظم"، من تأليفه، مرّات، وأجازهما له، وأجاز له بها أبو العباس بن محمد المورروري، وأبو عمرو عثمان بن محمد العبدري ابن الحاج، وسمع بها على أبي مروان محمد بن أحمد الباجي"[21].

* رحلته إلى المشرق: ذكر ابن عبد الملك أن المترجَم "سمع بها (أي بسبتة) على أبي مروان محمد بن أحمد الباجي في وجهته، وصحبه إلى المشرق"[22]، وقال ابن الزبير الغرناطي في ترجمة ابن الخضار: "له رحلة حجّ فيها سنة أربع وثلاثين وستمائة"[23].

كان ابن الخضار في الثالثة والعشرين من عمره وقت سفره للحج، ويقول الدكتور محمد بن شريفة "إن أبا مروان الباجي أُعْجِبَ بذكاء الشاب ابن الخضار وحذقه فاختاره رفيقا في سفره مع أنه كان ضريرا"[24]، وقال أيضا: "إن تعلّق هذا الشاب السبتي بأستاذه أبي مروان، وحرصه على مرافقته وملازمته له إلى وفاته، قد أفاده كثيرا وخرّج منه مُحَدِّثًا. روى عنه ابن عبد الملك وابن رُشيد والقاسم بن يوسف التجيبي وغيرهم، وقد قرأ ابن الخضّار هذا على شيخه أبي مروان بعض الكتب في الفقه والحديث وهما متوجهان إلى الحجاز أو عائدان منه"[25].

أمّا مراحل الرِّحلة فقد خَصها ابن عبد الملك في ترجمة الباجي[26]، ومن هذا المُلخّص سنقتبس ما يُبيّنَ لنا خطّ الرِّحلة، مع التوقّف عند بعض المحطّات التي تعني سيرة مترجمنا. أقلع المركب الرُّومي الذي يُقِلُّ الباجي ورفيقه ابن الخضّار من مدينة سبتة يوم الأربعاء لسبع خلون من محرم أربع وثلاثين وستمائة، سائراً محاذيا لَبرِّ الأندلس، إلى جزيرة يابسة ومنها إلى جزيرة ميورقة. وبعد توقّف قصير واصل المركب الإبحار فوصل مرسى جزيرة سردانية، ومنه سار إلى صقلية، ولَمَّا جاوزها حدث أن رَدَّتْهُ الريح إلى مرسى سرقوسة إحدى مدن جزيرة صقلية، فتوقف بها ونزل الراكبون للاستراحة، وفي هذا البلد نجد ابن الخضار يروي عن شيخه أحد الكتب الطريفة وهو كتاب "النظر في أحكام النظر" لأبي الحسن علي ابن القطان، قال التجيبي في "برنامجه" بعد تسمية الكتاب: "سمعت جميعه كاملا في خمسة مجالس آخرها يوم الاثنين الرابع عشر من شوال من سنة ثلاث وتسعين وستمائة على التاريخيّ الحافظ الحاج أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي -رحمه الله تعالى- بحقِّ سماعه من أوله إلى أثناء الباب السابع منه على القاضي الأجل أبي مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللّخمي ثم الباجي بلفظ أبي مروان المذكور، وذلك بمدينة سرقوسة من مدن صقلية سنة أربع وثلاثين وستمائة، وأجازه سائره بحقِّ قراءته لجميعه كاملا بلفظه على مؤلفه المذكور رحم الله جميعهم"[27].

وفي البرنامج نفسه، وتحت عنوان "المختصر المرسوم برائع الدرر، ورائق الزهر، في أخبار خير البشر، صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم"، تصنيف أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء اللغوي، يقول المحدِّث السبتي: "سمعتُ جميعه عوداً على بدء، وقرأته أيضا بلفظي على الشيخ الثبت التاريخي الحافظ أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي الضرير التلمساني المولد السبتي الاستيطان المعروف بابن الخضّار رحمه الله تعالى بحق قراءته لجميعه بلفظه من حفظه وبسماعه أيضا له غير مرة على الشيخ الفقيه الجليل المحدث أبي مروان محمد بن أبي عمر أحمد بن أبي مروان عبد الملك اللخمي ثم الباجي رحمه الله تعالى، منها مرّة بسرقوسة من مُدن صقلية في عام أربعة وثلاثين وستمائة، ومنها مرة بدندرة من صعيد مصر في عام خمس وثلاثين، بحقِّ سماعه على الفاضلين أبوي القاسم عبدي الرحمن: ابن حبيش والسهيلي بسماعهما على القاضي أبي بكر ابن العربي الحافظ بسماعه من نصر بن ابراهيم بسماعه من أبي الفتح الرازي بسماعه من أبي الحسين مؤلفه"[28].

وبعد سرقوسة تُستأنف رحلة الباجي ورفيقه ابن الخضّار التلمساني في هذا الاتجاه: جزيرة قريطش- جزيرة قبرص- عكا- دمشق. وفي دمشق كان لابن الخضّار نشاط علمي ملحوظ سجّله ابن عبد الملك فقال في ترجمته: إنه روى "بدمشق على أبي عبد الله محمد بن أبي جعفر أحمد بن علي بن أبي بكر بن اسماعيل القرطبي، وأبي العباس أحمد بن يوسف ابن زيزي التلمسيني، وأبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح، وأبي تصر محمد بن هبة الله بن مميل، وناوله بها أبو محمد عبد الرحمن بن أبي القاسم بن عبد الرحمن بن عبد المنعم، وأجازوا له. وأجاز له بها أبو الحسن بن أبي عبد الله بن أبي الحسن بن المقير، وأبو عبد الله بن يُوسف البرزالي، وعبد العزيز بن عثمان بن أبي طاهر الإربلي، وعثمان بن عمر المالكي"[29]، وذكر ابن الزبير في ترجمة محمد ابن الخضّار أنه "لَقِيَ بدمشق شمس الدين أبا نصر بن ميل الشيرازي، وسمع بها ثلاثيات البخاري: ومن أول الديوان إلى كتاب الإيمان، وتقي الدين أبا عمرو بن الصلاح، وسمع عليه علوم الحديث من تأليفه وأجاز له. وأجاز له ابن المقير وابن الحاجب وغيرهم"[30]، ومما يرتبط برواية ابن الخضّار لكتاب البُخاري عن أبي نصر الشيرازي، يقول ابن الحاج النميري في سنده للكتاب المذكور: "قال شيخنا أبو الحسن المطماطي: وحدثنا[31] به أيضا عن المُسنِد أبي عبد الله محمد بن محمد الكتامي ابن الخضّار، قراءة لبعض أحاديثه، وإجازة لسائره، عن شمس الدين أبي عبد الله محمد بن هبة الله بن مميل الشيرازي عن أبي الوقت عبد الأول بن عيسى النفزي العوفي عن أبي الحسن الداودي البوشنجي عن الحموي عن الفربري [عن البخاري]"[32]، كما ذكر ابن الزبير الغرناطي أنّ ابن الخضّار "صحب في رحلته أبا مروان الباجي، وسمع عليه الموطأ"[33]، ولسنا ندري أين كان ذلك، والذي يظهر لي أن ذلك حصل بدمشق[34]، وقد أشار ابن القاضي إلى سماعه على ابن الصلاح فقال: "محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي التلمساني السبتي، ابن الخضّار، نزيل سبتة، سمع "علوم الحديث" لابن الصلاح، عليه، بدمشق سنة 634هـ"[35].

وبعد مُقام بدمشق امتد من 7 رمضان إلى منتصف شوال، خرج الباجي ورفيقه ابن الخضّار منها وسارا في اتجاه أرض الحرمين الشريفين فاجتازا المراحل التالية: بصرى- الأزرق- تيماء- خيبر- المدينة المنورة- وادي العقيق- بير علي- ذي الحليفة- شعب علي- بدر- رابغ- الجحفة- بطن مر- مكة المكرّمة. وَصَلا البلد الأمين لأربع خلون من ذي الحِجّة عام 634هـ، ويذكر ابن عبد الملك أنه لما يسّر الله لهما قضاء مناسك الحج خرجا من مكّة -زادها

الله شرفا وتعظيما- في محرم من سنة 635هـ- وتوجّها إلى مصر، فقطعا المراحل التالية: حدة[36]- جدّة- سلق- دبادب- عيذاب- قنا- قوص- أخميم- منية ابن الخصيب- مصر (القاهرة).

ومن المحطات التي توقّف بها الباجي ورفيقه ابن الخضّار، بين عيذاب والقاهرة، ولم يذكرها ابن عبد الملك: بلدة دندرة. لقد كان التلمساني حريصا على الرواية والقراءة على شيخه الباجي، فعندما كانت تُتاح له فرصة التوقف بإحدى البلدات كان يفزع إلى الشيخ المذكور ليروي عنه، على الرغم من أنهما مرّا ببعض الظروف العصيبة، فقد تعرضت القافلة التي كانا ضمنها، في طريق العودة من الحج، للسلب بعد أن أغار عليها اللُّصوص في صحراء عيذاب، ولم تصل إلى دندرة إلا بعد نصب وعذاب، إلا أن ذلك كله لم يصرف التلمساني عن السماع من شيخه الباجي، فما أن وصلت الجماعة إلى دندرة- وهي مدينة من مدن الصعيد قريبة من قنا- حتى وجدنا ابن الخضّار يعود إلى سماع كتاب ابن فارس في "السيرة" مرة أخرى على شيخه أبي مروان الباجي[37]، ويروي عنه أيضا كتاب الزكاة[38] من تأليف الحافظ أبي بكر بن الجد، قال التجيبي في "برنامجه" بعد تسمية الكتاب المذكور: "سمعت جميعه كاملا بسبتة على التاريخي الحافظ أبي عبد الله محمد بن محمد الكتامي رحمه الله في مجلسين: آخرهما يوم الجمعة الخامس والعشرين لذي القعدة من سنة إحدى وتسعين وستمائة بحق سماعه لجميعه من القاضي أبي مروان محمد ابن الشيخ الفقيه أبي عمر بن عبد الملك الباجي ثم الإشبيلي بدندرة من صعيد مصر في يوم الجمعة آخر يوم من شهر ربيع الأول المبارك من عام خمسة وثلاثين وستمائة بحق سماعه من مؤلفه رحم الله جميعهم"[39].

وذكر التجيبي في موضع من كتابه "مستفاد الرحلة" ما يلي: "أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام الفاضل المعمر الصدوق نخبة المصنفين بهاء الدين أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل العذري ثم القِفطي، نزيل قوص المحروسة، بقراءتي عليه بالمدرسة السابقية في شهر جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين وستمائة، والشيخ التاريخي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي التلمساني، نزيل سبتة بقراءتي عليه عودا على بدء، قالا: أخبرنا القاضي الأجل أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللخمي الباجي- رحمه الله تعالى- قال بهاء الدين أبو القاسم قراءة علينا بلفظه بقوص قدمها علينا حاجّا من مكة- شرفها الله تعالى- سنة خمس وثلاثين وستمائة، وقال الكتامي أبو عبد الله -رحمه الله تعالى- قراءة عليه بلفظي من حفظي، وسماعا عليه غير مرة منها

بسرقوسة من مدن صقلية في سنة أربع وثلاثين وستمائة، ومنها بدندرة[40] من صعيد مصر في عام خمس وثلاثين وستمائة، قال: أخبرنا الفقيه الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن حبيش الأنصاري رحمه الله، والفقيه الحافظ أبو زيد عبد الرحمن السهيلي الخثعمي هو الإمام أبو القاسم وأبو الحسن وأبو زيد، ثلاث كنى، عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي الحسن أصبغ بن حسن بن سعدون بن رضوان بن فتوح السهيلي، نزيل مالقة، وسُهيل قرية من قراها، قالا: حدثنا القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، قال: حدثنا أبو الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي الزاهد، في بين المقدس، في شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، قال: أخبرنا أبو الفتح سليم بن أيوب الرازي قراءة عليه سنة أربعين وأربعمائة، قال: أخبرنا أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء اللغوي، قال: حدثنا علي بن ابراهيم، قال: حدثنا محمد بن ماجه، قال: أخبرنا علي بن محمد الطنافسي، قال: أخبرنا وكيع، قال: أخبرنا أبي، وإسرائيل، عن أبي إسحاق السبيعي، قال: سألت زيد بن أرقم: "كم غزا النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: تسع عشرة غزوة، وغزوت معه سبع عشرة غزوة، وسبقني بغزوتين"[41].

وقد كنا تتبعنا رحلة الباجي وصحبه ابن الخضار حتى مدينة القاهرة، ويقول ابن عبد الملك إن الباجي ورفيقه التلمساني قطعوا المسافة مِنْ مُنية ابن الخصيب إلى مصر القاهرة في سبعة أيام، وأنهما لما وصلا القاهرة نزلا بخان الملاحين، ثم قال مُتحَدِّثًا عن الباجي: "فأقام به (أي بالخان) ليلته تلك ويومها، وتوفي في ثلث الليلة القابلة"[42].

وهنا فقد ابن الخضار التلمساني رفيق الرحلة، ويحكي ابن عبد الملك بعض تفاصيل الوفاة وقال إن الناس في القاهرة احتفلوا في جنازة الأندلسي وتأسّفوا لفقده، ولاشك أن أكثرهم تحسّرا وتأسّفا على الفراق هو رفيق رحلته ابن الخضار التلمساني، وكانت وفاة الباجي ليلة الجمعة 28 جمادى الأولى من عام 635هـ، وكان مدفنه بالقرافة[43]، وقد سرد ابن عبد الملك تفاصيل موته وجنازته، ولاشك أنه رواها عن ابن الخضّار إذ كان المراكشي قد لقي التلمساني بسبتة وأقام عنده بِبَيْتِه، غير أن ابن عبد الملك -كما هي عادته- لا يُصَرِّح بمصدر معلوماته. وبخلاف هذا نجد ابن رشيد السبتي أمينا في رواية بعض التفاصيل المتعلقة بواقعة موت الباجي ومدفنه، يقول الحافظ السبتي: "لقد حدّثني شيخنا العدل أبو عبد الله ابن الخضّار- وكان ممن صحبه في هذه الوجهة من سبتة ولم يفارقه إلى وقت وفاته- أنه انتهى الحال في ازدحام على نعشه وتمسحهم به

أن يزيل الرجل عمامته من رأسه ويرمي بها لتنال نعشه فإذا مسّت النعش اختطفها الناس قطعا حتى لا يبقى في يد مرسلها إلا ما قبضت عليه يده، وأُعيدت الصلاة عليه مرارا. قال لي أبو عبد الله، وعنه خبر رحلته ووفاته إلا نسبة المقبرة، "وسرنا إلى قبره صبيحة دفنه فألفينا عليه قُبّة قد أُحكمت وأتمّ بناؤها ليلا، ولم نَدْرِ مَنْ صَنَعَهَا عناية ربانية تومئ بسعادته وتشهد بوضع القبول له"[44].

وكان ابن الخضّار قد روى عن الباجي في طريق الرحلة تآليف سجّلها التجيبي في "برنامجه" و"مستفاد رحلته"، وابن رشيد في "ملئ عيبته". كما سرد ابن عبد الملك أسماء طائفة من تلاميذ الباجي، ثم قال: روى عنه عدد من العلماء، منهم "ابن الخضار نزيل سبتة، وصحبه في وجهته المشرقية، وحجّ معه ولزمه إلى أن فرّق الموت بينهما"[45].

وبعد وفاة الباجي في القاهرة رجع ابن الخضار التلمساني إلى سبتة. ولسنا ندري الطريق التي سلكها، ولاشك أنه عانى الكثير من المشقّة قبل أن يصل إلى مترله. وفي سبتة أقبل ابن الخضار على التدريس والإقراء، وقد تتلمذ عليه عدد كثير من طلبة العلم مِنْ أهل سبتة ومن الواردين عليها، قال ابن عبد الملك: "روى عنه غير واحد من أصحابنا"[46]، واكتفى ابن الزبير بالقول: "أُخذَ عنه بسبتة"[47]، وسمّى ابن القاضي أحد مَنْ أجازهم ابن الخضّار فذكر أنه "أجاز لابن جابر"[48]، أما أشهر تلاميذه فهو القاسم بن يوسف التجيبي السبتي، وقد سردنا بعض مروياته عنه اقتضى سياق رحلة ابن الخضّار أن نُقَدِّمها، ومما لم تسبق الإشارة إليه أنه ذكر في "مستفاد الرحلة" سنده في حديث "ما اجتمع قوم على ذكر إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة" من طريق أبي المعالي أحمد بن اسحاق القرافي. ثم قال في نسب الإمام رزق الله بن عبد الوهاب التميمي الحنبلي، وهو وطائفة من سلفه من رجال سنده في الحديث المذكور: "هكذا ثبت هذا النسب من هذه الطريق، وقد ذكره الأمير أبو نصر بن ماكولا، وفيه بعض اختلاف"[49]، وبعد هذا أتى برواية ابن ماكولا، ثم قال: "وروينا أيضا سياق النسب من طريق أخرى، أخبرنا به الشيخان الجليلان: التاريخي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي بقراءتي عليه عودا على بدء، والامام الحافظ الأديب كمال الدين أبو العباس ابن أبي الفتح بن العطار الدمشقي بقراءتي عليه بداره منها، قال: أخبرنا الإمام المفتي تقيّ الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن النصري سماعا، قال: أخبرني الشيخ أبو الحسن مؤيد بن محمد بن علي النيسابوري بقراءتي عليه بها الحديث"[50].

ومن أشهر تلاميذه أيضا: الحافظ ابن رشيد السبتي، قال في مُدوّنة رحلته "ملئ العيبة": "الحاج المحدث الضرير أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي شهر بابن الخضار، قرأت عليه وسمعت. ومن ذلك: كتاب "معرفة علوم الحديث" لابن الصلاح. وحدّثني به عن مؤلّفه رحمه الله"[51]، وقد ذكر ابن القاضي سماعه على ابن الصلاح فقال: "محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي التلمساني السبتي. ابن الخضّار، نزيل سبتة، سمع علوم الحديث لابن الصلاح عليه بدمشق سنة 634هـ"[52].

*صفاته: كان ابن عبد الملك المراكشي قد تعرّف على ابن الخضّار وخبر من أحواله الشي الكثير، قال في وصفه: "ولقيته بسبتة وحاضرته كثيرا وبايته وشاهدت من ذكره [ما يقضي منه العجب، وكان] تاريخيا حافظا، أكمهَ، يخترق أزقة سبتة وربضها [دون اعتماد على أحد، وسايرته ببعض شوارعها فربما عطف بالترحم أو بالذكر على زُقاق [أو مقبرة عند محاذاته إياهما] وأخبرت عنه بعجائب أغرب من هذا النوع"[53]، وقال فيه ابن الزبير: "وكان فاضلا مجتهدا في العبادة، وكانت له معرفة بالتاريخ وغير ذلك، مع تيقُّظٍ وفطنة وحسن سمت"[54].

*دخوله الأندلس: ذكر ابن الزبير الغرناطي أن ابن الخضّار صحب الباجي إلى المشرق، "ثم قفل فاستوطن سبتة ودخل الأندلس تاجرا"[55]، وفي هذا ما يدل على هِمّة تثير الإعجاب، فهذا الأعمى لم تطاوعه نفسه على أن يكون عالة على غيره على الرغم من أنّ مكانته العلمية قد تُغنيه عن العمل إذا أراد، ولكنه لم يشأ أن يتّخذ العلم مطية للكسب، فدخل الأندلس ومارس التجارة. وقد كان هذا الدخول إلى الأندلس مفيدا، فلولاه لما كنا سنقف على ترجمة له عند ابن عبد الملك وابن الزبير، وترجماتهما له هما أوسع ما كتب عن الرجل. لا تذكر المصادر لأبي عبد الله ابن الخضّار أي نشاط علمي بالأندلس، ويبدو أنه دخلها في سِنٍّ مُتقدِّمة، وأنه بعد أن قام ببعض المعاملات التجارية بالأندلس رجع إلى سبتة وأوى إلى داره، وهناك وافته المنيّة.

*وفاته: قال ابن عبد الملك في ترجمة ابن الخضار: "توفي بسبتة بعد صلاة [....] يوم السبت آخر أيام شوال سبع وتسعين وستمائة"[56]، وذكر ابن الزبير أنه: "توفي في المُوَفّى ثلاثين لشوال عام سبعة وتسعين وستمائة"[57].

*ملحق: سبق أن ذكرت أنّ من أشهر تلاميذ ابن الخضار: الحافظ محمد بن عمر بن رشيد السبتي صاحب التآليف الحديثية والتاريخية المعروفة، وقد نصّ على سماعه عليه في كتابه "ملئ العيبة" فقال: "الحاج المُحدِّث الضرير أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي شهر بابن

الخضّار، قرأت عليه وسمعت، ومن ذلك: كتاب معرفة علوم الحديث لابن الصلاح. وحدثني به عن مؤلفه رحمه الله"[58]، وأشار ابن القاضي إلى هذا السماع فقال: "محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي التلمساني السبتي، ابن الخضار، نزيل سبتة. سمع علوم الحديث لابن الصلاح عليه بدمشق سنة 634هـ"[59].

ويُخبرنا ابن عبد الملك المراكشي في (الذيل والتكملة) بامتلاكه لأصل أبي مروان الباجي من تأليف ابن الصلاح في علوم الحديث، يقول في ترجمة الباجي المذكور:

"سمع بدمشق على نزيلها المحدّث الشهير أبي عمرو عثمان [بن عبد الرحمن] ابن الصلاح "تأليفه في علوم الحديث". وهذا الأصل الذي سمع فيه قد صار إليَّ والحمد لله، وفيه خطّ ابن الصلاح بتصحيح التسميع وقد تضمّن إذْنَه في روايته عنه لكل من حصّل منه نُسخة، فانتسخ منه جماعة من جِلّة أهل العلم ونبلائهم، منهم: أبو الحسن الشّاري وأبو عمرو عثمان ابن الحاج وأبو القاسم أحمد بن نبيل وغيرهم، ونسختُ منه نُسخة لبعض الأصحاب لأمر اقتضى ذلك لم يسع خلافه"[60].

وقد أدرك الدكتور محمد بنشريفة بحدسه العلمي الرفيع وباطلاعه على العلاقات التي تجمع ما بين المترجَمين والمذكورين في كتاب "الذيل والتكملة" أنّ بعض الأصحاب المشار إليه في كلام ابن عبد الملك قد يكون هو ابن رُشيد السبتي[61].

وإنه لمِنْ حُسْنِ الحظ أن تصل إلينا نُسخة ابن رشيد من تأليف ابن الصلاح في علوم الحديث، فقد تناقلتها الأيدي وسلمت من عوادي الزمان ونوائب الحدثان إلى أن استقرت بخزانة القرويين بفاس، وهي اليوم مُسَجّلة في الخزانة تحت رقم 1738 (مِكروفيلم:685)، وعليها سماع ابن رُشيد للكتاب على شيخه ابن الخضّار التلمساني، نقرأ في أول ورقة من المخطوطة ما يلي:

"الحمد لله، أكملتُ سماع هذا الكتاب على الفقيه الحاج أبي عبد الله محمد بن محمد عبد الله الكتامي التلمساني شهر بابن الخضار بمدينة سبتة كلأها الله تعالى، في الثاني لشهر صفر عام ثلاثة وثمانين وستمائة وكان السماع بقراءة الفقيه الكاتب الجليل أبي عبد الله محمد بن [عمر] الأنصاري شهر بالدراج[62]، [وكانت] القراءة المذكورة في الفرع المقابل بأصل المؤلف الذي أعطاه أبا مروان الباجي[63]، وفيه كان سماع الحاج أبي عبد الله الخضّار على المؤلف بدمشق كلأها الله تعالى حسبما تقيّد في آخر الكتاب. قال الحاج أبو عبد الله وكان هذا الفرع قد حضرت من

مقابلته من أوله إلى قوله في النوع الثالث والعشرين الخامس عشرة في بيان الألفاظ ثم أكمل [مقابلته] له أبو القاسم أحمد بن نبيل[64]، ولم أحضر. وكان أبو القاسم ممن يوثق بضبطه ومقابلته. وأجاز لي الحاج أبو عبد الله جميع ما يروي عن أشياخه، وتلفّظ بالإجازة، وأجاز لابني أبي القاسم محمد[65] هداه الله تعالى وعيّن له هذا الكتاب، وكتب بخطّه محمد بن عمر بن رُشَيْد وفقه الله تعالى.

(وأسفل نص السماع، وبخط ابن رشيد دائما بقلم مغاير) :

"أنشدنا شيخنا الفقيه فخر الأدباء و[...] البلغاء أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف بن خلف بن عبد العزيز بن محمد الغافقي[66]، وقد قرئ على شيخنا الفقيه الأعدل أبي عبد الله بن الخضّار هذا الكتاب وهو معنا يسمع، فانتهيت إلى قوله: "أول الناس أول ناس"، فقال أبو القاسم: أنشدنا نجم الدين الفاضل البيساني :

يا أكمل الناس إحسانا إلى الناس * وأكمل الناس إغضاء عن الناس...................".

قُلتُ : وهذه نسخة ثمينة من كتاب (علوم الحديث) لابن الصلاح، فبحسب ما يُستفاد من نصّ السماع المثبت بأول الكتاب، فإن هذه النسخة كانت في ملك ابن رشيد السبتي العالم المعروف، قرأها على ابن الخضّار التلمساني وقابلها بأصل المؤلف الذي أعطاه أبا مروان الباجي، فهي إذن فرع من الأصل.

ويبدو أن هذه النسخة الثمينة التي نُسخت بسبتة قد بقيت عند ابن رشيد، ويبدو أنه حملها معه إلى فاس حيث كانت وفاته سنة 730هـ. ولسنا نعْرف لمن آلت النسخة بعد موت صاحبها، وأغلب الظن أنها بقيت في خزائن فاس المرينية، وقد أثبت الشيخ محمد العابد الفاسي في "فهرس خزانة القرويين" نصّ سماع مكتوب بآخر ورقة من المخطوطة يُستفاد منه أنها آلت إلى أحد أعلام العصر السعدي وهو أحمد ابن القاضي مُؤَلّف "جذوة الاقتباس" و"درة الحجال" و"زهر الآس" وغيرها من الكتب التاريخية المُفيدة، وقد نصّ في سماعه على أنه قرأ الكتاب على أحد أعلام الأدباء في عصر السعديين وهو أبو العباس المنجور، جاء في نص السماع، ما يأتي:

"الحمد لله، أكملت سماع هذا الكتاب على الفقيه العالم العلم المصباح سيدي وأستاذي أبي العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن المنجور[67] أدام الله النفع به آمين، بمدينة فاس المحروسة في الثاني والعشرين من ربيع النبوي المعظم عام احدى وتسعين وتسعمائة. بقراءتي وبعض الأوقات بقراءة الشيخ، وحضر معي للسماع الحميد النبيه أبو الحسن علي بن محمد السفياني الشهير بابن

[...] من المذكور جميع ما يروي عن أشياخه وتلفظ بذلك وعيّن هذا الكتاب وناولنيه أبقى الله وجوده والنفع به للمسلمين بجاه سيد الأولين والآخرين [...] أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي ابن أبي العافية الشهير بابن القاضي[68] [...] بمنه، وأماته على ملة الإسلام وسنة نبيه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله".

وقد علق مُفهرس خزانة القرويين العلامة محمد العابد الفاسي -رحمه الله- على هذه النسخة بقوله: "وهي في الواقع نسخة فريدة لولا البتر العظيم الواقع فيها"[69].

الهوامش:

1- المسالك والممالك 2 : 780

2- وُصف أحدهما بأنه أعمى، وقيل في الآخر إنه ضرير. (والضرير كأمير: الرجل الذاهب البصر، ومصدره الضرارة، وهو مجاز، ومنه يشكو الضرارة، والضرارة هنا : العمى). الزبيدي، تاج العروس، مادة: ضرر

3-صلة الصلة 4 : 162 . وتوخيا للضبط، وتفاديا للتحريف الذي قد يقع في اسم شهرة المترجم، قال الجزري: "ابن الخضار بمعجمتين". (غاية النهاية 1 : 579).

4-صلة الصلة 4 : 163

5-صلة الصلة 4 : 162

6-غاية النهاية 1 : 579

7-انظر ترجمة ابن مطروح بقلم كاتب هذه السطور في مجلة التاريخ العربي، العدد 54 ، (1431هـ/2010م) ص. 279-302

8-ابن القاضي، الفجر الساطع في شرح الدرر اللوامع، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم: 1825 ، ورقة 58.ب

9-صلة الصلة 4 : 162-163

10-غاية النهاية 1 : 579

11-الذيل والتكملة 8 : 357

12-صلة الصلة 4 : 162-163

13-غاية النهاية 1 : 579

14-صلة الصلة 4 : 162-163

15-غاية النهاية 1 : 579

16-صلة الصلة 4 : 163

17-الذيل والتكملة 8 : 357

18-صلة الصلة 3 : 43

19-الذيل والتكملة 8 : 357-358

20-صلة الصلة 3 : 43

21-الذيل والتكملة 8 : 357

22-الذيل والتكملة 8 : 357

23-صلة الصلة 3 : 43

24-أبو مروان الباجي: 38

25-أبو مروان الباجي: 38-39

26-الذيل والتكملة 5 : 689 وما بعدها

27-برنامج التجيبي : 272

28-برنامج التجيبي : 272

29-الذيل والتكملة 8 : 357-358

30-صلة الصلة 3 : 43

31-يعني شيخه أبا عبد الله محمد بن علي ابن قطرال الأنصاري (مذكرات ابن الحاج النميري : 193)

32-مذكرات ابن الحاج النميري : 194

33-صلة الصلة 3 : 43

34-قال ابن رشيد في ترجمة الباجي: "وسُمع عليه بدمشق الموطأ [رواية] الليثي، وعلى تقي الدين أبي محمد عبد الرحمن ابن أبي الفهم ابن عبد الرحمن بن عبد المنعم الدمشقي، بقراءة محمد ابن أبي جعفر أحمد بن علي ابن أبي بكر القرطبي. وسَمع شيخنا أبو عبد الله محمد بن محمد الكتامي عن الخضار عليهما بهذه القراءة جميعه". (إفادة النصيح : 103-104)

35- درة الحجال 2 : 263

36- بليدة بين مكة وجدة .

37- برنامج التجيبي: 272

38- طبع هذا الكتاب مؤخرا بتحقيق الدكتور عبد المغيث الجيلاني –منشورات الرابطة المحمدية للعلماء – المغرب.2010م

39- برنامج التجيبي: 242

40- في الأصل : برندة ، والصحيح هو ما أثبتناه .

41- مستفاد الرحلة والاغتراب: 178-179

42- الذيل والتكملة 5 : 696

43- الذيل والتكملة 5 : 696

44- إفادة النصيح : 104

45- الذيل والتكملة 5 : 688

46- الذيل والتكملة 8 : 357-358

47- صلة الصلة 3 : 43

48- درة الحجال 2 : 263 ، والمقصود هو ابن جابر الوادي آشي صاحب البرنامج.

49- مستفاد الرحلة : 160

50- مستفاد الرحلة والاغتراب : 160-161

51- رحلة ابن رشيد 6 : 66 . ب

52- درة الحجال 2 : 263

53- الذيل والتكملة 8 : 357-358

54- صلة الصلة 3 : 43

55- صلة الصلة 3 : 43

56- الذيل والتكملة 8 : 357-358

57- صلة الصلة 3 : 43 ، وقد ورد في النص المطبوع من كتاب "درة الحجال" لابن القاضي أن ابن الخضار "توفي سنة 727هـ".(درة الحجال 2 : 263)، وهو خطأ ، والصحيح: 797هـ.

58- رحلة ابن رشيد 6 : 66.ب

59- درة الحجال 2 : 263

60- الذيل والتكملة 5 : 688

61- الذيل والتكملة 8 : 123 (مقدمة التحقيق)

62- انظر ترجمته وأخباره في: صلة الصلة 3 : 43-44 ، ورحلة ابن رشيد 7 : 24-25 ، وبرنامج التجيبي (ص.167)، ومذكرات ابن الحاج النميري (ص.30-31)، وبرنامج الوادي آشي (ص.134)، والوافي بالوفيات 2 : 141 ، ودرة الحجال 2 : 248

63- انظر ترجمة الباجي في الذيل والتكملة 5 : 687-695

64- ترجمته في الذيل والتكملة 1 : 553-554

65- أنظر ترجمته في كتاب: الحافظ ابن رشيد السبتي الفهري وجهوده في خدمة السنة النبوية، للدكتور عبد اللطيف الجيلاني، ص.116-117

66- ترجمته وأخباره في : رحلة ابن رشيد 2 : 155 ، 191 ، والدرر الكامنة لابن حجر 2 : 85 ، ودرة الحجال: رقم 393 ، ونفح الطيب 3 : 352 ومن إنشاء المترجَم (رسائل ديوانية من سبتة) وهي مطبوعة بتحقيق محمد الحبيب الهيلة.

67- ترجمته في سلوة الأنفاس. وله فهرسة شيوخ منشورة .

68- مؤرخ معروف، صاحب "جذوة الاقتباس" و"درة الحجال" و"المنتقى المقصور" و"عوالي الاسناد" (فهرسة شيوخ)، وجميع هذه التآليف مطبوع إلا الفهرسة.

69- فهرس مخطوطات القرويين 4 : 390- 391.

لائحة المصادر والمراجع

1- ابن رُشيد السبتي (ت.721هـ)- إفادة النصيح بالتعريف بسند الجامع الصحيح- تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة- الدار التونسية للنشر-تونس-1974م.

2- ابن القاضي المكناسي- درّة الحجال في أسماء الرجال- تحقيق محمد الأحمدي أبو النور- دار التراث-القاهرة-1971.

3- ابن عبد الملك المراكشي (ت.703هـ)- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة-

السفر 1 ، تحقيق: محمد بن شريفة. دار الثقافة -بيروت.(د.ت)

السفر 5 ، تحقيق : إحسان عباس. دار الثقافة -بيروت.(د.ت)

السفر 8 ، تحقيق محمد بن شريفة. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية. الرباط.1984م

4- ابن القاضي- الفجر الساطع في شرح الدرر اللوامع- مخطوط رقم: 1825- الخزانة الحسنية- الرباط.

5- القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (ت.730هـ)- مُستفاد الرحلة والاغتراب- تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب- تونس-1975م.

6- أحمد بن ابراهيم ابن الزبير (ت. 708هـ)- صلة الصلة- تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، منشورات وزارة الأوقاف المغربية- الرباط.1995م.

7- ابن الجزري- غاية النهاية في طبقات القراء- طبعة دار الكتب العلمية-بيروت- 1980م.

- أبو عبيد البكري- المسالك والممالك- حققه وقدم له أدريان فان ليوفن وأندري فيري- الدار العربية للكتاب- بيت الحكمة، تونس- 199[illegible]م.

- ابن رشيد السبتي- رحلة ابن رشيد السبتي- السفر السادس. مخطوط الإسكوريال- رقم 1737.

- محمد بن شريفة- أبو مروان الباجي الإشبيلي ورحلته إلى المشرق (564هـ-635هـ)- كتاب دعوة الحق- العدد5، 14[illegible]هـ/1999م.

- محمد العابد الفاسي- فهرس مخطوطات خزانة القرويين- ج.4- ط.1- 1409هـ/1989م.

- رشيد الخاقي- من هو ابن مطروح شارح الحصرية؟- مجلة التاريخ العربي- العدد 54- (1431هـ/2010م) ص.279-302.
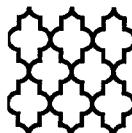
تلمسان من خلال كتاب "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم".

أ.د. عبد الكريم كريم*

تحتفل الأمة الإسلامية بمدينة تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية سنتنا هذه، وبهذه المناسبة تصدر مجلة "التاريخ العربي" دراسة تبرز دور المدينة في نشر الدعوة العربية الإسلامية منذ أن حلّ بها القادة الفاتحون الأوائل ومن جاء بعدهم من عرب المشرق الذين تمكن بعضهم من تأسيس دولات مستقلة مثل عبد الرحمن الداخل في الأندلس وعبد الرحمن بن رستم في تاهرت والمولى إدريس في زرهون...

يعد أبو قرة زعيم بني يفرن أقوى قبائل زناتة من القادة الأوائل لتلمسان، وعندما قامت الدولة الإدريسية في زرهون عام 172هـ أعلن أبو قرة بيعة المولى إدريس الذي زار تلمسان وبنى بها المسجد الذي لا تزال مئذنته قائمة حتى اليوم[1].

أوقف المرابطون زحف قبائل بني هلال وبني سليم في شرقي الجزائر "وبنى هذا الفاتح العظيم- يوسف بن تشفين- في مدينة تلمسان مساجد عظيمة شارك هو نفسه في تشبيدها فهناك الجامع الكبير بالجزائر العاصمة والجامع الكبير بندرومة وهناك الجامع الكبير بتلمسان"[5].

أصبحت مدينة تلمسان في عهد الدولة الموحدية من العواصم الرئيسية، فقد "أسند حكمها لعضو من أعضاء أسرة عبد المؤمن، وشيدوا بها الصروح والمباني العظيمة والقصور التي لم يدخروا وسعا في تزيينها وتجميلها"[3]، وحسب الجغرافي الإدريسي الذي عاش في النصف الثاني للقرن الثاني عشر كانت "تلمسان مدينة مزدهرة، بها وفرة البضائع التي تباع وتشترى بثمن رخيص، وتتوفر على المياه الغزيرة والحدائق الزاهية البديعة.."[4].

عرفت بلاد الشمال الإفريقي بعد ضعف الدولة الموحدية قيام الدولة الحفصية في تونس والدولة المرينية في المغرب و دولة بني عبد الواد في تلمسان "وبنو عبد الواد بدو من قبيلة زناتة

* - أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب- جامعة الرباط ورئيس جمعية المؤرخين المغاربة ومدير مجلة التاريخ العربي.

استعملهم الموحدون لحماية تلمسان"[5]، ويعد القائد يغمراسن مؤسس الدولة الذي دام حكمه أربعين سنة.

استرد بنو عبد الواد حكم تلمسان عام 1348م بقيادة أبي حمو الثاني، وظلت تلمسان عاصمة المغرب الأوسط حتى سيطرة الأتراك العثمانيين منتصف القرن السادس عشر....

عرفت تلمسان عاصمة المغرب الأوسط زمن بني عبد الواد "ألمع وأخصب فترة من تاريخها، فقد جعل منها مركز نفوذ ثقافي واسع أصبحت بحق العاصمة الدينية والثقافية لتعدد مدارسها مثل مدرسة العبّاد ومدرسة أبي مدين"[6] التي التجأ إليها عبد الرحمن ابن خلدون الذي يذكر ذلك قائلا: "لقد توجهت إلى مدرسة الشيخ أبي مدين فرارا من الشؤون المدنية، وطلبا للدرس بقدر ما يسمح لي بذلك"[7].

ومن جهة أخرى تعددت هجرات الأندلسيين إلى تلمسان في الأزمنة المختلفة، وازدهرت بصفة خاصة فنون الآلة الأندلسية كما شرح ذلك المقري في "نفح الطيب"[8].

من المصادر المخطوطة التي تحدث عن تلمسان عاصمة بني عبد الواد "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" لمؤلفه عبد الباسط الظاهري التركي الذي: "ولد في مدينة ملطية التركية، وعاش في الشام ومصر ومن الإسكندرية زار أقطار الشمال الإفريقي والأندلس ما بين سنتي 866-874هـ/1462-1477م)، وقد ترامنت رحلته مع الانتصارات التي حققها السلطان محمد الثاني "الفاتح" (1451-1481م) الذي فتح مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، واتخذها عاصمة للإمبراطورية التركية العثمانية باسم استامبول..."[9]

وفيما يلي مقتطفات مما أورده عبد الباسط الظاهري في كتابه عن الجزائر:

" ثم رحلنا من الجزائر فاجتزنا بطريقنا إلى تلمسان[10]".

صـــلاة عيد الأضحى بتلمسان (الأحد 10 ذي الحجة 866ه/1462م)

وفي يوم الأحد عاشره كان عيد النحر بتلمسان، فخرجنا للمصلى بظاهرها، وحضر محمد بن أبي ثابت صاحب تلمسان صلاة العيد في هذا اليوم.

ربض العباد بتلمسان في 5 محرم 867هـــ/1462م)

وفيه، في يوم الجمعة خامسه خرجت من تلمسان قاصدا ربض تلمسان الذي يقال له العباد، ونسبته لتلمسان كنسبة ضاحية دمشق لها، وبه مقام لشيخ متبرك أبو مدين الإشبيلي

القطب، الولي، العارف، نفعنا الله تعالى ببركاته فزرته، ثم اجتمعت بسيدنا وشيخنا الإمام، العالم، العلامة أبي عبد الله محمد بن العباس شيخ تلمسان وعالمها، وخطيب جامع العباد، تغمده الله تعالى برحمته، فوجدته بحرا في الفنون العلمية آية في ذلك، فأنس في، ثم سمعت خطبته التي شنف بها الأسماع وموعظته التي بها الانتفاع، وترددت إليه بعد ذلك، وحضرت كثيرا من دروسه الحافلة في كثير من الفنون العلمية، واستفدت الجم من فوائده في مدة ستة شهور، وكان أجل علماء تلمسان في عهده ذلك، و له من السن نحو الثمانين سنة أو جاوزها، مع تمتعه بحواسه وسلامة بدنه.

الاجتماع بعلماء تلمسان: ثم لقينا من العلماء بتلمسان قاضي الجماعة بها الشيخ، العالم الفاضل، سيدي أبي عبد الله محمد العقباني، وأخيه سيدي أبي سالم إبراهيم خطيب جامع تلمسان الأعظم وإمامه، وسيدي الشيخ، العالم محمد ابن مرزوق، وسيدي الشيخ محمد بن زكرياء مفتي تلمسان، و السيد الشريف يحي ابن أبي الفرج قريب السيد الشريف التلمساني قاضي غرناطة وعالم الأندلس.

ولقينا بها جماعة أخرى من الفضلاء والأدباء والأطباء، منهم: سيدي علي بن فشوش أحد أطباء تلمسان في المزاولة والدربة، وسمعت من فوائدهم، وحضرت دروس بعضهم، ونقلت عنهم أشياء، وأجازوني، ولازمت في الطب الرئيس الفاضل، الماهر، الأدربي الأقدري، موسى بن صمويل بن يهودا الإسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي، المتطبب المعروف بأبيه، هداه الله تعالى للإسلام، لم أسمع بنمي، ولا رأيت كمثله في مهارته في العلم، وفي علم الوقت والميقات وبعض العلوم القديمة، مع التعبد الزائد في دينه على ما يزعمه و يعتقده، وهو في الأصل من يهود الأندلس، وولد بمالقة قبل العشرين وثمانماية، وأخذ عن أبيه وغيره، ومهر في صناعة الطب، وانتقل إلى تلمسان فقطنها، وقصده الكثير من الفضلاء للأخذ عنه، لازمته مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب، وغيره، وأجازني، وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في الطب بتلمسان، وهو مقرب ومختص بصاحبها من غير أن يداخله فيما يتعلق بالمملكة لعقله ورأيه، أسأل الله تعالى أن يمته على ملة النبي صلى الله عليه و سلم".

"شهر شعبان" تحصين تلمسان (870هـ/1467م).

القطب، الولي، العارف، نفعنا الله تعالى ببركاته فزرته، ثم اجتمعت بسيدنا وشيخنا الإمام، العالم، العلامة أبي عبد الله محمد بن العباس شيخ تلمسان وعالمها، وخطيب جامع العباد، تغمده الله تعالى برحمته، فوجدته بحرا في الفنون العلمية آية في ذلك، فأنس في، ثم سمعت خطبته التي شنف بها الأسماع وموعظته التي بها الانتفاع، وترددت إليه بعد ذلك، وحضرت كثيرا من دروسه الحافلة في كثير من الفنون العلمية، واستفدت الجم من فوائده في مدة ستة شهور، وكان أجل علماء تلمسان في عهده ذلك، و له من السن نحو الثمانين سنة أو جاوزها، مع تمتعه بحواسه وسلامة بدنه.

الاجتماع بعلماء تلمسان: ثم لقينا من العلماء بتلمسان قاضي الجماعة بها الشيخ، العالم الفاضل، سيدي أبي عبد الله محمد العقباني، وأخيه سيدي أبي سالم إبراهيم خطيب جامع تلمسان الأعظم وإمامه، وسيدي الشيخ، العالم محمد ابن مرزوق، وسيدي الشيخ محمد بن زكرياء مفتي تلمسان، و السيد الشريف يحي ابن أبي الفرج قريب السيد الشريف التلمساني قاضي غرناطة وعالم الأندلس.

ولقينا بها جماعة أخرى من الفضلاء والأدباء والأطباء، منهم: سيدي علي بن فشوش أحد أطباء تلمسان في المزاولة والدربة، وسمعت من فوائدهم، وحضرت دروس بعضهم، ونقلت عنهم أشياء، وأجازوني، ولازمت في الطب الرئيس الفاضل، الماهر، الأدربي الأقدري، موسى بن صمويل بن يهودا الإسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي، المتطبب المعروف بأبيه، هداه الله تعالى للإسلام، لم أسمع بنمي، ولا رأيت كمثله في مهارته في العلم، وفي علم الوقت والميقات وبعض العلوم القديمة، مع التعبد الزائد في دينه على ما يزعمه و يعتقده، وهو في الأصل من يهود الأندلس، وولد بمالقة قبل العشرين وثمانماية، وأخد عن أبيه وغيره، ومهر في صناعة الطب، وانتقل إلى تلمسان فقطنها، وقصده الكثير من الفضلاء للأخذ عنه، لازمته مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب، وغيره، وأجازني، وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في الطب بتلمسان، وهو مقرب ومختص بصاحبها من غير أن يداخله فيما يتعلق بالمملكة لعقله ورأيه، أسأل الله تعالى أن يمته على ملة النبي صلى الله عليه و سلم".

"شهر شعبان" تحصين تلمسان (870هـ/1467م).

القطب، الولي، العارف، نفعنا الله تعالى ببركاته فزرته، ثم اجتمعت بسيدنا وشيخنا الإمام، العالم، العلامة أبي عبد الله محمد بن العباس شيخ تلمسان وعالمها، وخطيب جامع العباد، تغمده الله تعالى برحمته، فوجدته بحرا في الفنون العلمية آية في ذلك، فأنس في، ثم سمعت خطبته التي شنف بها الأسماع وموعظته التي بها الانتفاع، وترددت إليه بعد ذلك، وحضرت كثيرا من دروسه الحافلة في كثير من الفنون العلمية، واستفدت الجم من فوائده في مدة ستة شهور، وكان أجل علماء تلمسان في عهده ذلك، و له من السن نحو الثمانين سنة أو جاوزها، مع تمتعه بحواسه وسلامة بدنه.

الاجتماع بعلماء تلمسان: ثم لقينا من العلماء بتلمسان قاضي الجماعة بها الشيخ، العالم الفاضل، سيدي أبي عبد الله محمد العقباني، وأخيه سيدي أبي سالم إبراهيم خطيب جامع تلمسان الأعظم وإمامه، وسيدي الشيخ، العالم محمد ابن مرزوق، وسيدي الشيخ محمد بن زكرياء مفتي تلمسان، و السيد الشريف يحي ابن أبي الفرج قريب السيد الشريف التلمساني قاضي غرناطة وعالم الأندلس.

ولقينا بها جماعة أخرى من الفضلاء والأدباء والأطباء، منهم: سيدي علي بن فشوش أحد أطباء تلمسان في المزاولة والدربة، وسمعت من فوائدهم، وحضرت دروس بعضهم، ونقلت عنهم أشياء، وأجازوني، ولازمت في الطب الرئيس الفاضل، الماهر، الأدربي الأقدري، موسى بن صمويل بن يهودا الإسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي، المتطبب المعروف بأبيه، هداه الله تعالى للإسلام، لم أسمع بنمي، ولا رأيت كمثله في مهارته في العلم، وفي علم الوقت والميقات وبعض العلوم القديمة، مع التعبد الزائد في دينه على ما يزعمه و يعتقده، وهو في الأصل من يهود الأندلس، وولد بمالقة قبل العشرين وثمانماية، وأخذ عن أبيه وغيره، ومهر في صناعة الطب، وانتقل إلى تلمسان فقطنها، وقصده الكثير من الفضلاء للأخذ عنه، لازمته مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب، وغيره، وأجازني، وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في الطب بتلمسان، وهو مقرب ومختص بصاحبها من غير أن يداخله فيما يتعلق بالمملكة لعقله ورأيه، أسأل الله تعالى أن يمته على ملة النبي صلى الله عليه و سلم".

"شهر شعبان" تحصين تلمسان (870هـ/1467م).

وفيه، في أوائل شعبان، ابتدأ صاحب تلمسان في بناء برج عظيم على باب تلمسان، وأخذ في قطع ما إلى جانب الباب من خارجه من الأشجار، واجتهد في تحصينها، وتفقد أسوارها، وجدّ في العمل في إنشاء هذا البرج، حتى أنهاه في أواخر هذا الشهر.

وفيه، أعني هذا الشهر، بعد نهاية البرج، خرج صاحب تلمسان إلى مكان يقال له جبل بني مشعل وبه حصن منيع، فتفقده، وأشيع بأنه قصد أن يبعث بحريمه وذخائره إليه إذ بلغه مجيء صاحب تونس إليه.

إخراج المستعين بالله بن الأحمر من غرناطة (867هـ/1462م).

وفيه، في هذه الأيام أيضا، ورد الخبر إلى تلمسان بأن صاحب غرناطة وملك الأندلس أمير المسلمين المستعين بالله سعد بن أبي عبد الله محمد ابن أبي الحاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل بن نصر المعروف بابن الأحمر، قد وقعت الوحشة بينه وبين ولده أبا الحسن عليا، وثار أبو الحسن المذكور على أبيه فأخرجه من غرناطة وملكها، وأن المستعين بالله توجه لمالقة، وسبب ذلك الوزراء من أمثال أبي السراج وغيرهم الذين حسنوا هذا لأبي الحسن.

شهر صفر: وفيها- أوائل صفر- ورد الخبر إلى تلمسان بأن المستعين بالله صاحب غرناطة بعث إليه ولده الذي ملك بعده من حمله إلى بعض حصون الأندلس مضيقا عليه به.

استيلاء البرتغال على جبل الفتح(867هـ):

وفيه- أعني هذا الشهر- أخذ الفرنج البرتغال البلد المعظم أحد أعز حصون الإسلام وبلدانها بالأندلس المسمى بجبل الفتح، وذلك في هذه الفتنة الكائنة بين الأب والابن، أعني أبا النصر سعد بن الأحمر، وولده أبا الحق، الماضي خيرهما؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون؛ فإن ذلك من أصعب المصائب في الإسلام، لأن من هذا الحصن كانت بداية أخذ بلاد الأندلس من الكفار في الزمن الأول، وهو أعظم معاقل الإسلام بالأندلس، وخرج أهلها منها بالأمان، وبالله المستعان، ولما بلغ هذا الخبر تلمسان وغيرها من بلاد الإسلام بهذه الجهة، عظم ذلك عليهم، وكثر التأسف على ضعف الإسلام بالأندلس، واشتغالهم عن حفظ الحصون الإسلامية بما هم فيه من الفتن وطلب العزّ والسلطان المفضي إلى الذل و الهوان.

وبلغنا أن الكفار احتالوا بعض حيلة على أهل جبل الفتح، ثم أمنوهم؛ فخرجوا ولم يتعرّضوا لهم البتة، بل أعانوهم على نقل الكثير من أمتعتهم، وإيصالهم إلى حيث مأمنهم.

عزم ألفونس ملك قشتالة الزحف على الأندلس (867هـ)

وفيه ورد الخبر إلى تلمسان من الأندلس بأن ألفنس صاحب قشتالة وإشبيلية وقرطبة وباقي ما في ذلك من بلاد الفرنج وممالكها قد عزم على الزحف على الأندلس لغزوها وأخذها للخلاف الكائن بين الأب والابن، أعني ملك الأندلس سعدا وولده أبا الحسن وما وقع لهما، وأرجف بذلك في تلك البلاد، ولما بلغ أبو الحسن ذلك، بعث باستقدام أبيه من الحصن الذي كان به.

ولما خرج الأب توجه إلى مدينة ألمرية فأقام بها، ولم يعارضه ولده في ذلك، بل بعث إليه فطلب رضاه والاعتذار إليه، وأنه الملك وهو في معنى وزيره ونحو ذلك من الكلمات، وكان بألمرية القائد محمد بن سيلهم فقام بأمر المستعين بالله سعد هذا أتم القيام وخدمه، ولم يزل بألمرية كالمتصافي مع ولده حتى مات بها في آخر السنة هذه على ما بلغني.

شهر جمادى الأولى، انشغال صاحب قشتالة بثورة الفرنج(867هـ)

وفيه، أعني هذا الشهر ثار بعض ملوك الفرنج بصاحب قشتالة؛ فأشغلهم الله تعالى عن المسلمين وما كان قصده، وردّ الله تعالى كيده في نحره حتى بعث يلتمس الصلح بينه وبين المسلمين من أهل الأندلس، واتفق الحال على عقد الصلح بينه وبينهم في هذه السنة إلى مدة خمسة سنين، وحصل لبعض الناس بل لعامة أهل الأندلس بعض الطمأنينة، وأمنوا شرّ صاحب قشتالة.

استيلاء الفرنج على حصن لوشا (867هـ)

وفيه أخذ الفرنج في أثناء التكلم في الصلح قبل أن يعقد حصنا للمسلمين بالأندلس، وكنت أعرف اسمه وإنما أنسيته الآن. وأظنه حصن لوشا، وما حررت ذلك إلى الآن لبعد العهد بتلك البلاد.

شهر رجب، رعب الفرنج من السلطان العثماني

وفيها استهل شهر رجب (869هـ/1466م) بالأحد، وفيه في هذا اليوم أشيع بتلمسان أن ابن عثمان ملك الروم قد تهيأ وعزم على المشي على بلاد الفرنج من جهة المغرب لإبادتهم، وزادت هذه الإشاعة، وكثرت في هذا الشهر بكثير من بلاد المغرب وبلاد الكفار حتى بلغني بعد

ذلك أن هذه الإشاعة دخل رعبها في قلوب الكثير من الفرنج النائيين عن بلاد ابن عثمان، وحتى النائيين ببعد كبير عن بلاد ابن عثمان.

شهر ربيع الآخر، السفر في البحر إلى الأندلس (869هـ):

وفيه، في يوم نصفه، سافرت في البحر الملح إلى البلاد الأندلس في مركب كبير للجنويين مع جماعة من تجار الأندلس وتلمسان ووهران.

دخول مالقة (869هـ):

وفيه، في يوم الجمعة ثالث عشرينه دخلنا لمدينة مالقة من بلاد الأندلس فترلنا بها، واجتمعت بها بالشيخ العالم، الإمام، الهمام، سيدي أبو العباس أحمد السيد الشريف التلمساني، شيخ الأندلس وعالمها، وقاضي الجماعة بغرناطة، بل عالم المغرب في وقته، فأنس بنا، وسمعنا الكثير من فوائده. واجتمعت أيضا بالشيخ العالم، الفاضل، سيدي أبو عبد الله محمد بن الترعة قاضي مالقة وخطيبها.

قصبة مالقة:

وفيه- أعني هذا اليوم- الخميس تاسع عشرينه- صعدت بمالقة إلى قصبتها، وهي السلطنة وبها دار الإمارة، وكانت حينئذ خالية من السكان لأنها لم يكن بها عاملا حينئذ، فرأيتها قصبة هائلة، وبها الآثار العظيمة، وهي من تجديد السلطان الكبير أبو الحسن المريني ملك المغرب الذي ملك المغرب جميعه وملك الأندلس، الملقب بالمنصور.

وصف غرناطة (869هـ)

واجتزنا في الغد على الطريق لجهة غرناطة، فدخلناها في اليوم الثاني صبيحة النهار، وكان ذلك في أواخر هذا الشهر، ورأيت غرناطة، فإذا بها بلدة نزهة عظيمة من أعظم بلاد الأندلس، وهي قاعدة ملك الإسلام بالأندلس، وتحت السلطنة بها، غريبة الوضع حسنة الأبنية، ظريفة، أنيقة، بديعة الوضع، بها سائر أرباب الصنائع، وهي كدمشق الشام، وبها المياه الجارية والبساتين الأجنة والكروم، وهي مجمع الفضلاء والعلماء والأعيان والشعراء وأرباب الفنون والعمالات، وبها بقايا الناس والآثار العظيمة، وأمكنة الترهة، وهي في الجند تقدير دمشق، لكنها محشوة حشوا، وأهلها من خيار أهل البلاد وأشجع الناس، يقال إن بها ثمانين ألف رام بقوس الجوخ. ومن كانت العامة من أهل غرناطة معه من ملوك راج أمره، ومن شاءوا سلطنته أبقوه، ومن أبوه أخرجوه.

وبها الطريف والآداب الغريبة، وبالجملة فهي من أعظم بلاد المغرب وأنزهها، لقيت بها جماعة من العلماء والفضلاء، منهم شيخنا، سيدنا ومولانا قاضي الجماعة بها، الشيخ الإمام، العالم

العلامة، أبي عبد الله محمد ابن منظور، إنسان من كبار أهل العلم والفضل الغزير، له نورة وحسن سمت، وسكون زائد ووقار، ودين وخير وأدب وحشمة وورع، وعليه حضرت عنده غير ما مرة، وسمعت الكثير من فوائده، كثر الله في الإسلام من مثله، وقد بلغني أنه موجود إلى الآن في هذا الزمان، وهو باق على قضائه ومنصبه لدينه وعفته وحسن سيرته، وتحرزه وشكره في إنصافه وقضائه بالحق والعدل، حفظه الله تعالى وأبقاه، وبعين عنايته رعاه.

وفيه، في ثاني عشر منه، خرجت إلى جهة أجنة غرناطة وبساتينها، فرأيت العجب من كثرة ذلك وما بها من الفواكه والخيرات.

خرجنا للتنزه في كروم غرناطة أيضا من جهتها الأخرى غير جهة الأجنة فرأينا فيها أمرا مهولا من الأشجار من عنب وتين.

وفيه- في يوم الجمعة تاسع عشر منه- طلعت إلى صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن، وهو بحصنه دار الإمارة التي يقال لها غرناطة، فأنس إلي، وكان بعث يطلبني إليه ليسألني عن أخبار صاحب تلمسان وصاحب تونس، فذكرت له ما حضرني من ذلك، ثم أخذ يسألني عن الشام وأحواله، وعن مصر وأحوالها وأنا أجيبه عن كل ما يسأل من ذلك، وهو متعجب بما أجيبه، ثم خرج لي أمره بأن لا يأخذ مني شيء مما يلزم التجار من المغارم، وأكرمني إلى الغاية.

وبالجملة، فإن غرناطة هذه وحمراءها من أجل مدن الأقاليم وأظرفها، لولا قرب الكفار من تلك الديار وأخذهم غالب تلك الأقطار الأندلسية والكثير من مدن الإسلام التي كانت مشهورة، لاسيما في أيام بني أمية بها، مثل بلنسية وقرطبة وطليطلة وشنونة وجيان، والحصون المنيعة كشاطبة وغير ذلك من بلاد كثيرة كانت للإسلام صارت للفرنج الآن، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

شهر رجب، ركوب البحر إلى وهران:

وفيها استهل رجب بالاثنين، ففيه، في هذا اليوم، ركبنا البحر عائدين إلى وهران فدخلتها في رابع رجب هذا، وعزمت على السفر في البحر في المركب التي ركبنا بها والتوجه فيها إلى جهة تونس...".

لقد تزامنت رحلة عبد الباسط الظاهري إلى أقطار الغرب الإسلامي مع الانتصارات التي حققها السلطان محمد الفاتح بفتح بيزنطة واتخاذها عاصمة للإمبراطورية العثمانية، ثم الانطلاق منها للقيام بالفتوحات في أوروبا الشرقية في الوقت التي تضاعفت هجومات الأسبان والبرتغال لاحتلال ما تبقى للعرب والمسلمين بالأندلس، وللتمركز في قواعد هامة بشمالي إفريقيا...

فهل كان عبد الباسط الظاهري مكلفا بجمع معلومات عن أقطار الغرب الإسلامي المهددة بالغزو المسيحي الإسباني والبرتغالي؟

"ورد الخبر إلى تلمسان بأن صاحب غرناطة قد وقعت الوحشة بينه وبين ولده... وفيه أعني هذا الشهر أخذ الفرنج البرطقال البلد العظيم المسمى بجبل الفتح، وذلك في هذه الفتنة الكائنة بين الأب وابنه... وفيه ورد الخبر إلى تلمسان من الأندلس بأن ألفنس صاحب قشتالة وإشبيلية وقرطبة قد عزم على الزحف على الأندلس لغزوها وأخذها للخلاف بين الأب وابنه..." [11].

وعندما زار عبد الباسط الظاهري صاحب غرناطة السلطان أبي الحسن هل بشره بنجدة السلطان العثماني لأقطار الغرب الإسلامي؟ سألني عن الشام وأحواله وعن مصر وأحوالها وأنا أجيبه عن كل ما يسأل من ذلك، وهو متعجب مما أجيبه...".

و"استهل شهر رجب (869هـ/1466م) بالأحد، وفي هذا اليوم أشيع بتلمسان أن ابن عثمان ملك الروم قد تهيأ و عزم على المشي على بلاد الفرنج من جهة المغرب وبلاد الكفر حتى بلغني بعد ذلك أن هذه الإشاعة دخل رعبها في قلوب الكثير من الفرنج النائيين عن بلاد ابن عثمان، حتى النائيين ببعد كبير عن بلاد ابن عثمان..." [12].

المراجع:

-(1) تلمسان: سلسلة الفن والثقافة، وزارة الأنباء والثقافة الجزائرية، مدريد، دجنبر 1971،ص.12.

- (2) المصدر نفسه، ص. 18.

- (3) المصدر نفسه، ص. 18.

- (4) المصدر نفسه، ص. 18.

- (5) المصدر نفسه، ص. 18.

- (6) المصدر نفسه، ص. 40.

- (7) المصدر نفسه، ص. 40.

- (8) المصدر نفسه، ص. 52.

- (9) مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس من خلال مخطوطه "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم"، مجلة" التاريخ العربي"، العدد السابع عشر، شتاء 2001، صص. 111-146.

-(10) المصدر نفسه.

- (11) المصدر نفسه.

- (12) المصدر نفسه.

علماء تلمسان من خلال المصادر الشرقية: الدّيباج لابن فرحون وتوشيحه للقرافي نموذجا.

أ.د. جمعة شيخة*

تعتبر مدينة تلمسان (بكسر التّاء وفتحها) من أعرق مدن المغرب الأوسط[1]، وتقع في مفترق طريقين : الأوّل يربط بين تونس شرقا ووجدة غربا وهو أحد الطرق البرّيّة للحجّ، والثاني هو الطريق الرّابط بين ساحل البحر الأبيض المتوسّط شمالا (مرفأ حنين ورشقون Hunayn, Rachgoun) والصحراء جنوبا (مدينتا تيزل وسجلماسة) وهو طريق تجاري (تجارة الذّهب والعاج والعبيد)[2].

وقد تكون تسمية تلمسان متأتّية من هذا الموقع الجغرافي والاستراتيجي للمدينة : ففي لغة زناتة هناك "تَلَمْ" ومعناه اجتماع، و"سَانْ" ومعناه اثنان[3].

خضعت تلمسان للمرابطين بعد أن فتحها يوسف بن تاشفين 474هـ/1081م وأصبحت في عهدهم مركزًا علميّا نوّه به البكري قائلا : "لم تزل تلمسان دارًا للعلماء والمحدّثين وحملة الرأي على مذهب مالك"[4]، ثمّ خضعت للموحّدين بعد سقوط دولة المرابطين وحصّنها عبد المؤمن بن علي بسور سنة 540هـ/ 1145م، وأكيد أنّ الدّراسات الفقهيّة على المذهب المالكي أصابها بمدينة تلمسان من الرّكود ما أصاب بقيّة الجهات في العدوة الإفريقيّة في عهد الخلافة الموحّديّة.

وأصبحت تلمسان عاصمة لدولة بني عبد الواد بعد سقوط الدّولة الموحّديّة وتفتّت وحدة الشّمال الإفريقي منذ منتصف القرن 7هـ/ 13م[5]، وتعرّضت هذه الدّولة طيلة أكثر من ثلاثة قرون إلى فتن داخليّة قبليّة وإلى أخطار خارجيّة : في بدايتها من فاس المرينيّة وتونس الحفصيّة

*- أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي- جامعة تونس، ومدير مجلة دراسات أندلسية- تونس.

وفي نهايتها من الإسبان والأتراك. لكنّ كلّ ذلك لم يمنع من فترات استقرار مع أمراء مشجّعين للعلم والعلماء استعادت فيها المدينة شيئا فشيئا دورها العلمي، وإن لم يكن ذلك مقنعًا للعبدري عندما زار تلمسان في النّصف الثاني من القرن 7هـ/13م؛ فلم يجد فيها "من ينتمي إلى العلم ولا من ينتسب إليه بسبب"[6]، وسوف لن يكون لهذه النّظرة التشاؤميّة من مبرّر خلال القرن 8هـ/14م، وما بعده فقد أصبحت تلمسان مركزًا علميا لا يستهان به ينافس غرناطة في الأندلس وفاس بالمغرب وتونس بإفريقيّة.

وقد حفظت لنا كتب التّراجم والطبقات، ومصنّفات الفهارس والبرامج بما فيها من تراجم لعلماء تلمسان صورة حيّة عن هذه الحياة العلميّة بها. ولئن كانت التّرجمة لعلماء تلمسان في المصادر المغربيّة أمرًا متوقّعا ومألوفا، فقد ارتأينا أن ننظر في مصدرين مشرقيين للتعرّف على مدى حضور علماء تلمسان في المشرق العربي ومدى اطلاع المشارقة على الحياة الفكريّة والعلميّة بها.

وليس المقصود من هذا البحث تعداد علماء تلمسان فهم كثر. ولكن هدفنا هو أن نتعرّف على صدى الحركة الفكريّة التي قامت بتلمسان، في المشرق العربي من خلال كتاب "الدّيباج" لابن فرحون (ولد حوالي729هـ/1328م، وتوفي سنة 799هـ/1397م)[7] وذيله "توشيح الدّيباج" للقرافي (ت 1008هـ/1600م). ويعتبر المصنّفان مصدرًا ثرّا في ما يتعلّق بالحركة الفكريّة- والدّينيّة منها خاصّة- في العدوتين الأندلسيّة والإفريقيّة منذ القرن 7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م.

ومؤلّف الأصل مشرقي من المدينة وهو قاضيها برهان الدّين إبراهيم بن علي ابن محمّد بن محمّد بن أبي القاسم محمّد بن فرحون اليعمري المدني إقامة والأندلسي الجيّاني أصلا والمالكي مذهبا (ت 799هـ/1397م).

أمّا مؤلّف الذّيل فهو شيخ المالكيّة في عصره القاضي بدر الدّين محمّد بن يحيى بن عمر بن أحمد بن يوسف بن عبد الرّحمان القرافي (939هـ/1533م-1008هـ/1600م) المصري أصلا وإقامة والقاهريّ دراسة ووفاة[8].

ولئن تخلّينا عن الذّيل الثاني للدّيباج وهو نيل الابتهاج للتنبكي[9] فلأنّ مؤلّفه من المغرب الإسلامي جنوب الصّحراء، ولأنّ غايتنا هو تحسّس موقف المشارقة من المغاربة في موضوع هامّ يتعلّق بتمسّك المغاربة بالمذهب المالكي باعتباره مذهبا رسميا وشعبيّا.

ويبدو المذهب المالكي من خلال هذين المصدرين[10] لا فقط موحّدا للمغرب العربي والأندلس وجنوب الصّحراء، وإنّما هو رابط كذلك هذه الرقعة الجغرافيّة الكبيرة بالمركزين الأساسيين للمذهب وهما الحجاز (المدينة) ومصر (القاهرة). وكان المغاربة بعد فتح المغرب الأدنى (إفريقيّة = تونس) والمغرب الأوسط (الجزائر) والمغرب الأقصى (المغرب) والأندلس يشدّون الرّحال إليهما للأخذ عن مالك في المدينة ثمّ عن كبار تلامذته في مصر.

وقد مرّ المذهب المالكي بفترة ازدهار بالمغرب والأندلس إلى عهد المرابطين[11]، أعقبتها فترة عصيبة بعد سقوط دولة الملثمين وقيام الخلافة الموحّديّة[12] على يد المهدي بن تومرت. فقد استُهدف المذهب إلى حدّ أنّ المنصور[13] أمر الموحّدين بإحراق كتب المذهب المالكي في كافّة أنحاء البلاد مثل مدوّنة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد وكتاب التهذيب للبرادعي والواضحة لابن حبيب. وتحوّلت الدّراسات الإسلاميّة من علم الفروع إلى علم الأصول أي من علم يقتصر على دراسة فرائض العبادات والمعاملات وأحكامها والحدود والقضايا وبعبارة أخرى من دراسة الجانب العملي والدّنيوي من الشريعة إلى علم يقوم على دراسة الشّريعة واشتقاقها من الكتاب والسّنة ودراسة النّصوص الشّرعيّة والأدلّة العقليّة وتفصيل العقائد وأصول الفقه وباختصار مصادر الشريعة وكلّ ما يتعلّق بها[14].

ويبدو أنّ الأمر قد تغيّر كلّيا بعد سقوط الدّولة الموحّديّة فقد عادت وازدهرت الحركة الفكريّة والفقهيّة على المذهب المالكي في حواضر الدّول التي قامت على أنقاض دولة الموحّدين كفاس عاصمة بني مرين وتلمسان حاضرة بني عبد الواد وتونس عاصمة الحفصيّين وكذلك غرناطة حاضرة بني الأحمر. وهكذا بدا الشّرق يرنو إلى المغرب ليطّلع على هذه الحركة الفكريّة الجديدة بعد أن تمّ إحياء المذهب المالكي. ولم يكتف المشارقة بملاقاة بعض علماء المغرب عند أدائهم لفريضة الحجّ، وإنّما أصبح هناك ميل لمزيد معرفة أقطاب المذهب من خلال سيرة علماء المغرب والأندلس، فقاموا بالتّرجمة لهم في موسوعاتهم وكتب الطبقات لديهم. وقد مثّل علماء

تلمسان قسما هامّا ممّن وقع الاعتناء بهم والترجمة لهم في المصادر الشرقيّة. ولنا في "الدّيباج" وذيله "توشيح الدّيباج" خير مثال:

I- الدّيباج: عنوانه كاملا هو "الدّيباج المُذْهب (أو المُذَهَّب)[15] في أعيان علماء المَذهب. وهو في تراجم المالكية رتّبه ابن فرْحون على حروف المعجم بالنّسبة إلى الاسم الأوّل. واعترف بأنّ هذا الترتيب لا يخلو من شوائب[16]، واقتصر فيه على المشاهير ممّن لهم تآليف معروفة[17]، ولئن ذكر المؤلّف أنّ كتابه اشتمل على أزيد من 630 ترجمة[18] فإنّه يمكن بالاعتماد على طبعة 1996م ضبط عدد هذه التراجم بصفة دقيقة ففيها- حسب الفهرس- 632 ترجمة[19]. منها أربع لعلماء تلمسان نرتبهم ترتيبا أبجديا في الجدول التالي:

1- إبراهيم بن أبي بكر بن عبد اللّه الأنصاري الوقّشي أصلا المعروف بالتّلمساني أبو إسحاق[20]: فقيه وأديب وشاعر. تخصّص في الفرائض وله أرجوزة فيه تعرف بالتّلمسانيّة[21]، اهتمّ بها كثير من العلماء وشرحوها كأبي الحسن علي بن يحيى العصنوني المغيلي وأبو يوسف يعقوب بن عبد اللّه السيتاني (أو السّناني) وعلي بن محمد القلصادي[22]، وله كذلك أرجوزة في السّير وأمداح النبيء. ولد سنة 609هـ/1212م، وتوفي 699هـ/1299م.

2-سعيد بن محمّد العقباني التّلمساني التجيبي أبو عثمان[23]: فقيه قاض له شرح الجمل للخونجي في المنطق، توفي 811هـ/1408م.

3-عبد الرّحمان بن الإمام، أبو زيد[24]: شيخ المالكيّة في عصره ينتمي إلى عائلة مشهورة بتلمسان، له تصانيف عدّة في فنون مختلفة توفّي 743هـ/1342م.

4-محمد بن أحمد بن محمّد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي أبو عبد اللّه شمس الدّين[25] وهو المعروف بابن مرزوق الجدّ. أخذ عن ابني الإمام وقاضي الجماعة أبي عبد اللّه بن هديّة والخطيب أبي محمّد المجاسي، له شرح العمدة في الحديث وشرح الشفاء للقاضي عياض. ولد سنة 710هـ/1310م، وتوفّي بعد 780هـ/1378م بالقاهرة.

II- التوشيح وعنوانه كاملا: "توشيح الدّيباج وحلْية الابتهاج"[26]. ذكر القرافي أنّه أراد أن يكون التّوشيح فرعًا للدّيباج "بحيث يكون الفرع كالأصل يانعا وللمحاسن جامعا"[27]. وهو يشير بذلك إلى أنّه ذيْل للدّيباج، ورتّبه كما فَعل ابن فرحون على حروف المعجم[28]، واشترط مثله الاقتصار على التّرجمة للمشهورين ممّن وصلته مؤلّفاتهم. "وذَيّل كلّ حرف بتتميم قاصدا

الشمول والتعميم للتنبيه على من أغفله صاحب الأصل من أهل المائة الثامنة مضيفا إليه من سكت عنه من معاصريه من أهل المائة الثامنة... خاتما هذا الترصيف والبناء، بذكر من اشتهر بالكنى"[29].

وتمتدّ تراجم التوشيح "من أواخر القرن الثّامن إلى أثناء هذا القرن العاشر"[30] وفيه 327 ترجمة منها 268 في الأصل و59 مضافة. منها ترجمة لعلماء تلمسان سواء أكانوا ممّن ترجم لهم المؤلّف أو ذكروا عرضا، نرتّبهم ترتيبا أبجديّا في الجدول التالي:

1-إبراهيم بن حكم السّكوني الكناني السّلوي الشهير بأبيه (ابن حكم)، أبو القاسم[31]: اعتبر من علماء تلمسان رغم أنّه وفد إليها وقتل بها سنة 737هـ/1337م.

2- إبراهيم بن عبد الرّحمان التلمساني أبو الفضل الشهير بابن الإمام[32]، من بيت شهير. يذكره صاحب التّوشيح باسم آخر محمّد بن يحيى. رحل إلى المشرق وحجّ[33] "تزاحم عليه النّاس بدمشق[34] حين علموا فضيلته وأحبّوه"[35]، وكانت شهرته بالتدريس أكثر منها بالتّأليف. وكان يجمع بين الفنون العقليّة والنّقليّة. هذه الشّهرة بابن الإمام يشترك فيها مع علميين من أعلام تلمسان هما أبو زيد عبد الرّحمان ابن الإمام وأبو موسى عيسى ابن الإمام (والتّوشيح عدد 145 ص 144).

3-أحمد بن البنّا أبو العبّاس من علماء تلمسان[36]، أخذ عنه المَقِري محمد بن محمّد بن أحمد المتوفّى 771هـ/1370م[37]، ذكره صاحب التّوشيح في ترجمة المَقْري.

4-أحمد بن حاتم البسطي[38] أصيل بسطة بالأندلس، نزيل القاهرة من شيوخه في تلمسان: يحيى بن أحمد بن القاسم العقباني (أو ابن أبي القاسم العقباني)[39] ومحمد ابن الجلاّب[40]. وُلِد البسطي 851هـ/1447م.

5-أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني[41]: قاضي الجماعة بتلمسان، ذكره حفيده محمّد بن أبي مرزوق في شرحه لبردة البوصيري توفّي سنة 768هـ/1316م.

6-أحمد بن علي البلوي أبو جعفر[42]: فقيه ناظم ناثر. توفّي في حدود 830هـ/1427م.

7-أحمد بن محمد بن زكري أبو العبّاس[43]: جمع بين الفقه والإفتاء والأدب. نقل عنه الونشريسي في المعيار المعرب[44] بعض المسائل.

8- أحمد بن محمد بن عبد الرّحمان المشهور بابن زاغو، أبو العبّاس. توفي 845/1441م[45].

9- أحمد بن محمد بن مرزوق[46]: هو والد محمّد بن مرزوق الحفيد: فقيه تلمساني، توفّي نحو 841هـ/1437م.

10- أحمد بن محمّد التدرومي التلمساني[47]: عالم بالمنطق. كان حيّا بعد 830هـ/1427م.

11- أحمد بن يحيى بن عبد اللّه التلمساني الشريف قاضي الجماعة[48]، وجدّه هو شارح كتاب "الجمل" للخونجي في المنطق.

12-شرف الدّين التلمساني: ذكره صاحب التّوشيح عرضا[49] عندما استظهر أبو زيد بن الإمام بنصّ له.

13-العباس (أبو) بن زاغو: الإمام الصّوفي أخذ عنه القلصادي بتلمسان[50].

14-عبد الرّحمان بن أبي موسى المشدّالي أبو زيد[51].

15-عبد الرّحمان بن محمّد بن عبد اللّه أبو زيد بن الإمام (ت 743هـ/1342م)[52].

خصّص صاحب التّوشيح ترجمة واحدة له ولأخيه أبي موسى. وهذا الجمع نادرًا ما نجده في كتب التّراجم. هذا وفد عُرف مع أخيه أبي موسى عيسى بن محمد بن عبد اللّه بعَلَمي تلمسان. درس مع أخيه أبي موسى وحجّا وكانت لهما شهرة بالمشرق. ناظرا تقي الدّين بن تيميّة شيخ الإسلام (ت 728هـ/1328م) وظهرًا عليه. وكان ذلك من أسباب محنته.

16-عبد اللّه بن محمد الشريف العالم أبي عبد اللّه التلمساني[53]، أبو محمّد من أكابر علماء تلمسان ومن أكابر البيوتات فيها (انظر فهرس التّوشيح ص 295)، درس عليه ابن عاصم (ت 829هـ/1426م) صاحب الأراجيز في الأصول والفرائض والقراءات، توفّي أبو محمّد سنة 793هـ/1390م[54].

17-عبد اللّه بن محمد بن موسى بن معطى المعروف بالعبدوسي التلمساني، أبو محمّد (ت849هـ/1446م)[55]: الشيخ الفقيه الحافظ . من تلاميذه محمّد بن غازي. تولّى الفتيا والإمامة بجامع القرويين بفاس[56].

18-عبد اللّه المنجاصي (أو المخاصي)[57]: ذكره صاحب التّوشيح عرضا ضمن شيوخ محمد بن محمّد المَقْري (ت 771هـ/1370م)[58].

19-عبد المهين الحضرمي أبو محمّد : ذُكر عرضا ضمن شيوخ المَقْري[59].

20- علي بن أحمد بن داود البلوي الأندلسي نزيل تلمسان : تميّز في الفقه والعربيّة. درّس ببلده وولي الإمامة بجامع غرناطة. واصل التدريس بتلمسان. كان حيّا سنة 866هـ/ 1462م[60].

21- علي بن محمّد بن محمّد بن علي القرشي القلصادي[61] هو من الوافدين على تلمسان ودرس على كبار علمائها كأبي الفضل قاسم العقباني والإمام ابن مرزوق الحفيد وأبي العبّاس بن زاغو. له شرحان للتلمسانية الأكبر والأصغر بعنوان "الغرّة التونسيّة في شرح الأرجوزة التلمسانيّة"[62].

22- عمران بن موسى بن يوسف المشدّالي[63]، أبو موسى : أصله من بجاية، انتقل إلى الجزائر ثمّ استقرّ بتلمسان . فدرس فيها الحديث والفقه والأصلين[64] والنّحو والمنطق والجدل والفرائض. توفي عمران 745هـ/1344م[65].

23- عيسى بن محمّد بن عبد الله أبو موسى[66].

24- قاسم بن القاضي أبي عثمان العقباني أبو الفضل[67]: فقيه أصولي مفسّر، من شيوخ القلصادي، درس عليه التفسير والحديث والفقه والفرائض والهندسة والنحو والمعاني والبيان[68]، توفي قاسم في سنة 854هـ/1450م.

25- محمّد بن إبراهيم بن أحمد أبو عبد الله الآبلي العبدري التلمساني[69]. ليس هو صاحب الرّحلة المعروفة بالرّحلة المغربيّة، درس بتلمسان على أبي الحسن التّنيسي[70] وابني الإمام. رحل إلى المشرق ورجع إلى تلمسان، وهو أحد من درس عليهم ابن خلدون. توفّي 757هـ/1356م.

26- محمّد (الحفيد) بن أحمد (الأب) بن محمّد (الجدّ) بن أحمد بن محمّد بن محمّد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني، أبو عبد الله (حفيد بن مرزوق)،

وقد يختصر بابن مرزوق الحفيد ولد سنة 766هـ/ 1364م. حجّ سنة 790هـ/1388م وسنة 819هـ/1417م. عالم تلمسان الموسوعيّ المعرفة. له عدّة تآليف من أشهرها شرحه للبردة وشرح الشقراطسية . توفي بتلمسان 842هـ/1439م[71].

27- محمّد بن محمّد بن أحمد بن مرزوق العجيسي: قدم مكّة وكان حيّا سنة 871هـ/1467م: درّس الفقه وأصوله والعربية والمنطق[72].

28- محمّد بن الجلاّب: ذُكر عرضا ضمن شيوخ ابن حاتم، وهو فقيه تلمساني توفّي 875هـ/1470م[73].

29- محمّد الزّبيدي ، أبو عبد الله ذُكر عرضا[74] ضمن شيوخ المَقري[75].

30- محمّد السّبطي (أو السّيطي) أبو عبد اللّه[76]: ذُكر عرضا ضمن شيوخ المَقْري[77].

31-محمّد بن شاطر أبو عبد اللّه :من شيوخ المَقْري. ذكره صاحب التّوشيح عرضا[78].

32-محمد بن قاسم الأنصاري التلمساني ثمّ التونسي، أبو عبد اللّه عرف بابن الرّصّاع.

له عدّة مؤلّفات: منها في شرح الأسماء النبوية وآخر في الصلاة على النبيء (صلعم). واختصر شرح البخاري لابن حجر كما أفرد الشواهد القرآنيّة من مغني ابن هشام ورتّبها. توفي بالقيروان 894هـ/1488م[79].

33-محمّد بن عبد اللّه بن عبد الجليل أبو عبد اللّه: وصفه الونشريسي في المعيار المعرب بالفقيه الحافظ. توفّي 899هـ/1494م[80].

34- محمّد بن علي بن أبي شرف الحسني المعروف بالشريف التّلمساني. أخذ عن ابن غازي (ت 919هـ/1513م) وعن أبي العبّاس الدّقوني (ت 921هـ/1515م). شرح الشفاء للقاضي عياض. توفّي 917هـ/1512م[81].

35-محمّد بن عمر بن الفتوح التلمساني أبو عبد اللّه[82]: ليس هو ابن فتوح الغرناطي[83]: عالم ورع خرج من تلمسان إلى فاس لأنّه اختلس النّظر إلى امرأة جميلة. أذاع في فاس مختصر خليل. توفّي 818هـ/1415م.

36- محمد بن محمّد بن أبي القاسم المشدّالي أبو الفضل المغربي[84] (821هـ/1417م-865هـ/1461م). وهو من القادمين إلى تلمسان سنة 840هـ/1437م. اتّصل بابن مرزوق الحفيد وجادله، شرح الجمل للخونجي. وكان أبوه المعروف بابن أبي القاسم من الزّهاد[85].

37-محمّد بن محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرّحمان أبو عبد اللّه المعروف بالمقْري، أوّل من استقرّ من عائلة المَقْري بتلمسان هو جدّ جدّه "عبد الرّحمان". ولد محمّد بتلمسان ودرس على أغلب علمائها . توفي 771هـ/1370م[86].

38-محمّد بن يحيى التلمساني أبو الفضل الشهير بابن الإمام. ذكره صاحب التّوشيح باسم آخر هو إبراهيم بن عبد الرّحمان[87]. من بيت شهير. وهذه الشهرة يشترك فيها مع علمين من أعلام تلمسان وهما عبد الرّحمان بن محمّد بن عبد اللّه أبو زيد بن الإمام، وعيسى بن محمّد بن عبد اللّه أبو موسى بن الإمام.

- يحيى بن أحمد بن القاسم (أو ابن أبي القاسم) العقباني: قاضي الجماعة بتلمسان. ذُكر في توشيح عرضا[88] ضمن شيوخ ابن حاتم[89]. توفي 880هـ/1475م.
- يحيى بن محمّد التلمساني : فقيه لغوي، رحل إلى الشرق وحجّ . سمع من أبي عبد الله بن مرزوق، توفي سنة 809هـ/1407م[90].

وحسب هذين الجدولين ينتسب علماء تلمسان بالدّرجة الأولى إلى مدينتهم فيعرفون بالتلمساني أو ابن التلمساني[91] أو العبّادي[92]، وقد ينتسبون إلى بيوتات مشهورة كبيت ابن مرزوق[93] وابن الإمام[94] و المشدَّالي[95] والشّريف والعقباني.

ومن حيث الإقامة والهجرة إليها أو منها : هناك علماء أصيلو تلمسان ولادة ونشأة وإقامة ووفاة، ومنهم من وَلد فيها وتعلّم ، ثمّ انتقل إلى مكان آخر سواء في المغرب الأقصى، (فاس والرّباط) أو في المغرب الأدنى (تونس والقيروان)، أو في المشرق (القاهرة ودمشق، مكّة والمدينة)، ومنهم من دخلها ودرس فيها ثمّ قفل راجعا إلى مدينة أخرَى، ومنهم من اضطرّ إلى الهجرة إليها وخاصّة من العدوة الأندلسيّة بعد تكالب العدوّ على إمارة بني الأحمر.

ومن حيث الاختصاص كان علماء تلمسان يعرفون بالفقيه وبالفرضي[96] والمحدّث والمنطقي والأصولي والعددي[97]. ومن حيث الخطط تولّى بعضهم الإمامة أو الخطابة بالجوامع الكبرى كالمسجد الكبير ومسجد سيدي بلحسن (الآن متحف الفنون الإسلاميّة) ومسجد المنصورة ومسجد أبي الحسن المريني على ضريح أبي مدين. ومنهم من تولّى القضاء[98] أو الافتاء[99] وقد يجمع بينهما، ومنهم من لبس الخرقة[100]. وكان أغلبهم من المدرّسين والعلماء المصنّفين: والقاسم المشترك بينهم جميعًا الورع والتقوى. ولم يكن بعضهم بمنأى عن السّياسة فاكتوى بنيرانها لـ اضطرّه إلى مغادرة تلمسان نهائيّا (كابن مرزوق الجدّ).

وكان نشاط هؤلاء العلماء في نطاق المذهب المالكي حسب المنهج التقليدي الذي استقرّ نهائيا بالمغرب العربي بجميع حواضره الكبرى. وهو منهج يقوم على التّلقين تدريسا وعلى الاختصار تأليفا، قال ابن خلدون "إنّ اختصار الكتب في كلّ فنّ والتقيّد بالألفاظ على طريقة العضد[101] وغيره، من محدثات المتأخّرين، والعلم وراء ذلك كلّه"[102]. لهذا لم يكن في هذا النشاط العلمي تجديد ملفت للنّظر واقتصر علماء تلمسان على شرح بعض الأمّهات واختصارها أو

نظمها ليسهل فهمها وحفظها. وتركّز هذا النّشاط على القرآن وقراءاته وعلى الحديث وروايته والفقه وفروعه.

ولئن كان الاهتمام أساسا بالمنقول من العلوم[103] فإنّ النّشاط في المعقول منها لم ينقطع وإن قلّ كالمنطق والأصول وعلم الكلام[104]، بل إنّ بعض العلماء في تلمسان كان لهم اهتمام بالطبّ والهندسة والحساب والجبر، والهيئة والنّبات.

ولم يكن الأدب بمنأى عن شواغل علماء تلمسان، فقد كان للشعر وملحه[105] واللّغة وقضاياها[106] والبلاغة وأقسامها مكانٌ في مجالسهم ومناظراتهم. وأثناء دروسهم[107]. ولم يكن الحوار مقتصرًا على ما كان يدور داخل سورها وإنما تعدّاه إلى حوار غير مباشر بين علماء تلمسان وعلماء مدن أخرى بالعدوتين. وخير مثال على ذلك كتابا ابن مرزوق الجدّ: "اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة" وهو أجوبة على مسائل في الفقه والتّفسير وردت عليه من عالم قفصة أبي يحيى بن عقيبة، و"المعراج في استمطار فوائد الأستاذ ابن السرّاج" أجاب فيه قاضيَ الجماعة بغرناطة في مسائل نحويّة ومنطقيّة. وبصفة عامّة كانت تلمسان مقرّا للفتوى فكثيرا ما تُوجّه أسئلة في مختلف مجالات الحياة الدّينيّة والدّنيويّة إلى علمائها من العدوتين وكان لإجاباتهم صدى في كتب الفتاوى كالمعيار للونشريسي[108].

واشتهرت تلمسان ببعض الفروع الفقهيّة كالفرائض ولا أدلّ على ذلك من شهرة التلمسانيّة: وهي رجز في الفرائض نال شهرة كبيرة في كامل ربوع العدوتين وخاصّة العدوة الإفريقيّة، وقام كثير من علمائها بشرحها، وفي المكتبة الوطنيّة بتونس من نسخ الأرجوزة وخاصّة شرحها، ما يدلّ على قيمتها وعناية العلماء بها.

وزيادة على الدّروس التي يلقيها الشيوخ على من يجلس إليهم للأخذ عنهم ترك علماء تلمسان كثيرًا من المصنّفات. والقائمة قد تطول إذا أردنا أن نذكر أغلب هذه المؤلّفات، لذلك سنقتصر على ذكر عينة منها تعكس صورة واضحة عن اهتمامات علماء تلمسان تدوينا وتأليفا.

1–ففي التفسير هناك شرح الفاتحة لابن زاغو (ت 845هـ/1441م) وتفسير سورتي الأنعام والفتح للعقباني (التوشيح ص 170).

2- وفي الحديث لابن مرزوق الحفيد: المتجر الرّبيح والمسعى الرّجيح والمرحب الفسيح في شرح الجامع الصحيح، والرّوضة (رجز ب 1700 بيت في الحديث) لابن مرزوق الحفيد (التوشيح ص 171، 172)، وشرح العمدة في الحديث خمس مجلّدات لابن مرزوق الجدّ (الدّيباج ص 396).

3- وفي الفقه: إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب لابن مرزوق الحفيد (التوشيح عدد 170)، وشرح مختصر خليل لابن زاغو (التوشيح ص 62)، والمقنع الشافي: أرجوزة في الميقات[109] لابن مرزوق الحفيد (التوشيح عدد 170)، وشرح التلمسانيّة لابن زاغو في الفرائض (التوشيح ص 62).

4- في المنطق : شرح "الجمل للخونجي" للعقباني (الدّيباج ص 204).

5- وفي السّيرة : إظهار صدق المودّة في شرح البردة لابن مرزوق الحفيد، اختصره في الاستيعاب في البردة من المعاني والبيان والبديع والإعراب، وله : الآيات البيّنات في وجوه دلالة المعجزات (التوشيح ص 171-172). ولابن مرزوق الجدّ شرح الشفاء للقاضي عياض. (الدّيباج ط 1996 عدد 160)، وفي مدح الرّسول مولدية، وأمداح في الرّسول والصّحابة لابن مرزوق الحفيد (التوشيح : عدد 170).

6- وفي التصوّف : ذيل على الإحياء لابن زاغو (التوشيح ص 62)، واليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين لابن مرزوق الحفيد: تكلّم فيه على رجال المقامات كالنّقباء والنّجباء والبدلاء (توشيح 172).

7- في النّحو: كإيضاح المسالك في شرح ألفيّة ابن مالك لابن مرزوق الحفيد (التوشيح ص 173).

8- في برنامج الشيوخ كبرنامج شيوخ ابن مرزوق الجدّ (الدّيباج ط 1996 عدد 160).

وهكذا تبدو مدينة تلمسان من خلال الدّيباج وتوشيحه مدينة مغناطيسية جذبت إليها علماء من كافة مدن المغرب والأندلس. ولكنها لم تكن منغلقة بل متفتّحة فقد يمّم كبار علمائها شطر وجوههم، كثيرا من مدن العدوتين ولم يكتف بعضهم بذلك بل قصد المشرق للحجّ وطلب العلم ونال بعضهم في تلك الرّبوع من الشّهرة ما جعل حلقات دروسهم تغصّ بطلاّب العلم في القاهرة ودمشق ومكّة والمدينة. ممّا دعا علماء المشرق إلى الاهتمام بهم والتّرجمة لهم في مصنفاتهم التي خصّصوها للمذهب المالكي باعتبارهم علماء بلغوا في تخصّصهم درجة التميّز فيه.

الملاحق: الملحق الأول: بنو مرزوق[110]

- مرزوق: هو أوّل من استقرّ بتلمسان من هذه العائلة في نهاية القرن 5هــ/11م أثناء الحكم للمرابطي، وكان من رجال الدّين وملاّك الأرض، وأصله من جنوب إفريقيّة. نزحت عائلته إلى تلمسان عند الغزو الهلالي.

- أبوبكر: متطوّع متحمّس لخدمة ضريح الصّوفي الأندلسي أبو مَدْين في ضاحية تلمسان المعروفة بالعبّاد.

- محمّد الثاني: ولد في سنة 620هــ/1291م ومات 681هــ/1282م ودفن بجوار القصر القديم بتلمسان.

- أحمد الأوّل: ولد سنة 681هــ/1282م، ودرس بفاس. كان من الزّهاد. عاش محنة محاصرة أبي يعقوب المريني لتلمسان 685-706هــ/1286-1307م. رحل إلى المشرق وحجّ 717هــ/1317م، ثمّ استقرّ بمصر ومات بمكّة 741هــ/1340م.

- محمّد الثالث: أوّل خطيب في جامع بناه السّلطان أبو الحسن المريني فوق ضريح أبي مَدْين سنة 710هــ/1310م-732هــ/1331م. والخطيب الثاني في هذا الجامع هو محمّد الرّابع.

- محمّد الرّابع : هو شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن محمد بن محمّد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التِّلِمْساني ويعرف بابن مرزوق الجدّ : محدّث وأديب وخطيب جامع أبي مَدْين (جامع العبّاد) ورجل سياسة. ولد بتلمسان سنة 1-710هــ/1-1310م، وتوفّي في 781هــ/1379م، وبه كانت شهرة عائلة المرازقة. كان معاصرا لابن الخطيب وابن خلدون.

سافر مع والده أحمد I وهو في سنّ الثانية أو السّابعة إلى المشرق. ودرس في مكّة والمدينة والقدس والإسكندرية والقاهرة. رجع إلى تلمسان وتولّى الكتابة الخاصّة لأبي الحسن المريني. ودخل في خضمّ الأحداث السّياسيّة بالمغرب فسجن ثلاث مرّات، قرّر على إثرها وهو في تونس سنة 773هــ/1372م العودة إلى المشرق، وبقي بمصر إلى وفاته بالقاهرة سنة 842هــ/1438م (EI2 ج III ص 899).

- محمّد السّادس: يعرف بالحفيد ولد سنة 766هــ/1361م، وتوفّي في 842هــ/1438م. وهو عالم المغرب في عصره بدون منازع وكما عرف بعلمه عرف بتقواه.

- محمّد السّابع ولد 824هــ/1412م، وتوفّي سنة 901هــ/1495م: يعرف بابن مرزوق الكفيف، محدّث وخطيب.

- أحمد الثالث بن محمّد السّابع توفّي بعد وفاة والده بقليل. وهو خطيب مشهور ويعرف بحفيد الحفيد.

-محمّد الثامن بن حفصة بنت محمّد السّادس الحفيد توفّي 918هـ/1512م.

الملحق الثاني:[111]: نجد في ترجمة ابن حكم صورة للحياة الأدبيّة والفكريّة بتلمسان في النّصف الأوّل من القرن 8هـ/14م. من ذلك أنّه لما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن علي بن فرحون نزيل طيبة (المدينة) سأل ابن حكم عن معنى البيتين (الوافر):

رَأَيْتُ قَمَرَ الزَّمَـــان فَــأَذْكَــرَتْني لَيَالِيَ وَصْلِنَـــا بالرَّقْمَتَيْـــــن
كلانا نَـــاظرٌ قَمرًا ولَكِـــــــــنْ رَأَيْتُ بعَيْنِهَـــا وَرَأَتْ بِـــعَيْني

ففكّر ثمّ قال : لعلّ هذا الرّجل كان ينظر إليها، وهي تنظر إلى قمر السّماء. فهي تنظر إلى القمر حقيقة، وهو لإفراط الاستحسان يرى أنّها الحقيقة؛ فقد رأى بعينها لأنّها ناظرة الحقيقة، وأيضا ينظر إلى قمر السّماء مجازًا، وهو لافراط استحسانه لها يرى أنّ قمر السماء هو المجاز فقد رأت بعينه لأنّها ناظرة المجاز.

وسأل ابنُ فرحون ابنَ حكم هل نجد في التّنزيل ستّ فاءات مرتّبة ترتيبها في هذا البيت؟ (البسيط):

رأى فحَبَّ فَرامَ الوَصْلَ فامْتَنَعُوا فسام صَبْرًا فَأَعْيى نَيْلَهُ فقضَى

قال نعم: ﴿فطَافَ عَلَيْهَا طائفٌ من ربّكَ وَهُمْ نَائمُون فأصْبَحَتْ كالصَّرِيم، فتَنَادَوْا مُصْبِحينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إنْ كُنْتُم صَارِمين، فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أنْ لا يَدْخُلَنَّها اليومَ عليكم مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قادرين، فلمّا رأوْها قالُوا إنّا لَضَالُّونَ بَلْ نحن مَحْرومُون، قال أوْسَطُهُمْ: أَلَمْ أَقُلْ لكم لوْلاَ تُسَبِّحُونَ، قَالُوا سُبحان رَبِّنا إنّا كُنّا ظالمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ﴾ (القلم 68- من الآية 19-30).

قال: فهل عندك غيره؟ قال: نعم؛ "فقال لَهُم رَسُولُ اللّه نَاقَةَ اللّه وَسُقْيَاها فَكَذَّبوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَم عَلَيْهِم رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشّمس 91 من الآية 13-15)[112].

الهوامش:

1- بدليل وجود آثار رومانية قديمة تعرف بالبساتين (Pomaria) (EI2 ج X ص 534 كتب المثال محمّد العلاوي).

2- نفس المرجع السّابق.

3- وقيل : إنّ تلْمسان بالبربريّة معناها مجمع العيون لأنّ تلمسان هي جمع لكلمة تلْماس ومعناها عين.

4- البكري : المسالك والممالك ط. تونس 1992، ج 2/ ص 746.

5- أوّل أمراء بني عبد الواد ومؤسّس الدّولة هو أبو يحيى يغمراسن بن زيان حكم (633/1236 – 681/ 1283)، وآخرهم هو الحسن بن عبد الله 957/1550. (EI2 ج I / ص 96، كتب المقال ج. مارسي).

6- العبدري : الرّحلة المغربيّة، تحق الفاسي. ط الرّباط 1968 ص 13.

7- انظر ترجمته في (EI2 ج III/ ص 786 لـ ج.س. ب. هبكنز J.S.P Hopkins .

8- يجب التمييز بينه وبين محمّد بن أحمد بن عمر بن شرف القرافي (ت 867/1463).

9- أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر التكروري التبكتي السّوداني (963/1556–1036/1627) التوشيح ترجمة عدد 180 ص 181. مؤرّخ، عالم بالحديث والفقه له زيادة عن "النّيل"، "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج (ط الرّباط 2000 في جزأين)، وتُنبكتي أو تُنْبكتو مدينة صغيرة في جمهورية مالي. وكانت مركزا تجاريا وفكريا على نهر النّيجر هامّا، ينسب إليها مجموعة من العلماء (المنجد، الأعلام ص 154).

10- ويمكن أن نضيف إليهما "نيل الابتهاج" و"كفاية المحتاج" للتنبكتي.

11- الدّولة المرابطيّة (453/1061–542/1147).

12- الدّولة الموحّديّة (525/1130–668/1269).

13- المنصور الموحّدي (580/1184–596/1199).

14- مراد بوقصّي : العلاقات العلميّة بين المغاربة والأندلسيّين من القرن 3/9 إلى القرن 8/14 ص 73. (بحث دكتوراه مرقون بكلّية منّوبة).

15- من ذَهَبَ أو أذهب : مَوّهه بالذّهب فالشّيء ذَهِيب ومُذْهَب ومُذَهَّبٌ.

16- الدّيباج ص 93.

17- الديباج ص 93.

18- ن.م.

19- طبع هذا الكتاب عدّة طبعات : ط I بمصر 1329، وط II بيروت بتحقيق أبو النّور، وط III ببيروت 1996 بتحقيق مأمون ابن محي الدّين الجنّان. وهذه الطبعات في حاجة إلى مزيد من الدّقة المنهجيّة في تحقيق النّصوص ووضع الفهارس.

20- الدّيباج ط II ، 1996 عدد 160 ص 147، EI 2 ج X ص 535.

21- نرجح أنّ تسميتها متأتّية من تأليفه لها في تلمسان قبل أن يستقرّ في سبتة. توجد نسخة منها في دار الكتب الوطنيّة بتونس عدد 21709.

22- أمّا الشروح فلها نسخ عديدة بدار الكتب الوطنيّة بتونس : 01038–21089–00585–02569/ الخ...

23- الدّيباج ط II عدد 249 ص 204.

24- الدّيباج ط II عدد 362 ص 250.

25- الدّيباج ط II عدد 535 ص 396. (انظر ص 17 من هذا البحث).

26- حققه الدّكتور أحمد الشّتيوي. وطبعه دار الغرب الإسلامي ببيروت 1983، 322 ص.

27- التوشيح ص 35.

28- ن.م ص 36.

29- ن.م ص 36.

30- ن.م ص 36.

31- التوشيح عدد 62 ص 77.

32- التوشيح عدد 247 ص 4-233.

33- سنة 1407/810.

34- سافر إلى الشام من القاهرة سنة 1409/812.

35- التوشيح ص 51.

36- ذكر عرضا في التوشيح ص 247.

37- التوشيح عدد 271 ص 246.

38- التوشيح عدد 12 ، ص 51.

39- قاضي الجماعة بتلمسان (ت 1475/880) ، التوشيح ص 51 ت 5.

40- فقيه تلمساني ت 875/ 1470، (التوشيح ص 51 ت6).

41- التوشيح : ع 47 ص 69.

42- التوشيح : ع 19 ص 54.

43- التوشيح : ع 28 ص 61.

44- التوشيح : ص 61 ت 8.

45- التوشيح : ع 33 ص 62.

46- التوشيح : ع 22 ص 56 ت 6..

47- التوشيح : ع 11 ص 51.

48- التوشيح : ذكره عرضا ص 216.

49- التوشيح : ص 147.

50- التوشيح : ص 132.

51- التوشيح : ص 147.

52- التوشيح : عدد 145/ ص 5- 144.

53- التوشيح : ص 126.

54- التوشيح : ص 126، ت 6.

55- التوشيح : عدد 97 ص 114.

56- التوشيح : ص 114.

57- التوشيح : ص 247.

58- التوشيح : عدد 271 ص 246.

59- التوشيح : ص 247.

60- التوشيح : عدد 126ص 130.

61- التوشيح : عدد 124 ص 132.

62- مخطوط دار الكتب الوطنية عدد 1613.

63- نسبة إلى قبيلة من زواوة.

64- الأصلان هما أصول الفقه وهي القواعد التي يوصّل بها إلى استباط الأحكام الشرعيّة، وأصول الشّريعة أي القرآن والسنّة والاجماع والقياس. (معجم لغة الفقهاء لقلعجي ط II 2006 ص 52).

65- التوشيح عدد 159 ص 160.

66- انظر ترجمة أخيه عبد الرّحمان بن محمد بن عبد اللّه أبي زيد بن الإمام ص8 من هذا البحث .

67- ذكر عرضا في التوشيح ص 132 ت6.

68- التوشيح ص 134.

69- التوشيح عدد 265 ص 243.

70- وقيل التنسي (التوشيح ص 244 ت2).

71- التوشيح : عدد 170 ص 171.

72- التوشيح : عدد 238 ص 229.

73- التوشيح : ص 51 ت 6.

74- التوشيح : ص 247.

75- التوشيح : عدد 271/ ص246.

76- التوشيح : ص 247.

77- التوشيح : عدد 171 /ص 246.

78- التوشيح : ص 247.

79- التوشيح : عدد 219 ص 216.

80- التوشيح : عدد 322 ص 270.

81- التوشيح : عدد 214 ص 215.

82- التوشيح : عدد 213 ص 214.

83- التوشيح : عدد 8 ص 49.

84- التوشيح : 221 ص 219.

85- التوشيح عدد 172 ص 171.

86- التوشيح : عدد 271 ص 246.

87- التوشيح : عدد 243 ص 4-233.

88- التوشيح : ص 51.

89- التوشيح : عدد 12 ص 51.

90- التوشيح : عدد 284 ص 259.

91- انظر معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر لعادل نويهض. ط. بيروت 1983 : نجد فيه 73 ترجمة عُرفوا بالتلمساني (صص 63-83).

92- نسبة إلى "العبّاد" مقرّ ضريح أبي مدين (انظر التوشيح ص 160، 174، 219).

93- انظر ملحق هذا البحث ص17 (الملحق I) .

94- انظر فهرس التوشيح ص 289.

95- انظر فهرس التوشيح ص 301.

96- نسبة إلى علم الفرائض.

97- نسبة إلى علم العدد أي الحساب.

98- القضاء في المغرب والأندلس على ثلاثة أنواع : قاضي الجماعة (قاضي القضاة بالمشرق)، وقاضي الأنكحة، وقاضي المحلّة (الجيش).

99- كثيرا ما يورد الونشريسي في المعيار فتاوى لعلماء تلمسان كمحمد بن يحيى بن علي التلمساني الشّهير بابن النجّار (معجم أعلام الجزائر ص 82)، ومحمّد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني (ت 1466/871).

100- نظرا إلى كثرة العلماء المعروفين بالتصوّف في تلمسان وضع محمد بن محمّد بن أحمد أبو عبد الله الشّريف الملّيتي أصلا المديوني التلمساني منشأ ووفاة (ت بعد 1605/1014) كتابا سمّاه "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" فيه 185 ترجمة كلّهم من مدينة تلمسان (الأعلام 61/7).

101- العضد: هو عضد الدّين الإيجي من إيج بفارس عالم بالأصول وبالعربيّة ت 1355/756 (الأعلام 3/ 295).

102- التوشيح : ص 118.

103- التوشيح : ص 234.

104- التوشيح : ص 130.

105- التوشيح : ص 77-78.

106- التوشيح : ص 78، 79، 132، 134، 161، 248.

107- وبطيعة الحال كان هناك مع كلّ ذلك حوار في المسائل الفقهيّة، انظر التوشيح ص 145، 149، 150، 160.

108- هناك عديد الفتاوى في مسائل الحبس والوصيّة والنّحل (انظر المعيار للونشريسي الجزء السّابع. ط. بيروت 1981.

109- الميقات جمع مواقيت : المكان الذي لا يجوز لحاج أو معتمر أن يتجاوزه إلاّ بإحرام (قلعة جي : معجم لغة الفقهاء ط 2006 ص 440).

110- EI ج III / ص 890. كتب المقال محمد الحاج صادق.

111- التوشيح : ص 77 -79 وص 132، 134، 161، 248.

112- نلاحظ في هذه الآيات أنّ الفاء، تكرّرت خمس مرّات فقط، وتكرّرت الواو مرّتين.

المصادر والمراجع مرتّبة ترتيبا أبجديّا:

- بوقصّي مراد: العلاقات العلميّة بين المغاربة والأندلسيّين من القرن 9/3 إلى القرن 14/8 (بحث دكتوراه مرقون بكليّة الآداب بمنوبة تحت إشراف الأستاذ فرحات الدّريسي.

- التنبكتي أحمد بابا: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج، تحقيق محمّد مطيع- ط. الرّباط 2000 في جزأين.

-التنبكتي أحمد بابا : نيل الابتهاج . ط. دار السّعادة مصر 1911.

-داود صلاح : تراجم في التعريف بمن عاش بإفريقيّة أو حلّ بها من العلماء من خلال الدّيباج لابن فرحون وهامشه نيل الابتهاج للتنبكتي من سنة 745/128 إلى 1535/972 : بحث في نطاق شهادة الكفاءة تحت إشراف الدّكتور محمّد سويسي، مرقون في مكتبة كلّية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس رقمه T 1773 .

-فرحون (ابن) : اختصار الدّيباج (مخطوط) بدار الكتب الوطنيّة رقم 04293 .

-فرحون (ابن) : الدّيباج : تحقيق مأمون بن محي الدّين الجنّان . ط III بيروت 1996.

-القرافي : توشيح الدّيباج، تحق الدّكتور أحمد الشتيوي. ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، 322 ص.

- مريم (ابن) : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لأبي عبد الله محمّد بن محمّد بن أحمد الملقب بابن مريم التلمساني ت بعد 1605/1014- تحقيق محمّد بن أبي شنب- ط. الجزائر 1908.

- نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر. ط. بيروت 1983.

الفقيه محمد بن سليمان اليفرني الكومي الندرومي: صورة من واقع المشهد الثقافي في حاضرة تلمسان

د. لخضر بولطيف*

شهدت تلمسان على عصر الموحدين حضورا متزايدا في مجالَي العلم والسياسة، ففضلا عن اضطلاع بيت بني عبد المؤمن الكومي الندرومي وقبيله بشؤون الحكم والدولة، فقد نبغ في تلمسان وأحوازها عدد من الأعلام المرموقين؛ لعل من أبرزهم فيمن حاز قصَب السبق في العلم والمعرفة، الفقيه العالِم المتفنن المعمِّر محمد بن سليمان اليفرني الكومي الندرومي.

إن تسليط الضوء على هذه الشخصية المتحدرة من أسرة ندرومية تلمسانية عريقة، ليس الغرض منه إخراجها من طي النسيان، والتنويه بتراثها المخطوط والمطبوع، فحسب، مع أنه في حد ذاته مطلب ملح ومشروع، بل إن ذلك من شأنه -أيضا- أن يمدنا بالمعطيات الضرورية، التي لن نكون في غنى عنها إذا ما رمنا رسم معالم المشهد الثقافي لحاضرة تلمسان في عصر بلغ الحراك الثقافي أوجه، وأضحى الاستقطاب العلمي ظاهرة العصر.

وسنحاول -فيما يلي- رصد مختلف أطوار حياة هذه الشخصية العلمية، وما كان له من أثر في مجتمعه، وما قدمه من إضافة إلى رصيد المعرفة الإسلامية في عصره.

01- اسمه ونسبه: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان اليَفُرَني[1] -ويقال البَطُّوئي[2] الكُومي[3]، ندرومي الأصل[4]، تلمساني الموطن[5]، ولا نعرف متى استقر سلفه بها.

وإذا كانت نسبته إلى كومية[6] لا يعتريها الشك، لكن تردّدَ بعض النسّابة بين إلحاقه بالأرومة البربرية أو الأرومة العربية؛ ففي حين يذهب الذهبي (ت 748هـ/1348م) إلى إتْباع نسبه بوصف "البربري"[7]، فإن التجيبي (ت 610هـ/1213م) يقول فيه "القيسي"[8].

---

*- أستاذ محاضر أ في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ- جامعة محمد بوضياف- المسيلة.

ويحضرنا هنا موقف عبد المؤمن بن علي -فيما يرويه عبد الواحد المراكشي- كان إذا ذُكر قبيله "كومية"، يقول: "لست منهم، إنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ولكومية علينا حق الولادة والمنشإ فيهم، وهم الأخوال"[9]. ويردف صاحب المعجب قائلا: "وهكذا أدركتُ من أدركت من أولاده وأولاد أولاده ينتسبون لقيس عيلان بن مضر"[10]، وهو ما اعتبره ابن خلدون مردودا عليهم[11].

02- مولده ووفاته: يرتبط مولد أبي عبد الله بن عبد الحق كما وفاته بمدينة تلمسان، وتتفق المصادر التي عنيت بترجمته على أنه عمّر طويلا؛ فهو قد "نيّف على الثمانين"[12]، أو أنه "قارب التسعين"[13]، إلا أن أيّا منها لم يتأت له الجزم بتاريخ مولده، إذ أن الشك وقع من صاحب الترجمة نفسه -حسب تلميذه الرعيني- أن يكون وُلد سنة 536هـ/ 1141م أو سنة 537هـ/1142م[14].

وسواء عادت الصحة إلى التاريخ الأول أو الثاني، فإنهما يحيلان على فترة حرجة من تاريخ تلمسان؛ إذ كانت -وقتئذ- عرضة للصراع الذي نشب بين المرابطين والموحدين، والذي أفضى إلى حصار المدينة، ثم سقوطها سنة 539هـ/ 1144م بيد جيش عبد المؤمن، الذي أقدم على مجزرة شنيعة في حق أهلها[15]، لا نستبعد أن تكون قد ظلت أصداؤها ماثلة في مخيال الفقيه التلمساني.

أما بالنسبة لتاريخ وفاته؛ فباستثناء رواية ابن الزبير -فيما ينقله عن شيخه ابن فرتون- التي تجعله سنة 623هـ/1226م[16]، فإن سائر الروايات تجعله سنة 625هـ/1228م[17]. وهو تاريخ يحيل -أيضا- على وضع دقيق كانت تعيشه تلمسان، في ظل انفراط أمر الموحدين، وإدبار شأن بني عبد المؤمن وقبيلتهم العتيدة كومية، لصالح بني عبد الواد الذين سرعان ما آلت المدينة إليهم[18].

03- تحصيله العلم: شهدت بلاد الغرب الإسلامي إبان القرن 06هـ/12م أحد أزهى عصور الثقافة الإسلامية في تاريخها، حيث تنافست حواضر المغرب والأندلس على استقطاب أساتذة العلم وطلاب المعرفة، الذين أسهموا في رسم معالم مشهد ثقافي-فكري، اتسم بالثراء والتنوع وأصالة العطاء العلمي-الأدبي، ومن ثمّ تأتّى لأبي عبد الله بن عبد الحق التلمساني أن ينهل من معين العلوم والمعارف التي كان يزخر بها محيطه، والتي كان يقوم على بثها وتلقينها جهابذة فقهاء العصر وفطاحلة علمائه.

ويبدو أن حرصه على لقاء شيوخ العلم، والاستكثار من الأخذ عنهم، كان من بين دواعي مباهاته بما هيّأ له -مما لم يتهيأ لكثير من أترابه ولِداته- من علوّ الإسناد واتساع الرواية. ولم

يردد كتّاب التراجم في إثبات أنه "لقي كثيرا من أهل العلم والدين والزهد والورع، فأخذ عنهم بفاس، ومراكش، وسبتة، وإشبيلية"[19]، فضلا عمن لقيهم ببلده، أو أجاز له من بلاد المشرق[20].
وقد ضمّن ذكرهم، وكيفية تلقيه عنهم، برنامجه الذي سمّاه "الإقناع في ترتيب السماع"[21].

ومن حسنات منهج الاستقصاء الذي اعتمده ابن عبد الملك في كتابه "الذيل والتكملة" أن أمكننا الوقوف في ترجمة الفقيه التلمساني على برنامجه المذكور[22]، والذي جاء فيه أنه:

روى ببلده -تلمسان- عن: أبيه أبي محمد عبد الحق بن سليمان[23]، وأبي محمد بن عمران التليدي، وأبي بكر بن عُصْفور، وأبي بكر اللَّقْنَتي[24]، وأبي الحسن جابر بن محمد، وأبي الحسن بن أبي قَنون[25]، وأبي علي حسن بن الخرّاز[26][27].

وصحب الزاهدين الفاضلين: أبا عبد الله بن مَحْيو الهوَاري[28]، وأبا مَدْين شعيب بن الحسن الأندلسي.

وبفاس عن: أبي الحسن بن حُنَيْن[29]، وأبي عبد الله بن الرَّمامة[30]، وأبي محمد قاسم بن الزقّاق، ولقي بها أبا الحسن اللّواتي وأجاز له.

وبمراكش عن: أبي الجيش مجاهد، وأبي عبد الله بن خليل، وأبي عبد الله بن الفخّار، وأبي القاسم بن حُبَيش، وأبي القاسم السُّهَيْلي.

وبها وبإشبيلية عن: أبي بكر بن الجدّ، وأبي جعفر بن مَضَاء، وأبي الحسن نُجْبة، ولقي بها أبا عمران الزاهد.

وبسبتة عن: أبي محمد بن عُبَيد الله، وصحب بها أبا الصبر أيوب، ولقي أبا الحسين بن الصائغ، وأبا عبد الله بن حميد، وأبا محمد عبد المنعم بن الفرس.

وأجاز له[31] من أهل الأندلس: أبو بكر بن خَيْر- أبو بكر بن رِزْق- أبو بكر بن نُمارَة- أبو الحسن بن هُذَيل- أبو الحسن بن النّعمة- أبو العباس الخرّوبي- أبو القاسم بن بَشْكَوال.

ومن أهل المشرق: أبو طالب التّنوُخي- أبو طاهر السِّلَفي- أبو طاهر بن عَوْف- أبو طاهر بن معشر[32]- أبو عبد الله الحضْرمي- أبو عبد الله الرَّحْبي المصري- أبو عبد الله الكرِكَنْتي- أبو القاسم البُوصَيْري- أبو يعقوب بن الطُّفَيل الدّمشقي.

مهما بدت عليه هذه القائمة الاسمية -التي استعرضنا- من سعة وشمول، بحكم أنها مستفرغة من برنامج شيوخ صاحبها، إلا أن ذلك لا يعني إحاطتها بجميعهم، إذ لا نعلم ذكرا

لغيرهم في مظان أخرى؛ ومن ذلك: أبو تميم ميمون بن جُبارة بن خَلْفون البَرْدَوي[33][34]، وأبو الحسن علي بن عَتيق بن مؤمن الأنصاري[35].

04- إفادته العلم: كان الجلوس للتدريس، والقيام على بثّ العلم، من أبرز ما يميز الشيوخ المتمرّسين، ويعلو بهم فوق أترابهم، وكانت حِلق نبهاء المشايخ تغصّ بطلبة العلم، الذين يؤمّونها من جميع البلاد ومختلف الأقطار. وتتْرى الشهادات منوّهة بشأن الفقيه أبي عبد الله بن عبد الحق التلمساني، فتحلّيه بـ"الشيخ، الفقيه، الأجلّ"[36]، أو "الفقيه، المحدّث، المحقّق"[37]، ولربما نعت بـ"العلاّمة"[38]، أو "الإمام المتفنّن"[39].

ويكون ما تمتع به الفقيه التلمساني من مؤهلات علمية، قد هيّأه للاضطلاع بمهمة التدريس، فإنه -يقول الرعيني- "كان في بلده متصدّيا لإفادة العلم"[40]. وعلى ما يمكن أن يُلتمَح من أنه لازم بلده بعد أوان الطلب، فلم يسجّل له حضور مشهود خارجها، فقد قصده طلبة العلم رغبة في تحصيل ما ينتحل من علوم ومعارف، أو استجازوه -على النأي- فيما وضع من كتب أو أسند من رواية.

ومع ذلك لا نكاد نقف إلا على عدد محدود من تلاميذه، عنى ابن عبد الملك[41] بتقييد أسمائهم في الترجمة التي خصّ بها أستاذهم، وهم أبو الحجّاج بن محمد بن علي الأسَدي، وأبو زكريا بن أبي بكر بن عُصْفور[42]، وأبو عبد الله بن أبي بكر البَرِّي، وأبو عبد الله بن علي بن حمّاد[43]، وأبو العباس الموروري، وأبو العَيش محمد بن عبد الرحيم الأنصاري.، وأبو موسى بن يوسف بن تامحجلت[44].

وحدّث عنه بالإجازة: أبو الحسن الرُّعَيْني[45]، وأبو علي الماقْري، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن القاسم بن زَغْبوش، وغيرهم.

ويمكن المتتبع لكتب التراجم والطبقات أن يظفر بالمزيد من أسماء الآخذين عنه، على غرار:

- أبو بكر محمد بن يوسف بن مُسْدي الأزدي الغرناطي، فإنه يعد من المكثرين في الرواية عنه[46].
- أبو عبد الله محمد بن الحسين الخُشَني البِجائي، فإنه استجازه، فأجازه. وقد احتفظ لنا الغُبريني بنص كتاب الاستجازة، وجاء فيه (بعد البسملة والتصلية):

"يرغب إلى الشيخ الأجلّ، الفقيه الزكيّ، العالم الحافظ، المفيد المتقن، العلاّمة الأكمل، بقية الجلّة الفضلاء الأكابر أهل العلم، أبي عبد الله ابن الشيخ الفقيه الزكي المرحوم أبي محمد عبد الحق بن

سليمان، أكرمهم الله برضاه، وحرس مجلهم وتولاّه، مُعَظّم مقدارهم، وملتزم برّهم وتوقيرهم وإيثارهم، العارف بحقهم، العليم بتقديمهم وسبقهم، محمد بن محمد بن الحسين الخشني، في الإنعام عليه بإجازة هذا البرنامج، الذي تضمّن ذكر أشياخه الجلّة الفضلاء، رضوان الله عليهم وعليكم أجمعين، بحيث يحمل ذلك عنكم، ويتشرّف بأخذه منكم، وفضلكم بذلك كله كفيل، وثوابكم عليه عند الله عز وجل جزيل، والله يبقي ببركاتكم الانتفاع، ويحسن عن أرجائكم الوقاع، وأفضل سلام الله عز وجل، وأوفى تحياته وأزكاها، وأعطرها عرفا وأذكاها، يخص مقامكم الأعلى، ورحمة الله وبركاته"[47].

فأجابه بما نصّه (الكتاب مؤرخ في ذي الحجة 603هـ/1207م): "أجبتك بأحسن تحية، وامتثالا لما جاء به خير البريّة، نعم وأجبتك إلى ما سألته وطلبته إجابة من يعلم أنك أهل له، وإذن من تحقق أنك قائم به لشواهد طلبك، وبوارع أدبك، إجابة عامة بشرطها، فتلقها تلقي أمثالك، واعمل حسابها عمل نظرائك، والعمل جمال العلم، وخادم له مرتبط به لمن أراد السعادة، وسعى لها، قال تعالى: ((إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ))[48]، مع شروط الإجازة عند أهلها القائلين بإجازتها، جعلنا الله وإياكم ممن استمع القول، واتبع أجمله، وممن ختم بالحسنى عمله، آمين"[49].

- أبو زكريا يحيى بن حبوس الهمداني البجائي، هو الآخر معدود من الآخذين عنه بطريق الإجازة، إذ كتب إليه يستجيزه بما نصه: "يرغب إلى الشيخ الفقيه الزكي المحصّل الأفضل، أبي عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه الصالح الزاهد الفاضل، أبي محمد عبد الحق بن سليمان، أدام الله كرامته، وأبقى بركته، ووصل رفعته، مُجلّ قدره، ومؤثر برّه، الراغب في بركات دعائه، وإلى الله تعالى في إطالة بقائه، يحيى بن علي بن حسن بن حبوس الهمداني، في الإنعام عليه بإجازة ما اشتمل عليه برنامج روايته عن أشياخه رضي الله عنهم، وما سند عنه من قراءته ومسموعاته، وإجازته ومناولاته، وتآليفه في فنون العلم، وما له من نثر ونظم، منعما، ومتفضلا عليه بالإسعاف بمطلوبه من ذلك، والإجابة إليه، والله عز وجل يعين على برّه، ويمتع ببركاته، وبصالح دعائه، والسلام الأتم، الجزيل المبارك الحفي، يخصه ورحمة الله وبركاته"[50].

فأجابه بما نصّه (الكتاب مؤرخ في جمادى الثانية 615هـ/1218م): "أجزت لكم أكرمكم الله جميع ما سألتموه، وأبحت لكم من ذلك ما طلبتموه إجازة عامة على شروطها المعمول بها عند

القائلين، إذ أنتم أهل لذلك، نفعكم الله ونفع بكم، فلتستعمل نفسك، ولتتوخ هديك، في العمل بمقتضى ما علمك الله من ذلك، أبلغكم الله أملكم، وختم بصالح عملنا وعملكم"[51].

وتعقيبا على ما تردد في إجابة الفقيه مستجيزَيه عن "شروط الإجازة عند القائلين بها"، نستأنس بما أورده -بهذا الشأن- شيخه ابن خَيْر الإشبيلي، إذ يقول: "وأما الإجازة، وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان، فقد اُختلف فيها؛ فأجازها أكثر أهل العلم، ...؛ واُختلفت الرواية فيها عن مالك، رحمه الله، والأشهر عنه جوازها، وعلى ذلك أصحابه الفقهاء، لا يُعلم أحد منهم خالفه في ذلك؛ ومنعها بعض العلماء، ولا تقوم على منعها حجّة. ولمالك -رحمه الله- شروط في الإجازة: وهو أن يكون الفرع معارَضا بالأصل، حتى كأنه هو؛ وشرط آخر، وهو أن يكون [المجيز] عالما بما يُخبر به، ثقة في دينه وروايته، معروفا بالعلم؛ وشرط ثالث، وهو أن يكون [المستجيز] من أهل العلم، ومتسما بسمته، حتى لا يضع العلم إلا عند أهله"[52].

وإذا بدا أن هذه الشروط المقررة هي ما قصد الفقيه أبو عبد الله بن عبد الحق إلى تحقّق مستجيزيه بها، لكن ما يستوقفنا -حقا- هو ما ساقه ابن الأبّار في ترجمة الفقيه من أنه "حدّث، ودرّس، وغيره أمتن تحصيلا منه، وأحسن تصرّفا"[53]، إذ يحملنا ذلك على التساؤل فيما إذا كان رأي ابن الأبّار ينم عن جراءة في القول لم توات غيره ممن ترجم للفقيه التلمساني؟ أم أن رأيه لا ينفك عن تحامل ربما كان ثمّة ما يبرره؟

إن ما يلفت الانتباه أن ابن عبد الملك المراكشي (ت 703هـ/1303م)، وهو أكثر من عرف من بين كتّاب التراجم بالصراحة في القول، والتروع إلى النقد، إلى حد أنه كان يدوّن كل ما يعرفه من أحوال المترجَمين، أو يقع إليه من أخبارهم، ولو كان مشتملا على ما يمسّ بأقدارهم؛ إلا أنه لم يزيد في ترجمته لابن عبد الحق عن القول إنه "كان راوية للحديث، فقيها حافظا، متكلما، متفننا في علوم جمّة، بارع الكتابة، حسن الخط"[54]، وهو بذلك لا يبعد في التنويه به عن معاصره الغبريني (ت 704هـ/1305م) الذي تناوله في معرض ترجمته للفقيه الزاهد ابن يَكّي، فجعله صِنْوه وكُفْأه، وفي الأخير منهما يقول: "كان من جملة أهل العلم، ومن أكابر أولي النُّهى والفهم،... وكانت له وجاهة وعلو قدر ورفعة في الدين والعلم، وسمو نظر، وهو من نظراء العالم أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني"[55].

وإذا كان مما قد يؤخذ على هاتين الشهادتين في مقابل رأي ابن الأبّار، هو صدورهما عن مغربيين ربما حملهما على ما أثبتاه داعي الانتصاف لبلديّهما، إلا أن صدور شهادة معاصرهما الأندلسي ابن الزبير (ت 708هـ/1308م) في الاتجاه نفسه –بقوله في حق الفقيه التلمساني "وكان حافظا، من أهل الضبط والتقييد،... وكان فصيحا لسنا، شاعرا كاتبا مشاركا"[56]– يجعل من غير الإمكان الركون إلى ما أدلى به ابن الأبّار، دون استحضار ما شهر به الكاتب الأندلسي من إغضاء من شأن نبهاء المغاربة، إلى حد أنه لم يتورّع عن إلحاق بعضهم بالأندلسيين، ضنانة بعلمهم عن العدوة (المغربية) على حد تعبيره[57].

وقد تتبعه لأجل ذلك ابن عبد الملك وأنحى عليه باللائمة في قوله: "وحسبك ما اشتمل عليه القول من الشهادة على قائله بما لا يليق بأهل الإنصاف من العلماء، واستحكام الحسد للنموم، واحتقار طائفة كبيرة من الجلّة العدويين، وفضل الله سبحانه رحمةٌ يختص بها من يشاء"[58].

05– مؤلفاته: ذاعت للفقيه أبي عبد الله بن عبد الحق التلمساني شهرة واسعة في مجال الكتابة والتأليف[59]؛ بالنظر إلى ما وضعه من مؤلفات كثيرة، حرص على إثبات عناوينها، وعدد أجزائها، في برنامجه الموسوم بـ"الإقناع في ترتيب السماع"، وهو –فيما يصف ابن الزبير– "برنامج حسن ضم فيه مروياته، وذكر فيه شيوخه، وسمى فيه ما ألّف وقيّده"[60]. وقد تأتى لابن عبد الملك –كما لشيخه أبي الحسن الرعيني– الاطلاع على البرنامج المذكور، ولئن لم يحتفظ ثانيهما إلا بعدد محدود من عناوين مؤلفات الفقيه التلمساني، التي قال في بعضها إن لها "أسماء هائلة"[61]، وإنه لم يقف منها على شيء، فإن أولهما قدّر أهمية نقلها برمتها "ليقف عليها المتشوّف إليها"[62].

قال ابن عبد الحق التلمساني –فيما ينقل عنه ابن عبد الملك–: "مراتب تواليفي:

- الفَيصل الجازم، في فضيلة العلم والعالم[63]، في مراتب العلوم. جزء.
- برنامجي، وهو كمراتب التواليف، وسميته: الإقناع، في كيفية الإسماع"[64]. جزء.
- لباب الإعراب. جزء كبير.
- فرقان الفرقان، وميزان القرآن[65]. جزء.
- عقيدة علْية الخَلق، وزبدة معرفة الحق، المضنون بها على غير أهل الصدق. جزء.
- غريب الشّهاب. جزء.

- إكمال اللآلي، على الأمالي. سفران.
- غريب الموطإ[66] وإعرابه. سفر. وسميته: الاقتضاب[67]، لأني اقتضبته من الكتاب الكبير، كتاب المختار، الجامع بين المُنتقى والاستذكار[68]، بزيادات التمهيد وغيره، تونق النفوس، وتروق الأبصار[69]، في نحو العشرين سفرا[70]، يشتمل على نحو الثلاثة آلاف ورقة[71].
- مختار المختار، بين يدي مختصر كتاب البخاري. في سفر كبير.
- جزء من شعري منتخل[72].
- ميزان العمل. جزء كبير.
- إرشاد المسترشد، وبغية المريد المستبصر المجتهد[73]. سفر صغير.
- الإيماء إلى نجاة المريد. جزء.
- النبذة المُسْعدة، واللُّمحة المصْعِدة، في الاعتبار. جزء.
- النكت المحررة، والفصول المحبَّرة، في حقيقة التتريه، ونفي التشبيه. جزء.
- الأجوبة المحررة على المسائل المغيَّرة. جزء.
- التسلّي عن الرزِيَّة، والتحلّي بالرّضا بقضاء باري البريّة[74]. جزء.
- مجموع شعري في المواعظ. جزء.
- نفْثة ذي الضراء، ومسْلاته برثاء الآباء الأبناء. جزء كبير.
- التذكرة، للنوادر المتخيّرة. مضى منه نحو ثلاثة أسفار، ولم يتم، وهو بين يدي.
- حدود أنواع الحكم الشرعي. جزء.
- مستصفى المستصفى. ابتدئ، ولم يتم.
- فصل المقال، في مناقِل أحوال غزوة أهل الإلحاد والضلال، إلى طليطلة -كذا-. جزء."[75].

على أن ما يلفت الانتباه في هذه القائمة هو "الترتيب" الذي راعى المؤلف اتباعه في إيرادها، وهو ما يكشف عنه في قوله: "وكيفية ترتيبها أن أول ما ينبغي أن يُلقى إلى ما يعتني به في طلب العلم هو فضل العلم، لينهض إلى طلبه عن حرص ورغبة فيه، ثم مراتبه [ليرتب العلوم الكثيرة؟] في مراتبها، فيعلم الأعلى من الأدنى، والكلي من الجزئي، والآلة [من الأصل] المقصود، واللاحقة من السابقة، فيرى كل علم منها في رتبته، فيقصد إلى الأعلى منها فيجعله وكْده، وينظر في غيره نظر مشاركة واستبصار، لئلا يجهله فيعاديه وأهلَه، ثم يُلقى إليه ما هو

كالآلة من العلوم، كعلم مدارك العقول، وعلم اللغة والإعراب، ثم يُلقى إليه التفقه في الحديث الذي هو الأصل، وعلم أسرار علوم الدين الذي هو كالثمرة، ثم يتبع بما هو كالتتمة للعلوم، وكالمبتدع من جملتها، مما لا يختص بعلم منها، فلذلك رتبتها هذا الترتيب، فبدأت بفضل العلم ومراتبه، وثنيت بالآلة منه، وثلثت بالأصل منه، وختمت بما هو كالمبتدع من جملته، وكالتتمة والتكميل منه، والحمد لله على هدايته"[76].

ومع أن القائمة السابقة جاءت -بحسب ما ورد في ختام البرنامج[77]- مؤرخة بشهر رجب 600هـ/ 1204م، إلا أننا لا نقف للفقيه التلمساني على مؤلفات غيرها في أي من المصادر التي بين أيدينا، وإننا نستبعد أن يكون مؤلّف مُكثر مثله قد انقطع عن التأليف طوال الخمس وعشرين سنة التي أعقبت ذلك من حياته، إلا أن تكون تبعات التقدم في السن -وقد تجاوز الستين- أثقلت كاهله، وصرفته عن ذلك.

بيد أننا نتساءل فيما إذا كان كتاب "نظم العقود ورقم الحلل والبرود" الذي ينسبه إليه إسماعيل باشا البغدادي[78]، ليس منحولا عليه، أو ربما كان لغيره ممن يشترك معه في الاسم، ونسب إليه على سبيل الاشتباه والالتباس، إذ أن البغدادي يسوق الكتاب المذكور بعد كتابي "المختار" و"التسلي"، ويجعل تاريخ فراغه من وضع هذه الكتب سنة 588هـ/1192م، فلو صحّ ذلك ما كان عزب عن المؤلف إدراج كتابه ضمن قائمة مؤلفاته التي وضعها قبل سنة 600هـ/1204م.

ويبدو أن تساؤلاتنا المعلنة ليست سوى في محلها، إذ نستحضر -بهذا الصدد- أن الكتاب المذكور ما هو إلا ديوان شعري تأكدت نسبته إلى الشاعر الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الزناتي الكومي (ت 604/1208م)[79]، عدا أن الذي جمعه كان كاتبه محمد بن عبد الحق الغساني، وذلك في حدود سنة 588هـ/1192م كما في نسخته الخطية[80]، وهو ما يفسر الالتباس الذي وقع لإسماعيل البغدادي، إذ اشتبه عليه اسم جامع الديوان، وظنّه محمد بن عبد الحق التلمساني.

بقي أن نشير إلى أن الفقيه التلمساني جمع إلى عنايته بالتدوين والتصنيف، شغفا بجمع الكتب واقتنائها، بل طالما عكف على استنساخ النادر منها، حتى اجتمعت له مكتبة عامرة بنفائس المؤلفات، وأمهات الدواوين، مما لم يجتمع لأحد من معاصريه[81].

06- مكانته الاجتماعية: على الرغم من أن المصادر لا تمدنا إلا بالنزر اليسير فيما يتصل بسلفه، ومع ذلك يمكن أن نستمد من تلك المعطيات القليلة أنه ينحدر من أسرة كانت على درجة من الوجاهة والنباهة وعلوّ الصيت[82]، فقد أتيح لوالده أن يشغل بتلمسان -ردحا من الزمن- خطتي الخطابة والقضاء، قبل أن ينصرف عن ذلك، ويرحل إلى المشرق، ويتوفّى هناك سنة 571هـ/1175م، في سلوك يوصف بأنه "ميل إلى الزهد، ورفض للدنيا"[83].

ولربما كان لنا حريا بنا أن نتساءل فيما إذا كان انصراف والده إلى المشرق رهْن دواع شخصية عارضة، غير ذات صلة بمسألة الولاء السياسي، إذ في حالات مماثلة رفض بعض خطباء وقضاة العهد البائد التعاون مع الموحدين؛ شأن خطيب بجاية أبي محمد بن الخرّاط (ت 581هـ/1185م)[84]، أو قاضي مرسية أبي بكر بن أبي جمرة (ت 599هـ/1202م)[85]، ولئن كان عدد من هؤلاء آثر المكوث ببلده متحمّلا ضروبا من الإيذاء والتضييق، فإن آخرين فضلوا المغادرة نحو المشرق.

ومهما يكن فقد احتفظ أبو عبد الله بن عبد الحق التلمساني بما تأتى لسلفه في الزمن الغابر، فلم ينفك عن الوجاهة والنفوذ، ولا عن ولاية خطة القضاء.

وتتعاضد المصادر على أنه ولي قضاء بلده[86]، ويضيف بعضها أنه وليه مرتين[87]، مشهودا له في كل ذلك "بالعدل، والإنصاف، والجزالة"[88]. كما نعتته بأنه كان "من أهل السراوة والجلالة"[89]، وبقدر ما لم تتردد في الإفصاح عن اختصاصه بحكام عصره، ومدى حظوته لديهم[90]، فإنها قررت -أيضا- حظوته لدى الناس "خاصتهم وعامتهم"[91]، وذلك أمر قلما اتفق لمن يتردد على مجالس السلطان، مع ما تقرر في المجال التداولي لأدبيات الفكر الإسلامي من أن الدخول على السلاطين مظنة الدنيّة، ومجلبة للمنقصة[92].

وإذا كان يتعين علينا -بهذا الصدد- أن نذكّر بما أقدم عليه عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين -في سبيل التمكين لشخصه ضمن التحالف المصمودي- من استدعاء لقبيلته "كومية"، واستدناء لها، حتى أضحت بمكانتها تلك -على حد تعبير ابن خلدون-: "فاتحة الكتاب، وفذلكة الجماعة"[93]، فإنه يمكننا أن ندرك -حينئذ- سر تلك المكانة التي تبوّأها الفقيه التلمساني، وندرك -

أيضا- سر اتساع ثروته، اعتمادا على ما كان يغدق به خلفاء بني عبد المؤمن على المقربين منهم من عطاءات وفيرة، وإنعامات سنيّة[94].

لكن وبصرف النظر عما يتذرّع به الفقهاء المترددون على مجالس الحكام، بما يرجونه من إعزاز حق، أو نصرة دين، فإنه يلزمنا توخيا للإنصاف، أن نسوق جُملا مما لم تتكتّم عليه مصادر ترجمة الفقيه ابن عبد الحق، وما فتئت تنوّه به، من أنه على ما أصابه من جاه ونفوذ، وما حازه من ثراء ويسار، إلا أنه كان "نفّاعا بماله وجاهه"[95]، مسارعا إلى قضاء مصالح أهل بلده، حريصا على مساعدة المحتاجين والمحرومين[96].

07- سجاياه ومناقبه: قد يكون من غير المتوقع بالنسبة إلى رجل تربطه تلك العلائق الوثيقة بالمال والسلطة -حتى غدا من سماته المعهودة كونه "بهيج المنظر، رائق الملبس"[97]- أن يُقال فيه إنه "من أهل التقشّف"[98]، لكن طالما كان الإقبال على الزهد، أو الانخراط في التصوف، رد فعل طبيعي لدى العديد من الفقهاء[99]، ممن ينشدون تحقيق نوع من التوازن النفسي بين نوازع المادة وأشواق الروح. فهل يكون هذا التفسير مما ينطبق على حال فقيهنا؟

إننا قد لا نجد أنفسنا في حلّ من قبول هذا التفسير لاسيّما إذا كان نزوعه إلى الزهادة جاء منه على كَبْرة، وما تجلبه على صاحبها من إيحاءات الإعراض عن الدنيا، واطّراح مباهجها، على أننا لا نُغفل أيضا استعدادات الرجل الذي درجت المصادر على الإشادة بـ "جميل سيرته"[100]، و"حسن خُلُقه"[101]، و"واسع مروءته"[102]؛ فإنه إذا اجتمع هذا إلى ذاك وسعنا فهم للنزع الزهدي للرجل.

أما من أبرز الشواهد الدالة على صلته بالتصوف وآله، هو ما ينقله الغبريني في قوله: "ورأيت في فهرسة أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني، بعد ذكره لفضل الشيخ أبي مدين، وبعد وصفه إياه ببعض أوصافه الجليلة، أنه قال: ظهر فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يَمُوتُ المَرْءُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْه))[103]، إذ كان من قوله عند آخر الرمق: الله الحي"[104].

وأبلغ من ذلك ما يرويه عنه تلميذه الرعيني[105]، ولعله انتخبه من مجموعه الشعري في المواعظ، إذ أنشد لنفسه يخاطبها مذكّرا:

لا يغُرّنْك يا محمّد ليلٌ بتَّ فيه على فراشٍ وثيرِ
ناعم البال مطمئنًّا فلا بُدَّ من النَّعْش بعد هذا السَّريرِ

و تذكَّر بني أبيك سليمان ذوي الجاه والعديد الكثيرِ
كم فتىً منهم وكَهْل وشيخٍ أحدَثه كفَّاك بين القُبور
قدِّم الزَّادَ للمعاد ولا تَنْسَ إذا ما بطشتَ بَطْشَ القَديرِ
واتَّقِ الله واغْتنِمْ هذه الأيَّام و اعمل لهول يوم النُّشورِ
قد أتاك النّذيرُ يَدعُوكَ جهْرًا فازْجُرِ النفس واسْمَعَنْ للنَّذيرِ

ولا يسعنا في ختام هذه المحاولة، التي تطلعنا من خلالها إلى رسم صورة عن المشهد الثقافي في مجتمع الغرب الإسلامي عموما، ومجتمع تلمسان وأحوازها خصوصا، وذلك عبر تتبع حياة أحد أبرز الأعلام المنحدرين من هذه الحاضرة العريقة، إلا أن نخلص إلى تسجيل الملاحظات الآتية:

1- ثراء المشهد الثقافي في الحقبة الموحدية، يقوم شاهدا عليه جملة عناصر من أهمها: تنوّع العلوم والمعارف، وتأصّل الطرائق والمناهج، ورواج الكتابة والتأليف.

2- نشاط الحركة الثقافية بمدينة تلمسان، التي أضحت منذ القرن 05هـ/11م قبلة للعلماء، والمحدثين، وحملة الرأي على مذهب مالك، وما فتئت تزداد تألقا واستقطابا.

3- التواصل بين أجيال المثقفين، ويتجلى ذلك من خلال الحرص على استفادة العلم وإفادته، وتنشيط حلق الدرس والمناظرة، والاتجاه نحو تكريس تقليد الإجازة العلمية.

4- التلاقح بين الثقافتين المشرقية والمغربية بلغ مستوى من الإيجابية والفاعلية، يعكسه ما تزخر به كتب البرامج والفهارس من أسماء الشيوخ والأساتيذ، والمقروءات والأسانيد.

5- قيام الفقهاء (مثقفي العصر) في مجتمع الغرب الإسلامي كوسيط بين السلطة والرعية، ما أتاح لهم التأثير في القرار السياسي من جهة، والسعي في مصالح الرعية من جهة ثانية.

هوامش البحث:

(*) ابن الأبّار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهرّاس، بيروت: دار الفكر، 1995، 165/2. وجاءت "اليعفري" لدى ابن الزبير في صلة الصلة، تحقيق: عبد السلام الهرّاس وسعيد أعراب، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 93-1994، 29/3. بينما نقرأها "اليعمري" لدى ابن عبد الملك في الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن، تحقيق: محمد بن شريفة، الرباط: منشورات أكاديمية المملكة المغربية، 1984، 317/8. لكن إذا أدخلنا في اعتبارنا أن محققي صلة الصلة نبّها على أنها وردت "النفزي" في النسخة المخطوطة، وأن محقق الذيل والتكملة رجّح أن تكون "اليفرني" اعتمادا على ذلك،

تدعّم اقتناعنا بما أثبتنا أعلاه.

(2) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 317/8؛ ويحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، الجزائر: المكتبة الوطنية، 1980، 112/1.

(3) تصحفت إلى "الكوفي" لدى الذهبي في سير أعلام النبلاء، نشر بعناية: محمد بن عيادي، ط01، القاهرة: مكتبة الصفا، 2003، 138/13.

(4) ابن الأبّار: التكملة، 165/2؛ وابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 317/8.

(5) ابن الأبّار: التكملة، 165/2؛ وابن الزبير: صلة الصلة، 29/3.

(6) كومية من قبائل زناتة التي استوطنت المغرب الأوسط، وكانت مواطنها الأولى تمتد فيها بين البحر المتوسط إلى الشمال ونواحي تلمسان إلى الجنوب. وعلى ما كانت عليه من وفرة العدد، إلا أنها كانت خاملة الذكر قبل عصر الموحدين. يراجع ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، 149/6-151؛ وأيضا الدراسة التي أنجزها التقي العلوي: "أصول المغاربة -القسم البربري-"، مجلة البحث العلمي (الرباط)، ع 1982/33، ص84-86.

(7) سير أعلام النبلاء، 138/13.

(8) ابن الأبّار: التكملة، 124/3.

(9) عبد الواحد المرّاكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة: دار الفرجاني، 1994، ص169.

(10) المصدر السابق، ص169.

(11) العبر، 150/6.

(12) ابن الأبّار: التكملة، 166/2.

(13) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، نشر: ج. برجستراسر، ط03، بيروت: دار الكتب العلمية، 1982، 159/2.

(14) برنامج شيوخ الرعيني، تحقيق: إبراهيم شبوح، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1962، ص171.

(15) ابن عِذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (القسم الخاص بالموحدين)، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985، ص22-23؛ ومؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1979، ص135.

(16) صلة الصلة، 29/3. وعلى أن الذهبي ترجم له -أيضا- في وفيات 623هـ لكنه عاد فترجم له في وفيات 625هـ. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان، تحقيق: بشار عواد معروف، ط01، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003، 751/13، 802.

(17) ابن الأبّار: التكملة، 166/2؛ والرعيني: برنامج شيوخه، ص171؛ وابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 317/8؛ وابن قنفذ: كتاب الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، ط03، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1980، ص310؛ والحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1991، 237/2.

(18) يحيى بن خلدون: بغية الرواد، 198/1؛ والتنسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان؛ مقتطف من كتابه: نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق: محمود بوعياد، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص111.

(19) يحيى بن خلدون: بغية الرواد، 112/1؛ والحفناوي: تعريف الخلف، 237/2.

(20) ابن الزبير: صلة الصلة، 29/3.

(21) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 317/8.

(22) المصدر السابق، 317/8. وعنه كل من يحيى بن خلدون في بغية الرواد، 112/1؛ والعارجي في الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، فاس: المطبعة الجديدة، 36-1938، 98/3.

(23) تلقى عنه مبادئ الفقه واللغة. ابن الأبّار: التكملة، 165/2.

(24) قال عنه: "صحبته، وسمعت منه، وأمتعني بحديثه". ابن عبد الملك: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة؛ السفر السادس، تحقيق: إحسان عباس، ط01، بيروت: دار الثقافة، 1973، 39/6.

(25) أو ابن أبي جَنون، حسب الرعيني في برنامج شيوخه، ص170.

(26) تصحّف إلى ابن الجهّار في التكملة، 165/2. وذكره الرعيني ضمن أساتذة شيخه في قوله: "... والأستاذ أبو علي حسن بن عبد الله بن أحمد بن محمد القيسي". برنامج شيوخه، ص169.

(27) أخذ عنه القراءات والنحو، وذلك في حدود سنة 551هـ/1156م. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 138/13؛ وابن الجزري: غاية النهاية، 159/2.

(28) ورد "ابن مجبر" في تعريف الخلف للحفناوي، 237/2، والصواب ما أثبتنا، ويشهد له ترجمة المذكور في التشوف إلى رجال التصوف، للتادلي، تحقيق: أحمد التوفيق، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1984، ص179.

(29) ذكر ابن الجزري أبا الحسن بن حسين، ويفهم منه أنه أبو الحسن اللواتي المذكور، لكن أتبعه بالقول إنه من أصحاب ابن الطلاّع، وهو ما لا ينطبق عليه، لكن ينطبق على سميّه أبي الحسن بن حنين، فيلو أن "حنين" تصحّفت إلى "حسين". يراجع ابن الجزري: غاية النهاية، 159/2؛ ويقابل بابن الأبّار: التكملة، 210/3، 244.

(30) ساقه الرعيني مسبوقا بأبي عبد الله محمد بن علي بن جعفر بن أحمد القيسي، وهما -كما لا يخفى- شخص واحد، فلعله وهِمَ، أو أنه من فعل الناسخ، أو المحقق. برنامج شيوخ الرعيني، ص170؛ ويقابل بابن الزبير: صلة الصلة، 21/3.

(31) عني المغاربة والأندلسيون بالإجازة، وعدوها من أبواب التحمل التي لا غنى عنها لطالب العلم المستزيد، ومن صور توسعهم فيها سؤال بعض الفقهاء أبا الوليد بن رُشد (ت 520هـ/1126م) أن يجيزه "جميع ما يحمله من الكتب المؤلفة في ضروب العلم بأي وجه حمل ذلك، من قراءة، أو سماع، أو مناولة، أو إجازة، وجميع ما ألفه، أو وضعه، أو أجاب فيه، في القديم والحديث"، استجاز ذلك له، ولكل من أحب الحمل عنه من المسلمين. يراجع ابن خير: فهرسة ما رواه عن شيوخه، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري-بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1989، 589/2. وقد ختم المؤلف كتابه بباب في "تسمية الشيوخ الذين رويت عنهم، وأجازوا لي لفظا وخطا، ممن لقيته، وممن لم ألقه رحمهم الله".

(32) سمّاه الرعيني: أبا الطاهر إسماعيل بن علي بن بِشْر النحوي المصري. برنامج شيوخه، ص170؛ وورد عند السيوطي: أبو الطاهر إسماعيل بن علي بن أبي مقشر النحوي. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: المكتبة العصرية، 64-1965، 451/1.

(33) حسب الغُبريني في عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: رابح بونار، ط02، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص183. ولعل الصواب "الفرْداوي"، كما في ابن الأبّار: التكملة، 197/2؛ وابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 387/8.

(34) نص الغبريني في ترجمته على أن أبا عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني كان ممن أخذ عنه حين قدومه تلمسان سنة 584هـ/1188م. عنوان الدراية، ص184.

(35) أشار الغبريني ضمن برنامج مشيخته الذي ألحقه بآخر كتابه: عنوان الدراية، ص310، أنه يروي كتاب "الكشف والبيان في تفسير القرآن" لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي بسنده إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني عن أبي الحسن علي بن عتيق بن مؤمن الأنصاري.

(36) الرعيني: برنامج شيوخه، ص169.

(37) ابن قنفذ: كتاب الوفيات، ص310.

(38) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 138/13.

(39) ابن الجزري: غاية النهاية، 159/2.

(40) الرعيني: برنامج شيوخه، ص169.

(41) الذيل والتكملة، 318/8.

(42) روى عنه كتابه "المختار الجامع بين المنتقى والاستذكار"، فضلا عن كتابي: "الكشف والبيان في تفسير القرآن" لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي؛ و"أحكام القرآن" لأبي الحسن علي بن محمد الطبري. الغبريني: عنوان الدراية، ص310، 314.

(43) أقره الغبريني في المصدر السابق، ص193.

(44) أقره يحيى بن خلدون في بغية الرواد، 102/1.

(45) قال الرعيني: "أجاز لي جميع ما يحمله، وما ألفه، وما له من نظم ونثر". برنامج شيوخه، ص169.

(46) ابن الجزري: غاية النهاية، 159/2.

(47) الغبريني: عنوان الدراية، ص219.

(48) سورة فاطر: الآية 10.

(49) الغبريني: عنوان الدراية، ص219-220.

(50) المصدر السابق، ص221.

(51) المصدر السابق، ص221.

(52) فهرسة شيوخه، 28/1-30.

(53) التكملة، 166/2.

(54) الذيل والتكملة، 318/8؛ ويتابعه على ذلك يحيى بن خلدون في بغية الرواد، 112/1؛ والحفناوي في تعريف الخلف، 237/2.

(55) عنوان الدراية، ص189.

(56) صلة الصلة، 29/3.

(57) التكملة، 121/2.

(58) النيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة؛ السفر الأول، تحقيق: محمد بن شريفة، بيروت: دار الثقافة، د.ت.، 11/1.

(59) عدّه الذهبي من "أهل التصنيف". تاريخ الإسلام، 751/13.

(60) صلة الصلة، 29/3.

(61) برنامج شيوخ الرعيني، ص170.

(62) النيل والتكملة، 318/8.

(63) ذكره ابن الأبّار في التكملة، 166/2؛ والرعيني في برنامج شيوخه، ص170.

(64) اشتهر بعنوان "الإقناع في ترتيب السماع". يراجع الرعيني: برنامج شيوخه، ص170؛ وابن عبد الملك: النيل والتكملة، 317/8.

(65) مما ذكره -أيضا- الرعيني في برنامج شيوخه، ص170.

(66) ذكر الذهبي أن من تصانيفه "غريب الموطإ". سير أعلام النبلاء، 138/13.

(67) قال ابن الأبّار: وله تواليف في فنون؛ منها "الاقتضاب في غريب الموطإ وإعرابه". التكملة، 166/2.

(68) ويرد أحيانا بعنوان: "المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار"، أو "الجامع المختار من المنتقى والاستذكار". والكتاب في فقه الحديث يستمد مادته من كتابي: "المنتقى" للباجي (ت 474هـ/1081م)، و"الاستذكار" لابن عبد البر (ت 463هـ/1071م)، وتتفق المصادر على أنه من أجلّ مؤلفات ابن عبد الحق وأحفلها. يراجع ابن الأبّار: التكملة، 166/2؛ والذهبي: سير أعلام النبلاء، 138/13؛ وابن قنفذ: الوفيات، ص310؛ وابن الجزري: غاية النهاية، 159/2؛ والحفناوي: تعريف الخلف، 137/2.

(69) يروى في ترجمة أبي عبد الله بن زرقون (ت 586هـ/1190م) أنه اختصر "المنتقى" أنبل اختصار، وجمع بينه وبين "الاستذكار"، وتمم فيه ما رأى تتميمه، واستدرك ما اقتضى نظره استدراكه، ونبّه على مواضع يجب التنبيه عليها. النيل والتكملة، 204/6.

(70) وفي سير أعلام النبلاء للذهبي، 138/13، أنه يقع في عشر مجلدات. لكن ربما تعلق الأمر بتصحيف، إذ أن ابن الجزري ينقل عن الذهبي في غاية النهاية، 159/2، أن الكتاب يقع في عشرين مجلدا. ويبدو أن إسماعيل البغدادي اطلع على الروايتين معا، فأثبت الرواية الأولى في كتابه إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، 357/1، ثم عاد عنها، وأثبت الرواية الثانية في كتابه -الآخر- هدية العارفين إلى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، 112/2.

(71) وردت إشارة إلى أنه يوجد من الكتاب المجلدان الأول والسادس، مخطوطان، في خزانة القرويين بفاس (الرقم 174)، ومنه -أيضا- مجلد ضخم قديم في خزانة الرباط (176 أوقاف). الزركلي: الأعلام، ط09، بيروت: دار العلم للملايين، 1990، 186/6.

(72) المحفوظ لنا من شعره مقطوعات نادرة، من مثل ما قاله -على سبيل النظم- في عدّ أحاديث صحيح البخاري:

جَمِيعُ أَحَادِيثِ الصَّحِيحِ الذِي رَوَى البُخَارِيُّ خَمْسَةٌ وَسَبْعُونَ فِي العَدِّ
وَسَبْعَةُ آلاَفٍ تُضَافُ وَمَا مَضَى إِلَى مَائَتَيْنِ عَدَّ ذَاكَ أُولُو الجِدِّ

- الرعيني: برنامج شيوخه، ص170؛ ويحيى بن خلدون: بغية الرواد، 112/1-113؛ والتعارجي: الإعلام، 99/3.

(73) ذكره ابن الأبّار في التكملة، 166/2.

(74) يعْرفه المتأخرون بعنوان "التسلي عن الرزية والتحلي برضى باري البرية". يراجع حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، 404/1؛ وإسماعيل البغدادي: هدية العارفين، 112/2.

(75) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 318/8-319.

(76) المصدر السابق، 320/8. ويمكن مقارنته بما أورده المؤلف في السفر الأول، 114/1، في ترجمة الفقيه أبي العباس بن خليل السكوني اللبلي الإشبيلي (ت 581هـ/1155م) حول المسألة نفسها.

(77) المصدر السابق، 320/8.

(78) هدية العارفين، 112/2، ويتابعه على ذلك عمر رضا كحالة في معجم المؤلّفين، ط01، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1993، 386/3؛ وعادل نويهض في معجم أعلام الجزائر –من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر–، ط02، بيروت: مؤسّسة نويهض الثقافية، 1980، ص77.

(79) نشر ديوان نظم العقود ورقم الحلل والبرود، بتحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، وسعيد أعراب، ومحمد بن العباس القباج، ومحمد بن تاويت التطواني، وصدر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس.

(80) راجع مقدمة الديوان.

(81) ابن الأبّار: التكملة، 166/2؛ وابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 318/8؛ وابن الزبير: صلة الصلة، 29/3.

(82) يستفاد ذلك من ترجمة والده التي انفرد بها ابن الأبّار في التكملة، 125/3.

(83) المصدر السابق، 125/3.

(84) الغبريني: عنوان الدراية، ص73؛ وابن الزبير: صلة الصلة، 05/4.

(85) ابن الأبّار في التكملة، 81/2.

(86) ابن الأبّار: التكملة، 166/2؛ وابن الزبير: صلة الصلة، 29/3؛ وابن الجزري: غاية النهاية، 159/2.

(87) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 320/8؛ ويحيى بن خلدون: بغية الرواد، 112/1؛ والتعارجي: الإعلام، 99/3.

(88) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 320/8؛ والحفناوي: تعريف الخلف، 237/2.

(89) ابن الزبير: صلة الصلة، 29/3.

(90) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 320/8؛ ويحيى بن خلدون: بغية الرواد، 112/1؛ والحفناوي: تعريف الخلف، 237/2.

(91) ابن الأبّار: التكملة، 166/2؛ والذهبي: تاريخ الإسلام، 802/13؛ والحفناوي: تعريف الخلف، 237/2.

(92) السّبكي: معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد علي النجار وآخرَين، ط02، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1993، ص68.

(93) العبر، 151/6.

(94) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 228/1-229، 281؛ وابن عذاري: البيان المغرب، ص358.

(95) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 320/8.

(96) ابن الأبّار: التكملة، 166/2؛ ويحيى بن خلدون: بغية الرواد، 112/1؛ والحفناوي: تعريف الخلف، 237/2.

(97) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 320/8.

(98) الذهبي: تاريخ الإسلام، 751/13.

(99) انتظم كتاب التشوف للتادلي (ت 628هـ/1230م) ما لا يقل عن ثلاثين ترجمة لفقهاء، يرى المؤلف أن اسم "الصوفي" يصدق على جميعهم.

(100) ابن الجزري: غاية النهاية، 159/2.

(101) يحيى بن خلدون: بغية الرواد، 112/1.

(102) ابن الأبار: التكملة، 166/2.

(103) لا يرد في الصحيحين ولا في السنن، وورد لدى الغزالي في إحياء علوم الدين، بيروت: دار المعرفة، د.ت.، 303/1، 178/4، لكن ليس بوصفه حديثا.

(104) عنوان الدراية، ص61.

(105) برنامج شيوخه، ص170-171.

المجال واستراتيجية المشروع المرابطي: تلمسان ونهاية الدولة.

د محمد البركة*

تقديم: إن الرغبة في تجاوز الهيكل الخارجي للأحداث التاريخية التي عرفتها الدولة المرابطية خلال سنواتها الأخيرة، لهو الداعي للبحث في هذا الموضوع، إذ لا يكفي أن يكون تسارع الأحداث التي أسهمت في سقوط الدولة، تعبير حقيقي عن كل ما جرى، لولا ما أحاط هذه الأحداث من عوامل مسهمة، قد يكون من بين أهم عناصرها المكان أو المجال ببعده الجغرافي السياسي، لا الجغرافي فقط، فعلى قدر سعي الباحثين إلى إبراز مكانة الرباطات والثغور التي أقامتها الدولة المرابطية في جميع مناطق مجال سيادتها، وخاصة تلك التي تقع في موضع التماس بينها وبين خصومها المحتملين خلال مرحلة بناء الدولة، فإن انهيار هذا الثغر أو ذلك خاصة منه المسهم في حماية الدولة، قد يكون سببا رئيسا إلى جانب أسباب أخرى في انهيار الدولة أو الإعلان المباشر عن بداية الانهيار؛ إذ النهاية السياسية لدولة المرابطين لا تفهم على وجهها الصحيح، إلا إذا وضعت في إطار الصراع مع الموحدين[1] من جهة، وفي إطار الصراع على المجال وكسب الولاء من جهة ثانية.

وإذا كان أغلب الباحثين قد أبرزوا- فقط- دور دعوة ابن تومرت في أفول دولة المرابطين، فإن الدعوة لوحدها لا يمكن أن تكون كافية لإسقاط الدولة رغم وجود العصبية، لولا وجود عوامل أخرى لا تتعلق بالبيئة المساعدة على اعتناق الدعوة، وإنما عوامل بعضها مرتبط بدرجة الوعي بمكامن الضعف في جسم الدولة المرابطية، خاصة إذا كان هذا الضعف مجالي، ضعف سعت الدولة عبر إجراءات متعددة وسريعة للتغلب عليه، لكن يبدو أنه ظل حاضرا

*- أستاذ باحث بجامعة سيدي محمد بن عبد الله- الكلية متعددة التخصصات بتازة- المغرب.

وبقوة في وعي أصحاب وقيادات الدعوة الجديدة، ذلك بأن لكل دولة مكامن ضعفها، ومسار الوعي بالضعف من طرف الخصوم هو المسهم الرئيس في إيغار الجرح وإعلان النهاية.

فما هي العوامل التي ساعدت الموحدين للتفكير في خرق الجهة الشرقية لمجال سيادة المرابطين؟ وكيف استطاعت الدعوة الجديدة تلمس قيمة الواجهة الشرقية إلى درجة الربط بين سقوطها وإعلان نهاية الدولة؟ بل لماذا سعى الأمير المرابطي جاهدا لحمايتها رغم الضعف العسكري للدولة؟ وما هو موقع تلمسان من استراتيجية الدولة حفاظا على نفسها وتثبيتا لبقائها ووجودها؟

المجال وبداية الوعي بأهميته الاستراتيجية: إن التطور الدقيق الذي طرأ على وضعية المجال بنظر بعض الباحثين، من كونه انتقل من تصرف المجموعات الساكنة الأصلية (القبيلة)، إلى تصرف الحكم المركزي المتصاعد الساعي إلى توظيفه في التوزيع والتعمير والترحيل والاحتواء[2]، لهو تطور بارز وجلي، فإذا كانت أيام الموحدين الأوائل تكشف عن هذا التطور، فإن الاستشعار بقيمته ظهر خلال السنوات الأخيرة من عمر الدولة المرابطية، وإلا ما هي قيمة مجال تلمسان في حماية الدولة المرابطية؟ ولماذا هرع الأمراء المرابطون إلى حمايته؟.

لذلك فإن البحث في هذا الموضوع هو محاولة تريد أن تعرض لمعالم منهج يبحث قيمة المجال في قيام الدول أو انهيارها، انطلاقا من كون رمزية المجال تفرض على الباحث أخذه بالاعتبار، وهذا يعني أن قيمته في مجموع الأحداث لا تكاد تنحصر أو تحد، لذلك فإنه لما وجدنا مجال تلمسان لا يحظى إلا بالقليل واليسير من الانتباه، من طرف الباحثين المهتمين بالتاريخ المرابطي، كان لا بد أن نسجل عنه بعض الملاحظات، ونجمع له بعض المعلومات المعرفة به، خاصة وأن مجال تلمسان ليس مجالا ثانويا عند أمراء المرابطين، بل مجال رئيس، له دور كبير في حماية الدولة من جهة، واستمراريتها أو أفولها من جهة ثانية، فالدفاع عنه من طرف الأمراء حتى الاستشهاد (تاشفين بن علي شهيد تلمسان)، دليل واضح على حيويته ومركزيته في مشروع الدولة.

ولما كانت اللحظات الأخيرة من عمر الدولة المرابطية غير مستوفية للبحث برأينا، ليس من باب البحث في عوامل انهيار الدولة، بل من زاوية الاستماتة في الدفاع عن المشروع المرابطي وبقائه، فإن البحث في الصعوبات والقرارات والإجراءات المتخذة لإنقاذه، تبدو للناظر من بعيد

كأنها واضحة المعالم، لأنها قصيرة الأمد متداخلة الأسباب، لكن سرعان ما يتبين أن هذا الوضوح ما هو في الحقيقة إلا خطوط رئيسة لملامح عامة تخفي الكثير من الأحداث السريعة، نظرا لأن زمن الأفول تتسارع فيه الأحداث، حتى أنه يصعب رصدها ورسم دقائق ملامحها، لذلك يأتي التعميم بالقول عند المؤرخين بعبارات جامعة، مثل (ولما توفي علي وخلص الأمر للأمير تاشفين، كثر الطائع لعبد المؤمن)[3]، (وخرج تاشفين بعد وفاة أبيه قاصدا تلمسان، فلم يتفق له من أهلها ما يريد، فقصد وهران، فحاصره الموحدون بها)[4]، (فسير علي بن يوسف ولده تاشفين ليكون في قبالة عبد المؤمن ومعه جيش، فساروا في السهل وأقاموا على هذا مدة فتوفي علي بن يوسف في أثنائها)[5]...، عبارات تخفي الأسباب وروابط الأسباب، بل تخفي العوامل الحقيقية (القريبة منها والبعيدة)، التي دفعت بالأمراء إلى اتخاذ قرارات وإجراءات سلكت بها مسار الأفول.

تلمسان واستراتيجية الدولة: لقد جاء اهتمام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بمدينة تلمسان في إطار الوعي بقيمة المجال في حماية الدولة، بل في إطار رؤية جامعة ساعية إلى تأمين الجهة الشرقية للدولة، وذلك بترهيب أعداء صنهاجة التاريخيين من زناتة، حيث أخذ الملثمون (البلاد من أيديهم -زناتة- من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط)[6]، وكذا بجعل بني عمومتهم من صنهاجة جيرانا آمنين على دولة المرابطين، وكأن الدولة المرابطية الفتية كانت تبحث عن تأمين جهاتها الثلاث قبل الإقدام على فتح الجبهة الشمالية (الجوف)، فإذا كانت الجهة الغربية آمنة بحدودها الطبيعية البحرية، والجهة الجنوبية (القبلة) آمنة بوجود القبائل الصنهاجية التي سهر الأمير أبو بكر بن عمر على حمايتها، حين توجه إليها عشية بداية تسرب النزاع والتفكك في جسم الحلف الصنهاجي، فإن الجهة الشرقية كانت تمثل محطة ازعاج للدولة، لذلك فتأمينها برأينا فتح المجال لتلبية النداء والاستجابة للأندلسيين لانقاذ مجالهم من ضربات النصارى، خاصة بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ، وفي ذلك تنفيذ للمبدأ الذي أعلاه المرابطون منذ خروجهم من الصحراء، والمتمثل في رفع راية الجهاد والدفاع عن الإسلام.

وهكذا "وفي سنة ثمان وستين وأربعمائة جهز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عسكرا ضخما وقدم عليه ابن عمه مزدلي اللمتوني[7]، وبعثه إلى مدينة تلمسان، وكان أميرها يومئذ العباس بن يحيى أمير زناتة، فكتب أمير المسلمين إليه كتابا بالعفو عنه إن نزل دون قتال، فخرج هذا العسكر من مراكش في أوائل شهر محرم ووصل إلى مدينة تلمسان عقب شهر صفر، فقدم

مزدلي الكتب إلى العباس بكتاب أمير المسلمين فعند وصول الرقاص بالكتاب إليه وقف عليه، فخرج من تلمسان فأنعم عليه الأمير مزدلي بمطلبه ووافقه في مذهبه، ورحل الأمير مزدلي إلى تلمسان ودخلها في مهلة وحال هدنة ثم ولي عليها ابنه يحيى ابن مزدلي ورجع إلى مراكش، فكان وصوله إليها في نصف ربيع الآخر من هذه السنة ومعه العباس صاحب تلمسان فأنعم عليه أمير المسلمين بكل خير، وأمر له بظهائر كريمة وانصرف إلى وطنه"[8]، وهو نفس الحدث الذي روى ابن أبي زرع وقوعه سنة 472هـ، حيث (بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلي لغزو مدينة تلمسان، فسار إليها في عشرين ألفا من المرابطين، فهتكها ودخلها، وظفر بولد أميرها معلى بن يعلى المغراوي فقتله)[9]، كل ذلك بغرض تقليص نفوذ زناتة وتأمين وجود الدولة المرابطية شرقا، بل والاستفادة من العداء القائم بين الحماديين والزناتيين[10]، رغم وعيهم التام بالعداء الذي يكنه الحماديون لهم كذلك[11].

ثم لما دخلت سنة 474هـ (طلع يوسف بن تاشفين إلى مدينة وجدة ففتحها، وفتح مدينة تنس ومدينة وهران...)[12]، لكنه رغم ذلك لم يكن إلا ليحرص على تأكيد علاقة حسن الجوار مع دولة بنى حَمَّاد الصنهاجية التي تقع شرق دولة المرابطين، وذلك لتأمين كل تحركاته المقبلة[13]، الهادفة إلى التوجه نحو الشمال، خاصة أمام العداء الواضح الذي يكنه الحماديون للزناتيين[14]، إلا أن بني حَمَّاد كانوا يتحينون الفرصة لضم أطراف من بلاد زناتة الواقعة تحت إمرة المرابطين، وتمَّ لهم ذلك عندما عبر الأمير يوسف إلى الأندلس سنة 479هـ، لكن محاولاتهم باءت بالفشل، مما دفعت بالأمير يوسف بن تاشفين إلى السكوت عن الانتقام منهم، وعدم الدخول في حرب معهم، رغم وجود أسبابها[15]، بل صالحهم رغبة في عدم فتح جبهة شرقية تستترف جهد جيشه خلال تلك المرحلة.

ومما يعزز الرغبة في تأمين الجهة الشرقية للدولة المرابطية، رسالة التعزية التي بعثها الأمير يوسف بن تاشفين للمنصور الحمادي عندما تُوفي والده الناصر بن علناس الحَمَّادى سنة 481هـ، رسالة كشف يوسف بن تاشفين فيها عن نيته السلمية تجاه بنى حَمَّاد، التي استمرَّت بين الفريقين لأكثر من عشر سنوات.

إن روح الرسالة التي كتبها أبو بكر بن القصيرة عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المنصور بن الناصر[16]، دليل واضح عن طبيعة العلاقة التي كانت تجمع بين الطرفين، إذ أن روح

الرسالة العام كاف للدلالة على الحرب الباردة القائمة بين الطرفين، وهي تشير إلى وقوف الحماديين بقوة في وجه المرابطين، ووقوف المرابطين في وجه الحماديين، وأن مظاهر السلم بينهما لم تتحكم فيها وشائج القرابة الصنهاجية، بل المصالح وظروف الامتداد المرابطي، إذ لما بدأ المرابطون يحدون من مطامحهم بعد وفاة يوسف بن تاشفين، وبدأ انبعاث الخطر الموحدي، تحسنت علاقاتهما[17].

وهكذا، نظرا للمكانة الهامة التي باتت تحتلها تلمسان في استراتيجية الدولة، فإن المرابطين لم يكونوا مستعدين للتنازل عنها أو حتى السماح بوقوع اضطراب أمني قد يزعزع ولاءها ويربك سيادتهم عليها، ولعل هذا ما يفسر حرص الأمراء الشديد على حمايتها، وتخير أقوى القادة لولايتها، إذ لما وصل إلى مسامع الأمير يوسف بن تاشفين سنة 491هـ قيام ماخوخ الزياني عليه بها، واختطاطه لبلد بناحية تلمسان، خرج إليه الأمير محاربا (ففر أمامه وخرج من بلاده)[18]؛ إذ العبارة التي استعملها ابن عذاري المراكشي بقوله (وخرج من بلاده)، لها من الدلالة ما يكفي للتعبير عن وجهة نظرة المرابطين في تلمسان، حيث ظل اعتبارهم لها حدا من حدود الدولة خلال تلك المرحلة، والتنازل عنها هو بداية تنازل عن الأراضي المرابطية الشرقية، ومن ثم التنازل على كل الأراضي، بل إن حديث ابن عذاري عن فرار ماخوخ الزياني باتجاه الشرق بقوله (ففر أمامه) أي أمام الأمير المرابطي، هو حديث عن ملاحقة جزئية، لم تكن لتجعل الأمير المرابطي يواصل متابعته في مجال سيادة آخر، قد يثير عليه الكثير من التداعيات غير المحمودة خلال مرحلة اعتبرت في نظر العديد من الباحثين مرحلة الاستقرار، خاصة وأنها جاءت بعد الانتهاء من ضم الأندلس.

إن التجاور الحاصل بين أوطان صنهاجة وزناتة من جهة، والعداء الواقع بينهما جراء العداء التقليدي بين البرانس والبتر من جهة ثانية، قد حرك عند المرابطين الرغبة في القضاء على الزناتيين وتوحيد المجال بين الصنهاجيين، خاصة وأن زناتة قد اتخذت المغرب الأوسط وطنا لها، ومدينة تلمسان مركزا لنفوذها، بعد أن تعزز بفرار عدد منهم إليها عقب دخول يوسف بن تاشفين فاس سنة 462هـ[19] حيث كانت في الواقع تشطر الوطن الصنهاجي شطرين: شطر شرقي، وآخر غربي[20] لذلك بنى يوسف بن تاشفين بالقرب من تلمسان مدينة جديدة بالمغرب الأوسط هي عبارة عن

قلعة تحرس الزناتيين، وتقف لهم بالمرصاد سميت بتاكورات أي المحلة أو المعسكر[]، وتلك هي استراتيجية المرابطين عند كل مجال يحصل لهم فيه تماس مع غيرهم.

ويبدو أن ولاية تلمسان كانت تتمتع خلال حكم المرابطين باستقلال لا يقل عن استقلال باقي الولايات الأربع الأخرى[]، بل كانت أهميتها تفوق أهمية غيرها، بدليل رغبة بعض الأمراء المرابطين الفرار إليها والاحتماء بها، كما وقع مع أمير فاس يحيى بن أبي بكر سنة 500هـ[]، ومما يدل على قيمة تلمسان في استراتيجية الدولة المرابطية، أنه لما ولي الأمير علي بن يوسف بن تاشفين الأمر، واستتب له ذلك، أمر بإرسال (الأمير أبو الطاهر إلى مكناسة بالجيش، والأمير يحيى ابن أبي بكر بفاس، والأمير مزدلي بتلمسان)[]، وكل ذلك إيمانا منه بضرورة تأمين انتقال السلطة، إذ وبعد أربع سنوات من توليه إمارة المسلمين، ووعيا منه بأهمية مدينة تلمسان بل بضرورة تغيير الأشخاص واستبدالهم حتى لا تتغير سياسة الدولة وتحافظ على استراتيجيها المجالية في حفظ الدولة، عمد الأمير إلى استدعاء الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين سنة 504هـ وأمره بالخروج من غرناطة وعينه واليا على مدينة تلمسان التي استقر بها[].

ومما يوضح الاهتمام الاستراتيجي لأمراء الدولة المرابطية وعنايتهم بتلمسان كقاعدة لبقاء الدولة، بل لحماية مكانتها وبقاء ركائزها والحفاظ على سيادتها، اهتمام أمراء الدولة بإقامة دار للسكة لضرب العملة المرابطية الذهبية (الدينار، نصف الدينار، وربع الدرهم)، حيث اعتبرت تلمسان من بين أهم الدور التي أقامها المرابطون لضرب عملتهم، سواء بغرض تأمين عملية التبادل التجاري بالعملة المرابطية أو بغرض فرض سيادتها في المجال الشرقي عبر العملة الذهبية وليس الفضية، حيث احتلت دار تلمسان مرتبة متقدمة من بين العشرين دار بعد سجلماسة وأغمات ومراكش وفاس ونول لمطة وسلا وسبتة في المجال المغربي[].

ويبرز اهتمام المرابطين بتلمسان في بناء المسجد الجامع بها سنة 530هـ خلال عهد إمارة علي بن يوسف، وهو مسجد كانت هندسته المعمارية في غاية الجمال ودقة الإتقان، حيث رأى بعض المؤرخين أن البنيةَ المعمارية لمسجد تلمسان ضمت لمسات أَنْدَلُسية، وفنون معمارية قرطبية، بل بعضهم يرى أن عرفاء مسجد تلمسان قلَّدوا جامع قرطبة تقليدًا مباشـرًا في لوحتي الرخام اللتين تكسوان إزار واجهة المحراب، وكذلك سقف المسجد الخشبي الشبيه بسطح مسجد قرطبة، إضافة إلى البلاط شبيه به أيضا.

لقد واصل الأمير علي بن يوسف تنفيذ سياسة والده الأمير يوسف بن تاشفين اتجاه المنطقة الشرقية، فأعطاها من كبير عنايته واهتمامه الشيء الكثير، حيث كان دأبه على حمايتها والحفاظ عليها ثابتا استراتيجيا، وليس عابرا مرحليا، فقد انتدب لحمايتها الأمير تاشفين بن علي الذي لاحق الموحدين في خطتهم العسكرية الساعية لضرب الجهة الجنوبية والشرقية قطعا لأي دعم يمكن للدولة المرابطية أن تحصل عليه من بني عمومتها في الشرق أو بقاياها في الجنوب، بل وكسر شوكة الصنهاجيين بإحداث التفرقة بينهم.

المجال والاستراتيجية المضادة: وإذا كان الموحدون قد نجحوا في رصد مواطن الضعف في جسم الدولة المرابطية، بل استطاعوا رصد عمق استراتيجية المرابطين، فإن ذلك قد سهل عليهم ضرب ركن انهيار الدولة، مستغلين ترسيم الدولة للمذهب المالكي وتعسفها في فرض الوحدة السياسية على العديد من القبائل غير الصنهاجية، إضافة إلى استثمارهم لطبيعة التناقض الذي أحدثته الدولة ببعض قراراتها، مما قلب عليها ثورات في الأندلس كان أصحابها ينتظرون الوقت المناسب فقط لإعلانها، بل وأعطى للموحدين الفرصة للقضاء على المرابطين.

لذلك لما استفحل أمر الموحدين بالمغرب، استدعى أمير المسلمين علي بن يوسف ابنه تاشفين بن علي من الأندلس بعد أن كانت جيوشه بها موفورة وراياته عندها منصورة، استدعاه وولاه عهده، وقدمه لمدافعة الموحدين ومباشرة حروبهم، فكانت بينه وبينهم وقائع أكثرها عليه[27]، وقائع زادت بعد وفاة والده الأمير علي بن يوسف، الذي "عاقته الفتنة عن تمام أمره، ولم يتفق له ما أمله من استقلال ابنه تاشفين بشيء من الأمور"[28]، "وجاءت الأيام بخلاف ما أمل فيه فتشاءم به"[29].

إذ لما توفي الأمير علي بن يوسف سنة 537هـ، خلفه ابنه وولي عهده تاشفين، حيث قدر لهذا الأمير الذي لم تهزم له راية في الأندلس، أن يعرف طعم الهزائم في المغرب مرات أمام جيوش عبد المؤمن في نواحي السوس ثم في فاس وتلمسان[30]، فاضطر في أثناء هذا الصراع أن ينتقل من موضع إلى موضع، إلى أن كان نزول الموحدين عليه في تلمسان عند الصخرتين المتعارفتين عند أهل تلمسان فوق المنصورية في الجبل[31]، وهناك "لم يتفق له من أهلها ما يريد، فقصد مدينة وهران"[32].

لقد سلك عبد المؤمن بن علي الكومي خطة عسكرية محكمة، استفاد فيها من التضاريس الجغرافية المرتفعة التي سلكها أولا، ومن السبق في الحلول بهذه المناطق قبل الجيوش المرابطية التي كانت تلاحقه ثانيا، ومن حالة الفراغ العسكري الذي كانت تعيشه المناطق الشرقية والجنوبية ثالثا، وهو فراغ لا يعكس ضعف الدولة، بقدر ما يعكس اطمئنان الدولة على هذه الجهات وتقديم الأندلس عليها، قبل خروج عبد المؤمن، فهل تأخرت الدولة المرابطية في تأمين جهاتها الجنوبية الشرقية والشرقية بعد ظهور دعوة المهدي، أم أنها لم تكن لتقدر حقيقة الدعوة الناشئة، وقوتها في تهديدها؟ أم أنها كانت مطمئنة رغم ضربات الموحدين، لكن موت أمير المسلمين علي بن يوسف فاجأها؟.

وهكذا أثبت رحلة عبد المؤمن العسكرية إلى جبال تادلا وجبال غمارة مدى الاهتمام الذي أولاه الموحدون لبعض الجهات*، بل للجهة الشرقية خصوصا، إذ ما كان عبد المؤمن ليخرج "من تلمسان يريد المغرب- إلا- بعد توحيد المشرق كله"*، وهذا يعني قدرة الموحدين على رصد معالم الضعف ومكامن الخور المجالي في الدولة المرابطية، وإتباعهم لإستراتيجية القضم انطلاقا من نقطة البدء، مقابل حالة الاطمئنان التي كان يشعر بها المرابطون اتجاه هذه المناطق، بما هي مناطق تابعة في ولائها إليهم، لذلك كان عبد المؤمن كلما وصلها وأوغل فيها قتلا، حل بها تاشفين تفقدا لحالها، فلا يجد بها من يناصره ولا من يستعين به، "فنزل- عبد المؤمن- من جبال تادلا وجبال غمارة، يقتل ويغنم، وسلك منها مستقبلا الجبال، ما بين فاس وتلمسان، تغير سراياه يمنة ويسرة، وتبعه الأمير تاشفين، فكان الموحدون يسيرون في الجبال المنيعة، حيث الأرزاق الواسعة، وكان تاشفين ينزل البسائط بعساكره، فلا يجد من البرابرة من يواصله، ولا من يستعين به ويداخله، وذلك بسبب الإدبار وانقطاع الدولة والأنصار"*.

إن ضعف التقدير- برأينا- الذي طبع أمير الدولة المرابطية تاشفين بن علي اتجاه حركة عبد المؤمن، ليجسد مستوى استراتيجية الموحدين، بما هي حركة لم تكن لتصل إلى المركز لولا بتر الأطراف، وأن البداية من جبال تادلا كان بهدف الوصول إلى جهة تلمسان قصد كسب ولاء الزناتيين المستوطنين بأحواز تلمسان الذين بايعوهم*، وأعلنوا القضاء على المرابطين ودولتهم.

لقد تبين من مجموع الأحداث التي عاشتها الدولة المرابطية على عهد أبي المعز تاشفين بن علي، أن أمير المسلمين رغم قوته العسكرية وحنكته القتالية[] بالأندلس، وكثرة تنقلاته، حتى أنه "لم يستقر فيها ببلد، ولا اجتمع بوالد ولا ولد"[]، كل هذا لم يكن عنده بنفس المستوى في بلاد المغرب، نظرا لضعف تمكنه من معرفة المجال، وعدم ضبطه من جهة، ونظرا لعدم تقديره لأهمية هذا المجال في حماية الدولة من جهة ثانية، إذ يكفي وعيه بذلك أن ينقله إلى تلمسان مباشرة دون ملاحقة الموحدين بالجبال أو متابعتهم[]، مادام أن رغبتهم في المنتهى تبغي الوصول إلى تلمسان وضمان ولاء الزناتيين لهم.

ويشهد أبو علي حسن بن عبد الله بن حسن الأشيري، أحد أبناء تلمسان الذين عاشوا خلال القرن السادس عن وصول المرابطين إلى تلمسان أثناء ملاحقتهم للموحدين، والدعم الذي حازوه من بني حماد بإفريقية، فيقول: "ووصلت إلى الأمير تاشفين محلة من ملك أفريقية ابن حماد الصنهاجي برسم إمداده وإعانته، وعندما وصلوا إليه، برز إليهم بمجموعه، فملأ فحص تلمسان خيلا ورجالا"[]، وهذا يدعو إلى التساؤل ليس عن السبب الذي راسل من أجله الأمير تاشفين بني حماد، ولكن عن الوقت الذي راسلهم فيه، وهو توقيت ينم عن وعيه المتأخر بخطورة الوضع الذي كانت تعيشه تلمسان في علاقتها ارتباطها ببقاء أطراف الدولة المرابطية، أي مركزية تلمسان في المشروع المرابطي.

وتكشف النصوص التاريخية خاصة منها تلك التي يوردها صاحب الحلل الموشية، أن دعم بني حماد للمرابطين لم يقتصر على الجهة الشرقية من بني عمومته، بل راسل الأمير تاشفين جهات مختلفة من الدولة "يستدعي أهلها، فوصله عسكر سجلماسة، وعسكر الإمداد من بجاية، ووصل من الأندلس ابنه الأمير أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين...، وذلك سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، وكان عنده من الروم نحو أربعة آلاف فارس، واجتمعت عليه العساكر المذكورة بتلمسان"[].

إن هذا العدد الهائل الذي اجتمع للأمير تاشفين بن علي بتلمسان، ليكشف عن الإحساس الذي استشعره الأمير أثناء مواجهته للموحدين لحظة الإمارة وليس كما في السابق عند مرحلة القيادة[]، وكيف أن الجهة الشرقية للدولة المرابطية اعتبرت خط الدفاع الأول والأخير للدولة، أي أن الدفاع عن تلمسان كان في واقع السياسة المرابطية دفاع عن الوجود والبقاء المرابطين، وهذا ما يفسر سبب اجتماع كل تلك الوفود والجيوش بتلمسان، مما يعني أن

مجال تلمسان مثل في بعده الاستراتيجي نقطة الحماية والتأسيس لمشروعين اثنين، نقطة الحماية والبقاء في استراتيجية المشروع المرابطي القائمة، ونقطة التأسيس والبداية في استراتيجية المشروع الموحدي الناشئ، إنها حالة الرهان على المجال من أجل البقاء والوجود.

وهكذا لما اجتمعت لتاشفين بن علي جيوش كل تلك الجهات "أمر بعرض الجيوش، وسائر الوفود والجنود، والتمييز عليهم، فميزوا وبرزوا، وعجب الناس من كثرة عَددهم وعُددهم واحتفالهم في الزينة، حتى زعموا أنهم لم يروا مثل تلك الجيوش حسنا وجمالا، وعدة وكمالا، واصطفت العساكر من باب القرمادين إلى الجهة المتصلة بأصل الجبل"[a]، فكان ذلك آخر جيش احتفل به المرابطون؛ فرغم عدده وعدته "إلا أن الإدبار كان له محاذيا، وبانقطاع دولته مناديا"[b]، مما يعني أن محاولات الإنقاذ التي استعجل الأمير تاشفين بن علي القيام بها في آخر أيامه،لم تكن لتسعفه في حماية الدولة، بل لم تكن لتمنع عنه سقوط الدولة "والدفاع عن ملك بلغ مداه، وتمت أيامه"[c].

لقد كشفت اللحظات الأخيرة من عمر الدولة المرابطية، خاصة على عهد الأمير تاشفين بن علي، أن الدولة لم تكن شهيدة أرض الأندلس سياسيا بل عسكريا، تبعا للجهد الذي قدمته هناك والتضحيات التي قامت بها من أجل الحفاظ على أرض الأندلس، لكنها في المقابل كانت شهيد أرض تلمسان سياسيا قبل عسكريا تبعا للمكانة الاستراتيجية التي كانت تحظى بها في المشروع المرابطي.

خاتمة: إن المرابطين مهما قيل عنهم وعن جهودهم، فإن المسافة الزمنية للقائل على اختلافها، لا بد لها أن تنعكس على تأسيس المعرفة، بل لا بد لها أن تنعكس على تحديد الرؤية والموقف بالحقبة قيد الدراسة، بعيدا عن التشويش أو التحميس والمبالغة[d]، والأمر نفسه عند الحديث عن المسافة المصدرية وحجم الإطلاع عليها، الذي لا بد له أن ينعكس على التحليل والقراءة، فكلما كانت النظر جامعة بين الشمولية والدقة إلا وتحقق القراءة المناسبة، وكلما كانت النظرة جامعة بين السوابق واللواحق، كلما كانت جديرة بالاهتمام، لذلك فإن ما قيل في حق المرابطين من طرف القاضي أبي بكر بن العربي ليكفي للحكم عليهم، فهم- أي المرابطون- "قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين الذابون عنهم، والمجاهدون دونهم، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم، ولا وسيلة، إلا واقعة الزلاقة، التي أنسى ذكرها حروب

الأوائل،... لكان ذلك من أعظم فخرهم، وأربح تجرهم"[8]، فهم من قالوا للأمير تاشفين بن علي أيام ولايته بالأندلس حين استحضرهم ونظر ما عندهم في لقاء عدوهم "الدولة لنا، فإما تركها أو حمايتها، لا يتعذر منا أحد إلى لقاء عدونا، فإذا نحن استشهدنا فالأمر لمن شاء الله بعد"[9]، إنها المعرفة بالقصد عندهم، والمعرفة بالتاريخ عندنا.

إن المحاولة التي سعينا إلى إبرازها هي محاولة للتحسيس بأهمية هذا التوجه الدقيق للبحث في فقرات من تاريخ العصر المرابطي، حلقات نرى أن تناولها يمكن أن يكون اعتمادا على المقاربة المشار إليها، في غياب إستغرافية مرابطية، مقاربة اعتمدنا في عرضها على مادة مصدرية بعدية، مما يدعونا إلى الحيطة والحذر، نظرا لوجود نزعة التحيز والميول.

الهوامش:

1- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج4، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ط5، 1998م، ج4 صص96. 98- 99/ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة، ط4، 2001م، ج4 ص59/ مؤنس حسين، تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث بيروت، ط1، 1992م، ج2 ص43.

2- القبلي محمد، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط (علائق وتفاعل)، دار توبقال للنشر البيضاء، ط1، 1997م، ص53.

3- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة البيضاء، ط1، 1979، ص130.

4- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب البيضاء، ط7، 1978م، ص296.

5- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط4، 2005م، ج7 ص126.

6- ابن خلكان، وفيات الأعيان:7/ 113.

7- ابن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1990م، ص 74/ابن الخطيب، الإحاطة: 3/ 274- 275.

8- ابن عذاري، البيان المغرب: 4/ 29. مجهول، الحلل الموشية: 28.

9- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، راجعه عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية الرباط، ط2، 1999م، ص181. 212.

10- عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، دار الشروق القاهرة، ط1، 1980م، ص176.

11- عويس، دولة بني حماد: 179.

12- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب: 181.

13- عويس، دولة بني حماد: 180.

14- عويس، دولة بني حماد: 175.

15- عويس، دولة بني حماد: 180.

16- ابن خاقان الفتح، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، مطبعة التقدم العلمية مصر، 1302هـ، ص109- 110/ ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، 1978م، 2/1/ 257- 260/ الأصفهاني العماد، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق عمر الدسوقي وآخر، دار النهضة مصر القاهرة، 4/2/ 346- 347.

17- عويس، دولة بني حماد: 180- 183.

18- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب: 4/ 58.

19- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب: 179.

20- حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي نصر، ط2، 1996م، ص71.

21- المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط 1997م، ج2 ص175/حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين: 197. 347.

22- حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين: 401.

23- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب: 200.

24- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج4 ص 48/ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط2، 1997م، ص110.

25- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب: 4/ 55.

26- حافظي حسن علوي، المرابطون (الدولة الاقتصاد والمجتمع)، جذور للنشر الرباط، ط1، 2007م، ص48.

26- مجهول، الحلل الموشية: 121. 130. ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 446.

27- المراكشي، المعجب: 295.

28- ابن عذاري، البيان المغرب: 4/ 99.

29- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1 ص446/ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط)، تحقيق مصطفى أبو ضيف، دار النشر المغربية البيضاء، 1984م، ص393/ شعيرة محمد عبد الهادي، المرابطون تاريخهم السياسي، مكتبة القاهرة الحديثة، ط1، 1969م، ص156.

30- أبو بكر بن علي البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، 1971، صص49- 57/ابن عذاري، البيان المغرب: 4/ 104.

31- المراكشي، المعجب: 295. ابن خلكان، وفيات الأعيان: 7/ 126.

32- ابن عذاري، البيان المغرب: 4/98- 99.

33- البيدق، أخبار المهدي: 60.

34- مجهول، الحلل الموشية: 130.

35- مجهول، الحلل الموشية: 130.

36- ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 446. 448. 451.

37- مجهول، الحلل الموشية: 133. النويري، نهاية الأرب: 393.

38- تكرر ذكر (تبع) أي تبع تاشفين جيش الموحدين، أربع مرات في الحلل الموشية 130. 133. وهي نفس العبارة التي ذكرها ابن عذاري (خرج تاشفين بعساكره لتبع الموحدين). البيان المغرب: 4/ 99. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب: 209.

39- مجهول، الحلل الموشية: 131. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب: 209.

40- مجهول، الحلل الموشية: 131. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب: 4/ 103.

41- النويري، نهاية الأرب: 393.

42- مجهول، الحلل الموشية: 131.

43- مجهول، الحلل الموشية: 131.

44- ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 454.

45- محمد القبلي، الدولة والولاية المجال في المغرب الوسيط: 11.

46- مجهول، الحلل الموشية: 140.

47- مجهول، الحلل الموشية: 123.

الشريف التلمساني وإسهاماته الثقافية.

أ. امحمد بوشريط*

مقدمة: لا يخامرنا الشك أن تلمسان قد أنجبت العديد من العلماء الذين خاضوا في ميادين معرفية شتى، إذ لم تبق شهرقم حبيسة الدار، بل طارت شرقا وغربا وهذا ما تشهد به مؤلفات بعض المؤرخين الذين ترجموا لهم وأرخوا لتراثهم الثقافي، إلا أن هذا التراث منه ما نجا من عاديات الزمن، ومنه ما تلاعبت به رياح الدهر، أو عبثت به أيدي العابثين، ولكن هذا القليل الذي بقيت منه بعض الآثار وازدانت به دور المكتبات والأرشيف يمكن له أن يعطينا فكرة واضحة على هذا الإرث الحضاري الذي خلفه علماء هذه الحاضرة العلمية، وكان من هؤلاء العلماء الذين تركوا بصماقم في هذا الميدان وحق لتلمسان أن تفخر بهم عالمها الشريف التلمساني.

وقبل التطرق إلى إسهامات هذا العالم الجليل، فحري بنا أن تكون لنا إطلالة ولو موجزة حول مشاركة بعض علماء هذه الحاضرة العلمية، ومدى إسهاماقم في ميادين معرفية شتى، وقد ركزنا في هذه العجالة على نماذج من علماء تلمسان الذين ظهروا على الساحة الثقافية ابتداء من القرن السابع الهجري (13م) إلى غاية القرن التاسع الهجري (16م)، وهذا ما يوضحه لنا هذا الرسم البياني.

* - أستاذ مساعد أ في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ - جامعة معسكر.

تمثل11 عالما
تمثل10 علماء
تمثل 13 عالما
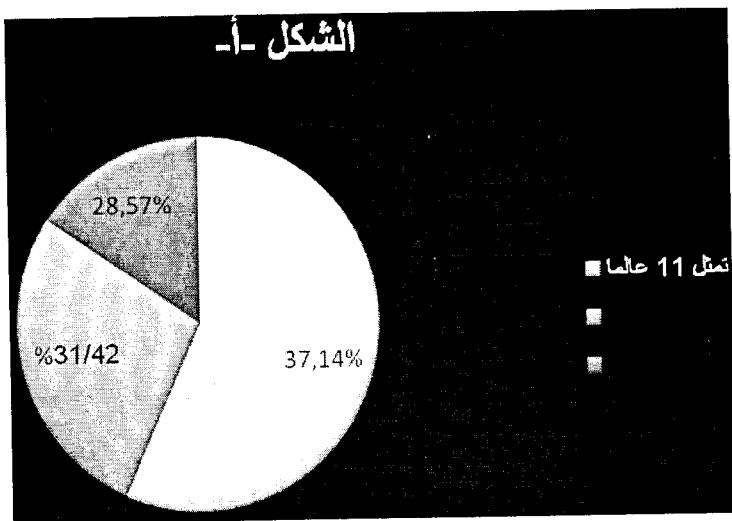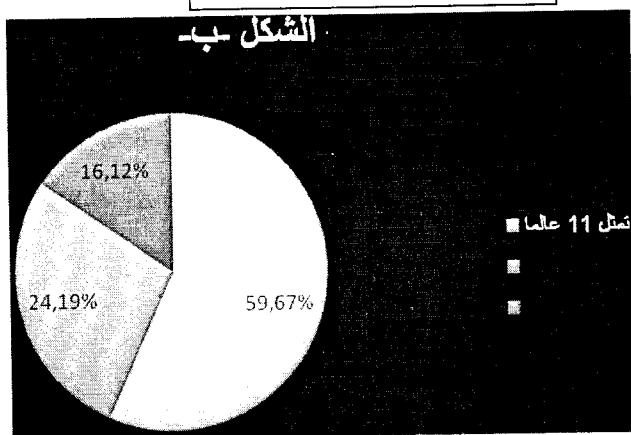
علوم الشريعة
الأدب
علوم أخرى

تمثل الدائرة النسبية شكل- أ- عدد العلماء التلمسانيين الذين وقع عليهم الاختيار، وكانت لهم مشاركة فاعلة في ميادين علمية شتى، اذ شهد القرن السابع الهجري (13م) مشاركة ما يربو عن 42,31 % من هؤلاء العلماء الذين كانت لهم مثل هذه الإسهامات، ولم تقف عطاءات هؤلاء، بل استمرت إلى غاية القرن الثامن الهجري (14م) وستتواصل لتسجل نسبة 57,28 % لتشهد بعدها ارتفاعا ملحوظا في القرن التاسع الهجري (15م) اذ وصلت إلى 14,37 % فأصبحت سوق الثقافة بتلمسان سوقا نافقة.

وأما عن أسباب رواج الثقافة بهذه الحاضرة، فيرجع إلى:

أ-الازدهار الاقتصادي الذي شهدته هذه العاصمة الثقافية، مما وفر الأمن والاستقرار، فكل ذلك ساعد العلماء للتفرغ لعطاءاتهم الفكرية.

ب-اعتناء الحكام بالجانب الثقافي، فقد كانوا هم من أهل العلم والثقافة فاهتموا ببناء دور العلم والمساجد، ولم يكتف هؤلاء بذلك بل أخذوا يقربون العلماء إليهم ويغدقون عليهم من الأموال، فكثر العلماء الذين تباهى بهم بلاط بني زيان، فحفلت لذلك مجالسهم بالأدباء والعلماء، فأصبحت تلمسان مزارا علميا يقصده كل من أراد أن ينهل من معين علمائها، فقصدوها من كل حدب وصوب.

ج- مكن اهتمام هؤلاء الحكام الذين عنوا بشؤون الثقافة من ظهور شخصيات تلمسانية لمعت في سماء المغرب الأوسط: مثل الشريف التلمساني.

أما الدائرة النسبية شكل- ب- فهي تمثل مشاركة علماء تلمسان في عدة علوم، وهذا ما يظهر لنا جليا من خلال استنطاقنا لهذه النسب.

فالنسبة الأولى والممثلة بـــ 67,59 % تمثل مساهمة هؤلاء العلماء في علوم الشريعة، منها: الفقه والحديث والتفسير والفرائض، وأما الأدب بشعره ونثره، فيقدر بنسبة 19,24 % وهو بذلك يحتل المرتبة الثانية، ثم تأتي في المرتبة الثالثة علوم أخرى تشمل الحساب والهندسة والطب، بنسبة 12,16 % ويعزى هذا التفاوت في النسب إلى:

أ- كان طالب العلم أول ما يتلقاه منذ حداثة سنه هي علوم الشريعة، ثم تهافت العلماء على الفقه، لأنه كان من العلوم التي كانت توصل صاحبها إلى الارتقاء إلى المناصب العلية وينال بها الخطط السنية الرفيعة، كخطة القضاء، إضافة إلى أن الفقيه كان يحظى بمكانة مرموقة في المجتمع.

ب- أما الأدب، فقد احتل المركز الثاني ضمن هذه العلوم، باعتبار الأدب له علاقة مباشرة مع علوم الشريعة وبخاصة العربية بلغتها ونحوها، كما كان الأدباء، وبصفة خاصة النثار، يحوزون على موطئ قدم في البلاط، فكانت تسند لهم مهمة إنشاء الرسائل بمختلف أنواعها، فأشرفوا على ما كان يعرف حينها بديوان الرسائل.

ج- أما باقي العلوم الأخرى، فكان اهتمامهم بها قليل، وكان ظهورها متأخرا فانحصرت هذه العلوم بأيدي علماء قلة، وبرز بعضهم في الحساب باعتبار هذا العلم له علاقة مباشرة بالفرائض الذي يحتاج إلى الحساب لتوزيع المواريث.

أضف إلى ذلك، عدم إقبال طالب العلم على بعض العلوم كعلم الكلام والفلسفة، لأنه في رأي البعض قد يخرج صاحبه عن الدين، وقد يكفر كل من يخوض فيه.

- التعريف به وبنسبه:

- التعريف به: هو محمد بن أحمد بن علي بن يحي بن علي بن محمد بن القاسم بن حمود بن ميمون بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ويعرف في المصادر التي ترجمت له بالشريف التلمساني.[1]

لقد اختلفت المصادر في السنة التي ولد فيها، فقد ذكر ابن خلدون على لسان الشريف التلمساني نفسه -باعتبار أن ابن خلدون تتلمذ على يديه -أنه ولد سنة 710هـ الموافق لسنة 1310م.[2] وقد نقل عنه نفس السنة كل من التنبكتي[3] وابن مريم[4] في حين ذكر لنا البسيلي[5] والسراج[6] أن مولده كان عام 716هـ/1316م.[7] إلا أن هذا التاريخ الأخير لا يمكن اعتماده لسببين الأول: أن ابن خلدون ذكر سنة 710هـ على لسان الشريف التلمساني، وهي رواية مباشرة صادرة من المعني بالأمر أضف إلى ذلك فالونشريسي ذكر أن سنة 716هـ هي خاطئة، وعليه يمكن لنا ترجيح السنة التي اعتمدها ابن خلدون في كتابه الرحلة، باعتبار أن التلميذ أدرى بشيخه.

أما فيما يتعلق بسنة وفاته، وهي سنة 771هـ/1370م، فقد اتفقت كل المصادر التي ترجمت له على نفس السنة، ولم يرد أي اختلاف بين من أرخوا لهذه الشخصية العلمية.[8]

نسبـه: ينتمي محمد بن أحمد التلمساني إلى أسرة تنتسب إلى الأشراف، فقد رفع التنبكتي نسبه إلى سيدنا علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه -وهذا ما صرح به ابنه عبد الله، ومنه

جاءت تسمية الجد بابي شرف هذا البيت المنيف بالشريف التلمساني.[9] وقد أكد نسبه هذا السراج في فهرسته[10] حين ترجم لمكانته العلمية فقال: "الشريف نسبا، العظيم منصبا..."[11] ونسبه هذا لا غبار عليه، وهذا ما يفهم من قول ابن خلدون: "وكان أهل بيته لا يدافعون في نسبهم، وربما يغمز فيه بعض الفجرة، ممن لا يزعه دينه، ولا معرفته بالأنساب، فيعد من اللغو، ولا يلتفت اليه"[12].

أما نسبته إلى العلوي، فنسبة إلى قرية من أعمال تلمسان تسمى العلوين[13] وقد وافقه الرأي في ذلك ابن مريم[14]، وعلى الرغم من أن التنبكتي قد نقل عن ابن خلدون، فقد نسبه إلى العلويني، ثم أضاف قوله: وهذا نسبة للعلونيين وهي قرية بتلمسان[15]، وتبعه في ذلك الحفناوي[16]، في حين ذكر صاحب شجرة النور الزكية نسبته إلى هذه القرية بهذا الرسم –العلويني.[17].

من حصاد هذه الفقرة يظهر لنا الاختلاف الوارد في رسم حروف هذه الكلمة وأظن أن هذا الاختلاف قد يكون خطأ في النقل أو من الناسخ، وبذلك أرجح النسبة التي وردت عند ابن خلدون وهي: العلوي، والتي نقلها عنه ابن مريم، فعودة إلى: مجهول توضح هذا اللبس، فعند تعريفه لتلمسان يذكر في مضان هذه الترجمة قوله: "وكان هذا المغرب الأوسط قد تملكه العلويون من بني إدريس".[18]

وعلى ضوء ما تقدم ذكره، فالنسبة الواردة عند ابن خلدون – العلوي – هي الأصح باعتبارها تنتهي إلى العلويين من الأدارسة الذي حكموا المغرب والأندلس.

2–شيوخه وتلامذته:

شيوخه:

– المشدالي: هو عمران بن موسى بن يوسف المشدالي المكنى بأبي موسى (670هـ—745هـ/1271م—1344م)، كان فقيها حافظا علامة من المحققين الكبار[19]، أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن أحمد، جد المقري صاحب النفح، الذي قال في حقه: "هو حافظها[20] ومدرسها ومفتيها" درس بتلمسان الحديث والفقه والأصلين والنحو والمنطق والجدل والفرائض، وتميز باتساع أفقه في الفقه والجدل، وكان له باع فيما سواها من العلوم.[21] من آثاره: "اتخاذ الركاب من خالص الفضة" رسالة وله فتاوى نقل بعضها في المعيار.[22]

– ابنا الإمام: هم أخوان من "برشك" من أعمال تلمسان، وكان اسم أكبرهم أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (ت741هـ/1340م) كان من الفقهاء علامة، آخر صدور أعلام الغرب، أجمع كتاب التراجم والسير أنه كان من أشهر علماء عصره، فلم يكن فيه أعظم رتبة ولا أعلم منه، فطارت شهرته شرقا وغربا.[23]

وأما الأخ الأصغر، فهو أبو موسى عيسى بن محمد (ت749هـ/1348م)، كان أخر فقهاء تلمسان، وقد وصفته كتب التراجم بـ "العلامة النظار، أخر أهل النظر، جمع أشتات المعارف".[24]

– السطي: هو محمد بن علي بن سليمان (ت749هـ/1348م) ينسب إلى قبيلة سطة من بطون أوربة، كان أحفظ الناس للمذهب وأفقههم فيه، أخذ الفقه على أبي الحسن الصغير[25] والفرائض على أبي الحسن الطنجي[26]، فنبه في الفقه وأصبح فيه نبيها لا يجارى فيه حفظا وفهما، كانت تقرأ عليه تبصرة اللخمي[27] وكان يقوم هو بتصحيحها من إملائه وحفظه.[28]

– الآبلي: هو محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني (681هـ-757هـ) أصله من آبلة[29] [30]، وقد وصفه تلميذه المقري بالشيخ العلامة بسبب علو منزلته العلمية[31]، كان أعلم خلق الله في فن المعقول[32]. قرأ كتب التعليم وحذق فيها ولما طال الحصار الكبير بتلمسان[33] خرج منها وأدى فريضة الحج، ثم عاد وقرأ المنطق على الشيخ أبي موسى عيسى بن الإمام، ثم خرج من تلمسان قاصدا مراكش ولزم بها العالم الشهير أبا العباس ابن البناء[34]، فأخذ عنه العلوم العقلية، فأصبح من جملة العلماء، حتى حذق في العلم العديد من تلامذته، نذكر منهم: الشريف التلمساني وابن مرزوق الجد وأبي عثمان العقباني وابن خلدون وغيرهم.[35]

ب- تلامذته:

– عبد الله بن محمد الحسني ابنه (748هـ-791هـ/1347م-1390م): أخذ العلم عن والده، فأصبح بعدها إمام وقته في التفسير والجدل والمنطق والطبيعيات والإلهيات والهندسة والتصوف، وقرأ الصحيحين، كان عالما باللغة والفقه، وتعلم النحو على ابن حياتي[36]، وقد جلس هذا الابن مجلس أبيه بعد وفاة هذا الأخير، حتى قال بعض أكابرهم: "انتفعت به في الأصول أكثر من أبيه لحسن بيانه وتقريبه."[37]

- ابـــن خلـــدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الاشبيلي (732هـ-808هـ/1332م-1406م) قاضي القضاة، العلامة الحافظ المؤرخ، وقد رفع من منزلته العلمية ابن الخطيب، فقال: "متقدم في فنون عقلية ونقلية... كثير الحفظ...بارع الخط"[38]، فأصبح من العلماء والأدباء الحكماء، ومن المؤرخين الذين طارت شهرتهم شرقا وغربا، وأكبر أثر له كتابه الذي اشتهر به، فطبقت شهرته الأفاق "ترجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر" إضافة إلى مؤلفات أخرى نذكر منها: "تلخيص المحصل" لفخر الدين الرازي و "شرح الرجز" لابن الخطيب في الأصول، وشرح قصيدة ابن عبدون.[39]

- الشاطبي: هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المكنى أبا إسحاق (ت790هـ/1388م)، كان إماما جليلا، من المجتهدين المحققين والفقهاء المحدثين، خاض في علوم اللغة والنحو، وفي بيان منزلته العلمية يقول التنبكتي: "كان من أفراد محققي العلماء الأثبات وأكبر متقني الأئمة الثقات، ذو القدم الراسخ في العلوم، والإمامة العظمى في الفنون، فقها وأصولا وتفسيرا، وحديثا وعربية وغيرها". له عدة تأليف نذكر منها: تأليف نفيس في الحوادث والبدع في سفر في غاية الإجادة وكتب المجالس شرح فيه آيات وأحاديث من كتاب البيوع في البخاري، وشرحه على ألفية مالك في أربعة أسفار، وغيرها من التأليف.[40]

هذه نماذج من بعض من تلقوا عن عالمنا هذا، العلم في ميادين معرفية شتى، فكان هؤلاء الطلبة أوفر حظ في زمنه بما أخذوه عنه، وذلك بسبب حسن إلقائه للدروس والطريقة السهلة التي اتبعها في تعليمه، إذ كان لا يفضل عليهم أحدا مهما كانت منزلته في المجتمع، إذ كان يجمعهم في بيته، ويترك لكل واحد من تلامذته حرية اختيار العلم الذي يريد الانتفاع به. ومن جهة أخرى، كان يتكفل هو بإطعام هؤلاء الطلبة بما يحتويه منزله من طيب الطعام، مما جعلهم يفضلونه على سائر الشيوخ.[41]

لقد أقبل الشريف التلمساني على مزاولة التعليم في حياة شيوخه مما أكسبه تجربة في هذا الميدان والتفوق فيه، فأقبل عليه الطلبة من كل حدب وصوب[42]، وتخرج على يديه صدور العلماء ونجباء الأولياء وأعيان الفضلاء عدد لا يحصى[43]، وعلى حد قول التنبكتي: أنه لم ينتفع الطلبة بأحد في مصر من الأمصار ما انتفعوا في زمانه.[44]

2- مكانته العلمية: تتوضح لنا مكانة هذا العالم من خلال أقوال العلماء الذين أثنوا عليه وعلى علمه، فمن هؤلاء:

ابن مرزوق الحفيد[45] تلميذه، والذي قال في حقه: أنه كان من أعلم شيوخ أهل عصره باتفاق الجميع.

ونحا نحوه السراج في فهرسته، فقال: "العالم العلامة الشهير الكبير القدوة...كان أوحد رجال الكمال علما...عالما بعلوم المنقول والمعقول، بلغ درجة الاجتهاد أو كاد، أحد راسخي العلماء وآخر الأئمة المجتهدين."[46]

وفي بيان منزلته في العلم، قال ابن خلدون: "العلامة فارس المعقول والمنقول"، وأضاف مخلوف "الفهامة المحقق العمدة الحافظ، كان من أعلام العلماء والأئمة الفضلاء أعلم من في عصره بإجماع."[47]

وقال البعض الأخر: "نسيج وحده، انتهت إليه إمامة المالكية بالغرب وضربت إليه أباط[48] الإبل شرقا وغربا، فهو علم علمائها ورافع لوائها، أحيا السنة وأمات البدعة، بهر بعلمه العقول."[49]

إن مكانة هذا العالم لم تأت من فراغ، بل نجده تصدر لتلقي العلم وهو لا يزال حدثا، إذ كان يبلغ من العمر آنذاك إحدى عشرة سنة، وكان أثناء حضوره لحلقات العلم يبقى ملازما لشيوخه لأشهر عدة لا يترع ثوبه ولا عمامته لكثرة انشغاله بالعلم، حتى أنه إذا غلب عليه النوم، نام قليلا ثم يرجع بعدها إلى حلقات العلم.[50]

وخير من يشهد اعتكافه على طلب العلم ابنه عبد الله، حيث يروي لنا أنه بقي مدة ستة أشهر لم ير أولاده، فكان يقوم في الصباح الباكر وهم نيام، وذلك كله بسبب انشغاله بالعلم، وحتى أنه في أثناء صومه في شهر رمضان، كان يوضع له الطعام ليفطر عليه، فينشغل عنه بطلب العلم، حتى يلحق عليه سحور ذلك اليوم ولن يتناول منه شيئا حتى يصبح ويواصل صومه، وكل ذلك لشغله الشاغل بأمور العلم، حتى أن بعضهم وجد بين يديه سبعين كتابا يطالعها.[51]

من خلال حصاد الفقرات السالفة الذكر، تتوضح لنا جليا مكانة الشريف التلمساني العلمية، والتي شهد له بها تلامذته وشيوخه، وهذا ما يتأكد لنا من قول الآبلي، فإذا ما أشكلت

عنده مسألة من المسائل، فكان يقول: "انتظروا الشريف". وكان ابن عرفة يقول له: "غايتك في العلم لا تلحق".[52]. كما كان لسان الدين ابن الخطيب صاحب الأنباء العجيبة والتأليف البديعة، يرسل له بتأليفه، ويطلب من الشريف التلمساني أن يكتب عليها بخطه.[53]

2-إسهاماته الثقافية: لقد أجمعت كتب التراجم والطبقات على أن الشريف التلمساني كانت له إسهامات فاعلة في ميادين معرفية شتى.

ففي الفقه كانت له فيه إسهامات جليلة، وهذا ما يفهم من مضان كتب التراجم التي فصلت في ترجمته، فهذا السراج قال: "شيخنا الفقيه العالم العلامة الشهير" ثم يضيف قائلا: "بأنه كان عالما بعلوم المنقول."[54]

وما يدل على تمكنه في هذا العلم، فإن الفقيه موسى العبدوسي[55]وعلى الرغم من أنه أسن منه، والمعدودين من كبار فقهاء فاس، كان يبحث عن فتاويه وتقاييده ليكتبها[56] إضافة إلى شهادة القاضي أبو علي بن هدية[57] الذي بين لنا مكانته في هذا العلم، فقال: "كل فقيه في زماننا هذا، أخذ ما قدر له من العلم الا الشريف، فالله أعلم حيث ينتهي."[58]

ويوضح لنا التنبكتي أن له في هذا العلم باع طويل، تلك القصة التي أوردها بين ثنايا كتابه، إذ يقول أن بعض الفقهاء قام بتحقيره واستصغاره في عيني السلطان أبي عنان[59]أنه لم يكن متبحرا في الفقه، فأرسل للفقهاء الحضور في مجلسه وأمر بقراءة حديث "إذا ولغ الكلب في إناء أحدهم" وذلك ليمتحنه، فخاض في هذه المسألة دون إبطاء في إعطاء الإجابة، فقال: هذا الحديث فيه خمسة وعشرون فرقا، وقام بسردها، ثم أخذ في الترجيح وكأنه يقرؤها في كتاب مفتوح، فوبخ السلطان حساده وشهد له بتفقهه.[60]

ونتيجة لتفقهه، فقد بلغ بعلمه هذا، درجة الاجتهاد أو كاد، وأصبح من العلماء الراسخين في الفقه[61]. وترأس الفتوى إلا أنه كان متورعا فيها، يتحرى قدر المستطاع في مسائل الطلاق، وكان يحاول أن يدفعها عن نفسه كلما استطاع إلى ذلك سبيلا.[62] وبسبب ورعه وعلمه، فقد كان مجلسه مجلس نزاهة ودراية وتحقيق، فإذا تكلم في مسألة أوضحها طوال اليوم.[63]

أما القرآن وعلومه، فقد اطلع عليهما وهو لا زال حدثا، فذات يوم حضر عند شيخه أبي زيد ابن الإمام في جلسته في التفسير، فذكر نعيم الجنة، فقال له الشريف التلمساني وهو

صبي، أيقرأ فيها العلم؟ فأجابه بنعم، وقال له: وفيها ما تشتهيه الأنفس، فقال: ولو قلت لا، لقلت: لا لذة فيها فعجب منه شيخه ودعا له.

كان له في هذا العلم اليد الطولى، بسبب إقباله على قراءة القرآن[64]، فكان يقرأ كل ليلة ثمانية أحزاب في صلاته، ومثله في أول النهار، ويواظب على قراءة الحزب دائما، ويرفق ذلك بقراءة التفسير نحو ربع حزب كل يوم.[65]

لقد حرص عالمنا هذا، على تعلم وتعليم القرآن الكريم، وذلك بإغداق المال على طلبته، وهذا ما حدث له بفاس، فذات يوم دخل عليه أحد الطلاب وذكر له أنه قرأ القرآن بالقرويين، فما أعطي شيئا، فتأسف الشريف لذلك، وفي اليوم التالي أرسل إليه مع طلبته ما يحتاجه من المال.[66]

وما يدل على علو منزلته في هذا العلم، أن أبا عنان أمر الفقيه المقري بإقراء التفسير بحضرة العلماء، فأبى وقال له: أن أبا عبد الله الشريف التلمساني أعلم بهذا العلم مني، فلا يمكنني الإقراء وهو حاضر المجلس، فقام الشريف وخاض في علم التفسير في مجلس حافل بالعلماء، ولإعجاب السلطان بحديثه، نزل في مكانه الرفيع وجلس مع الجمع على الحصير، فأعجب به كل من حضر حلقته هذه وشهد له السلطان بتفوقه في هذا العلم، وقال: "إني أرى العلم يخرج من منابت شعره". وهذه شهادة يعتز بها هذا العالم.[67]

لقد حاز عصا السبق في علم التفسير بسبب تفسيره للقرآن مدة خمس وعشرين سنة، فكان مجلسه يحف بكبار العلماء والصلحاء والملوك وصدور الطلبة لا يتخلف منهم أحد، بسبب علمه بقراءته ورواياته وفنون علومه وبيان أحكامه وناسخه ومنسوخه وغيرها.[68]

فمن السور التي قام بتفسيرها، سورة آل عمران، فعند وصوله إلى قوله تعالى ﴿يستبشرون﴾[69] مرض بعدها ثمانية عشرة يوما، وذكر ابنه أبو يحي عبد الرحمن بن محمد بن أحمد (757هـ-826هـ/1356م-1423م) أنه قبل المصحف في مرضه وقال: "اللهم كما عززتني به في الدنيا، فاعززني به في الآخرة."[70]

وفي الحديث كان إماما فيه، وعالما بفقهه وغريبة ومتونه و رجاله وأنواع فنونه، إضافة إلى دفاعه عن السنة من أي إشكال.[71]

كما كانت له مشاركة في أصول الفقه، فذات مرة عرضت في مجلس علم مسألة أصولية فلم يجدوا من يبث فيها، فأشاروا إلى الشريف، وكان أيامها مقيما بسجلماسة[72]، فطلب من عاملها أن يعطيه نفقه وكسوة ليتحمل بها عناء السفر، فوصل إليهم وبين المسألة التي كانوا فيها مختلفون.[73]

كما كان له في التصوف يد طولى، فقد استفاد منه في هذا العلم أبو عبد الله ابن عبد السلام[74] الذي كان يحضر مجلسه واستفاد منه في هذا الباب واستعظم رتبته في هذا العلم، فقد كان ابن عبد السلام هذا، يستمع إليه ويفضل مجلسه العلمي ويعرف ما مدى مكانته في هذا العلم، حتى أن البعض زعم أنه كان يخلو به في بيته ويقرأ عليه فصل التصوف من كتاب "الإشارات" لابن سينا[75]، فقد كان الشريف التلمساني قد استفاد من شيخه الآبلي في هذا الميدان.[76]

إضافة إلى تمكنه في الأدب، وهذا ما يؤكده الحفناوي بقوله: كان "من أعلم الناس بالعربية وعلوم الأدب نحوا وبيانا، حافظا للغة والغريب والشعر والأمثال"[77]

وما يدل على تمكنه في اللغة العربية، فعند ما لقي بتونس ابن عبد السلام، فتكلم هذا الأخير في الذكر، هل هو حقيقة في ذكر اللسان؟ فأجابه الشريف بقوله: أن الذكر ضده النسيان ومحل النسيان القلب لا اللسان، وكأنه يقتبس من آي القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿إنما يذكر أولوا الألباب﴾[78] بذلك حاز على مكانة مرموقة لدى هذا العالم الجليل، وشهد له بتفوقه حين قال: "ما أظن في المغرب مثله"[79].

وعلاوة على ما كان يحمله من الفقه وعلوم العربية وسائر علوم الشريعة، فقد كانت له مشاركة في علوم أخرى، كالحساب والهيئة والفرائض[80]. وهذا ما يؤكده التبكتي وتبعه في ذلك الحفناوي بقولهما: كان "إماما في العلوم العقلية من منطق وحساب وفرائض وتنجيم وهندسة وموسيقى وتشريح وفلاحة وكثيرا من العلوم القديمة."[81]

إضافة إلى اطلاعه على عدة مؤلفات منها "كتاب الشفا" لمؤلفه ابن سينا[82] وهو يتكون من ثمانية عشرة مجلدا[83] والذي أخذه عن شيخه الآبلي، زيادة على تلاخيص كتب أرسطو لابن رشد الحفيد[84][85].

2- مؤلفاته: ولشدة عناية هذا الشيخ بالإقراء والدرس، فلم يسعفه الحظ للإكثار من وضع الكتب والتصنيف والتأليف[86]، فإنه لم يبلغنا عنه بالنسبة لاتساع أفقه المعرفية إلا القليل، وهذا ما يؤكده كل من ترجم له، فهذا التنبكتي يقول: "كان قليل التأليف أكثر اعتنائه بالإقراء"[87] وعلى الرغم من ذلك، فقد كان حسن البسط في التأليف.[88]

فمن مؤلفاته نذكر:

كتاب في القضاء والقدر: حقق فيه تلك العلوم الغامضة بأحسن تعبير، وكان يرجع إليه علماء المغرب في حل المشكلات.[89]

مفتاح الأصول في بناء الفروع على الأصول: بهذا العنوان ذكره التنبكتي، وقال: بأنه نزل في مسائل الفقه على الأصول.[90] في حين ذكره مخلوف مختصرا "المفتاح" في أصول الفقه.[91] وقد طبق فيه مسائل الفقه مع الأصول. وكثيرا ما كان علماء المغرب يرجعون إليه في حل المشكلات.[92]

شرح جمل الخونجي: وهو كتاب في المنطق، ويعتبر من أجل كتب الفن، انتفع به الناس كثيرا قراءة ونسخا وتأليفا.[93]

له فتاوى ورسائل وأجوبة في مسائل علمية: منها في نوازل الأيمان و النذور[94] وفي باب من أوصى بثلث ماله واشترط أنه لا يرجع في وصيته[95] وفي باب "ما حكم الروايتين إذا نقلتا عن مجتهد في المذهب[96]، وفي باب "أسئلة وإشكالات في المنطق والفلسفة والكلام".[97]

الخاتمة: لقد أنجبت مدينة تلمسان عددا من العلماء، حتى امتلأت كتب التراجم والطبقات بأسماء هؤلاء، بما تركوه من آثار على الساحة الثقافية، وكان من بين هؤلاء الشريف التلمساني الذي عد بحق إمام المغرب في العلم بفضل إسهاماته العلمية، والتي لا زالت تشهد عليه إلى يومنا هذا.

وعلى ضوء ما تقدم ذكره، فقد توصلت إلى النتائج التالية:

- يعتبر الشريف التلمساني من العلماء الأفذاذ التي زخرت بهم حاضرتهم تلمسان، فقد خاض في علوم شتى، فإضافة إلى علوم الشريعة التي كانت أول العلوم التي يجب أن يخوض فيها كل طالب علم، إلا أن معارفه تعدتها إلى علوم نقلية أخرى، زيادة على معرفته بالعلوم العقلية، كالهندسة والحساب وغيرها من العلوم الأخرى.

ب- استطاع هذا العالم أن يكون مدرسة تتلمذ بها عدد من العلماء أصبحوا بعدها شيوخ عصرهم في علوم شتى، كان ابنه عبد الله أحد هؤلاء وشهدت المصادر بتفوق العلمي، حتى فاق شيخه.

جـ- لقد كرس شيخنا هذا، جهدا جهيدا في عملية الإقراء، حتى غضت مجالسه العلمية بمختلف طالبي العلم سواء أكانوا من الطبقة الحاكمة والراقية أو من طبقة العامة، فاستفاد هؤلاء من علمه أيما استفادة.

د- إن المكانة التي وصل إليها هذا العالم، كانت بفضل إسهاماته في ميادين معرفية شتى، فحاز على مكانة سياسية مرموقة لدى الحكام، ولدى شيوخه ومريديه من طلبة العلم.

هـ- انصراف الشيخ التلمساني إلى التدريس قد انعكست سلبا على مجهوداته في عملية التأليف، فإذا ما قمنا بحصرها، فهي تعد على أصابع اليد.

الهوامش

1- التبكتي: نيل الابتهاج بطريز الديباج- وضع هومشه وفهارسه: طلاب من كلية الدعوة الإسلامية- منشورات كلية الدعوة الإسلامية -طرابلس -الجماهيرية العربية الليبية -1989م -ص430. التبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج -تحقيق: د/ علي عمر -مكتبة الثقافة الدينية -القاهرة -ط1 -1425هـ- 2004م -ج2 -ص69. ويذكره ابن خلدون بالشريف الحسني. ابن خلدون: رحلة. عارضها بأصولها وعلق على حواشيها: محمد بن تاويت الطنجي -دار الكتب العلمية -بيروت- لبنان -ط1 -1425هـ/2004م- ص69.

2- ابن خلدون: نفسه -ص71.

3- التبكتي: نيل الابتهاج -ص432 -نفسه: كفاية المحتاج -ص71.

4- ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان -ديوان المطبوعات -الجزائر -1986م -ص167.

5- هو أحمد بن محمد البسيلي المتوفي سنة 830هـ/1427م، أخذ التفسير عن شيخه أبي عبد الله محمد بن عرفة المالكي (ت803هـ/1400م)، من تصانيفه: تفسير القرآن الكريم، حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون -دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع -بيروت -لبنان -1402هـ- 1982م -مج1 -صص438-439. رضا كحالة: معجم المؤلفين-اعتنى به وجمعه أخرجه: مكتب تحقيق التراث -مؤسسة الرسالة -ط1 -1414هـ-1993م -ج1 -ص253.

6- هو يحي بن أحمد بن محمد بن حسن بن القس النفزي الحميري الرندي ثم الفاسي المتوفي بفاس سنة 803هـ/1400م، كان فقيها محدثا حيث انتهت إليه رياسة الحديث في وقته إضافة إلى اطلاعه على الأدب لغة ونظما ونثرا. من آثاره فهرسته التي ترجم فيها لشيوخه. التبكتي: نيل الابتهاج -ص634 -نفسه: كفاية المحتاج -ج2 -ص278. ابن القاضي المكناسي: درة الحجال في غرة أسماء الرجال -حققه وعلق عليه: مصطفى عبد القادر عطا -دار الكتب العلمية -بيروت -لبنان -ط1 -1423هـ/2002- ص448. ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى -ضبط واستدراك: مكتب البحوث والدراسات -دار الفكر -بيروت -لبنان -ط1 -1418هـ-1997م -ص209 -الزركلي: الأعلام -دار العلم للملايين -بيروت-ط17 -2007م -ج8 -ص136.

7- التبكتي: كفاية المحتاج -ج2 -ص71.

8- نفسه –نفس الجزء والصفحة. ابن خلدون: رحلة –ص71. وينظر عادل نويهض –معجم أعلام الجزائر –من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر –مؤسسة نويهض الثقافية –بيروت –لبنان –ط3 –1403هـ- 1983م –ص187.

9- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص69.

10- لقد صدر فهرسته هذه، بقوله: "الحمد لله الذي بحمده يجب أن يستفتح..." يوجد النصف الأول عند بعض الكتانيين بفاس، وأما النصف الثاني يعد الآن مفقودا لأن صاحب "السلوة" وصفها في آخر كتابه بأنها في سفرين. ابن سودة: نفسه –ص209.

11- التبكتي: نفسه –ج2 –ص70. نفسه: نيل الابتهاج –ص431. الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف –مؤسسة الرسالة- بيروت والمكتبة العتيقة –تونس –ط2 –1405هـ- 1985م –ج1 –ص111. ابن خلدون: نفسه –ص69.

12- ابن خلدون: نفسه –ص69.

13- نفسه –ص69.

14- ابن مريم: نفسه –ص164.

15- التبكتي: نيل الابتهاج –ص430. نفسه –كفاية المحتاج –ج2 –ص69.

16- الحفناوي: نفسه –ج1 –ص111.

17- مخلوف محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية –دار الفكر –بيروت –لبنان –دت –ص234.

18- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار –وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب –نشر وتعليق: د/ سعد زغلول عبد الحميد – دار النشر المغربية –الدار البيضاء –المغرب –1985م –ص177. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار –تحقيق: د/ إحسان عباس – مكتبة لبنان –ط2 –1984م –ص135.

19- التبكتي: كفاية المحتاج –ج1 –ص290. نفسه: نيل الابتهاج –ص350.

20- الهاء: تعود على تلمسان.

21- المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي –دار الفكر –بيروت –لبنان –ط1 –1419هـ- 1998م –ج6 –ص187.

22- محمد مخلوف: نفسه –ص220. وينظر نماذج من فتواه عند الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب –خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: د/محمد حجي –نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية – 1401هـ- 1981م –ج1 –ص116 –ج2 –ص36 –ج4 –ص480 –ج6 –ص44 –ج8 –ص261–ج9 –ص310 –ج11 –ص383. وينظر عادل نويهض: نفسه –صص300–301.

23- التبكتي: كفاية المحتاج –ج1 –ص187. ابن مريم: البستان –ص125. ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب – دراسة وتحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان –دار الكتب العلمية –بيروت –لبنان –ط1 –1417هـ- 1996م –ص250.

24- التبكتي: نفسه –ج1 –ص187 –ص232. ابن فرحون: نفسه –ص250.

25- هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي المعروف بالصغير ت719هـ كان أحد الأقطاب الذين تدور عليهم الفتوى ولما ولي خطة القضاء بفاس. ابن فرحون: نفسه –ص305 ولمزيد من المعلومات ينظر: ابن الخطيب: الاحاطة في أخبار غرناطة –شرحه وضبطه وقدم له أ–د/ يوسف علي طويل- دار الكتب العلمية –بيروت –لبنان –ط1 –1424هـ-2003م –ص158. ومخلوف: شجرة النور الزكية –ص215. السلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى –دار الكتاب العربي –الدار البيضاء –المغرب –1418هـ- 1997م- مج1- ج3 –صص101–102.

26- هو علي بن عبد الرحمن بن تميم اليفرني، المعروف بالطنجي (ت734هـ/1335م) كان فقيها فرضي حسابي. التبكتي: نفسه –ج1 –ص267. نفسه: نيل الابتهاج –صص325–326. مخلوف: نفسه –ص218. ابن القاضي المكناسي: درة الحجال –ص404.

27- هو أبو الحسن علي بن محمد اللخمي القيرواني (ت478هـ/1085م) تنظر في ترجمته ابن فرحون: نفسه –ص298. مخلوف: نفسه –ص117.

28- ابن خلدون: نفسه –ص48. التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص50. نفسه –نيل الابتهاج –صص408-409. مخلوف: نفسه –ص221.

29- هي قرية من قرى الأندلس تقع في بجانة. الحميري: نفسه –صص79-80.

30- ابن خلدون: نفسه –ص49.

31- المقري: نفسه –ج6 –ص203.

32- التبكتي: نيل الابتهاج –ص411.

33- ينظر عن هذا الحصار. ابن سماك العاملي: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية –دراسة وتحقيق: أ/د. بوباية عبد القادر –دار الكتب العلمية –بيروت –لبنان –ط1- 2010 –صص271-272. ابن خلدون: يحي: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد –تقديم وتحقيق وتعليق: د/ عبد الحميد حاجيات– المكتبة الوطنية –الجزائر –1400هـ/ 1980م –ص211.

34- تنظر ترجمته عند التبكتي: نيل الابتهاج –صص83-84.

35- ابن خلدون: رحلة –ص41. التبكتي: نفسه –ص416.

36- هو محمد بن علي بن حياتي الغافقي الأندلسي. التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص96.

37- التبكتي: نفسه –ج1 –ص170. نفسه: نيل الابتهاج –صص225-226. مخلوف: نفسه –ص234. الحفناوي: نفسه –ج2 –ص245 وما يليها.

38- ابن الخطيب: الإحاطة –ج3 –ص377.

39- السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع –مكتبة الحياة –بيروت –لبنان –مج2 –ج4 –ص145 وما يليها.

40- التبكتي: نيل الابتهاج –ص250 وما يليها. البغدادي: هدية العارفين –ج5 –ص529. بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي –نقله عن الاسبانية –حسين مؤنس –مكتبة الثقافة الدينية –القاهرة –مصر –دت –ص259. وما يليها. رضا كحالة: نفسه –ج2- صص119-120.

41- التبكتي: كفاية المحتاج –ج1- ص91-93. نفسه: نيل الابتهاج –صص48-49. الزركلي: الأعلام –ج1- ص75.

42- التبكتي: نفسه –ج2 –صص73-74. نفسه –ص435. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص115.

43- التبكتي: نفسه –ج2 –ص72. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص114.

44- الحفناوي: نفسه –ج1 –ص119.

45- التبكتي: نيل الابتهاج –ص437.

46- تنظر ترجمته عند ابن مريم: نفسه –ص27 وما يليها.

47- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص70. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص111.

48- ابن خلدون: رحلة –ص69. مخلوف: نفسه –ص234.

49- آباط وهو من الإبط، مارق من الرمل وباطن المنكب. الفيروز آبادي: القاموس المحيط –ضبط وتوثيق: يوسف البقاعي –دار الفكر –بيروت –لبنان –1425هـ- 1426هـ/ 2005م –ص592. وينظر الزمخشري: أساس البلاغة –تحقيق: أ –عبد الرحيم محمود –دار المعرفة –بيروت- لبنان –دت –ص1.

50- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص71. نفسه –نيل الابتهاج –ص432. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص113.

51- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص72. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص114.

52- نفسه –ج2 –ص77. نفسه: نيل الابتهاج –ص439.

53- نفسه –ج2 –ص74.

54- نفسه –ج2 –ص75. نفسه –نيل الابتهاج –ص438.

55- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص70. نفسه –نيل الابتهاج –صص430-431.

56- هو موسى بن محمد بن معطي أبو عمران القاسي، ينظر ترجمته عند التبكتي: نفسه –ج2 –صص249 –250. نفسه –نيل الابتهاج –صص604-605. مخلوف: شجرة النور الزكية –صص234-235. ابن قنفد. كتاب الوفيات –تحقيق: عادل نويهض – مؤسسة نويهض الثقافية –بيروت –لبنان –ج1 –ص117.

57- التبكتي: نيل الابتهاج –ص436. الحفناوي: تعريف الخلف...ج1- ص117.

58- ينظر عنه: البغدادي: هدية العارفين –مج3 –ص212. حاجي خليفة: كشف الظنون –مج1 –ص289. رضا كحالة: معجم المؤلفين –ج3 –ص734.

59- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص75. نفسه –نيل الابتهاج –ص436. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص117.

60- ينظر عنه ابن الأحمر: روضة النسرين في دولة بني مرين –تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور –المطبعة الملكية –الرباط –ط3 – 1423هـ/2003م –ص37.

61- التبكتي: نفسه –ج2 –ص76. نفسه –نيل الابتهاج –ص437. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص118.

62- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص70.

63- التبكتي: نيل الابتهاج –صص436- 437. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص118.

64- نفسه –ص438.

65- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص72. نفسه –نيل الابتهاج –ص433. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص113.

66- الحفناوي: نفسه –ج1 –صص119-120.

67- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص73. نفسه –نيل الابتهاج –ص434.

68- نفسه –ج2 –ص74. نفسه –ص436.

69- نفسه –ج2 –ص75. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص117.

70- سورة آل عمران –الآية 171.

71- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص79.

72- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص75. نفسه –نيل الابتهاج –ص436.

73- سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة وحولها أرباض كثيرة وفيها دور رفيعة ومياه وبساتين كثيرة. البكري: المسالك والممالك –حققه ووضع فهرسته: د/ جمال طلبة –دار الكتب العلمية –بيروت –لبنان –ط1 –1424هـ- 2003م. ج2- ص332.

74- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص73.

74- قاضي الجماعة بونس، إماما عالما حافظا متفننا في علمي الأصول والعربية، وعلم الكلام وعلم البيان فصيح اللسان، عالما بالحديث، لم يكن في بلده في وقته مثله. ابن فرحون: الديباج المذهب –ص418. والمزيد من المعلومات عنه ينظر النباهي: تاريخ قضاة الأندلس أو كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا –تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي –دار الآفاق الجديدة –بيروت- لبنان –ط5 –1403هـ- 1983م. ص161 وما يليها.

75- الزوزني: تاريخ الحكماء والمسمى: المنتخبات الملتقطات من إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي- تحقيق: يوليوس أليبرت- مكتبة الآداب –القاهرة –ط1 –1429هـ- 2008م –ص418. والمزيد من المعلومات عن ابن سينا ينظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في

طبقات الأطباء -ضبطه وصححه ووضع فهارسه: محمد باسل عيون السود -دار الكتب العلمية -بيروت -لبنان -ط1 - 1419هـ- 1998م -ص401 وما يليها.

76- ابن خلدون: رحلة- ص70 وينظر التبكتي: كفاية المحتاج -ج2 -ص70.

77- الحفناوي: نفسه -ج1 -ص118.

78- سورة الرعد، الآية 19.

79- التبكتي: كفاية المحتاج- ج2 ص72-74/نفسه- نيل الابتهاج- ص433/الحفناوي: نفسه -ج1 -ص114.

80- ابن خلدون: رحلة- ص70.

81- التبكتي: كفاية المحتاج- ج2 ص76. الحفناوي: نفسه- ج1 ص118-119.

82- ابن خلدون: رحلة -ص70.

83- الزوزني: مختصر تاريخ الحكماء -ص418. ابن أبي أصيبعة: نفسه -ص419.

84- تنظر ترجمته عند الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس -قدم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه: صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية صيدا- بيروت- ط1- 1426هـ- 2005م- ص54.

85- ابن خلدون: نفسه- ص70. وينظر التبكتي: كفاية المحتاج- ج2 ص71.

86- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ط7- 1415هـ-1994م. ج2 -ص211.

87- التبكتي: نيل الابتهاج -ص437. الحفناوي: نفسه- ج1 -ص119.

88- الحفناوي: نفسه -ج1 -ص117.

89- التبكتي: نيل الابتهاج -ص436. الحفناوي: نفسه -ج1 -ص117.

90- نفسه -ص437. نفسه -كفاية المحتاج -ج2 -ص76.

91- مخلوف: شجرة النور الزكية -ص234.

92- الحفناوي: نفسه -ج1 -ص118.

93- التبكتي: كفاية المحتاج- ج2 ص76/نفسه- نيل الابتهاج- ص437/مخلوف- نفسه- ص234.

94- الونشريسي: المعيار -ج2 -ص47.

95- نفسه -ج9 -ص268.

96- نفسه -ج11 -ص362.

97- نفسه -ج12 -ص163.

العلاقات الخارجية للدولة الزيانية.

أ.حاج عبد القادر يخلف*

دبّ الضّعف إلى كيان الدّولة الموحّديّة عقب موقعة حصن العقاب سنة 609هـ/1212م، ونتج عن ذلك ظهور ثلاث قوى متصارعة حول السّلطة، فكان كلّ أمير منها يدّعي أنّ له الحقّ في لقب الخليفة، وبالتّالي يحقّ له فرض سيطرته على جميع بلاد المغرب الإسلامي باعتباره الوريث الشّرعي للموحّدين، وبناء على ذلك تحوّل المغرب برمّته إلى مسرح لنزاع طويل أدّى إلى تجزئته وانقسامه بين إمارة بني مرين في المغرب الأقصى، وإمارة بني زيّان في الجزائر، وإمارة بني حفص في تونس، ودارت بين هذه الإمارات حروب طاحنة كانت أرض الزّيانيين – في الغالب – ساحة لها بحكم موقعها الوسط بين الدّولتين.

العلاقات الزّيانية– الحفصية: استقلّ يغمراسن بن زيّان بملك تلمسان وما يليها فأصبح أوّل سلطان لهذه الإمارة الناشئة خلال عام 633هـ/1236م، وكان ذلك على عهد الخليفة الرّشيد الموحّدي الذي سعى إلى توثيق الصّلة بيغمراسن، ويذكر أنّه " ضاعف له البر والخلوص وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة وعاوده الإتحاف بأنواع الألطاف والهدايا تيمّما لمسرّاته وميلا إليه من جانب أمثاله بنى مرين المجلبين على المغرب والدولة"[1]، ويشير هذا النّص بوضوح إلى أنّ سبب تقاربهما هو اتّفاقهما على عداوة بني حفص، الذين كانوا يشكلون خطرا على كلتا الدّولتين، فكان هذا التّحالف بين الخليفة بمرّاكش والأمير الجديد بالمغرب الأوسط سببا في تحيّز يغمراسن لبني عبد المؤمن، حيث أصبح يسالم وليّهم ويحارب عدوّهم.

واستنكر الأمير أبو زكريا الحفصي اتصال الرشيد بيغمراسن فسعى إلى ضمّ حضرة مراكش لإمارته، ولكي يحقق ما يسمو إليه أدنى أمراء زناتة منه وألزمهم جواره، ولم يطل انتظاره

*– أستاذ مادة العلوم الإجتماعية في التعليم المتوسط– وأستاذ مستخلف بقسم التاريخ– جامعة وهران.

لتحقيق مسعاه، إذ وفد إليه عبد القوي أمير بني توجين وبعض وفد بني منديل بن عبد الرحمن أمراء مغراوة يستصرخونه على يغمراسن فسهّلوا له أمره وسوّلوا له الاستبداد على تلمسان. وقام أبو زكريا بتنفيذ مخططه فاستجاش أهل إفريقية لغزو تلمسان سنة 640هـ/1242م[2]، وانتهى الغزو بعقد الصّلح مع صاحبها والرّجوع عن المدينة مقابل دعوة يغمراسن لأبي زكرياء على منابر تلمسان[3]وعداوة بني عبد المؤمن.

وعندما بلغ السّعيد ما تعاقدا عليه، قرّر الاستيلاء على مملكتيهما بتعاون مع بني مرين" فانحاز يغمراسن إلى جبل تيمزجزجت"[4] جنوب وجدة، والتقى الجيشان هنالك سنة 646هـ/1247م، حيث انهزم الموحّدون" وقتل أميرهم أبو الحسن علي السّعيد على يدي يوسف بن خزرون"[5]، واستولى يغمراسن على جميع أسلابه وذخائره. وتوطّدت العلاقة بين الحفصيين والزّيانيين بالمصاهرة بين الأمير عثمان بن يغمراسن والأمير الحفصي صاحب بجاية الذي زوّجه ابنته على عهد أبيه يغمراسن، وكادت العلاقات تسوء بين الطّرفين عندما حاول الأمير عثمان غزو بجاية، لكنّها سرعان ما عادت إلى مجاريها الطّبيعية، واستمرّ بنوزيّان تابعين للحفصيين إلى أن غزا السّلطان المريني يوسف بن يعقوب تلمسان سنة 698هـ/1299م وفرض عليها حصارا طويلا أسّس فيه مدينة المنصورة كمعسكر لجيشه.

واستنجد حينئذ عثمان بن يغمراسن بأمير بجاية الحفصي أبا زكرياء الأوسط فأمدّه بجيش كبير التقى بالمرينيين في معركة جبل الزّاب، التي تعرف أيضا بمعركة مرسى الرّؤوس لكثرة ما تساقط فيها من الرؤوس[6]، وانتهت بهزيمته فاشتدّت شقّة الخلاف بين يوسف المريني وصاحب بجاية الحفصي، الذي كان على خلاف مع صاحب عرش تونس السّلطان أبو عصيدة بن الواثق الحفصي، فحاول هذا الأخير استمالة السّلطان المريني للإطاحة بعرش تلمسان، فأسقط الأمير أبي سعيد عثمان بن يغمراسن بناء على ذلك الدّعوة الحفصيّة من منابر تلمسان وقطع الصّلة بعرش تونس الحفصي.

وفي عهد أبي تاشفين عبد الرّحمن الأوّل بن موسى (718هـ/1318م إلى 737هـ/1337م) غزا بنو عبد الواد تونس بجيوشهم مع ابن أبي عمران الحفصي" الذي نهض من طرابلس مطالبا بعرش تونس، وتغلّب في عدّة جولات على الخليفة الحفصي"[7]، فلقيهم ملكها أبو يحي فهزموه هزيمة نكراء، استولوا فيها على حرمه وذخائره وأفلت هو جريحا إلى قسنطينة، واتجهوا تلقاء

تونس التي تمكنوا من دخلوها سنة 730هـ/1329م[8]، وأقاموا فيها أربعين يوما وأسلموها إلى ابن أبي عمران وقفلوا. وتغيّرت علاقات تلمسان الزّيانية بالحفصيين في عهد السّلطان أبي حمّو موسى الثّاني(760هـ/1359م إلى 791هـ/ 1389م)، فاختلفت علاقاته بهم عن علاقاته بالمرينيين، إذ كان الحفصيون يشتركون معه في عدائه للمرينيين.

وكانت حملات المرينيين المتكرّرة على المغرب الأوسط واحتلالهم لحضرته[9] ولعديد المناطق الواقعة تحت سلطان الزيانيين والحفصيين كقسنطينة وبلد العنّاب مّما زاد هذا التقارب بين أبي حمّو الثاني والحفصيين لدفع خطر المرينيين الزاحف، وقد ظهر تعاطفهم معه في وقت مبكّر من قبل أن يستولي على السّلطة في تلمسان، إذ احتضنوه وحموه وأكرموا نزله على إثر مقتل عمّه أبي ثابت على يد أعوان المرينيين سنة 753هـ/1352م، وتجهّز أبو حمّو واستعدّ لنيل ملكه بمساندة الحفصيين المعنوية والمادّية، فقام أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يحي السّلطان الحفصي ووزيره ابن تفراجين بإصلاح شأن أبي حمّو بما قدرا عليه من آلة السّلطان سنة 759هـ/1358م[10]، فسار إلى تلمسان مستغرقا حوالي ستة أشهر بسبب المواجهات مع أتباع المرينيين وأعوانهم في المغرب الأوسط، وبوصول نبأ وفاة السّلطان أبي عنان سنة 760هـ/1358م ارتفعت معنويات رجال أبي حمّو فحملوا على تلمسان، فنازلوها ثلاثة أيّام واقتحموها عنوة في اليوم الرّابع، وبايعه النّاس بالخلافة غرّة ربيع الأوّل سنة760هـ/1358م[11]، وأطلق عليها اسم الدّولة الزّيانية بعد أن كانت تسمّى إمارة بني عبد الواد.

غير أنّ الأمور لم تكن كذلك بين أبي حمّو والحفصيين جميعهم لانقسامهم فيما بينهم، ولكون بلاده كانت على تخوم بلادهم، كانت له أطماع على بعض بلادهم، فبينما نجد بعض الحفصيين نزل عند رغبته كأبي عبد الله محمّد بن يحي الحفصي صاحب بجاية[12] رفض بعضهم الخضوع له كأبي العبّاس أحمد بن محمّد بن السلطان أبي بكر الحفصي[13]، وتقع المعارك بين هذه الفئآت المختلفة وتتراوح أجزاء من أرض المغرب الأوسط في التبعيّة السّياسية، تارة لأحد الحفصيين وتارة لأبي حمّو الزّياني[14] وتقع معركة كبيرة سنة 767هـ/1365م قرب بجاية فيخسرها أبو حمّو لأنّه لم يحسب حسابه امتناع بجاية، وأغفل الاستعداد منخدعا برأي مشيخة بني عبد الواد من دعاة الفتنة فخرج إلى عدوّه مخالفا لرأي أولي النّهى فانهزم شرّ هزيمة، ووجد نفسه وحيدا فنجا بنفسه، ونزل له وزيره عن ركوبه حتّى يستطيع تحصيل تلمسان[15]، وعاد الحفصيون للتدخّل

من جديد في الشؤون الدّاخلية للزّيانيين بعد ضعف الإمارة المرينية وتردّي الأوضاع الداخلية للإمارة الزّيانية نفسها نتيجة النّزاعات والحروب بين أمرائها.

ومن ذلك أنّ السّلطان الحفصي أبو فارس عزّوز أعدّ جيشا ضخما من خمسين ألف محارب اتّجه بهم إلى تلمسان، وعجز أبو مالك عبد الواحد الزّياني عن مواجهتهم لضخامة عددهم وعدّتهم، وتمكّن أبو فارس الأمير الحفصي من احتلال تلمسان عام 827هـ/1424م ، ونصّب عليها محمّد بن الحمراء ليكسب ودّه ويضمن ولاءه ويحمي مؤخّرته، وبعد مدّة أعلن أبو مالك خضوعه واستسلامه له فأعاده إلى عرشه بعد أن نكث محمّد بن الحمراء عهده بفساده وسوء سيرته[16]. وحدث أن حاول الأمير أبو ثابت محمّد الرّابع قطع الدّعوة للحفصيين على منابر تلمسان فأرغم على الخضوع والاستسلام لضعف الإمارة الزّيانية في هذه الأثناء[17]. وقد خضعت الجزائر الحفصيّة التي شملت عمالتي قسنطينة والجزائر إلى ما بعد مليانة في الشمال الغربي، وما بعد ورقلة جنوبا، إلاّما افتكته زناتة من بعد، وغالبا ما تستقلّ مدنها بعضها عن بعض، وكان أوّل الولاّة الحفصيين على الجزائر الحفصية أبو يحي زكريا، الذي أنزله أبوه أبو زكريا يحي الأوّل ببجاية سنة 633هـ/1236م، وكان آخر وال حفصي بالجزائر هو أحمد بن الحسن، ولي بونة أيّام أبيه إلى أن نبذ أهل تونس للحسن عهده، فبايعوه مكانه سنة 943هـ/1536م، ولم يعد للحفصيين بعده نفوذ إداريّ بالجزائر[18]، وضعفت زناتة آخر القرن الثّامن، وما لبثت أن ضعفت الدّولة الحفصيّة هي الأخرى، فلم يكن بين الحفصيين والزّيانيين ولاء ولا عداء إلى أن ملك الأتراك الجزائر.

العلاقات الزّيانية- المرينية: غلب عليها النّزاع المستحكم بين الطّرفين، ويعود السّبب الرّئيس في ذلك إلى أنّ كلاّ منهما كان يعدّ نفسه الوريث الشّرعي للموحّدين، فالمرينيون على أساس أنّهم استولوا على عاصمتهم مرّاكش والأندلس، أمّا الزّيانيون فلكونهم كانوا من أخلص مساعديهم وأنصارهم، ضف إلى ذلك عوامل أخرى أهمّها الجوار في الوطن والمنافسة في الاستقلال فسادت الحروب بينهما، وكان الفوز للمرينيين في معظم المواجهات، وكانوا عادة ما يتجنّون على زناتة بدعوى أنّهم آووا ثائرا عليهم، أو بأنّهم ردّوا شفاعتهم في من خرج عنهم من رعاياهم، أو لسبب تافه كترك السّبيل للممالك الحفصية على أراضيها، ولم يكن بإمكان زناتة إرضاءهم، وكانت أيّام السّلم بينهما هي أيّام انشغالهما بفتن داخلية.

وقد بدأ النّزاع بينهما عندما ضرب يوسف بن يعقوب المريني حصارا طويلا على تلمسان، في عهد أميرها أبي سعيد عثمان عام 698هـ/1299م، "وشرع سلطانهم أبو يعقوب يوسف بن عبد الحقّ في بناء منصورته"[19] وهي تلمسان الجديدة، وضيّق الخناق على أهلها، فلمّا كان عام 703هـ/1304م توفّي الملك أبو سعيد والحصار متّصل لنزلة أصابته بالحمام بعد ملك إحدى وعشرين سنة[20]، وبويع ابنه الأمير أبو زيّان محمّد لحكم الزّيانيين لكنّ الموت فاجأه بعد مرض اعتراه، فلم يدم حكمه طويلا فولّي بعده أخوه الملك أبو حمّو موسى الأوّل بن عثمان سنة 707هـ/1308م، وتمادى الحصار بتلمسان ثمانية سنين وثلاثة أشهر، " فلمّا كان يوم الأربعاء السابع من ذي القعدة عام 706هـ/1307م، دخل الخصيّ الذي اسمه سعادا على يوسف بن يعقوب وهو نائم، فألقى الله في قلبه طلب ثأر مولاه فوجأه بسكّين في بطنه "[21]، فانتقم بذلك لأبي عليّ المليايي الذي ربّاه وكان يوسف بن يعقوب قد قتله، وعندها حلّ الفرج بأهل تلمسان.

ولّما قتل يوسف بن يعقوب ولّي مكانه ابنه أبو سالم وكان ابن أمة، فلم يرض أبو ثابت بن أبي عامر، فبعث إلى السّلطان أبي حمّو أن يعينه بما أمكنه من الجيش مصطلحين ما عاشا ففعل، وغلب أبو ثابت وقتل عمّه وانصرف موفيا بما التزم[22]، ثم توجّه إلى شرق تلمسان فأخضع القبائل الثّائرة في تجّين ومغراوة التي خلعت الدّعوة أيّام الحصار، ومدّ سيطرته إلى مدينة الجزائر سنة 711هـ/1312م، وإقليم الزّاب بالصّحراء الشّرقية.

وفي هذه الأثناء استغلّ أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحقّ المريني فرصة انشغال الزّيانيين شرقا، فقاد حملة ضدّ تلمسان لكنّه فشل في اقتحامها فاضطرّ إلى الانسحاب، فقام أبو حمّو عقب ذلك بتصفية نفوذ المرينيين في المغرب الأوسط بالقضاء على أشياعهم من الثّعالبة بمتّيجة، ومطاردة راشد بن محمّد المغراوي إلى بلاد القبائل، وتآمر على أبي حمّو ابنه أبو تاشفين بسبب " إيثاره لابن عمّه مسعود بن أبي عامر عليه، حيث كان أبو حمو يقدّمه على ولده في كلّ أمر سرّا وجهرا على رؤوس الملا "[23] وقتل أبو تاشفين وأتباعه أباه في جوان من سنة 718هـ/1318م. ثم بويع أبو تاشفين الأوّل للحكم فعقد معاهدة صلح مع السّلطان المريني أبي سعيد، وسرعان ما ساءت العلاقات بينهما بسبب غزو أبي تاشفين لمدينة قسنطينة، وسيطرته على بجاية عام 719هـ/1318م، ورفضه رجاء الحفصيين الذين وسّطوا بني مرين في ذلك، وفي إخلاء ما احتلّوه بالجزائر الشّرقية وخاصّة بجاية[24]، وغزا أبو تاشفين تازة وردّ عليه السّلطان المريني أبو

الحسن بغزو موانئ تلمسان السّاحلية بأسطوله، ثم عاد إلى المنصورة وحاصر تلمسان واحتلّها في أبريل 737هـ/1336م، وقتل أميرها أبا تاشفين وقضى على دولته وأخضع تلمسان للمرينيين[25].

وظلّ المرينيون يهيمنون على تلمسان إلى أن انهزم سلطانهم أبو الحسن قرب القيروان، على يد عرب بني سليم وأحلافهم وبني عبد الواد، الذين انحازوا إليهم في سابع محرم من عام 749هـ/1348م[26]، لتنتهي بذلك مرحلة الاحتلال الأوّل لتلمسان من لدن بني مرين، التي استمرّت من 737هـ/1336م إلى 749هـ/1348م. وبايع بنو عبد الواد أبا سعيد عثمان بن عبد الرّحمان بن يغمراسن سنة 749هـ، واستألفوا تجّين ومغراوة وتحالفوا على المناصرة عند الحاجة إليها متفرّقين في شلف، بينما واصل بنو عبد الواد سيرهم إلى تلمسان واقتحموها في سبتمبر سنة 749هـ/1348م، فلقي عمران بن موسى بن جرّار الذي خرج على رأس الجيش للقاء بني عبد الواد حتفه[27]. بينما سأل أخوه عامل المرينيين عثمان بن جرّار الأمان فأمّن[28]، وعيّن أبو سعيد عثمان أخاه أبا ثابت على رأس الجيش، فاستطاع هزيمة السّلطان المريني أبي الحسن في الجزائر، وهو عائد من تونس وأرغمه على الانسحاب[29] مهزوما مخذولا إلى المغرب الأقصى، حيث وجد ابنه أبو عنان قد استحوذ على السّلطة في غيابه، وانتهى الأمر بقتله وسيطرة ابنه أبي عنان على العرش.

ووجّه أبو عنان أنظاره إلى تلمسان، فلمّا سمع الأمير أبا سعيد باستعداده لغزوها خرج له بقواته إلى وجدة، والتقى الطرفان في معركة وادي القصب، " فلمّا حمي الوطيس خدعت بنو عامر، فكان ذلك سبب الهزيمة، وكبا بالسّلطان أبي سعيد فرسه فأخذ وقتل يوم السّبت حادي عشر جمادى الأولى سنة 753هـ/1352م[30]. واحتلّوا تلمسان وتتبّعوا أبا ثابت الذي لجأ مع ابن أخيه أبي حمّو إلى بجاية على إثر هزيمة السّلطان وأخيه أمامهم، فقبض عليهما أتباع المرينيين وهما متنكّران، فادّعى أبو حمّو أنّه هو السّلطان رغبة منه في الدّفاع عن عمّه، وسرعان ما اكتشف أمرهما، وسئل أبو ثابت عن هويّة صاحبه فادّعى أنّه أحد أتباع دولته، ورجاهم أن يسرّحوه فخلّوا سبيله، وفيما كان العمّ يساق إلى الموت[31]، سلك أبو حمّو طريقه إلى تونس مع جماعة من أصحابه طلبا للجوء عند السّلطان أبي إسحاق إبراهيم بن أبي يحي الحفصي ووزيره ابن تفراجين التينملي، فأقام لديهما بتونس معزّزا مكرّما لمدّة خمس سنوات[32]، وأوعز السّلطان أبو عنان المريني إلى صاحب إفريقية الحفصي بإخراج أبي حمّو وقومه من بلادهم فرفض صاحب إفريقية طلبه،

فأغرى ذلك أبا عنان بالحملة ضدّه[33]، وشرّق سنة 758هـ/1357م فملك قسنطينة وبلد العنّاب وحاصر أسطوله تونس وملكها، فارتحل السّلطان أبو إسحاق الحفصي إلى الجريد ورافقه أبو حمّو وأصحابه حتى نزلوا بتبسة، وحدثت أحداث اضطرّت أبا عنان للرّجوع إلى المغرب وإلى سحب جيشه وأسطوله من تونس دون أن تتمّ أيّة مواجهة بينه وبين خصومه[34].

ومن هناك أخذ أبو حمّو وقومه يعدّون العدّة للاتّجاه تلقاء تلمسان " وساعده على ذلك عرب من زغبة كانوا خارجين عن السّلطان أبي عنان، اضطرّوا إلى ترك أراضيهم في صحراء المغرب ولحقوا بإفريقية، فلمّا قفل أبو عنان راجعا إلى فاس رغبوا في العودة إلى بلادهم، فدعوا أبا حمّو إلى مرافقتهم على أن يحالفوه في اقتحام تلمسان وينصّبوه للأمر فوافقهم على عزمهم[35]، ووجد السّلطان الحفصي ووزيره ابن تفراجين في ذلك إزعاجا لعدوّهم المريني، فقاما بمساعدته وسار بمن معه في رحلة زادت عن ستة أشهر، وكان خبر وفاة السّلطان أبي عنان ممّا زاد في تثبيت عزائم رجال أبي حمّو، فحملوا على تلمسان ولم يتمكّن ابن أبي عنان من صدّهم فاقتحموها عنوة في اليوم الرّابع من منازلتها، وبايعه النّاس بالخلافة لليال خلون من ربيع الأوّل سنة 760هـ/1352م [36]، وانتهى بذلك عهد تلمسان بالاحتلال المريني الثّاني الذي دام من 753 إلى 760هـ/1352 إلى 1359م. وأمر السّلطان أبو حمّو موسى الثّاني بإخراج بني مرين، وصفح عنهم وكان فيهم ابن السّلطان أبي عنان[37]، ولّما كان المرينيون أشدّ أعداء أبي حمّو فقد ناوأهم أحيانا وصالحهم في أخرى، وكان حكمه يمثّل انبعاث دولة بني عبد الواد من جديد، لذلك اعتبره المرينيون عدوّا يجب التخلّص منه، فبعد استقراره بتلمسان أكثر من شهر ونصف أرسل المرينيون جيشا عرمرما في آخر شهر ربيع الثّاني من سنة 760هـ اضطرّه إلى الخروج من عاصمته إلى الصّحراء[38]، ومن يومها خاض أبو حمّو معارك جمّة ضدّ المرينيين، حالفه النّصر في بعضها وخانه في غيرها، وأرغم أربع مرّات على ترك قاعدة ملكه تلمسان في قبضة المرينيين لفترات متفاوتة الزّمن:

كانت أولاها سنة 760هـ/1359م، حيث غادر فيها تلمسان مدّة ثمانية وعشرين يوما[39]، بينما كانت الثّانية في السّنة الموالية، وفيها ترك تلمسان ليعود إليها بعد أربعين يوما[40]، وكانت كلاهما أمام قوات السلطان المريني أبو سالم، في حين امتدّت الثّالثة من احتلال حضرته – وكانت هذه المرّة من لدن السّلطان أبي فارس عبد العزيز المريني– في الخامس والعشرين محرّم من سنة

772هـ/1371م إلى وفاة الملك المريني أبي فارس في الثاني والعشرين ربيع الثاني سنة 774هـ/1373م، وقد دامت مدّة الاحتلال هذه أكثر من سنتين، وكانت الأسوأ مقارنة بسابقاتها على أبي حمّو[41]، وأمّا آخرها فكانت في صفر من عام 784هـ/1383م حتّى عام 786هـ/1385م، حيث خرّب المرينيون عمران المدينة وهدّموا خلالها القصور الجميلة التي بناها الزيانيون مستعينين بخبرة الأندلسيين[42].

وفي كلّ مرّة من هذه المرّات كان أبو حمّو يتحمّل الصّعاب في المنفى بشجاعة ورباطة جأش، يتحيّن الفرص السّانحة للعودة إلى حمل السّلاح محاولا إعادة سلطانه، وهو ما نلاحظه بخاصّة في خرجة سنة 772-774هـ، التي قاسى فيها من التشرّد ومن شدّة هول البرد والعري والجوع والعطش والهزيمة والإشراف على الهلاك، وقد سمّى أبو زكريا بن خلدون هذه الخرجة ب " التمصيص الأكبر والابتلاء الأشهر بما لم يعرف لملك من ملوك الإسلام نظيره، ولا عِدّ في مثلات العجم الخالية شبهه"[43]. إلاّ أنّ عزم أبي حمّو كان يقابله إصرار المرينيين للقضاء عليه، وكانت الفرصة الكبرى أمامهم عندما لجأ إليهم ابن السّلطان أبي حمّو أبو تاشفين عبد الرّحمان الثّاني، الذي طلب منهم إعانته للتخلّص من أبيه ليستقلّ بالسّلطة بمفرده، بعد أن أخفق في ذلك بين سنتي 788هـ/1388م و790هـ/1389م، فأعانوه بجيش كبير، ودخل تلمسان برجال بني مرين سنة 791هـ/1390م، فكانت نهاية أبي حمّو في معركة بني ورنيد قرب جبل بني راشد في نوفمبر من نفس السنة قتلا على يد حليف ابنه المريني[44].

وممّا تقدّم يتضح لنا أنّ نجاح المرينيين في إخضاع أبي حمّو نهائيّا كلّفهم ثلاثين سنة من العناء والمحاولات المتكرّرة على تلمسان لضمّها إلى مملكتهم، فأصبح يخطب على منابرها للسلطان المريني، ويبعث إليه بالجباية كلّ سنة وصار أبو تاشفين مجرّد عامل لبني مرين ليس إلاّ[45]. ورغم ذلك لم يسلم من منازعة أخيه أبي زيّان حاكم الجزائر فاشتعلت الحرب بينهما طويلا للاستقلال بعرش تلمسان، وانتهت بهلاك أبي تاشفين. وأدّى الصّراع بينهما إلى تدخل المرينيين مجدّدا بواسطة السلطان المنتصر فاحتلّ تلمسان والمناطق الشّرقية لها عام 795هـ/1393م، فأزال بذلك الدّولة الزّيانية للمرّة الثّالثة.

وللإشارة فإنّه كان للمرينيين اليد الطولى في دفع أبي زيّان بن أبي سعيد للثورة ضدّ أبي حمّو الخصم اللّدود لهم، وبعد حوالي عشرين سنة (من سنة 761هـ/1360م إلى سنة 781 هـ/1380م) انتهى أمر الصّراع بينهما، عندما أصبح أبو زيّان عاجزا على تحريك دواليب هذه الحرب، واستحال عليه تحقيق النصر على أبي حمّو موسى الثّاني[46].

واللافت للنظر أنّ أبا حمّو هو الآخر لجأ إلى التآمر ضدّ عدوّه المريني – عملا بالمثل – ونكاية بعدوّه وذلك عندما احتضن منافسين لسلطانين من السلاطين المرينيين في فترتين متباعدتين أثناء حكمه، الأوّل هو الأمير عبد الحليم بن أبي علي المريني، وقد احتضنه أبو حمّو سنة 762هـ/1361م مكايدة للسّلطان أبي سالم المريني، فأمر بني مرين الواصلين من الجزائر إلى تلمسان ببيعته، ولمّا دعا له بالمغرب كساه شارة الملك وسرّحه في شيء من الآلة والنّاس مكرّما[47]. أمّا الثّاني فكان محمّد بن محمّد بن عبد الله بن عبد الحقّ، وقد جمع العرب من أصحابه على بيعته سنة 770هـ/1369م، وكساه شارة الملك وأرسله مع العرب لحصار سجلماسة مكايدة للسّلطان عبد العزيز المريني[48]. واستطاع أبو مالك عبد الواحد بن أبي حمّو (814 هـ/1411م) التغلّب على بني مرين، وفرض عليهم أحد المطالبين بالعرش وهو محمّد بن أبي طريق بن أبي عنان[49].

العلاقات الزّيانية– السّعدية: في سنة 957هـ/1550م جهّز الشّريف محمّد المهدي مؤسّس الدّولة السّعدية جيشا قويّا بقيادة ابنه الشّريف محمّد الحرّان ليتولّى فتح تلمسان، فحاصرها تسعة أشهر وقتل في حصارها ولده الحرّان، ثم استولى على المدينة سنة 957هـ/1550م[50]، ومدّ نفوذه إلى نهر الشلف، فخرج إليه الجزائريون تحت قيادة حسان قورصو، فانهزم جيش السّعديين وتراجع إلى مستغانم، وجاءهم المدد لكنّهم انهزموا عند الحدود المغربية، وقتل الشّريف عبد القادر قائد الجيش المغربي ابن الشّريف محمّد المهدي، فتراجع جيشهم إلى ما وراء الملوية.

العلاقات مع الأندلس: كانت العلاقات الزّيانية بالأندلس وأهلها جيّدة عموما، وبرزت في شكل مساعدات من نقود ذهبية وخيول وحبوب وسلاح ومراكب مشحونة للاستعانة على حرب النصارى، كما حدث في زمن أبي حمو الثاني خلال سنة 763هـ/1361م وسنة 767هـ/1365م، حيث افتدى أسرى المسلمين لدى النصارى جميعا[51]، وكان تبادل الهدايا مما اعتاد عليه سلاطين بني عبد الواد وبني الأحمر فيما بينهما، ومن ذلك مثلا أنّ السلطان أبا عبد الله محمد الغني بالله أرسل رسوله في أول رجب من سنة 774هـ/1373م بهدية أتحف بها السلطان أبو حمو موسى الثاني،"وهنّأه فأكرم السلطان نزله، وأرجعه بما يناسب تودّد صاحبه من الشكر والثناء العاطرين"[52]. كما استقبلت تلمسان مهاجري الأندلس من المسلمين الفارّين من خطر الموت أو التنصير، ومن هؤلاء آخر أمراء بني الأحمر بغرناطة أبو عبد الله محمّد بن سعد المعروف

بالزّغل الذي وصل إليها عبر وهران، فاستقبله أبو عبد الله الثّالث المعروف بالثّابتي بما يليق بمقامه من الحفاوة والإكرام "[53].

وبالمقابل لا يمكن أن ننسى الدّور الذي قام به الأندلسيون في تقديم المعونة للزّيانيين في بناء وتشييد قصورهم الجميلة بتلمسان، ويذكر أنّ قصور تلمسان كانت من حسنات ما جادت به خبرة الصنّاع الأندلسيين، ومنها دار الملك و دار السّرور و أبو فهر، ويخبرنا ابن خلدون عن العهد الذي تمّت فيه هذه الصفقة فيقول: " كانت لا يعبر عن حسنها، اختطها السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين، واستدعى لها الصناع والفعلة من الأندلس لحضارتها وبداوة دولتهم يومئذ بتلمسان، فبعث إليهما السلطان أبو الوليد بن الأحمر صاحب الأندلس بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس، فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله"[54].

العلاقات الزّيانية – الأوربية: تأرجحت بين السّلم والحرب:

في حالة السّلم: كان التجّار يتوافدون على تلمسان من القطرين الشّقيقين ومن الأندلس وبلاد السّود ومن جنوة والبندقية، فيتردّدون إلى المدينة من خلال موانئ وهران والمرسى الكبير، وبعد احتلالهما من قبل الإسبان لم يبق للمملكة غير ميناءين هما : أرشقون وهنين لعرض بضائعهم المتمثّلة أساسا في الثّياب القطنية والحريرية والخردوات والنّحاس والزّجاج والعطور وغيرها، وكانت تأتي إلى هذا الميناء سنويا سفن شراعية من البندقية تحقق أرباحا جسيمة مع تجار تلمسان، ولم ينقطع التجّار عن تلمسان حتّى في الأوقات العصيبة للحصول على منتوجات بلاد السّودان من عاج وذهب وعبيد، كانت تأتي بها قوافل تجار تلمسان، وكان أهمّ أسفارهم ذلك الذي يقومون به إلى هذه البلاد، وتوجد بتلمسان جميع الصنائع والتجارات موزعة على مختلف الساحات والأزقة، كما كان بها فندقان لمقام تجار جنوة والبندقية، وكانت تصدّر الصّوف والمنسوجات والماشية والحبوب والكتب، وهي إلى ذلك ممرّ للبضائع الإفريقية والأورويّة يتاجر فيها بحيّ قيصارية القديم وقد نوّه ليون الإفريقي في أوّل القرن السادس عشر بما اشتهر به تجّار تلمسان من ثقة[55].

في حالة الحرب: تلمسان والصّراع الإسباني العثماني: استغلّ الإسبان تنافس الأسرة المالكة في تلمسان على العرش، فاحتلّوا المرسى الكبير سنة 1505 ووهران 1509 ثم بجاية سنة 1510 وجزيرة الصّخرة بالعاصمة ومستغانم سنة1511 ودلّس وعنّابة وهنين عام1531م. وتقرّب أبو حمّو الثّالث من الإسبان، فاجتمع بالإمبراطور الإسباني شارلكان معلنا تبعيته له، فرجّ بالملك الشّرعي

أبي زيّان في السّجن، واستنجد أهل تلمسان بعرّوج فاندفع نحو تلمسان لنجدة الملك السّجين وشيعته للتخلص من الإسبان، وحاول أبو حمّو صدّه عن المدينة ففشل في ذلك، وهزم جيشه شرّ هزيمة واقتحم عروج المدينة التي استقبلته كمنقذ[56]،أمّا أبو حمّو فقد فرّ إلى فاس ومنها إلى وهران طالبا المساعدة من حاكمها العام لاسترجاع ملكه.

وأجلس عرّوج السّلطان أبا زيّان الثّالث المسعود على عرش تلمسان، وبعد فترة وجيزة من الاستقرار عادت تلمسان لتسقط في الفتنة، التي كان وراءها السلطان أبو زيّان وأشياع عمّه أبي حمّو معا، وغادر عرّوج تلمسان لحين ثم عاد إليها ليقتل أبي زيّان مع رؤوس الفتنة، وعندها أمر شرلكان حاكم وهران بمساعدة أبي حمّو لاسترجاع عرش تلمسان، الأمر الذي أدخل تلمسان في دوّامة من التقلبات السياسية جعل سلاطينها يتأرجحون بين ولاء للأتراك العثمانيين وخيانة للدّين والوطن بالخضوع للإسبان مقابل الحفاظ على الملك أو طلب المساعدة لاسترجاعه في أحداث يطول شرحها، واستغلّ الإسبان احتضار الدّولة الزّيانية من خلال تلك الأحداث المؤلمة داخل الأسرة الحاكمة، فأرغموا ضعفاء سلاطينها على الخضوع لاتّفاقيات كلّها لصالحهم، وقد تعاقب على ملك تلمسان في هذه الفترة الممتدّة من 924هـ/1518 إلى 962هـ/ 1554م:

أبو حمّو الثّالث الذي عاد رفقة الجيش الإسباني واحتلّ تلمسان سنة 924هـ/1518م ومات في نفس السّنة، وأبو محمّد عبد الله الثّاني الذي أعقبه على عرش تلمسان في السنة نفسها، فثار عليه أخوه أبو سرحان المسعود، الذي احتلّ تلمسان بمساعدة الجزائريين سنة 925هـ/1519م وطرده من العرش، وبايع السّلطان سليم العثماني ثمّ نقض البيعة والارتباط بالجزائر. ودخلت تلمسان بعدها في سلسلة من التقلبات في عرشها ما بين التبعية للاحتلال الإسباني والتبعية للآتراك العثمانيين وكان حكم تلمسان بين مدّ وجزر في هرم سلطتها حيث حكمها في ظرف وجيز محمد السابع وأبو زيان أحمد الثاني وأخرهم الحسن بن عبد الله الثاني الذي نصّبه حسان قورصو بعد تخلّصه من السّعديين الذين طاردوهم إلى ما وراء الملوية، وبقي تحت إشراف الضّابط التركي سفطة، فكان عبارة عن جسد بلا روح، إلى أن قرّر مجلس العلماء سنة 962هـ/1554م خلعه وأعلن البايلرباي صالح رايس حينئذ نهاية دولة بني زيّان، وانضمامها إلى الأبد للدّولة الجزائريّة بعد أن عمّرت ثلاثة قرون وثمانية عشر عاما[57].

العلاقات بين أبي زيّان والظّاهر برقوق: ذكر التنسي أنّه "لمّا وردت على أبي زيّان بن محمد بن أبي حمّو هديّة ملك مصر سيف الدين أبي سعيد الملقّب ببرقوق أول المماليك البرجين، بعث إليه عملا بالمثل هديّة جليلة ووجّه معها قصيدة لامية من نظمه تحتوي على سبعة وخمسين بيتا مطلعها:

لمن الركائب سيرهن ذميل فالصبـــر إلاّ بعدهـــنّ جميل

يا أيّها الحادي رويدك إنّها ظعن يميل القلب حيث تميل"[58]

وهذا ما يؤكّد أنّهما كانا على علاقات وديّة، وذكر ابن خلدون أنّ هديّة صاحب تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد بمراكبها المموّهة وأحمال من الأقمشة[59].

الخاتمة: أنّ العلاقات الزيانية الحفصية تميّزت مبدئيا بالتبعيّة لهم وتدعّمت بالمصاهرة، إلاّ أنّ التقارب الحفصي المريني للإطاحة بعرش تلمسان، قطّع أوصال هذه العلاقات، وتمكّن الحفصيون من غزو تلمسان واحتلالها إلى حين تمّ رجعوا عنها بعد أن نصّبوا عليها ابن أبي عمران وهو أحد المطالبين بالعرش، وسيتحوّل التقارب الحفصي المريني – لاحقا – إلى عداء بسبب الأطماع التوسّعية المرينية، ولإحداث التوازن في المنطقة كان على الحفصيين مساعدة الزّيانيين في إعادة بناء دولتهم، لمواجهة العدوّ المشترك وتأمين حدود دولتهم، إلاّ أنّ الحفصيين سيستغلون تطوّر الأحداث ويستثمرونها لصالحهم بعد ضعف إمارة المرينيين وانشقاق البيت الزّياني على نفسه فيقومون باحتلال تلمسان وإخضاعها لسلطانهم، وللإشارة فإنّ الجزائر الحفصيّة انتقلت من التبعيّة الحقيقيّة لتونس الحفصيّة إلى الاستقلال عنها تدريجيّا ثمّ نهائيّا سنة 943هـ/1536م.

أمّا العلاقات مع المرينيين فإنّ أيّام السّلم فيها بين الطرفين هي أيّام انشغالهما بفتن داخلية، وبعبارة أخرى فإنّ النّزاع المستحكم ساد بينهما، وكان غالبا ما يكون لصالح المرينيين، الذين احتلّوا تلمسان في العديد من المرّات: كان أطولها الاحتلال الأوّل في عهد أبي الحسن المريني، الذي دام قرابة اثنتا عشرة سنة (من 737هـ/1336م إلى 749هـ/1348م). بينما كان أقصرها مدّة، ذلك الذي وقع سنة 761هـ/1360م، على عهد أبي سالم المريني، الذي أرغم أبا حمّو على الغياب عن تلمسان لمدّة أربعين يوما. في حين تمكّن الزّيانيون فيما بعد من تحقيق النّصر على المرينيين في عقر دارهم بواسطة السّلطان أبي مالك عبد الواحد بن أبي حمّو سنة 814هـ/1411م، وفرض عليهم أحد المطالبين بالعرش وهو محمّد بن أبي طريق بن أبي عنان.

أمّا السعديون فمنذ تأسيس دولتهم أظهروا أطماعا توسّعيّة على حساب تلمسان، التي احتلّوها بعد حصار دام تسعة أشهر سنة 957هـ/1550م، وبسطوا نفوذهم إلى واد الشلف، فردّهم حسان قورصو بهجوم معاكس إلى ما وراء الملوية خائبين منهزمين.

وكانت العلاقات مع الأندلس ودّية أخوية مبنيّة، على التعاون المشترك للدّولتين، ولّما أنشأ الإسبان محاكم التفتيش التي كانت تفرض التنصير على مسلمي الأندلس أو الموت، استقبلت تلمسان أفواجا من الأندلسيين الذين فرّوا بدينهم ويمّموا شطرها.

بينما تأرجحت العلاقات مع الأوربيين بين السلم والحرب، ففي السلم كان النّشاط التّجاري طابع هذه العلاقات باعتبار أنّ تلمسان كانت همزة وصل بين البضائع الإفريقية والأوربية. وفي الحرب تميّزت بغارات الإسبان على سواحل المغرب الإسلامي الإستراتيجية ، فاحتلّوا عددا منها، أمّا تلمسان فقد خضعت لهم بسبب ضعفاء الشّخصية من سلاطينها الذين كان همّهم الوحيد الظفر بالحكم بغض النظر مع من يتحالفون للوصول إلى سدّته، حتّى ولو كانوا إسبانا مسيحيين. إلاّ أنّ التلمسانيين استقبحوا مثل هذه التصرّفات واستنجدوا بالأخوين المسلمين عروج وخير الدين، فاشتدّ الصّراع بين القوّتين الإسبانية والعثمانية على تلمسان الزيانية إلى أن دخلت في كنف الدّولة الجزائرية بعد أن ضمّها صالح رايس سنة 962هـ/1554م، بخلع آخر سلاطينها وهو الحسن بن عبد الله الثّاني.

ويذكر أنّ أبا زيّان والظّاهر برقوق أوّل المماليك البرجيين على مصر كانا على علاقة ودّية، ويؤكّد ذلك الهدايا التي بعث بها كلّ منهما للآخر.

الهوامش:

1- ابن خلدون عبدالرحمن- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر -مؤسسة منشورات الأعلمي للمطبوعات- بيروت- 1391هـ/1971م- ج6 ص286 وج7 ص80. وانفرد علي ابن أبي زرع الفاسي بخبر جاء فيه:" أنّ الرشيد بعث إلى يغمراسن بهدية عظيمة مؤملا منه ما كان ممن قبله من الخطبة لهم، فلم يجبه إلى ذلك وأظهر كلّ واحد عداوة الآخر، فهمّ الرشيد بالتحرّك نحوه فعاجلته منيته". ينظر: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- اعتنى بطبعه وتصحيحه: يوحن تورنبرغ- دار الطباعة المدرسية- أوبسالة- 1833- ص456.

2- ابن خلدون يحي- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات- المكتبة الوطنية- الجزائر- 1400هـ/1980م- ج1 ص205. علي ابن أبي زرع القاسي- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية- الرباط- 1392هـ/1792م- ص61. ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر السابق- ج6 ص256-257. وجاء في تاريخ

الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي- تحقيق وتعليق: محمد ماضور- المكتبة العتيقة- تونس- 2002- ط2- ص29. وفي المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار- مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية- 1286هـ- ط1- ص126:" أنّ تحرّك أبا زكريا لتلمسان كان سنة 639هـ/1241-1242م". في حين يذكر ابن القنفد القسنطيني:" أنّ التحرّك لتلمسان كان سنة 639هـ، أمّا دخولها فكان سنة 640هـ". ينظر: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية- تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي- الدار التونسية للنشر- 1968- ص109.

3- ابن الأزرق أبو عبد الله- بدائع السلك في طبائع الملك- تحقيق: علي سامي النشار- دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة- القاهرة- الإسكندرية- 1429هـ/2008م- ط1- ج2 ص672.

4- ابن خلدون يحي، المصدر نفسه- ج1 ص206. ويسمّيها ابن أبي زرع في ذخيرته: تامزجدرت- ص72. وهي عند محمد بن عبد الله التنسي: تامزيزديت. ينظر: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان- تحقيق وتعليق: محمد بوعياد- المؤسسة الوطنية للكتاب والمكتبة الوطنية الجزائرية- الجزائر-1405هـ/1985م- ص118.

5- التنسي- المصدر نفسه- ص119. ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص72. ويسمّيه في روض القرطاس:" يوسف بن خورور" ينظر:ص456-457. الزركشي- المصدر نفسه- ص31.

6- ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص98. ويسمّي مبارك بن محمد الميلي هذه المعركة " معركة جبل الزان" ينظر: تاريخ الجزائر في القديم والحديث- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ج2 ص407.

7- ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج6 ص439-440.

8- نفسه- ج6 ص340-341. التنسي- المصدر نفسه- ص144.

9- ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص123-124 و132-133 و141-142. الناصري أحمد بن خليل- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا- تحقيق ولدي المؤلّف: جعفر الناصري ومحمد الناصري- دار الكتاب- الدار البيضاء- 1955- ج4 ص57-67- 68- 76- 77.

10- التنسي- المصدر نفسه- ص157. وذكر أبو حمو أنّ بداية استرجاع ملكه كانت من تونس إلاّ أنّه لم يذكر شيئا عن الإعانة بآلة السلطان من قبل صاحب تونس حينئذ. ينظر: أبو حمو موسى بن يوسف الزياني-كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك- تقديم المعهد الهندي-أوكسفورد- 1880-ص13.

11- ابن خلدون يحي - بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- المطبعة الشرقية للأخوين فونطانة وشركائهما- الجزائر- 1911- ج2 ص37. ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص123. أبو حمو موسى- المصدر نفسه- ص14. التنسي- المصدر نفسه- ص159.

12- ابن خلدون يحي - نفسه- ج2 ص151. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص128.

13- ابن خلدون يحي - ج2 ص182. ابن خلدون عبد الرحمن - ج7 ص128-129.

14- ينظر مثلا " تدلس" في البغية- ج2 ص103 أخذها الزيانيون وفي ص151 انتزعها منهم الحفصيون. ينظر أيضا في العبر- ج7 ص171.

15- ينظر تفاصيل هذه الوقعة في البغية- ج2 ص182-183. العبر- ج7 ص128-129.

16- التنسي- المصدر نفسه- ص241-243. الزركشي- المصدر نفسه- ص125-126.

17- الزركشي- نفسه- ص127-128.

18- مبارك بن محمد الميلي- المرجع نفسه- ج2 ص390 و398.

19- ابن خلدون يحي- المصدر نفسه- ج1 ص209-210. ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص96.

20- التنسي- المصدر نفسه- ص131. ابن خلدون عبد الرحمن - نفس الجزء والصفحة.

21- التنسي- نفسه- ص134. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص233.

22- التنسي- نفسه- ص135. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص233-234.

23- التنسي- نفسه- ص138. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص104.

23- التنسي- نفسه- ص145. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص107-109.

25- التنسي- نفسه- ص145-146. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- 147-148.

26- ابن خلدون يحي - المصدر نفسه- ج1 ص235. الزركشي- المصدر نفسه- ص85.

27- ابن خلدون يحي - نفسه- ج1 ص245-246. التنسي- المصدر نفسه- ص151. ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص116.

28- التنسي- نفس الصفحة. ابن خلدون عبد الرحمن - نفس الجزء والصفحة.

29- التنسي- نفسه- ص152-153. ابن حلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص118-119.

30- التنسي- نفسه- ص154. ابن خلدون يحي - نفسه- ج1 ص245-246.

31- ابن خلدون يحي - نفسه- ج2 ص17-18. ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص121-122. الزركشي- المصدر نفسه- ص94.

32- ابن خلدون يحي - نفسه- ج2 ص18-20. مبارك الميلي- المرجع نفسه- ج2 ص459.

33- ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص122-124.

34- أبو حمو موسى- المصدر نفسه- ص13. الزركشي- المصدر نفسه-96-98.

35- ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص122. الناصري -المصدر نفسه- ج3 ص201-202.

36- أبو حمو موسى- المصدر نفسه- ص14. ابن خلدون يحي - المصدر نفسه- ج2 ص39.

37- ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص122-123.

38- إسماعيل بن الأحمر- روضة النسرين في دولة بني مرين- المطبعة الملكية- الرباط- 1962- ص55. ابن خلدون يحي - المصدر نفسه- ج2 ص51. الناصري- المصدر نفسه- ج4 ص5.

39- ابن خلدون يحي - نفسه- ج2 ص52.

40- ينظر تفاصيل ذلك في البغية- ج2 ص76-79. إسماعيل بن الأحمر- المصدر نفسه- ص56. ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص124-125 و 311-312. الناصري- المصدر نفسه- ج4 ص33-34.

41- ابن خلدون يحي - نفسه- ج2 ص238و269. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص132-135- 329-330-336-337. الناصري- نفسه- ج4 ص57.

42- ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص141-143.

43- نفسه- ج7 ص330-334. ابن خلدون يحي - المصدر نفسه- ج2 ص237.

44- ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص143-148. الناصري- المصدر نفسه- ج4 ص76.

45- ابن خلدون عبد الرحمن – نفسه- ج7 ص147-148. الناصري- نفسه- ج4 ص76-77.

46- ابن خلدون عبد الرحمن – نفسه- ج7 ص124-125و139.

47- نفسه- ج7 ص316. ابن خلدون يحي – المصدر نفسه- ج2 ص90-91 وخاصة ص95. الناصري- المصدر نفسه- ج4 ص43و74.

48- ابن خلدون عبد الرحمن- نفسه- ج7 ص129. ابن خلدون يحي- نفسه- ج2 ص235-236.

49- التنسي- المصدر نفسه- ص240-241.

50- الناصري- المصدر نفسه- ج5 ص25.

51- ينظر تفاصيل ذلك في البغية- ج2 ص114وص193.

52- نفسه- ج2 ص276.

53- المقري التلمساني- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب- تحقيق إحسان عبّاس- دار صادر- بيروت- 1388هـ/1968- ج4 ص524.

54- ابن خلدون عبد الرحمن – المصدر نفسه- ج7 ص142. ليون الإفريقي- وصف إفريقيا- ترجمه عن الفرنسية: محمد حجّي ومحمد الأخضر- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1983- ط2- ج2 القسم الرّابع- ص20.

55- ليون الإفريقي- نفسه- ج2 ص19-20-21. شارل أندري جوليان- تاريخ إفريقيا الشمالية- تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة- الدار التونسية للنشر- 1983- ط2- ج2 ص202.

56- كان الشيخ أبو العبّاس أحمد بن القاضي الزواوي هو من كاتب عروج وخير الدين لنجدة أهل تلمسان. ينظر: الاستقصا- ج4 ص162.

57- أحمد توفيق المدني- نفسه- ص310وص329.

58- التنسي- المصدر نفسه- ص220إلى 227.

59 – ابن خلدون عبد الرحمن – التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا- تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- 1951- ص345.

إسهام العلماء الأندلسيين في الحركة العلمية بتلمسان خلال القرن السابع الهجري(13م).

أ.د عبد القادر بوباية*

مقدمة: بفضل الجهود التي بذلها أمراء وخلفاء بني أمية صارت العدوة الأندلسية بداية من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) قبلة لطلبة العلم، ومقصدا للعلماء الذين جاءوها من المشرق والمغرب، وساهموا في ازدهار الحركة العلمية بها، وقد استمر ذلك العطاء العلمي حيث بلغ أوجه على عهد ملوك الطوائف رغم التشرذم السياسي والتناحر المقيت ومدّ الأيدي للعدو النصراني، ولكنها لم تلبث أن فقدت هذه المكانة بعد أفول نجم ملوك الطوائف سنة 483هـ/1090م، وعلى الرغم من المساعدة التي قدمها المرابطون والموحدون من بعدهم فإن مسلمي الأندلس أصبحوا أكثر من أي وقت مضى عرضة لهجمات النصارى وبخاصة منذ استيلائهم على مدينة طليطلة سنة478هـ/1085م.

نتيجة لذلك كله اضطر سكان الأندلس عامة، وفي مقدمتهم العلماء إلى مغادرة بلادهم بحثا عن مستقر جديد يوفر لهم الأمن والدعم المادي من أجل مواصلة عطائهم العلمي، وكانت هجراتهم تلك نحو مختلف مدن بلاد المغرب، ومنها تلمسان التي صارت قبلة كثير من هؤلاء العلماء، وبخاصة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين.

إن هجرةِ هؤلاء العلماء سيكون له الأثر البالغ في وضع النواة لمركز علمي جديد سيضاهي بعد زمن يسير المراكز العلمية المتواجدة ببلاد المغرب الإسلامي، وبخاصة منها جامع القرويين المتواجد في مدينة فاس وجامع القيروان الوجود بإفريقية، كما أن استقرار هؤلاء العلماء في تلمسان سيضع البذور الأولى لحركة علمية ستتجسد من خلال بروز عديد العلماء التلمسانيين.

* - أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب والأندلس- قسم التاريخ- ومدير مخبر تاريخ الجزائر- جامعة وهران.

ومن خلال هذه المقالة المتواضعة سأعمل على إبراز أهم العوامل التي دفعت هؤلاء العلماء الأندلسيين إلى الهجرة نحو بلاد المغرب عامة، وتلمسان بصفة خاصة، كما سأتطرق إلى الجهود التي بذلها هؤلاء العلماء في تطوير الحركة العلمية فضلا على إيراد تراجم لأبرز العلماء الأندلسيين الذين استقروا في مدينة تلمسان.

عوامل هجرة العلماء الأندلسيين إلى تلمسان:

1- تدهور أوضاع المسلمين في العدوة الأندلسية: تعرّض المسلمون منذ سقوط مدينة طليطلة إلى هجمات النصارى التي ستأتي على ما بقي بأيدي المسلمين من حواضر وقرى، ونتيجة لذلك لم يبق في أيديهم إلا الجزء الجنوبي فقط، والذي سيفقدونه رغم المجهود الذي بذله المرابطون والموحدون حيث سيطر عليه النصارى، الذين استولوا على سرقسطة سنة 512هـ/1118م، والمرية وأشبونة سنة 542هـ/1147م)، وطرطوشة سنة 543هـ/1148م، وشنترين سنة 555هـ/1160م[1]، وازداد الأمر سوءا بعد هزيمة الموحدين في موقعة حصن العقاب سنة 609هـ/1212م، حيث سيطر النصارى على قرطبة سنة 633هـ/1236م، وبلنسية سنة 636هـ/1238م، ثم تلاها سقوط مدن شقر سنة 639هـ/1241م، وجيان سنة 643هـ/1245م، وشاطبة سنة 644هـ/1246م، وإشبيلية سنة 645هـ/1247م، ومرسية سنة 664هـ/1265م[2].

ونتيجة لذلك "بادر المسلمون بالجواز إلى العدوة من المراسي..."، ومنهم "أهل المرية إلى تلمسان"[3]، ولعلّ الذي دفعهم إلى ذلك ما ذكره ابن سعيد المغربي حين قال: "والأندلسيون يقولون كأنها من مدن الأندلس لمياهها وبساتينها وكثرة صنائعها"[4].

2- مكانة تلمسان العلمية: كانت مدينة تلمسان أحد المراكز العلمية على عهد الحكام الذين تعاقبوا عليها، ويؤكد ذلك جلّ الكتاب الذين وصفوا هذه المدينة في كتاباتهم، ومن ذلك ما جاء في كتاب المسالك والممالك الذي يقول مؤلفه: "ولم ترل تلمسان دارًا للعلماء والمحدثين، وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله[5]، ونفس الكلام يورده مؤلف كتاب الاستبصار الذي يقول: ومدينة تلمسان مدينة علم وخير، ولم تزل دار العلماء والمحدثين"[6].

3- عناية ملوك بني زيان بالعلم والعلماء: ازدادت أهمية تلمسان العلمية عقب قيام دولة بني عبد الواد، ويؤكد ذلك ابن خلدون حين يقول: "نزلها آل زيان، واتخذوها دارًا لملكهم، وكرسيا لسلطانهم، فاختطوا بها القصور المؤنقة والمنازل الحافلة، واغترسوا الرياض والبساتين،

وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب"، ونتيجة لذلك كله "رحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء، واشتهر فيها الأعلام، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية"[7].

ويضيف ابن خلدون في مكان آخر من مؤلفه قائلا: "ووفد عليه لأول دولته ابن وضاح إثر دولة الموحدين، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الأندلس، فآثره وقرّب مجلسه وأكرم نزله، وأحله من الخلة والشورى بمكان اصطفاه له"، ووفد في جملته أبو بكر بن الخطاب المبايع لأخيه بمرسية، وكان مرسلا بليغا، وكاتبا مجيدا، وشاعرًا محسنا؛ فاستكتبه وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوقل وحفظ"[8]، ويؤكد يحي ابن خلدون ما ذهب إليه أخوه حيث قال: "إن يغمراسن بن زيان كان "يؤثر الصالحين والعلماء، ويجالسهم كثيرا"[9].

وهو نفس الرأي الذي يذهب إليه أبو عبد الله التنسي حيث يقول: "وله في أهل العلم رغبة عالية، يبحث عليهم أين ما كانوا، ويستقدمهم إلى بلده، ويقابلهم بما هم أهله"[10]، ويضيف أيضا: "ولما اشتهر اعتناؤه بالعلم وأهله، وفد عليه من الأندلس خاتمة أهل الآداب، المبرّز في عصره على سائر الكتاب أبو بكر محمد بن عبد الله ابن داود بن خطاب؛ فأحسن نزله ومثواه، وقرّبه من بساط العزّ وأدناه، وجعله صاحب القلم الأعلى، ومقام ابن خطاب هذا في العلم شهير لا سيما الأدبيات، واستوفى التعريف به ابن رشيد قال: "وبوفاته انقرض علم الكتابة"[11].

نتيجة لهذه العوامل كلها هاجر العديد من العلماء الأندلسيين إلى مدينة تلمسان سواء من أجل اتخاذها كموطن دائم أو من أجل التدريس بها، واختارت الأغلبية الاستقرار بها نظرًا لما أحاطهم به حكام المدينة، وبخاصة ملوك بني زيان، من كرم ومكانة عالية فضلا، على الدعم المادي الذي وفر لهم ما كانوا في حاجة إليه من أجل مواصلة نشاطهم العلمي.

أبرز العلماء الأندلسيين بتلمسان ونشاطهم بها:

1- أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي: وهو محمد بن أبي زيد عبد الرحيم بن محمد بن أبي العيش الخزرجي، إشبيلي الأصل، روى ببلده عن أبي بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة، وأبي عبد الرحمن التجيبي وأبي عبد الله بن عبد الحق وأبي محمد بن حوط الله.

كان أديبا بارع الكتابة، شاعرًا مجيدًا، رائق الخط، ذا مشاركات في فنون العلم، مؤلفا متقنا، فسّر الكتاب العزيز، وشرح الأسماء الحسنى، وصنف عقائد أصولية في الدين، وكتبا في أصول الفقه، وله في التصويف نظم حسن كثير في الزهد وسبل الخير والوعظ، وتنزيه الباري سبحانه وتعالى، وتوفي بتلمسان[12].

2- أبو عبد الله الحلوي، الشيخ الولي أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي، نزيل تلمسان، ومن كبار العباد العارفين، حدث الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي المعروف بابن المرأة قال: "أتيت من مرسية زائرًا عمّة لي بتلمسان، وتطوفت يوما بتلمسان، فرأيت هذا الشيخ...، قال لي: بماذا تحترف؟ قلت: بالقراءة، قال: "أتريد أن تقرأ"؟ قلت: "نعم"، قال: إيتني إن شاء الله بالمسجد الذي بخندق عين الكسور من المنية التي بخارج باب القرمدين، وتقرأ ما تريد"، فخرجت إليه من الغد فوجدته جالسا بالمسجد لوعدي، فسلمت وجلست، فقال: ما الذي تريد قراءته؟ فقلت: ما ألهمك الله إليه، قال: اقرأ كتاب الله أولا فهو أحق أن يفتتح به، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم، وقرأت بسم الله الرحمن الرحيم، فتكلم في فضلها عشرة أيام، ثم قرأت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم شيئا من الأدب، قال المخبر: فكل ما تسمعونه من أدبي فمنه استفدت، وعنه أخذته في مدة حولين كاملين لم ينتقل فيها عما عهدته.

ومما ينسب إليه من النظم قوله:

إذا نطق الوجود أصاخ قـوم ... بآذان إلـــــى نطـق الوجود

وذاك النطق ليس لــه انعجام ... ولكن دق عــــن فهـم البليد

فكن فطنا تنـادى مـن قريب ... ولا تـك مـن ينادى مـن بعيد

وقيل إنه ولي القضاء بإشبيلية آخر دولة بني عبد المؤمن، ثم فرّ بنفسه منه، وآوى إلى تلمسان في زيّ المجانين[13].

3- أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي، من أهل مالقة، وسكن مرسية، يكنى أبا إسحاق، ويعرف بابن المرأة، روى عن أبي الحسن بن حنين وأبي الحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم، حدث بالموطأ عنهما، وكان فقيها حافظا للرأي مشاورًا.

كان أبو إسحاق مُتقدمًا في علم الكلام، حافظا ذاكرًا للحديث والتفسير والفقه والتاريخ وغير ذلك، وكان الكلام أغلب عليه، فصيح اللسان والقلم، ذاكرًا لكلام أهل التصوّف، يطرز مجالسه بأخبارهم، وكان بحرًا للجمهور بمالقة ومرسية، بارعا في ذلك، متفننا له، متقدما فيه، حسن الفهم لما يلقيه، له وثوب على التمثيل والتشبيه فيما يقرب للفهم، وكان صاحب حيل ونوادر مستظرفة، يلهي بها أصحابه ويؤنسهم.

مؤلفاته: منها شرحه كتاب الإرشاد لأبي المعالي، وكان يعلقه من حفظه من غير زيادة وامتداد، وشرح الأسماء الحسنى، وألف جزءًا في إجماع الفقهاء، وشرح محاسن المجالس لأبي العباس أحمد بن العريف، وألف غير ذلك، وتواليفه نافعة في أبوابها، حسنة الرصف والمباني، ولم يزل بمرسية يناظر عليه ويتحلق إليه إلى أن توفي بها في صدر سنة 611هـ/1214م[14].

تجول أحيانا، ودرس في غير ما بلد، وكانت العامة حزبه[15]، ومن بين المدن التي زارها تلمسان، ويؤكد ذلك يحي ابن خلدون حيث يذكر أنه التقى بأبي عبد الله الحلوي وأخذ عنه، ويضيف أنه" كان يدرس كتاب الطهارة من المدونة بالجامع"[16].

4- أبو بكر بن خطاب الغافقي المرسي: وهو محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي أبو بكر، نزيل تلمسان، من أهل مرسية، روى عن أبي بكر بن جهور وأبي بكر بن محرز وأبي بكر الغافقي وأبي علي الحسن بن عبد الرحمن الرفاء وأبي عيسى محمد بن محمد ابن أبي السداد وأبي المطرف بن عميرة وغيرهم، وأجازه أبو الربيع ابن سالم[17].

كان ابن خطاب كاتبا بارعا، وشاعرًا مجيدًا، كما كانت له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام وغير ذلك مع نباهة وحسن فهم، ذو فضل وتعقل وحسن سمت، وقد ورد على غرناطة، واستعمل في الكتابة السلطانية مدة، وكان معلوم القدر، معظما عند الكافة، ثم رجع إلى مرسية، وقد ساءت أحوالها فأقام بها مدة، ثم انفصل عنها، وقد اشتدت أحوالها، واستقر في نهاية المطاف بمدينة بتلمسان كاتبا عن سلطانها أبي يحي يغمراسن بن زيان.

روى عن القاضيين أبي السداد وأبي بكر بن محرز وعن الأستاذ أبي بكر محمد بن محمد المعروف بالقرشي، وقرأ وسمع على هؤلاء ببلده، وأجاز له كتابه أبو الربيع بن سالم وغيره، ومن شعره قوله:

اقنـــع بـــما أوتيته تنـــل الغنى　　وإذا دهـــتـــك ملمـــة فتصبـــر

واعلم بـــأن الرزق مقسوم فلو رمنـــا زيـــادة ذرة لـــم نقـــدر

والله أرحـــم بالعباد فـــلا تسل أحدا تعش عيش الكرام وتؤجر

وإذا سخطت لبؤس حالك مرة ورأيت نفسك قد غوت فلتصبر

وانظر إلى من كان دونك تذكر لعظيـــم نعمته عليك وتشكـــر[18]

بعد هذه الحياة الحافلة بالعطاء العلمي والمشاركة في تسيير الحكم من خلال خطة الكتابة توفي ابن خطاب في مدينة تلمسان يوم عاشوراء سنة 686هـــ/1287م[19].

5- محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التجيبي، يكنى أبا عبد الله، من أهل لقنت عمل مرسية[20]، بينما يقول ابن القاضي وغيره إنه من أهل إشبيلية[21]، أخذ القراءات بمرسية عن أبي أحمد محمد بن معطى التجيبي وأبي الحجاج يوسف بن إبراهيم الثغري وأبي عبد الله بن الفرس وسمع منهم، ومن أبي محمد بن عبد الله وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي وأبي جعفر بن مضاء وأبي عبد الله بن الفخار وأبي زيد السهيلي وغيرهم.

رحل إلى المشرق فأدى الفريضة، وأطال الإقامة هنالك، واستوسع في الرواية، وكتب العلم عن جماعة كثيرة زادت عن مائة وثلاثين من العلماء، ومنهم أبو طاهر السلفي الذي صحبه واختص به، كما عن حماد بن هبة الله الحراني وعبد الرحمن بن محمد بن منصور الحضرمي وأبي الرخاء أحمد بن طارق بن سنان وأبي محمد بن بري وأبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي وشهدة بنت أحمد بن أبي الفرج، وغيرهم.

وحكى أنه لما ودع شيخه أبي طاهر سأله عما كتب عنه فأخبره أنه كتب كثيرًا من الأسفار ومئين من الأجزاء فسر بذلك، وقال له: "تكون مُحدِّث المغرب إن شاء الله، قد جمع في أسمائهم على حروف المعجم تأليفا مفيدا أكثر فيه من الآثار والحكايات والأخبار.

وقفل من رحلته الحافلة هذه فأخذ عنه في سبتة سنة 594هـــ/1197م، ثم نزل تلمسان واتخذها وطنا، وحدّث بها وألف، ورحل الناس إليه، وسمعوا منه كثيرًا، وكان حافظا للحديث، محافظا على إسماعه، عدلا خيارًا، مُقيدًا لما روى، مُفيدًا بما جمع.

نظرًا لعلو روايته وتشاهر عدالته روى عنه جماعة، ومنهم أبو العباس بن العزفي وأبو عبد الله الأزدي وأبو عبد الله بن جعفر بن فرتون الذي ذكره في كتابه، وابن الأبّار القضاعي الذي كتب إليه بإجازة ما رواه وألفه في العشر الأواخر من رمضان سنة ثمان وستمائة.

مؤلفاته: برنامجه الأكبر، وبرنامجه الأصغر، ومعجم شيوخه في مجلد كبير، والأربعون حديثا في المواعظ، والأربعون في الفقر وفضله، وأربعون في الحب في الله، وأربعون في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ومسلسلاته في جزء، وكتاب فضائل الشهور الثلاثة رجب وشعبان ورمضان، وكتاب فضل العشر من ذي الحجة، وكتاب مناقب الحسن والحسين، وكتاب الفوائد الكبرى في مجلد، والفوائد الصغرى، وكتاب الترغيب في الجهاد، خمسون بابا في مجلد، وكتاب المواعظ والرقائق سفران، وكتاب في مناقب شيخه أبي طاهر السلفي وفهرسة.

ولد في لقنت في نحو الأربعين وخمسمائة، وتوفي بتلمسان في جمادى الأولى سنة عشرة وستمائة/1213م[22].

6- أبو الحجّاج يوسف بن علي بن محمد بن عبد الرزاق الأشعري: من أهل الأنجرون من بشرة غرناطة، أصولي، أديب بليغ، روى عن أبي جعفر بن حكم الزاهد وأبي زكرياء الأصبهاني وأبي الحجاج بن الشيخ وغيرهم، مولده في أخريات ذي قعدة سنة 577هـ(1181م)، وتوفي في عشر الأربعين وستمائة بمدينة تلمسان، روى عنه أبو علي بن أبي الأحوص وأبو عبد الله الطنجالي وذكراه[23].

7- أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن شلوط المعروف بالشباريّ، من أهل بلنسية، له رحلة حج فيها، وسمع بمكة من أبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي وأبي محمد المبارك بن الطباخ، ثم قفل إلى المغرب فسكن تلمسان مدة، وأخذ عنه هنالك، وتحوّل بعدها إلى بلده أين روى عنه أبو عبد الله بن الآبار، وكان مُحدثا عدلا خيارا، مُحترفا بالطب ماهرًا فيه، وتوفي في نحو العشر وستمائة[24].

8- أبو الحسن طاهر بن علي بن محمد بن عبد الرحمن السلمي: من جزيرة شقر، وسكن مرسية ثم تلمسان، تلا بحرف نافع على أبي بكر بن أبي القاسم محمد بن وضاح، وروى عنه، وعن أبي الحجاج بن محمد بن طملوس وتفقه به، وأبي الحسن ابن عمر بن أبي الفتح وتفقه به، وأبي الحسن ابن حريق وتأدب به، وأبي الحسن ابن قطرال وأكثر عنه وأجاز له، وأبي الخطاب ابن واجب وأبي الربيع بن سالم، وأكثر عنه وأجاز له، وأبي زكرياء بن أبي يحي أبو بكر بن عصفور العبدري التلمساني ولقيه بها، وأبي عبد الله بن يحي بن داود التادلي، ولازمه في النحو والأدب، وأبي العباس بن علي بن مطرّف، وأبي محمد ابن باديس وأبي محمد عبد الحق بن محمد

الزهري، وأبي المطرّف بن عميرة وانتفع به كثيرًا في الطريقة الأدبية، وأجاز له أبو الحسن ابن خيرة سنن أبي داود وشهاب القضاعي.

أجاز له ولم يلقه أبو الحسن ابن محمد ابن القطان، وأبو الحسن محمد بن محمد بن زرقون، وأبو العباس بن محمد العزفي، وأبو علي عمر بن محمد ابن الشلوبين، وأبو مروان محمد بن أحمد الباجي وسماه عبد الملك وهما.

روى عنه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عيسى الحسني الذي لقاه بتلمسان، وكان ذا حظ من النظم والنثر، شديد العناية بتقييد الأشعار والرسائل، وله فيها مصنفات، وكتب بخطه الكثير في كل فن، وشهر بسرعة الكتب[25].

9- أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عياش التجيبي: سكن مراكش وهو من برشانة، وسكن قبلها سرقسطة، أخذ عن أبيه وأبي الخطاب أحمد بن أبي الحسن محمد بن واجب وأبي القاسم أحمد بن يزيد بن بقي، وكانت له عناية تامة بالأدب، وكتب عن المستنصر أبي يعقوب يوسف بن الناصر أبي عبد الله من آل عبد المؤمن والمأمون فمن بينهما، وكان كاتبًا مُحسنًا بارع الخط، رائق الطريقة فيه، نفّاعًا لأصحابه وذوي معرفته بجاهه وماله، كان منزله مألفا لطلبة العلم يأوون إليه، وقد استقضي بسبتة وبتلمسان، ومن المؤكد أنه قد درّس في هذه الأخيرة كما فعل في بلده، وتوفي متلبسا بالكتابة عن المأمون، وقيل توفي بسبتة قاضيا له في محرم سنة 629هـ(1231م)[26].

10- محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة: من أهل إشبيلية، يكنى أبا بكر وأبا عبد الله، أخذ القراءات عن أبي الحسن شريح بن محمد، وأبي العباس بن حرب وسمع منهما، ومن أبي بكر بن العربي وأبي بكر بن مدير بن رزق، وأجازوا له هم أو منهم، وأبو طاهر السلفي، ولم يسمع من شريح إلا موطأ مالك رواية يحي بن يحي، وصحيح البخاري رواية أبي ذر خاصة.

روى عنه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز بن أحمد الهواري، وأبو زكرياء يحي بن عصفور، وأبو العباس بن المرّي، وأبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي.

كان مجودا للقرآن، محدثا ضابطا، عالي الرواية، نزل تلمسان وعمّر بها، وأخذ عنه الناس حتى عمّر وأسنّ، وحكى أبو العباس بن المُزيّن أنه لقيه بتلمسان في شهر ربيع الآخر سنة ستمائة (1203م)، ويقول ابن الآبار: إنه "توفي سنة ستمائة"[27].

11- عبد العزيز بن يوسف بن عبد العزيز بن يوسف ين إبراهيم بن فيرة بن عمر اللخمي: من أهل مرسية، وسكن تلمسان، وأصله من أندة، يُعرف بابن الدبّاغ، ويكنى أبا الأصبغ.

شيوخه: روى عن أبيه القاضي الإمام المحدث الحافظ أبي الوليد يوسف، وعن جدّه لأمه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن وضاح القيسي، وسمع صحيح مسلم من أبي عبد الرحمن مساعد بن أحمد الأصبحي، وأجاز له أبو عامر بن حبيب وأبو عبد الله ابن الحاج الشهيد وأبو الحسن شريح بن محمد وأبو بكر بن العربي ويونس بن مغيث وأبو القاسم بن بقي وغيرهم، وشيوخه أزيد من خمسين.

لم يكن الحديث شأنه، أجاز لأبي محمد عبد الله بن الحسن القرطبي الحافظ سنة 598هـ(1201م)، أجاز له في التاريخ، وحدث عنه أبو القاسم الملاحي وأبو العباس بن المزين الذي لقيه بتلمسان سنة600هـ(1203م)، وقد نيف على السبعين[28]، وكانت وفاته سنة 602هـ(1205م)[29].

الخاتمة: من خلال كل ما سبق ذكره يتبين لنا الدور الكبير الذي قام به العلماء الأندلسيين في النهضة العلمية التي شهدتها مدينة تلمسان خلال هذا القرن، والقرون التي ستليه حيث كانوا واضعي البذور التي ستنتج تلك الحركة العلمية المتميزة التي شهدها المغرب الأوسط عامة، ومدينة تلمسان بصفة خاصة.

لقد قدّم هؤلاء العلماء جلّ خبراتهم ورصيدهم العلمي في سبيل خدمة تلمسان باعتبارها إحدى مراكز العلم والثقافة في المغرب الإسلامي، وبذلك فقد عوّضوا ما فقدته الأندلس، وواصلوا عطاءهم العلمي نتيجة لتوفير حكام تلمسان سواء في العهد الموحدي أو العهد الزياني للشروط التي تسمح للعلماء بالإبداع والتأليف فضلا على تقديم العلم للطلبة المتعطشين إليه.

تجسّد العمل الكبير الذي قدّمه هؤلاء العلماء الأندلسيين وغيرهم في الازدهار الذي شهدته الحركة العلمية بتلمسان خلال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، والذي سيُجسِّده إنشاء المدارس الخمسة[30] التي ستتولى تبليغ العلم إلى طلبة العلم الذين أموا تلمسان من مختلف الأصقاع.

الهوامش:

1- عبد الرحمن علي الحجي- التاريخ الأندلسي- دار القلم- دمشق- ط4- 1415ه- 1994م- صص440 وما بعدها.
2- أبو العباس المقري- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب- تحقيق يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1415هـ- 1995م- ج6 ص219 وما بعدها/عبد الرحمن علي الحجي- التاريخ الأندلسي- صص472-482.
3- مجهول- كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر- تحقيق ألفريد البستاني- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- ط1- 1423هـ-2002م- ص48.
4- ابن سعيد المغربي -كتاب الجغرافيا- تحقيق إسماعيل العربي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر-1982م- ص 140.
5- البكري أبو عبيد- المسالك والممالك- تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري- بيت الحكمة- قرطاج- الدار العربية للكتاب- تونس- 1992م- ج2 ص746.
6- مجهول- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار- تحقيق سعد زغلول عبد الحميد- دار النشر المغربية- الدار البيضاء- 1985م -ص177.
7- ابن خلدون عبد الرحمن- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- بيت الأفكار الدولية- الأردن-د.ت- ص1845.
8- ابن خلدون- العبر- ص1846.
9- يحي ابن خلدون- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- تحقيق عبد الحميد حاجيات- المكتبة الوطنية- الجزائر- 1400ه- 1980م- ج1 ص204.
10- محمد بن عبد الله التنسي- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان- تحقيق محمود بوعياد- إصدارات المكتبة الوطنية- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر-1405ه- 1985م-ص126.
11- التنسي- تاريخ بني زيان- ص127- 128.
12- بغية الرواد- ص103-104/أبو القاسم محمد الحفناوي- تعريف الخلف برجال السلف- سلسلة الأنيس- موفم للنشر- الجزائر-1991م- ص 168- 169.
13- بغية الرواد- ص127-128/ابن مريم المليتي المديوني- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر-1986م- ص68-70.
14- ابن الخطيب لسان الدين- الإحاطة في أخبار غرناطة- تحقيق يوسف علي طويل- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1424هـ-2003م-ج1ص168/ابن فرحون المالكي- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب- دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1-1417هـ-1996 م- ص147/أحمد ابن القاضي المكناسي- جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس- دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط-1973م- ج1 ص90/ابن الأبار- التكملة لكتاب الصلة- ج1ص140.
15- ابن الأبار القضاعي- التكملة لكتاب الصلة- تحقيق عبد السلام الهراس- دار الفكر- بيروت-1415هـ-1995م- ج1 ص140.
16- ابن خلدون- بغية الرواد- ص128.
17- نفسه- ص129.

18- ابن الخطيب- الإحاطة- ج2ص295/بغية الرواد- ص129.

19- الإحاطة- ج2 ص299.

20- ابن الأبار القضاعي- التكملة لكتاب الصلة- ج2 ص 102.

21- ابن القاضي المكناسي- جذوة الاقتباس- ج1 ص276/المقري- نفح الطيب- ج3 ص136.

22- ابن الأبار القضاعي- التكملة لكتاب الصلة- ج2 صص102-104/ ابن القاضي- جذوة الاقتباس- ج1ص276-277/محمد بن محمد مخلوف- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية- تحقيق عبد المجيد خيالي-دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1424هـ-2003م- ج1 ص248.

23- ابن الزبير الثقفي الغرناطي- كتاب صلة الصلة- تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب- منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- الرباط- 1413هـ- 1993م- ق5ص 291-292.

24- ابن الآبار- التكملة لكتاب الصلة- ج3 ص227/أبو عبد الله بن عبد الملك- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة- تحقيق إحسان عباس- دار الثقافة- بيروت- د.ت- السفر الخامس- ق1 ص413.

25- أبو عبد الله بن عبد الملك- الذيل والتكملة- السفر الرابع- ص155- 156.

26- ابن الأبار- التكملة لكتاب الصلة- ج1 ص105/أبو عبد الله بن عبد الملك- الذيل والتكملة- السفر الأول- ق2 ص464-465.

27- التكملة لكتاب الصلة- ج2 ص86/ يحي بن خلدون- بغية الرواد- ص129.

28- التكملة- ج3 ص96- 97/ ابن الزبير- صلة الصلة- ق3 ص253.

29- عبد الحميد حاجيات- الحياة الفكرية في الجزائر في عهد المرابطين والموحدين- الجزائر في التاريخ-3- العهد الإسلامي- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر-1984م- ص342.

30- أول مدرسة أسست بتلمسان هي التي بناها أبو حمو موسى الأول، ثم بنى ابنه أبو تاشفين الأول المدرسة التاشفينية بجانب الجامع الأعظم، وبنى أبو الحسن المريني مدرسة بقرية العباد سنة 748هـ(1347م)، وأنشأ ابنه عنان مدرسة أخرى بجانب مسجد الولي الصالح أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي سنة 754هـ(1353م)، وأسس أبو حمو موسى الثاني المدرسة اليعقوبية سنة 765هـ(1363م). عبد الحميد حاجيات- الحياة الفكرية بالجزائر في عهد بني زيان- نفس المرجع- ص438.

إفراد المحدثين من كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" لابن مريم الشريف التلمساني.

د. يونس قدوري الكبيسي*

المقدمة: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله الأطهار، وصحابته الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد وقع اختياري على هذا العنوان؛ وذلك بعدما تصفحت كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" للشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف التلمساني؛ فقد مررت على مجموعة كثيرة من العلماء المحدثين الذين ترجم لهم ابن مريم، فأردت أن أفردهم رغبة مني بخدمة محدثي تلمسان؛ وإبراز مكانة تلمسان ودورها في خدمة الحديث النبوي الشريف؛ وكذا الإشارة إلى أن كثير من الأولياء هم ممن اشتغلوا في علم الحديث النبوي وخدمته.

وقد قمت بإخراج التراجم الذين صرّح المؤلف بأنهم محدثون، أو الذين أشار أنهم تناولوا أحد كتب الحديث النبوي قراءة أو سماعا ونحو ذلك، ورتبتهم على حسب ترتيب صاحب كتاب البستان؛ على حروف الهجاء، وقد بلغ عددهم (47) ترجمةً.

وقد التزمت بذكر اسم صاحب الترجمة ونسبه وكنيته أو لقبه كما ورد في كتاب البستان، ثم أنتقل إلى وصفه وتخصصه، وغالبا أركز على انتقاء ذكر الألفاظ التي تؤكد أو تشير إلى ما يثبت أنه كان من أهل الحديث أو ممن سمع أو قرأ أحد كتب الحديث؛ وإذا كان له تأليف

*-رئيس شعبة الدراسات والنشر وسكرتير مجلة "آفاق الثقافة والتراث"- مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث- دبي.

في الحديث ومتعلقاته ذكرته غالبا؛ وكل هذه المعلومات مستقاة من كتاب البستان؛ وأختم الترجمة بذكر وفاته كما جاءت في "البستان".

وقد قمت بتوثيق هذه التراجم من بعض المصادر التي عنيت بهذه الطبقة؛ مثل: الضوء اللامع للسخاوي، ونيل الإبتهاج للتنبكتي، وشجرة النور الزكية لمخلوف وغيرها، وقد قدمت في الهامش ذكر كتاب البستان على غيره؛ وذلك لأن جميع المعلومات الواردة في الأصل مستقاة منه.

أما ما يتعلق بعدد جميع التراجم الواردة في كتاب البستان؛ فقد اعتمدت في عملي هذا على طبعة "ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر لسنة 1987م" والذي اعتنى بها وقدم لها الأخ عبد الرحمن طالب، بجامعة وهران بالجزائر، وقد ذكر في تقدمته للكتاب[1] فقال: ترجم العلامة ابن مريم في "البستان" لأثنين وثمانين ومائة عالم وولي ولدوا بتلمسان أو عاشوا بها.. أهــ. !!

كما ذكر الحفناوي أيضا في كتابه تعريف الخلف برجال السلف[2] بترجمته لابن مريم فقال: وجملة العلماء الذين ترجم لهم في "بستانه" رضي الله عنه نحو مئة واثنين وخمسين عالما. أهــ.!! ثم سرد أسمائهم جميعا وسني وفياقم كما جاء في البستان.

قلت: وقد أحصيتهم في مواضعهم في كتاب تعريف الخلف فوجدتهم (151) ترجمة. كما قمت في إحصاء التراجم في كتاب البستان بالطبعة المذكورة فوجدتها (177) ترجمة؛ وهذا هو الصواب في عددهم والله أعلم.

وفيما يلي تراجم المحدثين الذين أفردتهم من كتاب "البستان" وهم:

1- سيدي أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق[3].

الشيخ الإمام العالم الفقيه المحدث... له تعليق لطيف على البخاري في نحو عشرين كراسا؛ اقتصر فيه غالبا على ضبط الألفاظ وتفسيرها للمحصلين لرياضة العلم والعمل، وله جزء صغير في علم الحديث في ورقتين مختصرا حسنا، توفي سنة 899هــ.

2- إبراهيم بن محمد بن علي اللنتي التازي نزيل وهران الشيخ أبو سالم وأبو إسحاق[4].

وقد أخذ بمكة عن كبير محدثيها قاضي قضاة المالكية سيدي الريف تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي، قرأ عليه كثيرا من الحديث والرقائق وأجازه، وكذا أخذ من علماء المدينة المنورة وتونس وغيرها، توفي سنة 866هــ.

3- سيدي جعفر بن أبي يحيى أبو أحمد الأندلسي[5].

قال القلصادي في رحلته هو شيخنا وبركتنا الفقيه الإمام العالم الخطيب الكبير الشهير له اعتناء بحفظ الفروع والفرائض والعدد ومشاركة في علم الحديث والقراءات والعربية.

4- سيدي الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد المزيلي الراشدي، أبو علي الشهير بأبركان[6].

الشيخ العالم القطب الغوث الشهير، أخذ عن الإمام ابن مرزوق الحفيد، والحافظ التنسي وغيرهم، قال أحد تلاميذه: دخل علينا السلطان أحمد يوما في شهر رمضان وأنا أقرأ صحيح مسلم على الشيخ فأردت أن أقوم فزجرني الشيخ وصاح عليّ لا تقطع الحديث، ومكث الشيخ جالسا في موضعه، فمشى السلطان إليه حتى قبل يده، وجلس بإزائه ولم يكلمه الشيخ حتى فرغنا من معتادنا في القراءة وقد مكثنا في ذلك بعد جلوسه... توفي آخر شوال سنة 857هـ.

5- سيدي خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المعروف بالجندي ضياء الدين أبو المودة[7].

ذكره ابن فرحون في الديباج وقال إنه جامعا بين العلم والعمل مقبلا على نشر العلم والعمل واجتمعت به في القاهرة وحضرت مجلس أقرانه الفقه والحديث والعربية كان صدرا في علماء القاهرة، مجمعا على فضله وديانته... ثاقب الذهن أصيل البحث... فاضلا في مذهبه صحيح النقل نفع الله به المسلمين. ذكر ابن حجر أن وفاته في ربيع الأول سنة 767هـ.

6- سيدي سعيد بن أحمد بن أبي يحيى بن عبد الرحمن بن بلعيش المقري[8]، فقيه تلمسان وعالمها ومفتيها وخطيبها بالجامع الأعظم خمسا وأربعين سنة، وهو حفيد حفيدة سيدي محمد ابن مرزوق، له باع في حديث البخاري وغيره. كان حيا سنة 1011هـ.

7- سيدي سعيد بن محمد بن محمد العقباني التلمساني. قال ابن فرحون: فقيه في مذهب مالك[9]، قرأ الفرائض على الحافظ السطي وروى البخاري والمدونة عن السلطان أبي عنان المريني عن عز الدين بن جماعة وغيره ولي قضاء بجاية وتلمسان وسلا ومراكش. توفي سنة 811هـ.

8- سيدي شعيب بن الحسن الأندلسي[10]، كان من أعلام العلماء وحفاظ الحديث خصوصا جامع الترمذي كان قائما عليه ورواه عن شيوخه عن أبي ذر... وتخرج عليه جماعة

كثيرة من العلماء والمحدثين..وتعرف في عرفة بالشيخ عبد القادر الجيلاني فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من الحديث..توفي سنة 594هـ.

9- سيدي شقرون بن محمد بن أحمد بن أبي جمعة المغراوي[11]، المقرئ الحافظ الضابط الفيقه. توفي سنة 929هـ.

10- سيدي عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف الحسني التلمساني[12]، المحقق الحافظ المتقن. قرأ على الخطيب بن مرزوق جملة صالحة من البخاري، وقرأ على القاضي أبي العباس أحمد بن الحسن موطأ الإمام مالك، وقد سمع من أبيه العلامة المشهور أكثر الصحيحين رواية عن شيخه بطر الحجازي وغيره وكثيرا من الأحكام الصغرى لعبد الحق. توفي سنة 792هـ.

11- سيدي عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم المجاصي الشهير بالبكاء[13]، أخذ عنه ابن مرزوق الجد ونقل عنه في مواضع من كتبه. وقال أحد تلاميذه دخلت عليه يوما مع الفقيه أبي عبد الله السطي في أيام عيد فقدم لنا طعاما، فقلت له تأكل معنا نرجو بذلك ما يذكر من حديث من أكل مع مغفورا له، غفر له، فتبسم وقال لي دخلت على سيدي علي الفاسي بالإسكندرية، فقدم لنا طعاما فسألته عن هذا الحديث فقال لي دخل علي شرف الدين الدمياطي فقدم لي طعاما فسألته عن الحديث فقال لي وقع في نفسي منه شيء فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فسألته فقال لم أقله، وأرجو أن يكون كذلك. انتهى. قلت والحديث لا أصل له في المرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم.

12- سيدي عبدالرحمن بن محمد بن عبد الله ابن الإمام أبو زيد[14]، هو الإمام العالم الشهير هو وأخوه أبو موسى عيسى، سمعا صحيح البخاري على الحجار قال المقري وقد سمعته أنا عليهما وناظرا تقي الدين بن تيمية. مات سنة 749هـ.

13- سيدي عبدالرحمن بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني المشهور بأبي يحيى[15]، قال في حقه الإمام ابن مرزوق الحفيد وهو سيدنا الشريف العلامة انتهى. سمع من الشيخ أبي القاسم بن رضوان صحيح مسلم الشفاء لعياض. توفي سنة 826هـ.

14- سيدي عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن موسى، كان علامة في الفقه وعلم الحديث والنحو وعروض الشعر... توفي سنة 1011هـ[16].

15- علي بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي: صاحب التواليف الكثيرة، منها شرح الأنوار السنية في الحديث لابن جزي... ودرس على ابن مرزوق التفسير والحديث والفقه، مات سنة 891هـ[17].

16- قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني الإمام أبو الفضل وأبو القاسم: الحافظ المجتهد المعمر انفرد بفني المعقول والمنقول، وكان قد ارتحل للحج في سنة 830 وحضر بمصر إملاء ابن حجر واستجاز ابن حجر فأجازه، مات سنة 854هـ، ودفن قرب الشيخ ابن مرزوق[18].

17- قاسم بن عيسى ابن ناجي، أبو الفضل وأبو القاسم: شارح المدونة والرسالة، الحافظ البارع... توفي سنة 837هـ[19].

18- أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن المعتل البلوي القيرواني الشهير بالبُرزُلي: نزيل تونس ومفتيها وفقيهها وحافظها.. قال في إجازته لابن مرزوق الحفيد: وممن أخذت عنه الشيخ الفقيه الرحالة الراوية المحدث أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب، قرأت عليه شيئا من الصحيحين.. وكذا ابن عرفة فقد قرأت عليه ما تنيف على الثلاثين سنة قرأت عليه بعض مسلم وسمعت عليه جميعه وجميع البخاري والموطأ ومن لفظه، توفي سنة 842هـ، وقيل سنة 844هـ[20].

19- سيدي محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن القرشي التلمساني الشهير بالمقري: قال ابن الخطيب في تاريخ غرناطة: كان مشارا إليه اجتهادا ودءوبا وحفظا وعناية واطلاعا ونقلا ونزاهة...ويحفظ الحديث والأخبار والتاريخ، توفي سنة 758هـ[21].

20- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن علي بن محمد بن القاسم بن حمود بن علي بن عبد الله بن ميمون بن عمر بن أدريس بن أديس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال ابن مرزوق الحفيد هو شيخ شويخنا أعلم أهل عصره بإجماع، وقال ابن خلدون هو صاحبنا الإمام الفذ فارس المعقول والمنقول، صاحب الفروع والأصول، أبو عبد الله الشريف ويعرف بالعلوي، توفي سنة 771هـ[22].

21- محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن مرزوق الخطيب: شمس الدين المشهور بالجد وبالخطيب شارح الشفاء والعمدة في الحديث، ذكره ابن فرحون في الديباج وأثنى عليه، توفي 781هـ[23].

22- محمد بن محمد بن عرفة الورغمي من القصبات التونسي: إمامها وعالمها وخطيبها، المبعوث على رأس المائة الثامنة حسبما ذكره السيوطي في نظمه عرّف به في الديباج وأثنى عليه، وقال تلميذه الحافظ ابن حجر في أنباء الغمر هو شيخ الإسلام بالمغرب سمع من ابن عبد السلام وابن سلامة... وقال الزيدوني: قرءنا عليه جميع صحيح البخاري من أوله إلى آخره، توفي سنة803هـ[24].

23- محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر ابن مرزوق الحفيد العجيسي التلمساني: الحافظ المحقق الثقة الثبت، الفقيه المفسر الأصولي المحدث الحافظ المسند الراوية.. قال تلميذه الإمام أبو زيد الثعالبي وقدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله ابن مرزوق وأخذت عنه كثيرا وهو الإمام العالم الصدر الكبير المحدث الثقة المحقق بقية المحدثين وإمام الحفاظ الأقدمين والمحدثين سيد وقته وإمام عصره... توفي سنة 842هـ[25].

24- سيدي محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة الإشبيلي: الفقيه المحقق، أخذ العلم عن أبي الحسن شريح وأبي العباس بن حرب المسيلي وأبي بكر بن العربي، كان مجودا للقرآن ضابطا محدثا ناقدا عالي الرواية، نزل تلمسان وعمّر بها، وتوفي سنة 600هـ[26].

25- سيدي محمد بن قاسم بن تونزت التلمساني: قال تلميذه السنوسي: كان شيخنا صالحا عالما بالمنقول والمعقول والنحو[27].

26- سيدي محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب الإمام السنوسي: وقد قرأ عليه الصحيحين وغيرهما الإمام أبو زيد الثعالبي، وقد شرح مشكلات البخاري في كراسين ومختصر الزركشي على البخاري... وكان لا يتحدث في علم إلا ظن سامعه أنه لا يحسن غيره... ولا يقرئ في علوم الظاهر إلا خرج منها إلى علوم الآخرة لاسيما التفسير والحديث لكثرة مراقبته وخوفه لله تعالى. توفي سنة 895هـ[28].

27- سيدي محمد بن محمد بن أحمد ابن الخطيب الشهير محمد بن أحمد بن محمد بن محمد ابن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني عرف بالكفيف: قال أحمد بن داود البلوي: هو شيخنا الإمام ... المسند الراوية، المحدث العلامة المتقن القدورة.. وقد أجازه الحافظ ابن حجر العسقلاني مكاتبة مع أولاد ابن مرزوق عام تسعة وعشرين وثمانمائة. توفي سنة 901هـ[29].

28- سيدي محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني: له شروح وحواشي كثيرة على الكتب، وله تواليف منها في المنهيات ومختصر تلخيص المفتاح وشرحه ومفتاح النظر في علم الحديث فيه أبحاث مع النووي في التقريب ... توفي سنة 909هـ[30].

29- سيدي محمد بن أحمد بن محمد بن أبي يحيى بن أحمد بن الخطيب الشهير ابن مرزوق: وهو العالم الآخذ من كل فن بأوفر نصيب الحائز قصب السبق في ذلك وخصوصا علم الحديث... وقال: قرأت على ابن السيدة حفصة بنت محمد ابن مرزوق الحفيد صحيح البخاري، وسمعت عليه أيضا جملة الصحيحين...، كان حيا سنة 918هـ[31].

30- سيدي محمد بن أبي مدين التلمساني: قال أبو عبد الله بن العباس فيه: الحائز على قصب السبق في المنقول والمعقول.. وسمعت عليه دولا من البخاري... توفي سنة 915هـ[32].

31- سيدي محمد بن عبد الرحمن بن جلال الوعزاني التلمساني: قال أحمد المنجور كان فقيها علامة مشاركا في كل فن موحدا مفتيا خطيبا استفدت منه في العقائد والفقه والحديث...مات سنة 981هـ[33].

32- سيدي محمد ابن العباس الصغير حفيد الشيخ ابن العباس الكبير العبادي التلمساني: أخذ عن الولي الصالح سيدي علي بن يحيى السلكسيني الجاديري مختصر ابن الحاجب الفرعي ورسالة ابن أبي زيد وألفية ابن مالك والفرائض، وغير ذلك من أحاديث البخاري وغيره...، توفي سنة 1011هـ[34].

33- سيدي محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني أبو عبد الله: رحل إلى مكناسة لزيارة الصالح عبد الله بن حمد وأصابه الطاعون وهو يقرأ البخاري في مكناسة عند خزانة الكتب سنة 818هـ[35].

34- سيدي محمد بن محمد بن عيسى البطيوي نسبا التلمساني دارا: الولي الصالح الفقيه المحدث...وكان فقيها في علم الحديث وفي علم التصوف..كان عارفا بالبخاري يقرأه للناس في الجامع الأعظم...توفي بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع[36].

35- سيدي محمد بن عيّاد الكبير الراشدي العمراني الشريف: كان شاعرا ماهرا في الشعر وعلم الحديث، وكان يقرأ الحديث أولا على الشيخ سيدي محمد أبي السادات، توفي سنة 964هـ[37].

36- سيدي محمد بن يحيى بن موسى المغراوي التلمساني: وقد أخذ عن الإمام السنوسي المنقول والعقول، وكان لا يقرئ علو الظاهر إلا خرج منه لعلوم الآخرة لاسيما التفسير والحديث لكثرة مراقبته وخوفه لله تعالى[38].

37- سيدي محمد بن عبد الله المديوني: الفقيه العالم المحدث. مات بعد الستين وتسعمائة[39].

38- سيدي محمد بن عَبّو الورنيدي العبد السلامي: الفقيه العالم المحدث النحوي...، توفي بعد السبعين وتسعمائة[40].

39- سيدي محمد بن محمد بن الشرقي: الفقيه العالم المفتي الخطيب المسند الراوية المحدث...، توفي سنة 964هـ[41].

40- محمد بن قاسم أبو عبد الله الأنصاري ثم التونسي عرف بالرصاع: قاضي الجماعة بها الفقيه العالم الصالح، قال السخاوي: ولي رحمه الله قضاء المحلة ثم الأنكحة ثم الجماعة، ثم صرف نفسه في كائنة المريني، واقتصر على إمامة جامع الزيتونة وخطابتها، متصدرا للإفتاء والإقراء في الفقه وأصول الدين والعربية والمنطق وغيرها، وجمع شرحا في الأسماء النبوية وآخر في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم..، واختصر شرح البخاري لابن حجر، مات سنة 894هـ[42].

41- سيدي محمد عاشور بن علي بن يحيى السلكسيني الجادري التلمساني: له باع في الفقه والتصوف والحديث.. توفي سنة 1014هـ[43].

42- سيدي محمد بن عبد الرحمن الكفيف السويدي: الفقيه في الحديث والفروع والتوحيد...توفي حدود سنة 945هـ[44].

43- سيدي محمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالأدغم السويدي: كان فقيها صوفيا محدثا عروضيا نحويا...، توفي رحمه الله حدود الثمانين وتسعمائة[45].

44- سيدي محمد بن علي بن رَحّو الركوطي: كان فقيها صوفيا نحويا موحدا محدثا...توفي في حدود التسعين وتسعمائة[46].

45- سيدي موسى النجار. من فقهاء تلمسان المحدثين في عصره[47].

46- سيدي يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل، المعروف بابن النحوي: قال ابن الأبار أخذ صحيح البخاري عن اللخمي...، توفي سنة 513هـ[48].

47- سيدي يحيى بن الصيقل: الفقيه الصالح كان محدثا حافظا للحديث[49].

الهوامش:

1- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم المديوني التلمساني، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، 1987م-المقدمة -ص3.

2- نفسه- ص179.

3- نفسه، ص45/الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي "ت 902هـ"، منشورات مكتبة الحياة- بيروت، ج1 ص222/شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي "ت 1089هـ"، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دار بن كثير، دمشق، سنة 1406هـ، ج7 ص363/شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد مخلوف، دار الفكر، ط1، ص267.

4- البستان 58، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التبكتي "ت 1036هـ"، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، مكتبة الدعوة الإسلامية- طرابلس- ليبيا، ط1، 1989م، ج1 ص59/شجرة النور الزكية، ص263.

5- البستان 73/رحلة القلصادي، لأبي الحسن علي القلصادي الأندلسي "ت 891هـ"، تحقيق: محمد أبو الأجفان- الشركة التونسية للتوزيع- شارع قرطاج- تونس- سنة 1985م، ص85/نيل الإبتهاج 153.

6- البستان، ص74/الضوء اللامع، ج2 ص129/نيل الإبتهاج، ص161/شجرة النور الزكية، ص262.

7- البستان، ص96/درة الحجال، ج1 ص257/نيل الابتهاج، ص168/شجرة النور الزكية، ص223.

8- البستان، ص104، ولم أقف له على ترجمة.

9- البستان، ص106/الضوء اللامع، ج2 ص256، وذكر وفاته سنة (804هـ)/نيل الإبتهاج، ص189- 190/شجرة النور الزكية، ص250.

10- البستان، ص108/جذوة الإقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، لأحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن القاضي "ت1025هـ"، دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط- المغرب- سنة 1974م، ص531/نيل الإبتهاج، صص193- 199/شذرات الذهب، ج4 ص303/شجرة النور الزكية، ص164.

11- البستان، ص115/نيل الإبتهاج، ص199/شجرة النور الزكية، ص277.

12- البستان، ص117/الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين؛ لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ط15، سنة 2002م، ج4 ص127.

13- البستان، ص121/نيل الابتهاج، ص218.

14- البستان، ص123/نيل الابتهاج، صص245-248/تعريف الخلف برجال السلف، لأبي القاسم محمد الحفناوي، تقديم محمد رؤوف القاسمي الحسني، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 1991م، ج1 صص201- 214.

15- البستان، ص127/نيل الابتهاج، ص252/شجرة النور، ص251.

16- البستان، ص129، ولم أقف له على مصدر آخر.

17- البستان، ص141/نيل الابتهاج، صص339- 341/شجرة النور، ص261.

18- البستان، ص147/الضوء اللامع حرف القاف، ج6 ص181/نيل الإبتهاج، ص356-366/شجرة النور 255. طبقات المفسرين، لأحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق: سليمان بن صالح، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، 1997م، ص319.

19- البستان، ص149/الضوء اللامع، ج11 ص137/نيل الابتهاج، ص364/شجرة النور، ص244.

20- البستان، ص150/درّة الحجال في أسماء الرجال، لأحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن القاضي "ت1025هـ"، اعتنى بنشره وتصحيحه علوش. ي.س، معهد العلوم العليا المغربية- الرباط سنة 1935م، ج3 ص282/نيل الإبتهاج، صص368- 370/شجرة النور، ص245.

21- البستان، ص154/نيل الابتهاج، صص420- 427/شذرات الذهب، ج6 ص193/شجرة النور، ص232.

22- البستان 164، وشجرة النور 234، وتعريف الخلف 106/1.
23- البستان 184، وجذوة الإقتباس 140، ونيل الإبتهاج 450-455، وشجرة النور 275.
24- البستان 190، والضوء اللامع 240/9، ونيل الإبتهاج 463- 471.
25- البستان 201، والضوء اللامع 50/7، ونيل الإبتهاج 499- 510، وشجرة النور 252
26- البستان 227، غاية النهاية في طبقات القراء، لشمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف "ت 833هـ"، ط1، باب الميم.
27- البستان 237، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
28- البستان 237، ونيل الإبتهاج 563- 572، وتعريف الخلف 176/1.
29- البستان 249، ونيل الإبتهاج 574، وشجرة النور 268.
30- البستان 253، ونيل الإبتهاج 576- 579، وتعريف الخلف 166/1.
31- البستان 258، ونيل الإبتهاج 584.
32- البستان 259، ونيل الإبتهاج 584- 585.
33- البستان 260، ونيل الإبتهاج 599، وشجرة النور 285.
34- البستان 263، ولم أقف له على ترجمة في موضع آخر، سوى ما جاء في ترجمة جده: ابن العباس الكبير (ت871هـ)، والذي ترجم له في كل من: نيل الإبتهاج 574، وشجرة النور 264.
35- البستان 264، ونيل الإبتهاج 417- 499، وشجرة النور 251.
36- البستان 272، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
37- البستان 276، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
38- البستان 276، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
39- البستان 280، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
40- البستان 280، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
41- البستان 281، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
42- البستان 283، والضوء اللامع 287/4.
43- البستان 287، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
44- البستان 288، والضوء اللامع 48/8، ونيل الإبتهاج 480- 481، وشجرة النور 247.
45- البستان 289، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
46- البستان 290، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
47- البستان 294، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
48- البستان 513، وجذوة الإقتباس 346، ونيل الإبتهاج 622- 625.
49- البستان 305/المعجم أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، تأليف: محمد بن عبد الله القضاعي، ابن الأبار (ت 658هـ)، دار صادر –بيروت، ص310، وقد ذكر وفاته سنة 450هـ.

المدارس العلمية بتلمسان على عهد بني زيان: إشعاع فكري وحضاري.

أ. فايزة بوسلاح*

مقدمة: تعد المدارس العتيقة بتلمسان بمثابة حصون وقلاع للثقافة الإسلامية والعربية لما تلعبه من دور كبير في نشر العلم والمعرفة وترسيخ العقيدة الإسلامية، والحفاظ على القيم الروحية، وكان للمدارس العتيقة فضل السبق والافتخار بأنها أخرجت كبار العلماء وفطاحل الفقهاء وجحافل الأدباء والشعراء.

ومما يمكن الإشارة إليه هو أن هذه المدارس العتيقة غالبا ما تنتمي إلى زاوية ما، حسب فقيه المدرسة، ومن هذا المنطلق أصبحت المدرسة تدرس علوما وفنونا مختلفة لطلبتها؛ فقد لعبت دورا كبيرا في تدريس معظم العلوم المتداولة آنذاك ببلاد المغرب العربي، من تفسير وفقه وحديث ولغة ونحو وأدب...

ومهما يكن فإن عددا من العلماء كما أشرنا آنفا تخرجوا من مدارس البوادي كمصطفى الرماصي، وأبو راس الناصر، وعبد القادر المشرفي، وابن زرفة الدحاوي والمقري التلمساني وعائلات عريقة كعائلة المرازقة وعائلة العقبانيين وعائلة المازونيين.

وقد قامت هذه المدارس بتلقين العلوم النقلية كالعلوم الشرعية والعلوم اللغوية والمعارف الأدبية إلى جانب العلوم العقلية والكونية، وقد ساهمت هذه المدارس في نشر الدين الإسلامي والتعريف بتلمسان ونواحيها من الحواضر الإسلامية المعروفة، كما ساهمت أيضا في إغناء المكتبات بتلمسان ونواحيها التوفير بعدد لا يستهان به من مخطوطات شملت مختلف الميادين، وهو ما يدفع بالباحثين إلى التنقيب عن الحقيقة التاريخية من خلال اشتغالهم بتراث هؤلاء الأعلام.

* - أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- جامعة وهران.

وحاولنا في هذا العرض الموجز التعريف بمدارس تلمسان ومؤسسيها والتنويه بقدرها وشأنها. ومن هذه المدارس نذكر على سبيل المثال:

المدرسة الأولى بتلمسان:

مدرسة ابني الإمام: يشير أبو راس الناصر المعسكري إلى أن أول مدرسة بنيت في الجزائر هي مدرسة ابني الإمام بتلمسان، بناها لهما الملك أبو حمو الزياني الأول[1]، قال ابن فرحون في" الديباج" عند ترجمته لابني الإمام[2] المذكورين: "ولما استقل أبو حمو بالحكم، اختط لهما المدرسة، وابتنى لهما دارين على جانبها، وجعل لهما التدريس فيها في إيوانين معدين لذلك، واختصهما بالفتوى والشورى، فكانت لهما في دولته قدم عالية"[3].

وقد كان والدهما إماما بجامع برشك[4]، وبعد مقتله في أواخر القرن السابع، ارتحلا إلى تونس ثم إلى المشرق، وبعد رجوعهما اتصل بهما الملك أبو حمو الزياني وبنى لهما المدرسة التي لازالت إلى اليوم ذات إشعاع فكري يإزاء مسجد يحمل اسمهما (جامع أولاد الإمام)، لقد أصبح صيت هذان العالمان يذكر في الآفاق، حيث كان من جملة تلامذتهما المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون، ولسان الدين بن الخطيب السلماني، كما تخرج عليهما جم غفير من العلماء.

ومن جملة ما ذكر في ترجمتهما أنهما لما كانا في المشرق" ناظرا الإمام تقي الدين بن تيمية وظهرا عليه"، وكان ذلك سبب محنته"[5]، قال عبد الجليل التنسي في تأليفه "نظم الدر والعقيان في دولة بني زيان" عند ترجمته للملك أبي حمو موسى الأول: "كان أبو حمو صاحب آثار جميلة، وسيرة حسنة، محبا في العلم وأهله، ورد بعد موت يوسف بن يعقوب المريني الفقيهان العالمان الجليلان أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى ابنا الإمام فقام بحقهما، وأكرم مثواهما، وبنى لهما المدرسة التي تسمى بهما، وكان يكثر مجالستهما، والاقتداء بهما"[6].

المدرسة التاشفينية: هي المدرسة التي بناها الملك أبو تاشفين الأول[7] ولد الملك أبو حمو السابق الذكر، وهذه المدرسة هي التي اشتهرت بالمدرسة "التاشفينية"، وبقيت قائمة إلى سنة 1873م، ويعد أبو تاشفين مجدد منارة الجامع الأعظم المالكي بالجزائر، ولازالت قطعة الرخام شاهدة عيان على تاريخ بنائها، حيث كتبت عليها أبياتا توضح تاريخ البناء؛ وهي محفوظة على حائط المنارة المذكورة، ومن جملتها نقتطف منها بعض الأبيات:

أَقَامَ أَمِيرُ المُسلمين تَفَافحَـــا كَسَانِي بهَا حُسنًا وتَمَّمَ بُنيَانِي
وقَابَلَنِي بَدْرُ السَّمَاءِ وقَالَ لِي عَلَيكَ سَلَامِي أَيُّهَا القَمَرُ الثَّانِي

كما بنى أبو تاشفين قصر" الياقوتة"[8] عند حصاره لبجاية، وهو شبيه بقصور بجاية "الناصرية"، ومازال سكان بجاية يطلقون على بعض دورهم اسم "الياقوتة".

لقد ضمّ أبو تاشفين إلى مدرسته خيرة العلماء الفطاحلة أمثال أبو موسى عمران المشدالي البجائي[9]، صهر العالم ناصر الدين المشدالي، كما تخرج على يديه ثلة من العلماء منهم المقري الجد.

قال التنسي في "نظم الدر والعقيان": "كان أبو تاشفين مولعا بتشييد القصور، فخلد آثارا لم تكن لمن قبله ولا لمن بعده كدار الملك، ودار السرور، والصهريج الأعظم. وكانت عنده شجرة من فضة، على أغصانها جميع أصناف الطيور الناطقة، وأعلاها صقر، فإذا استعمل المنافخ في أصل الشجرة، وبلغ الريح مواضع الطيور، صوتت بمنطقها المعلوم. فإذا وصل الريح موضع الصقر، صوت فأقطع صوت تلك الطيور كلها.. وأحسن من هذا كله بناء المدرسة الجليلة العديمة النظير، التي بناها بإزاء الجامع الأعظم، ما ترك شيئا مما اختص به قصره المشيد إلا وشيد مثله بها شكر الله صنيعه.. وفد عليه بتلمسان العالم أبو موسى عمران المشدالي، فأكرم نزله، وأدام المبرة له، وولاه التدريس بمدرسته الجديدة"[10].

وقال المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون في ترجمة شيخه محمد المقري: "ثم لزم الفقيه عمران المشدالي تلميذ أبي علي ناصر الدين، وتفقه عليه، وبرز في العلوم إلى حيث لم تلحق غايته، وبنى السلطان أبو تاشفين مدرسته بتلمسان، فقدمه للتدريس بها، يضاهي بها أولاد الإمام"[11].

مدرسة العباد[12]: وهي المدرسة التي أسسها الملك أبو الحسن المريني، قرب مسجد ضريح الشيخ أبي مدين، وقد درس بهذه المدرسة بن مرزوق الخطيب، إذ كان أفراد أسرته يتوارثون إمامة جامع العباد، ولهذا عرف بالخطيب، كما درس فيها حفيده الحافظ بن مرزوق الحفيد، وأستاذه عبد الرحمن بن خلدون الذي كان ينوي الإقامة بها، والانقطاع لخدمة العلم بعد خروجه من سجن الملك أبي عنان، ومازالت المدرسة تحتفظ بآثار الملك أبي الحسن منها؛ أبيات شعر مكتوبة على قبة المسجد الخاص بها، الذي اتخذ كتابا لتعليم الصبيان وهي:

الحمد لله رب العالمين

بنائ كي يقيم لدى دينـــا	الإسلام (؟) أمـــير المؤمنينا
أبو الحسن الـــذي فيه المزايا	تفوق النظم بالدر الثمينـــا
إمـــام لا يعبر عنه وصف	بما أجرى به الأعمال ديـــنا
سليـــل أبي سعيد ذي المعالي	أقر إلى الأنـــــام به عيونا
وقد ســـــماه خالقه عليا	فأعلاه وأعـــــطاه يقينا
أبان بصـــالحات منه دينا	وإيمـــانا يكون له معينا
لشهـــر ربيع الثاني لسبع	خــلون من السنين وأربعينا
إلى سبـــع مئين بدار سعد	محوله مناصـــــده فنونا
وكان له الإله على اتصـــال	على مرضاته دأبا معينـــا

كما يوجد بالمسجد الجامع بالعباد، قطعة رخامية كتب فيها جميع ما حبسه الملك أبو الحسن على المسجد الجامع، والمدرسة الزاوية. يقول المجبس فيما يخص المدرسة والزاوية: "أمر ببناء هذا الجامع المبارك، مع المدرسة المتصلة بغربيه مولانا السلطان... وحبس المدرسة المذكورة على طلبة العلم الشريف وتدريسه، وبعد أن يذكر كل ما حبسه يختم ذلك بقوله...يرسم إطعام الطعام بزاوية العباد عمرها الله للفقراء، والحجاج المقيمين، والواردين عليها...الخ"[13].

مدرسة الشيخ الحلوي: وهي مدرسة بناها الملك أبو عنان فارس المريني[14] لما خلف والده أبا الحسن، وقد وجدت كتابة تخص المسجد منها ما كتب على كل من الساريتين اللتين رفع عليهما المحراب، الأولى كتب عليها "جامع ضريح الشيخ الولي الرضى الحلوى رحمه الله"، والثانية كتب عليها "أمر ببناء هذا الجامع المبارك عبد الله المتوكل على الله فارس أمير المؤمنين"[15]، وتوجد كتابة ثالثة فيها كلمات ممحوة، وقد بنى أبو عنان زاوية ومدرسة قرب المسجد الجامع، ولم يعثر لهما على أثر، وكل ما عثر عليه هو وصف للزاوية، سجله الأديب الشهير أبو عبد الله محمد بن جزي الأندلسي كاتب أبي عنان الخاص، قال في وصفها:

هذا محل الفضل والإيثـــــار والرفـــق بالســكان والزوار
دار على الإحسان شيدت والتقى فجزاؤها الحسنى وعقـبى الدار
هي ملجأ للواردين ومـــورد لابن السبيل وكل ركب ساري
آثار مولانا الخليفة فـــارس أكرم بها في المجد مـــن آثار
بنيت على يد عبدهم وخـــديم بابهم العلي محمد بن حـــدار
في عام أربعة وخمســين انقضت من بعد سبع مئين في الإعصار[16]

وابن جزي هو الذي حرر رحلة بن بطوطة المشهورة في بلاط الملك أبي عنان، وقد غادر غرناطة لضيم أدركه بها، وقد اشتهرت الأبيات التي نظمها عند توديعه غرناطة، وصارت مضرب الأمثال قال:

وإني لمن قوم يهون عليهـــم ورود المنايا في سبيل المـكارم
يطيرون مهما أزور للدهر جانب بأجنحة من ماضـيات العزائم
وما كل نفس تحمـــل الذل إنني رأيت احتمال الذل شأن البهائم
إذا أنا لم أظفر بزاد مســـافر لديكم فعندي تحفـــة قادر[17]

واندثار هذه المدرسة والزاوية كان لا محالة في العهد التركي، إذ عد الرحالة الشهير الوزان الفاسي المشهور بليون الإفريقي، أنه وجد بتلمسان خمس مدارس عندما زارها في أوائل القرن العاشر الهجري، هذا وإن فقدت تلمسان مدرسة أبي عنان، فإن التاريخ احتفظ لنا بمدرسة أبي عنان بفاس[18].

ثم إن الملك أبا عنان عين لمدرسته العنانية قضاة من أشهر القضاة خوفا وورعا مثل قاضي حضرته بتلمسان محمد المقري التلمساني، قبل أن تتوتر العلاقة بينهما، وذلك أنه صرح بأنّ النظام الملكي يخالف تعاليم الإسلام التي تحبذ الشورى، كما يدل عليه الصحابة في عهد الخلفاء الراشدين، الذين تولوا انتخابهم تلقائيا. كما استدل على أن مصائب المسلمين جاءتهم من النظام الملكي، وقد وافقه تلميذه ابن خلدون على تسرب التدهور للمسلمين في ذلك العهد أي

منتصف القرن الثامن، ورجع ابن خلدون ذلك إلى أسباب أخرى ذكرها في تاريخه، وكان لمحمد المقري هذا الموقف، وهو من صفرة، وجاء أحد أجداده مع الشيخ أبي مدين، وأسسوا أعظم شركة تجارية، لها نظام وجند تعجز عنها الدول، وقد خصه تلميذ من تلامذته بن مرزوق بتأليف سماه "النور البدري في التعريف بالفقيه المقري"، كما أخذ عن المقري إمام القراءات الشهير أبو القاسم الشاطبي الأندلسي، ولسان الدين بن الخطيب، ومازال بعض أفراد هذه الأسرة بالمغرب وبجبال زواوة[19].

المدرسة اليعقوبية: وهي التي بناها الملك أبو حمو موسى الثاني[20] (سادس ملوك بني زيان)، وبنى لها مسجدا على العادة المتبعة آنذاك، وكانت المساجد الملحقة بالمدارس خاصة بالأساتذة وتلاميذ المدرسة، وسماها "اليعقوبية" تخليدا لاسم والده أبي يعقوب، ولم يبق منها اليوم إلا مسجدها المشهور الآن بـــ"جامع سيدي إبراهيم".

بنيت هذه المدرسة سنة 765هـــ بعد خروج المرينيين، وكان أبو حمو عالما أديبا تربى ونشأ بالأندلس، وهو الذي أرسل إليه عبد الرحمن بن خلدون أخاه يحي كاتبا ببلاطه، وفي قصره ألف كتابه المشهور "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، وفي الحقيقة كان هذا التأليف خاصا بمآثر الملك أبي حمو موسى الثاني.

اتخذ أبو حمو بعد انتهائه من بناء المسجد والمدرسة مقبرة دفن فيها أباه ثم عميه (أبوه كان مجاهدا، واشتهر بالعلم والصلاح، توفي بالجزائر، وعماه دفنا بالعباد)، ثم بقية أفراد الأسرة المالكة، ولما توفي العلامة الشيخ إبراهيم المصمودي سنة 805هـــ دفنوه بهذه المقبرة، إلا أن اسمه مع طول الزمان تغلب على اسم والد الملك والملك نفسه، وصار يعرف بـــ"مسجد سيدي إبراهيم"[21].

اندثرت هذه المدرسة كغيرها، وكان أبو حمو قد اختار لها العلامة الشيخ أبا عبد الله الشريف دفين تلمسان[22] الذي ترجمه ابن فرحون في الديباج فقال عنه: "علامة تلمسان؛ بل إمام المغرب قاطبة"[23]، وترجمه الحافظ ابن مرزوق الحفيد فقال: "شيخ شيوخنا أعلم أهل عصره بإجماع"[24]، وترجمه تلميذه ابن خلدون فقال: "تعلم بتلمسان فاختص بأولاد الإمام، ثم لزم شيخنا الآبلي، وتضلع من معارفه واستبحر، وتفجرت ينابيع العلوم من مداركه، ثم رحل إلى تونس فلقي شيخنا ابن عبد السلام، وأفاد منهم واستعظم رتبته في العلم، وكان ابن عبد السلام يصغي

إليه ويؤثر محله حتى زعموا أنه كان يخلو به في بيته، فيقرأ عليه فصل التصوف من إشارات بن سينا، لأن أبا عبد الله الشريف قد أحكم الكتاب على الآبلي، ومن تلاخيص أرسطو لابن رشد ومن الحساب والهندسة والهيئة، وله اليد الطولى في الخلافيات"[25]، ثم ذكر بن خلدون أنه لما رجع إلى تلمسان فملأ المغرب معارف وتلاميذ، وتعرض لما لاقاه من محن في عهد المرينيين، ويختم ترجمته بقوله: "لما استرجع الملك أبو حمو الثاني المذكور مملكته استدعى الشريف، وتلقاه براحتيه وأصهر له في بنته فزوجها له، وبنى له مدرسته فقام يدرس حتى هلك سنة إحدى وسبعين، وكان مولده على ما اخبرني عام عشرة"[26].

وهؤلاء العلماء المذكورين الذين عينوا بمدارس تلمسان كابني الإمام وعمران المشدالي وتلميذه محمد المقري، وأبو عبد الله الشريف، هم الذين شاركوا وقادوا الحركة الفكرية التي كان الفضل فيها لناصر الدين المشدالي البجائي، وتلميذه عمران المشدالي مدير المدرسة التاشفينية.

ولقد كان هؤلاء العلماء ممن شاركوا في المناظرات العلمية ونسخ الكتب وتأليفها، وعند حصار تلمسان من قبل أبي الحسن المريني، سجل أبو تاشفين موقفا لن يُنس من ذاكرة التاريخ، وهذا ما يجسده قول ابن خلدون: "فمانعوا دون القصر مستميتين إلى أن استلحموا، ورفعت رؤوسهم على عصي الرماح فطيف بها، وغصت سكك البلد من خارجها وداخلها بالعساكر، واكتظت أبوابها بالزحام حتى لقد كبّ الناس على أذقانهم، وتواقعوا فوطئوا بالحوافر، وتراكمت أشلاؤهم ما بين البابين حتى ضاق المذهب ما بين السقف ومسلك الباب، وانطلقت الأيدي على المنازل نهبا واكتساحا، وخلص السلطان إلى المسجد الجامع، واستدعى رؤساء الفتيا والشورى أبا زيد عبد الرحمن وأبا موسى عيسى ابني الإمام قدمهما من أعماله لمكان معتقده في أهل العلم فحضروه، ورفعوا إليه أمر الناس وما نالهم من معرة العسكر ووعظوه؛ فأناب ونادى مناديه برفع الأيدي عن ذلك فسكن الاضطراب"[27].

كما حظي ابني الإمام بفضل حسن سلوكهما وعلمهما، بمعاملة خاصة من مختلف الملوك الذين تداولوا على حكم البلاد أو الذين حاولوا السيطرة عليها وعلى تلمسان على وجه التحديد، وبخاصة "لما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان رفع من مترلة ابني الإمام، واختصهما بالشورى في بلدهما، وكان يستكثر من أهل العلم في دولته، ويجرى لهم الأرزاق،

ويعمر بهم مجلسه؛ فطلب يومئذ من ابن الإمام أن يختار له من أصحابه من ينظمه في فقهاء المجالس؛ فأشار عليه بابن عبد النور هذا فأدناه وقرّب مجلسه، وولاّه قضاء عسكره، ولم يزل في جملته إلى أن هلك بالطاعون بتونس سنة تسع وأربعين"[28].

الدور الريادي لهذه المدارس العلمية: يكمن دور هذه المدارس العلمية العتيقة أساسا في حفظ كتاب الله تعالى وبعض من أحاديث رسوله الكريم، ثم نشر العلوم العربية الإسلامية في كامل ربوع المغرب الأوسط آنذاك. ويتجسد ذلك من خلال نشر لغة الضاد والبيان والفقه وأصوله، وتفسير القرآن الكريم وشرح أحاديث الرسول الكريم وسيرته العطرة وشمائله الشريفة.

إلى جانب حضور مجالس التدريس وحلقات العلم والوعظ والإرشاد، التي يقيمها العلماء في أماكن العبادة ودور العلم أو تلك التي يقيمها الملوك والسلاطين على هامش بعض المناسبات كختم صحيح البخاري، والمولد النبوي، الخ...

وكل هذا حتى يتمكن طالب العلم من فهم ما يدرس من فقه وحديث وسيرة وما تحويه العربية وبلاغتها من أسرار بحر لا ساحل له. وما يمكن الإشارة إليه هو أن الطالب في تلك المدارس لا يتأتى له الخوض في تلك العلوم، إلا إذا استأنس بحفظ بكتاب الله تعالى. وكانت طريقة العلماء التلمسانيين مثلا في تلقين العلوم لطلبتهم تبدأ من التأكيد على حفظ بعض المنظومات، مثل الأجرومية وألفية ابن مالك، ومنظومة الزواوي، ومنظومة الجمل، ولامية الأفعال والمبنيات، وكل هذا يدخل في باب الاهتمام بالنحو باعتباره منطق اللغة، أما ما يتعلق بالأدب فعادة يقومون بحفظ لامية الطغرائي، ثم بانت سعاد، ليأتي الدور على لامية الشنفرى، وبعد ذلك يحفظون مقامات الحريري.

ومن الملاحظات التي أثارت الانتباه هو اعتناء طلبة المدارس العتيقة بتلمسان بمادة النحو والفقه، فكان لهم فضل السبق في هاذين المجالين، كعلماء عائلة المرازقة، والعقبانيين، والونشريسيين، الذين أثروا المكتبة المغاربية خصوصا بمدوناتهم ومصنفاتهم العلمية التي ظلت ملاذ الكثير من الباحثين والمهتمين بتراث الغرب الإسلامي عموما، وبطريقة تدريسهم لمختلف العلوم العقلية والنقلية.

ومن الملاحظات التي استدرجتني هو أن هذا الانكباب على اهتمامهم باللغـة العربيـة؛ جاء من خلال إدراكهم بأن تداول الفكر الإسلامي داخل المجتمعـات الإسـلامية لا يكـون إلا باللغة العربية وبفهم أسرارها ومعانيها.

إن خط سير هذه المدارس العتيقة منذ القرن الخامس الهجري، ينتهج ضمن اسـتكمال حلقة التواصل العلمي الذي أسسه لنا أجدادنا. فهذه المدارس كانت منارات علم ودفـاع، تجـاوز إشعاعها العلمي والأدبي حدود المغرب الأوسط إلى المشرق العـربي. واسـتمر هـذا الإشـعاع والإشراق، واتصلت حلقاته جيلا بعد جيل، وأمة بعد أمة.

خاتمة: إن هذه المدارس العلمية العتيقة بتلمسان استطاعت أن تخرج جيلا من العلماء رغم اختلاف أطيافهم، ساهموا في الحركة العلمية بتلمسان خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي. ومن الأهمية بمكان أن تلعب هذه المدارس دورا فعالا خلال أحلك الفترات التي مرت بها تلمسان؛ فتراها تأوي إليها عددا من الفقهاء والعلماء والمتصوفة، الذين أكسوا تلمسان حلة علمية وفكرية، أضحت تضاهي حواضر العالم الإسلامي التي كانت معروفة آنذاك.

وهكذا ظلت المدارس العلمية العتيقة بتلمسان عبر التاريخ منارات يستضيء بنورها. ويغرف من معين علمائها. ويتبين لنا من خلال هذه الجرد لأهم المدارس العلمية الدينية بتلمسان أنها ظهرت مع عصر بدأ فيه تقديم العطاء العلمي عن طريق تخريج العديد من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء ورجال الدين والقضاء وأصحاب القراءات. كما برز إلى حيز الوجود في هذا العهد ما يسمى بالتأليف المدرسي وكتابة المصنفات العلمية وتحرير الكتب الثقافية.

ولذا كان للعلماء وطلبة العلم مكانة كبيرة في المجتمع ولدى سلاطين الدولة الزيانيين؛ لأنهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويناصرون الحق ويحاربون الظلم، ولا يخافون في الله لومة لائم.

الهوامش:

1) أبو حمو موسى الزياني: (665-718هـ/1267-1318م): رابع سلاطين بني عبد الواد من آل زيان، في تلمسان وبلاد المغرب الأوسط، كان عضدا لأخيه السلطان أبي زيان في حربه وسلمه، وخلفه بعد وفاته (سنة 707هـ) وشغل بإصلاح مدينة تلمسان وتحصينها للدفاع عنها أمام غارات المرينيين، وكان "فظا غليظا، حازما يقظا"، أخضع كثيرا من القبائل المجاورة له في الشمال والجنوب، وولي عليهم أصاغرهم، وأخذ رهائنهم، وأوغلت جنوده في الزحف شرقا؛ فبلغت بجاية وقسنطينة وهما من بلاد الدولة الحفصية بتونس، وصدّ المرينيين عن التقدم من جهة الغرب، وساد بلاده الأمن. خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط1986، ج7، ص:325. ينظر: أبو زكريا يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزائر، ط1903م، ج1، ص:126-132، إبراهيم زكي خورشيد (تحرير) عبد الحميد يونس، "دائرة المعارف الإسلامية"، دار الشعب، القاهرة، ج1، ص:327. واعتمد في ضبط (حمو) بتشديد الميم على موشح لأحد شعرائه في أزهار الرياض، ينظر:المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، القاهرة، 1939م. ج1، ص:248. وابن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، ط 1962، ص243.

2) وهما: هذان الإخوان هما أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى ولدا محمد بن عبد الله بن الإمام، كان أبوهما إماما بجامع برشك كما سبق ذكره.

3) ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر، 1982م، ص69.

4) برشك: مدينة قديمة، بينها وبين تنس في الساحل ستة وثلاثون ميلاً، وهي مدينة صغيرة على تل وعليها سور تراب، وهي على ضفة البحر، وشرب أهلها من عيون وماؤها عذب، وبها فواكه وجملة مزارع وحنطة كثيرة وشعير، ومنها إلى شرشال عشرون ميلاً وكان طاغية صقلية أخذها واستولى عليها. محمد بن عبد المنعم الحِميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط2، 1980، ص:88.

5) أزهار الرياض، المصدر السابق، ج5، ص:11.

6) التنسي: تاريخ بني زيان، تحقيق: محمد بوعياد، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، ط1985، ص:139.

7) عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1980، ج1، ص: 277. ينظر: رحلة ابن بطوطة: 95 وأزهار الرياض، المصدر السابق، ج5، ص:11.

8) أبو تاشفين: (750-795ه=1350-1393م) عبد الرحمن بن موسى الثاني (أبي حمو) بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن الزياني، من ملوك بني عبد الواد، أصحاب تلمسان، ملكها بعد قتل أبيه سنة 791هـ، واستمر إلى أن توفي. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج3، ص:339.

9) موضع قصر الياقوتة الذي بناه الملك أبو تاشفين هو ما يسمى الآن بمدينة " القصر" والتي تبعد عن بجاية بنحو20كم.

10) قيل أن أبا عمران المشدالي فرّ من بجاية أثناء حصار الملك أبي تاشفين لها وسكن الجزائر، ولما سمع به أبو تاشفين دعاه إلى تلمسان، إذ كان الملوك يتسابقون إلى اختيار العلماء وإكرام وفادتهم وحسن معاملتهم.

11) العباد: قرية على بعد 2 كلم من تلمسان، بها دفن الشيخ أبا مدين شعيب وعلماء وصالحين وملوك.انظر: تاريخ بني زيان، المصدر السابق، ص:286/حسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة، محمّد حجي ومحمد الأخضر، طبع الشركة المغربيّة للناشرين المتحدين ودار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، ج2/24.

12) أبو عنان المريني:(729-759هـ=1329-1358م) فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، أبو عدنان، المتوكل على الله: من ملوك الدولة المرينية بالمغرب. ولد بفاس الجديدة (المدينة البيضاء) ونشأ محبوبا في قومه، لفضله وعلمه، وولاه أبوه إمارة " تلمسان " ثم ثار على أبيه، وبويع في حياته (سنة749هـ) ولما مات أبوه (سنة752هـ) استتب أمره، فبدأ بإخضاع بني عبد الواد (وكانوا أمراء زناتة، بتلمسان) فقاتلوه فظفر بهم ودخل تلمسان. وانتظم له أمر المغرب الأوسط. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج5، ص:127.

13) ينظر: أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري/ محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط1997، ج3، ص:206.

14) ينظر: أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1968، ج7، ص:538.

15) الحسن الوزان الفاسي، وصف أفريقيا، ج2، ص:235.

16) أبو حمو موسى الثاني:(723- 791هـ=1323-1389م) موسى (الثاني) بن يوسف أبي يعقوب بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، أبو حمو، ويقال أبوحاميم: مجدد الدولة (العبد الوادية) في تلمسان.ولد في غرناطة، وكان أبوه مبعدا إليها.وانتقل إلى تلمسان، في سنة ولادته، مع أبيه.ونشأ ذكيا فطنا أديبا، يقول الشعر.وشهد زوال دولتهم. الأولى في عهد أبي تاشفين (سنة 737 هـ) وخرج مع أبيه إلى ندرومة. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج7، ص:331.

17) أبو عبد الله الشريف التلمساني: هو عبد الله بن محمد بن أحمد، الشريف الحسني، أبو محمد، الإمام العلامة المحقق الحافظ الجليل المتفنن المتقن، ابن الإمام العلامة الحجة النظار أبي عبد الله الشريف التلمساني إمام وقته بلا مدافع، وكان أبوه محمد من أكابر علماء تلمسان ومحققيهم كأبيه، ولد سنة 748هـ فنشأ على عفة وصيانة وجدٍّ، مرضي الأخلاق، محمود الأحوال، موصوفاً بالنبل والفهم والحذق والحرص على طلب العلم، أخذ عن أبيه، وتوفي غريقاً سنة 792هـ أثناء انصرافه من مالقة إلى تلمسان. "انظر أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2004، ص:150محمد بن مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، ط 1 ، دار الكتابة العربي لبنان، ص:234، محمد بن الحسن الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مطبعة إدارة المعارف بالرباط (1340-1345)، ج4، ص: 83. محمد الفتوحي الحنبلي المعروف بـ "ابن النجار"، شرح الكوكب المنير المسمى (مختصر التحرير في أصول الفقه)، تح: محمد الزحيلي، مكتبة العيكان، الرياض، ط 1418هـ ص:431.

18) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، لبنان، ط1999، ج7، ص:111.

19) المصدر نفسه، ج7، ص:394.

20) المصدر نفسه، ج7، ص:394.

21) المصدر نفسه، ج7، ص:394.

22) المصدر نفسه، ج7، ص:394.

23) المصدر نفسه، ج7، ص:394.

24) المصدر نفسه، ج7، ص:394.

25) المصدر نفسه، ج7، ص:394.

26) المصدر نفسه، ج7، ص:394.

27) المصدر نفسه، ج7، ص:394.

28) المصدر نفسه، ج7، ص:394.

المقالات
في التاريخ الحديث

تلمسان في دوامة الصراع الثلاثي بين الإسبان والعثمانيين والمغاربة في القرن 16م.

أ. د.محمد دادة**

كانت تلمسان وقت ظهور الإسبان والعثمانيين تمثل عاصمة الدولة الزيانية التي عمرت ثلاثة قرون، واجهت ضغوط كل من الحفصيين و المرينيين. وحاولت القوى المتصارعة الاستيلاء عليها، فنشأت عن ذلك صراعات عنيفة عملت على زعزعة أركان هذه الدولة. ولم يستطع التلمسانيون أن يدافعوا عن أنفسهم داخل المدينة، وأن يتحملوا ثقل الضغط الخارجي الذي أخذ ينحو منحى جديدا منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي.

والسؤال المطروح: هل استيلاء القوى المتصارعة على تلمسان استند إلى الأحوال العامة السائدة في هذه المدينة، أم أن هناك عوامل أخرى سمحت لهذه القوى أن تسيطر عليها؟

كانت لمدينة تلمسان دور متميز في التجارة الدولية منذ أقدم العصور، ونالت منطقة المغرب العربي حضا وافرا من تلك التجارة، وظلت هذه الأهمية الاقتصادية قائمة طوال العصر الإسلامي. وهذا ما دفع كل من المرابطين والموحدين والمرينيين للتهافت عليها، وظمها لأملاكهم. زيادة على ذلك أهميتها الإستراتيجية وموقعها المهم، حيث عدت بوابة مهمة بين شرق المغرب الأقصى والجزائر، من يملكها يملك التدخل في عمق المغرب والجزائر. ولكن مدينة تلمسان لن تحافظ على أهميتها، ففي بداية القرن السادس عشر بدأت بالانهيار بسبب تسلط الإسبان عليها، إضافة إلى ذلك فإن الحكام الذين عينوا عليها من قبل الإسبان لم يعملوا على تقويتها وتحصينها، وشيئا فشيئا بدأ الفساد والضعف يسودانها، وبدأت الفوضى تعم مختلف مناطقها.

استغل المغاربة ضعف الزيانيين والصراع القائم بين الأسرة الحاكمة، فتدخلوا في تلمسان ومحاولة احتلالها أكثر من مرة. وكانت تلمسان منذ نشأة دولتها الزيانية عام 1235م، ظلت عرضت

** — أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر– قسم التاريخ– جامعة وهران.

لغزوات المغاربة من المرينيين الذين حاصروها سنوات عديدة في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي وأوائل القرن الرابع عشر الميلادي، ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة عليها، فتدخلوا فيها من جديد سنة 1337م واستولوا عليها وظلوا مسيطرين عليها مدة احدى عشرة سنة حتى عام 1348م، ثم غزوها سنة 1352م إلى أن تمكن الأمير الزياني أبو حمو الثاني من استعادها سنة 1359م، وفي عهده استولى المرينيون على تلمسان مجددا سنة 1360م، ثم غادروها، ليعيدوا غزوها سنة 1372م، حيث بقيت تلمسان تابعتا لهن حتى سنة 1374م، حيث تخلوا عنها، لكن نفوذهم فيها لم ينته إلا في سنة 1431م. ولكن منذ 1485م دخلت الدولة الزيانية مرحلة من الضعف والانحطاط حتى أصبحت لقمة سائغة للاسبان و العثمانيين والمغاربة، فدخلت مملكة تلمسان في دوامة الصراع بين هذه الأطراف الثلاثة حتى قضى عليها الأتراك عام 1554م.[1]

استدعى أهل الجزائر بابا عروج للدفاع عنهم، وفي كل مكان يهدده الاسبان. ونجح عروج في سنة 1516م في دخول مدينة الجزائر وتصفية خصمه العنيد الشيخ سالم التومي، لتعامله مع الاسبان(2). ووجه بابا عروج اهتمامه بتوطيد سلطته في الجزائر، ففرض إجراءات أمنية مشددة، إزاء ذلك ازدادت ثقة السكان بالأتراك العثمانيين، واظهروا استعدادهم للتعاون معهم، وقد استطاع العثمانيون كسب ثقة الجميع من خلال معاملتهم الجيدة للأعيان والعلماء والأهالي(3).

كان الوجود العثماني في مدينة الجزائر تهديدا خطيرا لاسبانيا في المنطقة، لاسيما بعد أن عمد التراك العثمانيون بعد تمركزهم في مدينة الجزائر على تشكيل حكومة قوية، يمكنها أن تهدد مصالح اسبانيا في شمال افريقيا. وبالفعل كان بابا عروج يريد التخلص من النفوذ الاسباني في الغرب الجزائري وبخاصة في تلمسان، ولهذا شرع في إعداد القوة اللازمة لانجاز هذا العمل.

واستغل عروج ضعف السلطة الزيانية، ونقمة اهل تلمسان على الأمير الزياني أبي حمو لخضوعه للنفوذ الاسباني، فقرر التدخل في تلمسان بحجة انقاذها من النفوذ الاسباني. وكانت تلمسان قد خضعت للاسبان بعد احتلالهم للمرسى الكبير(1505م) ولوهران(1509م). ولم يلبث الأمير الزياني أن يبعث في سنة 1512م وفدا إلى اسبانيا ليعلن خضوعه وتبعيته للملك الاسباني(4).

ونجح عروج في الاستيلاء على تلمسان سنة 1517م بدون صعوبة، ومما ساعد على هذا النجاح أن أهالي المدينة لم يكونوا راضيين عن حكم بني زيان لهم، وم ينسوا ما فعله أبو حمو بابن أخيه واغتصابه للسلطة منه، وكانوا يدركون جيدا حرصه على الارتباط بالاسبان، وهذا ما أدى إلى

كرههم له، إضافة إلى أنه أثقل كاهلهم بالضرائب، وغدا الاسبان كأنهم حكام تلمسان الحقيقيين(5).

والتجأ أبو حمو إلى قائد وهران الاسباني ثم إلى بلاط ملك اسبانيا لطلب عونه. وكان التقرير الذي زوده به قائد وهران له أهمية في فهم التحرك الاسباني في المنطقة. وقد أكد هذا التقرير على ضرورة احتلال تلمسان، أو إقامة حكومة عربية فيها موالية للعرش الاسباني. وتضمن هذا التقرير الإستراتيجية الاسبانية في ضرورة طرد الأتراك العثمانيين من تلمسان وربطها بهم، حتى يتعزز الوجود الاسباني في المنطقة الغربية من الجزائر، ومن ثمة يتسع نفوذ اسبانيا ليشمل كافة السواحل الإفريقية. وقد اقتنع المجلس الملكي الاسباني بأهمية السيطرة على تلمسان، ولذلك قرر الملك إرسال قوة عسكرية إلى وهران مؤلفة من عشرة آلاف جندي(6).

ولم تفلح جهود عروج في البقاء في تلمسان، على الرغم من استعداده للرد على أي حركة تصدر عن الاسبان ومؤيديهم. فقد نجحت القوات الاسبانية بقيادة "دون مارتن" في فرض حصار محكم وعنيف على مدينة تلمسان، ودام الحصار ستة أشهر، وخلال هذه المدة كان القتال يستمر ليل نهار، ولكن الاسبان تمكنوا من السيطرة على نقاط الاستحكام. وفي هذا الوقت الحرج والمؤلم كان عروج ينتظر مساعدة ونجدة المغاربة الذين كانوا يبعدون عنه مسافة عدة أيام. ويبدو أن الأمير الوطاسي لم يكن متحمسا بتحالفه مع عروج ولم يوليه أي اهتمام يذكر، وكان بإمكانه فك الحصار على تلمسان بتدخل جيشه، لأن القوة الاسبانية ليست بالقوة الكافية لمقاومة الجيشين الإسلاميين(7).

وحدثت في هذه الأثناء اضطرابات في تلمسان لم تكن في صالح العثمانيين. وقد ثار أهل تلمسان ضد عروج وأجبروه على اللجوء إلى قلعة المشور. وتمكن الاسبان من الوصول إليه، والقضاء عليه وعلى رفاقه في عام 1518م في موقعة وادي المالح الواقعة بين وهران وعين تموشنت(8). وبعد مقتل عروج أعيد أبو حمو إلى عرش تلمسان، وفرض الاسبان عليه معاهدة مذلة و قبل الخضوع للسيادة الاسبانية(9).

لم يؤد مقتل عروج إلى توقف الصراع على تلمسان. فما من شك في أن كل طرف عرف كيف يستغل الأوضاع المضطربة لمدينة تلمسان والانقسامات التي كانت تعصف بهذه المنطقة، لكن

مهما قيل عن تصرفات عروج في تلمسان، فإنه نجح في توجيه ضربة قوية للنفوذ الاسباني، وفي إضعاف الأسرة الزيانية، وفي رسم الطريق لخلفائه لإقامة نظام جديد في مواجهة الاسبان.

خلف عروج خير الدين في زعامة القوات العثمانية، وجعل مركزه مدينة الجزائر. وكان وضعه في غاية الصعوبة، حيث خشي تدخل الإسبان الذين كان بإمكانهم أن يستثمروا نجاحهم فيهاجموا مدينة الجزائر ويطردون خير الدين وقوته البسيطة وظل الموقف الداخلي حرجا، بعد رجوع الأمير الزياني إلى عرش تلمسان الشاغر، فبدأ هذا الأمير يحرض القبائل ضد العثمانيين مستعينا بالاسبان.

أدرك خير الدين أنه لن يستطيع أن يجابه الموقف بقواه الخاصة، ولن يتمكن من مجابهة الخطر الاسباني ة الخطر الزياني بقوات قليلة، وأدرك أيضا أن عليه أن يعتمد على قوة الدولة العثمانية ليحصل على الهيبة والقوة التي تسمح له بالسيطرة على المغرب الأوسط، فقرر الاستعانة بها، وكانت آنذاك في أوجه قواها(10).

وفي الوقت الذي كانت فيه تلمسان تعاني من التمزق السياسي، بسبب منافسات الأسرة الحاكمة ودسائس البلاط الزياني، وتدخل الاسبان في شؤونها، كان خير الدين يبحث عن وسيلة للتدخل في شؤون تلسمان التي لم تتغير أوضاعها، فقد ضجر سكانها من تصرفات الحكام الزيانيين، وبدأت الأغلبية منهم تريد الاتصال بالأتراك العثمانيين من أجل إنقاذهم من الطغيان الزياني. وكان هذا التدخل في بادئ الأمر، حينما أعان الأمير الزياني المسعود على انتزاع الملك من أخيه عبد الله، ولكنه لم يلبث أن تمرد عليه، و حين إذ أعان عبد الله المخلوع على انتزاع الملك من أخيه المسعود، بشرط أن تكون السكة و الخطبة للسلطان العثماني. إلا أن عبد الله ما لبث هو الآخر أن تمرد على خير الدين ومال إلى الاسبان، فحاربه خير الدين وانتصر عليه، ولكنه عفا عنه وأبقاه في ملك تلمسان، و تعهد له عبد الله بمضاعفة ضريبة التبعية. غير أنه ما لبث أن تقرب مرة أخرى من الاسبان و تحالف معهم. فحرضه هؤلاء على الثورة ضد خير الدين وأمدوه بالمال و العتاد، ووجهوا إليه أربع عشرة سفينة لمساعدته واتفقوا معه على أن يهاجم مدينة الجزائر من البر، في حين تهاجمها السفن الاسبانية من البحر، وكان ذلك في سنة 1533م(11).

وتحرك عبد الله على رأس قوات كبيرة من تلمسان نحو مدينة الجزائر، إلا أن خير الدين تمكن من تحقيق الانتصار عليه قبل وصوله إلى الجزائر. واضطر عبد الله إلى طلب العفو، فعفا عنه خير

الدين ورجع إلى مدينة الجزائر. ويبدو أن هذا الأخير كان يريد الرحيل إلى اسطنبول لم يشأ أن يدخل تغييرا على الحكم في تلمسان قد لا يساعد على استقرار الأمور في الغرب الجزائري(12).

تأثر حسن آغا خليفة خير الدين في الجزائر من الأحداث الدائرة على الساحة الجزائرية، و التحركات الزيانية المعادية للعثمانيين. ففي عام 1535م تعهد محمد ابن عبد الله أن يكون تابعا للملك الاسباني "شارلكان" وأن يدفع الضريبة له بل وأبدى استعداده لأن يحارب الأتراك العثمانيين ويقبض على خير الدين إن التجأ إليه بعد هزيمته ويسلمه إلى الاسبان. إلا أن الإمبراطور "شارلكان" لم ير ضرورة فيما يبدو لتوقيع معاهدة مع سلطان زياني لا حول له ولا قوة ، متذبذب الولاء، في الوقت الذي كان فيه أخوه عبد الله اللاجىء عنده مستعدا للتنازل عن كل شيء مقابل أن يجلسوه على كرسي الملك في تلمسان(13).

وبما أن الأحداث جرت بعكس ما كان يتوقعه الأمير الزياني اضطر الامبراطور"شارلكان" إلى الحذر منه. و يبدو أن سنة 1541م، التي شهدت انكسار حملة "شارلكان" في الجزائر، هي التي ستهيأ الجو لإعادة العلاقات الماضية.

لم يتحمل حسن آغا تصرفات الأمير الوياني أثناء حملة "شرلكان" على مدينة الجزائر.فتحرك سنة 1542م إلى تلمسان لإخضاع محمد ابن عبد الله الذي انتقل إلى صف الاسبان. ولكن قام هذا الأخير باسترضائه، و تعهد له بقطع كل صلة مع الاسبان، فقفل راجعا إلى مدينة الجزائر دون أن يترك في تلمسان حامية عسكرية كما كان يعتزم أن يفعل(14).

لكن ما إن عاد حسن آغا إلى مدينة الجزائر حتى اضطربت مدينة تلمسان من جديد، فقد اشتكى أعيان المدينة إلى الأمير الجديد الذي نصبه الاسبان من الأفعال المفسدة التي ارتكبها الاسبان في مدينتهم أثناء حملتهم عليها في 27يناير1543م. إلا أن الاسبان كانوا حريصين على عدم استقرار الأمور في تلمسان للأتراك العثمانيين أو للأمراء الزيانيين الموالين لهم، ولذلك فإن الأمير الزياني محمد ابن عبد الله الذي استرجع ملكه من أخيه عبد الله، ما لبث أن أطاح به أخوه الآخر أحمد، الذي كان يدعمه خاله المنصور ابن أبي غانم الموالي للاسبان، مما جعل حسن باشا ابن خير الدين أن لا يتأخر كثيرا عن المسير إلى تلمسان لإزاحة أحمد عن الحكم(15).

وقد تمكن حسن باشا في بداية جوان 1545م من الدخول إلى مدينة تلمسان دون أن يجد مقاومة تذكر، لأن ملكها الزياني فر إلى حلفائه في وهران، لما علم بقدوم الأتراك إليه. بعد أن عين حسن

باشا الأمير التابع له وهو أحمد، عاد إلى مدينة الجزائر غير أن الاسبان في وهران أعادوا الملك المخلوع سنة 1546م(16). وسار حسن باشا بدوره نحو تلمسان للحيلولة دون تحقيق غرضهم، إلا أنه حدث في هذه الأثناء أن وصله نبأ وفاة والده خير الدين مما أثر فيه، فرجع إلى مدينة الجزائر دون أن يصطدم بالقوات الاسبانية.

وفي الوقت الذي بدأ فيه وكأن أمر تلمسان قد انتهى لفائدة العثمانيين، إذ بالأشراف السعديين الذين قضوا على الدولة الوطاسية واستكملوا توحيد المغرب، يوجهون أنظارهم لضم تلمسان إلى ممتلكاتهم، وتمكنوا من احتلالها سنة 1550م. ولكن قوات حسن باشا تمكنت من إجلائهم عنها في *السنة التالية بعد صراع عنيف، وإبعادهم إلى ما وراء نهر الملوية*(17).

وإزاء هذه الأوضاع، وتدخلات الاسبان والمغاربة قرر حسن باشا سنة 1551م تعيين قائد عثماني في تلمسان، وأن يقيما فيها حامية عسكرية، فوضع بقراره ذلك نهاية حكم الأسرة الزيانية(18).

لما استدعيا حسن باشا ابن خير الدين إلى اسطنبول استخلفه على الجزائر صالح رايس في عام 1552م. وقد عمل صالح رايس في بداية الأمر على تجسين علاقاته مع حكام المغرب السعديين، و توصل إلى اتفاق سلام معهم لم يدم طويلا. وكان الهدف من هذا السلام هو التفرغ للاستيلاء على وهران وإخضاع المنطقة الغربية من الجزائر. وبالفعل تمكن من الاستيلاء على مدينة تلمسان سنة 1554م وإنهاء الحكم الزياني نهائيا في تلمسان. ولكن لم يحالفه الحظ في ذلك و توفي فجأة سنة1556م. وشهدت الجزائر بعد ذلك اضطرابات سياسية بسبب الصراع حول الحكم، و كانت هذه فرصة ذهبية للسعديين والاسبان للتدخل في الغرب الجزائري وتحقيق أطماعهم في تلمسان. وبالفعل شن محمد الشيخ السعدي حملة على تلمسان في جوان 1557م، وتمكن من احتلالها بسهولة ولكن لما علم محمد الشيخ بزحف القوات العثمانية إلى تلمسان، آثار فك الحصار على حامية تلمسان في أوت 1557م قبل وصول القوات العثمانية والانسحاب إلى المغرب(19).

ولم يغفر حسن باشا لمحمد الشيخ السعدي تدخله في تلمسان فصمم القضاء عليه، والتخلص منه وعمد إلى المؤامرة، فأرسل جماعة من الجند العثماني دخلوا المغرب مدعيين أنهم هاربون من الجيش العثماني و نجحوا في كسب ثقة محمد الشيخ ثم قاموا باغتياله في شهر أكتوبر 1557م. وهكذا كان مصير محمد الشيخ الذي رفض الدخول تحت السادة العثمانية، ورفض السلام مع العثمانيين، ومضى في التقرب مع الاسبان وانتهاز الفرصة للتدخل في الغرب الجزائري، والتآمر مع الاسبان

للقضاء على العثمانيين في شمال افريقيا مما جعل العلاقات بينه وبين العثمانيين يغلب عليها طابع التوتر والعداء أكثر من طابع الديبلوماسية. وبدأ عبد الله عهده بالانتقام من العثمانيين قتلة والده محمد الشيخ. وكان رد فعل حسن باشا على ذلك بالإقدام على شن حملة على المغرب في عام 1558م، انتقاما لحملة السعديين في الغرب الجزائري. وكان الصدام عنيفا بأحواز فاس، وكانت الخسائر كبيرة من الطرفين. واضطر حسن باشا إلى الانسحاب من المعركة(20).

كان حاكم وهران "دالكوديت" ناقما لفوات فرصة ضرب حسن باشا من الخلف حين كان يهاجم المغرب، وذلك بسبب نقص قواته. وكان "دالكوديت" يدرك أن استرجاع الأتراك لتلمسان يهدد الوجود الاسباني تهديدا خطيرا، فقرر الاستيلاء على مستغانم التي جعلها الأتراك قاعدة لهم للهجوم على وهران. وفي هذا الإطار، اعتمد على تأييد المغاربة له، واتفق مع السعديين على أن يهاجموا الأراضي الجزائرية والاستيلاء على تلمسان. وقد استغل عبد الله الغالب الصراع بين العثمانيين وزعماء القبائل من بني عباس، للتحرك نحو تلمسان. وكان حسن باشا قد علم أن السلطان السعدي يستعد لغزو تلمسان وأن ملك اسبانيا هو الآخر يجمع قوة بحرية للهجوم على العثمانيين بالتنسيق مع المغاربة. ولكن الهزيمة الساحقة التي لحقت بالاسبان في مستغانم أفشلت مخطط الاسباني المغربي. و منذ ذلك الوقت امتنع الاسبان عن القيام بعمل هجومي على تلمسان واكتفوا بالدفاع عن وهران التي أصبحت منطقة محاصرة(21).

وفي الوقت الذي كان فيه حسن باشا يعد حملة على السعديين في المغرب، كانت الإنكشارية قد اعتقلته وأرسلته مقيدا إلى إسطنبول في جويلية1561م بدعوى أنه كان يريد الاستقلال عن السلطان العثماني(22). إلا أنه بعد رجوعه إلى الجزائر للمرة الثالثة في سنة 1562م، استأنف مشاريعه السابقة ضد الاسبان و المغاربة. وكما يبدو لحسن باشا أن التحالف المغربي الاسباني كان ما يزال مستمرا، و أن المغاربة حارصون على طرد العثمانيين من شمال إفريقيا. ولعل في هذا محاولة من السعديين لإحياء تقاليد الدول التي سبقتهم في محاولة بسط سيطرتهم على المنطقة المغاربية. وإن الخطة الإستراتيجية هي القضاء على سلطة الزيانيين، وضم ممتلكاتهم، لتأمين حدودهم الشرقية من الأخطار العثمانية التي تهددهم بها وجود الزيانيين إلى جوارهم.

ومما يلاحظ على هذه الفترة أنها لم تشهد تعاونا بين العثمانيين و المغاربة، بل اتسمت في الكثير من الأحيان بالعداء و الفتور بين الطرفين، لأن الثقة كانت دوما مفقودة. غير أن الصراع على

الحكم في المغرب بين الإخوة هيأ للعثمانيين بالتدخل في شؤون المغرب. ففي سنة 1574م توفي عبد الله الغالب، فخلفه ابنه محمد المتوكل، ولم يتمتع هذا الأخير بالملك طويلا، لأن عمه عبد الملك الذي كان لاجئا في الجزائر مع أخيه أحمد، طالب بحقه في الملك، ورحل إلى إسطنبول، فطلب من السلطان العثماني المساعدة على العودة إلى المغرب وخلع ابن أخيهما محمد المتوكل. وتعهد الأمير السعدي بدفع تكاليف الحملة ووعد أن يكون المغرب تابعا للسلطان العثماني(23).

وتصادف هذا الحدث مع الانتصار الباهر الذي حققه الأتراك على الاسبان في تونس سنة1574م، وقد شارك كل من عبد الملك وأحمد فيه، إلى جانب علج علي. استغل العثمانيون هذا الانتصار وصداه في كل بلاد المغرب ليجهزوا حملة كبيرة ضد محمد المتوكل، هدفها تنصيب عبد الملك على عرش المغرب.

نجح عبد الملك بدخول فاس بمساعدة العثمانيين سنة 1576م. ولكنه سرعان ما تنكر للأتراك بعد عودة الحملة التركية إلى الجزائر. وبينما كان الأتراك يعدون حملة جديدة ضد المغرب فاجأهم نبأ الانتصار الصاعق الذي أحرزه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سنة1578م، فتخلوا عن مشروعهم. ولكن ما يهمنا في هذا الموضوع، أن عبد الملك طبق سياسة مخادعة مع الأتراك والاسبان، متجنبا إثارة المتاعب معهما، فقد عمد فور استلامه السلطة إلى الاتفاق مع ملك إسبانيا في توحيد الجهود ضد العثمانيين. وفي الوقت الذي كان فيه الملك يفاوض الاسبان كان على اتصال مستمر مع الأتراك، يعدهم بعدم التدخل في تلمسان و بالتخلي عن سياسة التحاف مع اسبانيا(24).

أعطى انتصار وادي المخازن للمغرب و للسلطان الجديد أحمد المنصور هيبة و سمعة دولية استند إليها المنصور في سياسته الخارجية واستفاد منها. فقد نجح في تجنب الغزو العثماني لبلاده بالوسائل الدبلوماسية. وكانت الظروف الخارجية مواتية للمنصور، فقد كانت أوروبا تعيش في فترة صراع دولي بين اسبانيا من جهة و انجلترا و فرنسا و البلاد المنخفضة من جهة أخرى. وقد أثرت هذه الحروب على نشاط اسبانيا في إفريقيا الشمالية. كما كانت الدولة العثمانية مشغولة في أوروبا في صراعها مع إيران، وفي اضطرابات البلاد العربية، ولم يعد بإمكانها مساعدة الجزائر في تهديد المغرب كما كان ذلك في السابق. وفي مثل هذه الظروف كان المنصور في وضع يجعله أكثر حرية في اختيار حلفائه وفق ما تقتضيه ظروفه ومصالحه. وكان يستخدم اسبانيا ضد الأتراك والعكس. وكانت مصلحته أن يداري ويداور الجميع دون أن يتورط بالالتزام مع أحد.

سار السلطان أحمد المنصور في سياسته السعدية التقليدية نفسها وهي سياسة المحافظة على التفاهم مع الاسبان و كذالك مع الأتراك، وتجنب الدخول في حرب مع الدولة العثمانية. ولهذا كانت الجزائر باتت تتحضر جانب المنصور، الذي بات على درجة كبيرة من الحنكة الدبلوماسية. وكان السلطان العثماني على علم بالتقارب بينه وبين البلاط الاسباني. ولكن لم يكن لدى المنصور السعدي الوسائل اللازمة ليندفع إلى احتلال تلمسان. وكان جل اهتمامه منصرفا إلى استرجاع الموانئ المغربية التي يسيطر عليها الأوروبيون(25).

كانت السنوات الأخيرة من حكم المنصور مضطربة جدا، فقد انتشر الطاعون وتعطلت الزراعة وتلا ذلك مجاعة مخيفة. توفي المنصور سنة1603م تاركا البلاد لمصير مظلم. هل سيستمر خلفاؤه في مهاجمة تلمسان، وإتباع سياسة التفاهم مع الاسبان؟ أم سيحرصون على إبقاء الصلات الودية مع جيرانهم الأتراك؟

هكذا، يظهر أن أطماع الأطراف الثلاثة المتنازعة في الاستيلاء على تلمسان قد استند، قبل كل شيء آخر، إلى الأحوال العامة السائدة في هذه المدينة، إذ كانت هذه الأطراف قد اعتمدت في تدخلاتها على ضعف الإمكانات العسكرية و الاقتصادية لهذه المدينة. زد على ذلك انفصال هذه المدينة، مما شجع التدخل الخارجي وعجل به، وفي الوقت نفسه زاد هذا التدخل في الضعف وخلق مضاعفات خطيرة في المنطقة. ومن أخطر هذه المضاعفات وقوع الاضطراب في المعسكر الإسلامي. ويبدو أن السعديين كانوا يريدون احتلال تلمسان التي هي قريبة من فاس، وإذا تحقق لهم ذلك فهذا يعد مكسبا كبيرا لهم، يضع تحت أيديهم المراكز التجارية المهمة في مملكة الزيانيين ويوسع حدودهم في الناحية الشرقية من المغرب. ولكن هذا كان على حساب سكان المنطقة الذين كانوا يتطلعون إلى توحيد الجهود بين البلدين الإسلاميين لإزالة الاحتلال الأجنبي الذي أضعفهم وأنهك قواهم. أما تلمسان، فكانت تصارع للبقاء، ولكن أمرها انتهى لفائدة حكومة الجزائر العثمانية.

الهوامش:

[1]- لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر: شارل أندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، من الفتح الاسلامي إلى سنة 1830م، تعريب محمد ميزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978م/رشيد بوروية وآخرون، الجزائر في التاريخ، الجزء الثالث، العهد الاسلامي، من الفتح إلى العهد العثماني، الجزائر، 1984م.

2- Diego De Haedo: histoire des Rois d'Alger, éditions grand-Alger-Livres, Alger 2004, p29

3- عزيز سامح آلتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989م، ص53.

4- عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن السادس عشر، الجزء الأول، دار الأمل، الجزائر، 2006م، ج1 ص17.

5- عزيز سامح آلتر، المرجع السابق، ص60.

6- Diego De Haedo: op. cit, p39.

7- بعد نجاح عروج في تلمسان، شرع في إجراء مباحثات مع الأمير الوطاسي في فاس للتعاون معه ضد الاسبان، ولكن "دو غرامون" يشك في قيام هذا الحلف دون أن ينفي إن كان وجود مشروع تحالف لم ينفذ لأن وجود الأتراك على حدود المغرب أكبر خطرا من وجود الاسبان العاجزين عن أي تهديد للمغرب. انظر: محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، دار الشرق، بيروت، ص26. : H-De Grammont Histoire d'Alger sous la domination turque, paris,1887, p25.

8- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا(1492م-1792م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م ص192.

9- عمار بن خروف، المرجع السابق، ص22.

10- أصبحت الجزائر ولاية عثمانية بتاريخ 925هـ/أوائل نوفمبر 1519م، انظر: أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م في المجلة التاريخية المغربية، عدد 6، 1976م تونس، ص 119.

11- عمار بن خروف، المرجع السابق، ص25.

12- نفسه، ص26.

13- نفسه، ص32.

14- Diego De Haedo : op. cit, p73.

15- عمار بن خروف، المرجع السابق، ص34/ Diego De Haedo : op. cit, p82

16- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي(1514/1830)، دار هومه، الجزائر، 2005، ص72.

17- محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2000م، ص40

18- عمار بن خروف، المرجع السابق، ص36.

19- H.Terrasse. Histoire du Maroc, tome2, éditions ATLANTIDE, Casablanca, 1947, p171.

20- إبراهيم شحاتة حسن، أطوار العلاقات المغربية العثمانية(1510م-1947م) مطبعة القدس، الإسكندرية، 1981م، ص152/ Diego De Haedo : op. cit, p124.

21- محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1969، ص44-45.

22- DIEGO De HAEDO : op. cit, p130.

23- عزيز سامح آلتر، المرجع السابق، ص236.

24- H.Terrasse. op cit, pp185-186.

25- عمار بن خروف، المرجع السابق، ص ص231-238/ H-De Grammont- Op cit- 139-140

موقف علماء تلمسان من التواجد العثماني في الجزائر (10-13هـ/16-19م).

د. محمد بو شنافي*

مقدمة: شكل قدوم الأخوين عروج وخير الدين إلى المغرب الأوسط حدثا تاريخيا هاما، ذلك أنه أدى إلى تغيير جذري في كثير من الأوضاع السياسية والعلمية في المنطقة، وأمام ذلك برزت الكثير من المواقف المؤيدة والمعارضة لهذا القدوم، قادها عدد من الرجال السياسة والأعيان، وشيوخ القبائل وزعماء الطرق الدينية وحتى العلماء الذين انقسمت آراءهم في هذا المجال.

ما تتفق عليه المصادر أن مجيء الأخوين إلى المنطقة كان استجابة لنداء النجدة الذي أرسله السكان إليهما بهدف إنقاذهم من سيطرة الأسبان الذين كبلوهم وقيدوا حرياتهم بمجموعة من المعاهدات المهينة، ومثال ذلك ما حدث مع سكان مدينة الجزائر التي بادر حاكمها سليم بن التومي وجماعة من الأعيان إلى إرسال وفد في يوم 31 يناير 1510م إلى بجاية لمقابلة القائد الاسباني "بيدرو دي نافارو"، وتوجت المفاوضات بتوقيع معاهدة خضوع وتبعية للملك "فرديناند" إلى جانب التعهد بإطلاق سراح الأسرى في المدينة ودفع ضريبة سنوية، ومنحه قلعة الصخرة التي لا تبعد عن المدينة إلا بثلاثمائة متر يقيم عليها الأسبان قاعدة يراقبون من خلالها المدينة (1)، ونفس الحال حدث لمدن أخرى مثل تنس.

إن ما يهمنا في هذه الدراسة ليس سرد الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة قبيل مجيء العثمانيين أو بعده و إنما موقف العلماء، وخاصة علماء تلمسان، من التواجد العثماني، باعتبار أن هؤلاء كانوا خلال هذا العهد محل تأثير على أصحاب القرار خاصة والسكان عامة، كما أن مواقفهم تضاربت وتعارضت لأسباب عديدة. وعموما فإن المصادر التي أرخت لاستقرار العثمانيين في الجزائر تتفق على الدور البارز الذي مارسه هؤلاء في إضفاء الشرعية على هذا

*- أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث- قسم التاريخ- جامعة الجيلالي ليابس (سيدي بلعباس).

التواجد، وبالخصوص في العهود الأولى، ويبرز ذلك من خلال مباركتهم ودعمهم لجهود الأخوين الجهادي في صد الهجوم الصليبي الاسباني ودحر عملائه في المنطقة ودعوة السكان إلى الالتفاف حولهما.

كان من أبرز وأوائل من تحالف مع عروج من علماء المغرب الأوسط العالم الفقيه محمد بن يوسف الملياني، الذي رأى في هؤلاء المخلصين للمنطقة من التحرشات الصليبية والفوضى السياسية المتولدة عن الصراع على الحكم. ويذكر أن أول اتصال تم بين هذا الولي الصالح وعروج كان عند شاطئ كريشتل غرب مدينة وهران، أين نزل عروج رفقة دليله ومترجمه، وكان قد قال لهذا الأخير بأنه سيصدق كرامات هذا الولي إذا استطاع أن يخبره بنواياه، فكان أول ما نطق به هذا العالم "عزمت إذن وأصحابك هجوم العدو"، فما كان من عروج إلا أن صدق كراماته، وأخذ يقبل رجليه ويطلب دعاءه[2]، وتعتبر هذه الحادثة بمثابة بيعة من الشيخ لعروج.

وإن صدقت هذه الرواية فإن العثمانيين كانوا محل تأييد ودعم من قبل العلماء، وبخاصة في بداية عهدهم بالجزائر، ولعل هذا ما جعل السكان يعترفون بهم أسيادا على الجزائر لأكثر من ثلاثة قرون من الزمن، رغم ما طرأ على سياستهم من ظلم وجور بعد ذلك.

كما كان الفقيه والعالم أحمد بن القاضي، شيخ إمارة كوكو بجبال جرجرة، من أكبر المدعمين والمساندين للإخوة باربروس، حيث شارك في كل الأحداث الهامة في الايالة، ومنها حصار بجاية في عام 1514م، ودخول مدينة الجزائر في عام 1516م، ثم تلمسان سنة 1518م، فكان ذلك دافعا جعل خير الدين يرسله على رأس وفد إلى السلطان العثماني سليم الأول (1512-1520م) بهدف إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية[3]. إلا أن العلاقة توترت بين الطرفين بعد ذلك لما استولى ابن القاضي على مدينة الجزائر في عام 1521م، وطرد منها خير الدين الذي لجأ إلى جيجل، ولم يعد إليها إلا في عام 1526م[4].

كما أن عروج كان لا يبادر بالتوجه إلى منطقة ما إلا بعد استشارة العلماء والأخذ برأيهم، ويظهر أن ذلك راجع إلى المكانة التي كان يتبوؤها هؤلاء داخل المجتمع، فغرضه من ذلك عدم إثارة أي معارضة ضد أعماله العسكرية، وكسب المزيد من المؤيدين والمنخرطين في جيشه، الذي كان يعاني في كثير من الأوقات من قلة العدد، فيخبرنا صاحب "الزهرة النائرة" أن سكان مدينة

تنس استنجدوا بعروج ضد حاكمهم حميد العبيدي عميل الأسبان، وقبل خروجه إليهم "استفتى علماء المدينة فأفتوه بإباحة دمه ودم من معه من المفسدين"[5]، وهكذا تمكن من إخضاعها في شهر جوان 1517م بعدما تخلص من حاكمها العميل للأسبان.

سنخصص دراستنا لموقف علماء تلمسان من العثمانيين، وبخاصة أن مواقفهم من ذلك كانت متعارضة ومتباينة، وذلك لأسباب عديدة، فمدينة تلمسان كانت تشكل حالة خاصة مقارنة بكثير من مدن الجزائر آنذاك، فهي عاصمة الدولة الزيانية المتهاوية، والتي كانت لفترة طويلة من الزمن منارة علمية تعج برجال العلم وطلابه[6]، كما كانت تمثل نقطة عبور إلى المغرب الأقصى الذي كان في صراع متواصل مع الزيانيين ثم العثمانيين فيما بعد، بسبب أطماعهم التوسعية.

أدت هذه الأوضاع مجتمعة، وبالخصوص الصراع الزياني العثماني إلى تدهور أوضاع تلمسان خلال القرن السادس عشر ميلادي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، فولد ذلك مواقف متباينة بين علماء تلمسان الذين لم يقفوا على الحياد، ماعدا بعضهم، فكان منهم من ساند العثمانيين ورأى فيهم خلاصا لتلمسان وسكانها من الحكام الزيانيين الضعفاء والعملاء للأسبان، ومنهم من رأى في هؤلاء القادمين مجرد سفاكين للدماء لا يهمهم إلا اضطهاد السكان، فجلبوا الويلات على تلمسان بسبب ذلك، وبخاصة أنهم كانوا أعاجم فلم يتأقلموا ويندمجوا مع السكان.

وكان قدوم عروج إلى تلمسان بعد استقباله لوفد عن المدينة لما كان بتنس، أين اتصلت به جماعة من سكان المدينة طالبين منه مساعدتهم على التخلص من حاكمهم أبو حمو الزياني عميل الأسبان، الذي كان قد بادر إلى سجن الوريث الشرعي للعرش مولاي بن زيان[7].

وكان من بين من ساعدوه ودعموه للقدوم إلى تلمسان بعض العلماء والفقهاء، وذلك ما شجعه على القدوم إلى تلمسان ودخولها دون عناء كبير، فحرر الوريث الشرعي وأعاده إلى العرش، أما أبو حمو فلجأ إلى طلب الدعم من الأسبان، ولعل السهولة التي وجدها في دخول تلمسان ترجع إلى مباركة العلماء والأعيان لهذا القدوم ودعوة الناس إلى الالتفاف حوله.

أ- نماذج لعلماء تلمسانيين عارضوا العثمانيين: إلا أن ما يسترعي الانتباه في سياسة عروج بعد دخوله تلمسان كان تغير سياسته تجاه العائلة الحاكمة وأعيان المدينة، إذ وبعد أيام من ذلك

نجده يتخلص من السلطان أبا زيان وسجنه مع ستة من المرشحين للملك ونحو ستين من الأمراء، فولد ذلك معارضة لدى علماء تلمسان وعامتها، وكان من بين أبرز المعارضين العالم أحمد بن ملوكة التلمساني إذ يذكر صاحب "دوحة الناشر" أن سكان تلمسان استغلوا خروج عروج إلى جبل بني يزناسن واتصلوا بابن ملوكة يشكون من سياسته ويتخوفون عودته إلى المدينة مجددا، فغضب الشيخ غضبا شديدا ثم ضرب الأرض بيده، وقال: "لارجع إلى تلمسان أبدا اعتمادا على الله تعالى"[8]. فكان ذلك ما حدث، إذ استشهد عروج مع عدد كبير من جنوده. غير أنه لا بد أن نبين بأن تحول سياسة عروج كان نتاجا لتجدد الفتن داخل المدينة، وذلك ما هدد مشروعه في توحيد الجزائر[9].

إن معارضة علماء تلمسان للعثمانيين وسياستهم لم تتوقف طيلة بقائهم في المدينة، حيث نصادف كثيرا من الوقائع والأحداث التي تبين لنا أن علماءها كانوا غير راضين في كثير من الأوقات على تصرف هؤلاء، حتى أن بعض المرابطين الذين كانت لهم كرامات، سعوا إلى إبعادهم عن المدينة وإنهاء حكمهم، فهذا الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن اليعقوبي الندرومي، كان قد قدم إلى تلمسان، وخرج ليلا إلى ضريح سيدي أبا شعيب، ولما وصل عند بابه صاح قائلا: "خديمك يا أبا مدين عبد الرحمن اليعقوبي يستأذنك في الدخول إن أذنت وإلا رجع"، فدخل إلى الضريح وشاور أبا مدين في عزل العثمانيين، فأجابه: "ما كان شيء نبدلهم به إن أردت أن نجعلك في موضعهم"، فأجابه بالرفض[10].

فهذه الحادثة تبين لنا أنه وجدت معارضة سرية للوجود العثماني في المدينة، إلا أنها لم تستطع أن تبرز إلى العلن لعدم وجود طرف قوي بإمكانه تولي شؤون المدينة في حال مغادرة العثمانيين لها.

وما يجب التأكيد عليه في هذا المجال أن كثيرا من تصرفات العثمانيين تجاه علماء تلمسان كانت سببا في إثارة غضب هؤلاء ونصبهم العداء تجاههم، ومثال ذلك ما قام به حاكم تلمسان القائد حفيظ، لما أساء معاملة الشيخ ابن للو التلمساني، ورغم أنه حاول بعد ذلك استرضاءه ببعض المواد الغذائية كالدقيق والسمن وغيرهما، فان الشيخ رفض ذلك، بل ويقال بأنه أمسك بلحية القائد حفيظ وجلبه منها حتى أخذ منها بعض الشعر، كما أنه اقسم بأن يهجر تلمسان

ويسكن بلد النصارى، ويذكر أنه فعلا خرج منها مصطحبا معه أهله ونزل في مكان بوادي غريس ثم معسكر أين استفتى علماءها في يمينه[11].

ولعل من أبرز من ناصب العداء للعثمانيين من علماء تلمسان، الشاعر والفقيه أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني خلال القرن 11هـ/17م ، فلقد عاصر عهد الثورات ضد الحكام الأتراك العثمانيين بل وكان من بين المحرضين والداعين إليها، وكان قد اشتهر بالمدائح النبوية فهو كاتب منظومة "العقيقة" التي شرحها أبوراس عدة مرات، وكذا الحال لأدباء آخرين، وكتب الشعر الفصيح والملحون[12]. إلا إن ما يهمنا في هذا المقام موقفه من العثمانيين والأسباب التي جعلته يظهر عداءه علنا لهم، فقلد كان المنداسي من الأدباء البارزين في تلمسان ويظهر أن الوضعية الثقافية المتدهورة بها جعلته ينقم على من كان المتسبب فيها، كما أنه كان على اتصال دائم بعلماء المغرب وسلاطينها إذ ربطته بهم علاقة جيدة، وهذا ربما ما جعله يهجو العثمانيين، باعتبار أنه وجد ملجأ في المغرب، وحتى أن سلطان المغرب محمد بن الشريف العلوي كان قد منحه حوالي خمسة وعشرين رطلا من الذهب الخالص مقابل أشعار مدحه فيها[13].

وبعد هجرته إلى المغرب باشر المنداسي هجاء الأتراك وكشف عيوبهم، مستعملا في ذلك شعره اللاذع، فنجده يستعمل أبشع الأوصاف في حقهم متهما إياهم بالظلم وحب المال، فهم لا يتأخرون- حسبه- في استعمال كل السبل من أجل الحصول عليه، كما أرجع تدهور حال تلمسان إلى سياستهم، ومما يقوله في هذا المجال[14]:

أمن قادر بالله يحمي تلمسانا	فان بها من قوم يأجوج إخوانا
بنى السد ذو القرنين للناس رحمة	فيا ليته من شوكة الترك هنانا
سمعنا حديثا صادق النقل ربه	بأن لجنس الترك في الأرض إخوانا

ثم يواصل في هجائهم مبينا مثالبهم فيقول:

فما دب فوق الأرض كالترك مجرم ولا ولدت حواء كالترك إنسانا

ولا طار مثل الترك للسمع طارق	ولا وجد الشيطان كالترك فتانا
عتوا واستفزوا المسلمين من القرى	وقد عبدوا حمر الدنانير أوثانا
كأكل الربا من السفاح تناسلوا	فلا مارد إلا ويترك شيطانا
وأكبر شيئا فسدته اكفهم	تلمسان عين الغرب علما وإيمانا

ولم يسلم من هجائه حتى مفتي المدينة آنذاك، أحمد بن زاغو الذي اتهمه بمحاباة العثمانيين ومجاراتهم في ظلمهم، وبالظلم وتناول المسكرات، وأنه هدم دار العلم ومما قاله في حقه[15]:

أتهدم دار العلم في خانـــك الذي تبيت فيه و تضحى فيه ويحك سكرانا

لان فعلت بالخلق مثلك سوقـــة فقد سد منك الظلم للناس أركانـــــا

فأنت لسان الترك والسيف لافظ تسر ويمضى السيف قولك إعلانـــــا

ولم يتوقف المنداسي عند هجاء الأتراك بشعره، بل يقال إنه كان المحرّض للسلطان مولاي إسماعيل على إعلان الحرب ضدهم، فكان أن اندلعت حرب بين البلدين في عام 1679م انتهت بفشل السلطان. وقد عاش المنداسي بقية أيامه في المغرب حتى أدركته المنية بسجلماسة.

ب- نماذج لعلماء قدموا النصح للعثمانيين: وفي مقابل هذا الصنف من العلماء الذي أظهر معارضة علنية للعثمانيين في تلمسان، نجد صنفا أخر حاول أن يتعايش مع هذا الواقع، رغم أنه كان غير قابل لذلك الوضع، وربما اتقاء للفتنة، فأنه كان يلجأ إلى تقديم النصح للعثمانيين حتى يغيروا من سياستهم ويتجنبوا بذلك غضب السكان الذين كانوا يثورون من حين لأخر ضدهم، وهذا ما حدث في عام 1035هـ/1625م لما ثار السكان ضد القائد العثماني محمد بن سوري بسبب ظلمه وجوره، فدفع ذلك بالشيخ محمد بن علي العبدلي إلى الدخول على هذا القائد وتقديم النصح له بأن ينتهي عن أفعاله وتوعده بكوارث الأمور إن هو واصل في ذلك قائلا له: "لا تجعل نفسك هدفا للنصال، ولا تنصبها لرمي النبال، باعد البلاء يباعدك البلاء"[16]، ويذكر صاحب "كعبة الطائفين" عن دور الشيخ العبدلي في إخماد نار الفتنة فيقول: "ولقد رأيت سيدي العبدلي اجتمع عليه العامة والغوغاء، والجنود محصورون في المشور، والنساء يزغردن على اجتماع العامة؛ فقام الشيخ العبدلي يبكي وينوح نواح الثكلى بصوت عال، وازدحم عليه الناس في مسجد الوزان، ووعظ كبار القوم وطلب منهم التدخل لمنع العامة من تنفيذ ثورتها وذكرهم بما حدث لوهران إذ قال أن سبب ضياعها هو أن كبارها لم يمنعوا العامة من الثورة، ولم يحكموا الشريعة الإسلامية في ذلك[17]، ويذكر أن الشيخ العبدلي سافر إلى مدينة الجزائر من أجل حل هذا الخلاف وإيقاف الصراع بين العثمانيين وأهل تلمسان غير أنه توفي في طريق عودته إلى المدينة[18].

ج- نماذج لعلماء أيدوا العثمانيين: إلا أن ما يجب الإشارة إليه في هذا المجال، أنه لم يكن كل علماء تلمسان معارضين للتواجد العثماني في المدينة منددين بسياستهم، بل نجد الكثير منهم قد أيدوا هؤلاء وبينوا فضلهم على الجزائر، ودورهم الهام في الدفاع عنها ضد الصليبيين والطامعين، وخلدوا ذلك في كتاباتهم وأشعارهم، ومن هؤلاء الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن موسى الذي أشاد في قصيدة بانتصارات البيلرباي حسن بن خير الدين باشا، وبخاصة بعد تمكنه من فتح حصن المرسى الأعلى، وإجبار الأسبان على الخروج منه واللجوء إلى الحصن الأسفل؛ فكان مما ذكره في هذه القصيدة[19]:

هنيئا لك باشـــا الجزائر والغرب بفتح أساس الكفر مرسى قرى الكلب

ستفتح وهرانـــا ومرســـاها التي أضرت بــذا الإقليم طــرا بلا ريب

فثق بالله واستعن بـــه واصبـــرن ينلك المراد يا أميري ومطلبـــــــي

وكان قبل تخليد هذا النصر قد نظم قصيدة يواسي فيها هذا الباشا على ما أصابه من حزن بعد مقتل عدد من جنوده أثناء حصار الحصن، وذلك قبل أن يصله المدد من مدينة الجزائر الذي مكنه من فتح هذا الحصن، ومما يقول فيها[20]:

تحيي بنصر مع فتوح تواتـــــــــرت على نجل خير الدين خير المطالب

وترضيه يـــا مـــولاي في كـــل وجهة وتمنحه عـــزّا وخيـــر العـــواقب

وتكشف ضـــرّه وتحفظ ســــــرّه تفرج كربـــه باعطـــا المـــآرب

كما أن كثيرًا من كبار علماء تلمسان كانوا قد تولوا الوظائف الدينية في المدينة، وهي تحت حكم العثمانيين، وربما هذا يكون دليلا على اعتراف هؤلاء بالأسياد الجدد للمدينة، ومن أشهر هؤلاء العالم والفقيه سعيد بن أحمد بن أبي يحي بن عبد الرحمن بن بلعيش المقري، الذي جلس على كرسي الإفتاء والخطابة بالجامع الأعظم لأكثر من خمسة وأربعين سنة، كما أنه كان من كبار علماء عصره حيث برع في شتى أصناف العلوم النقلية كالتوحيد والفقه واللغة والشعر والأمثال والتاريخ، وكذا الحال في العلوم العقلية كالحساب والهندسة والطب والتشريح والتنجيم والفلاحة وغيرها من العلوم[21]، وإلى جانبه نجد العالم المفتي محمد بن أحمد الحلفاوي الذي نظم أرجوزة تخلد فتح وهران الأول في عهد الداي محمد بكداش عام 1708م، والتي شرحها الجامعي،

والمفتي أحمد بن زاغو الذي كان الشاعر المنداسي قد هجاه متهما إياه بالخضوع للعثمانيين والتعدي على حدود الدين.

د- نماذج لعلماء هاجروا تلمسان رفضا للواقع الجديد: عرفت الجزائر عامة، وتلمسان خاصة، خلال هذا العهد نزيفا كبيرا نتيجة لهجرة عدد كبير من العلماء لأسباب كثيرة، منها السياسية ممثلة في الاضطرابات التي عرفتها الإيالة آنذاك، وأخرى علمية حيث هاجر كثير من العلماء طلبا للعلم خاصة إلى المراكز العلمية المعروفة آنذاك كالقرويين والأزهر أو الحرمين الشريفين، غير أنّ بعضهم الآخر هاجر من أجل نشر العلم، ومن هؤلاء أحمد المقري التلمساني (ت 1631) الذي دّرس في القاهرة والحجاز وبلاد الشام، ومن الأسباب الأخرى الدافعة للهجرة اللدوافع الدينية، وبخاصة زيارة الأماكن المقدسة وأداء فريضة الحج، وكان كثير من العلماء يعاود الزيارة لمرات عديدة، ومنهم من كان يفضل الاستقرار نهائيا بجوار الحرمين الشريفين.

ومن المناطق التي استقطبت الكثير من علماء تلمسان المغرب الأقصى، ويظهر أن ذلك ارتبط بالأوضاع السياسية التي عرفتها المنطقة الغربية للإيالة، وبالخصوص تلمسان، ومنها فشل الحملة السعدية لاحتلال المدينة، حيث رافق السلطان السعدي عند مغادرته للمنطقة في عام (968هـ/1560م) عدد كبير من العلماء الذين استقروا هناك، وتولوا الوظائف الدينية كالقضاء والإفتاء[22].

ومن العلماء الذين غادروا تلمسان واستقروا بفاس، سيدي محمد بن عبد الرحمن بن جلال الوعزاني التلمساني (908-981هـ/1502-1573م)، وهناك تقلد وظيفة الإفتاء والخطابة، إلى جانب أنّه برع في الفقه والحديث والأدب، وتوفي بفاس يوم 8 رمضان 981هـ/1573م[23]. أمّا عبد الرحمن المغراوي المدعو ابن جلال، فقد ولد بتلمسان في عام 908هـ/1502م، وكان من مقربي السلطان السعدي خلال حملته على تلمسان، وبعد مغادرة هذا الأخير إلى فاس رافقه ابن جلال إلى هناك فتولى وظيفة الإفتاء والتدريس والخطابة بجامع الأندلس ثم بجامع القرويين لأكثر من عشرين سنة[24].

ولعلّ من أشهر العلماء الذين غادروا تلمسان نحو المغرب الأقصى، محمد شقرون بن هبة الله الوجديجي التجيني التلمساني (1503-1575م)، وكان قد ولد وتعلم بتلمسان، كما تولى وظيفة الفتوى بها، وبرع في شتى العلوم كالحساب والفرائض والبيان والمنطق والتفسير، ورحل

إلى فاس عام 967هـ/1560م، وتقلد الفتوى بمراكش حيث ذاع صيته حتى أصبح يكنى "بمالك الصغير"، وتوفي بفاس سنة 983هـ/1575م عن عمر يناهز خمسا وسبعين عاما[25].

وكان محمد بن أحمد بن الوقاد التلمساني قد ولد بتلمسان وتعلم بها، ثم انتقل إلى المغرب الأقصى، وهناك تقلد وظائف شتى كالقضاء بتارودانت والخطابة بمكناس ثم بجامع الأندلسيين في فاس، وأخيرا استقر بتارودانت وبها توفي عام 1001هـ/1593م[26].

ويعتبر المقري شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد من أهمّ العلماء الذين غادروا تلمسان، وكان قد ولد بها عام 986هـ/1578م، ودرس هناك على عمّه عثمان سعيد مفتي تلمسان، أمّا وجهته فكانت حاضرة فاس حيث تولى وظيفة الإفتاء والخطابة والتدريس بجامع القرويين لحوالي ثلاث عشرة سنة، ومن هناك انتقل إلى المشرق العربي، فدّرس بالأزهر الشريف وبلاد الشام والحجاز، ويقال إنّه حج البيت الحرام خمس مرّات كما زار بيت المقدس ودمشق وتوفي بالقاهرة، وهو مؤلف كتاب "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب"[27].

إلا أن ما يلاحظ على هؤلاء العلماء المهاجرين، أنهم لم يظهروا أي معارضة للعثمانيين، مثل ما فعل المنداسي، فلا نصادف في كتاباتهم ما يدل على ذلك، رغم أنهم في كثير من الأحيان كانوا يبدون شوقا وحنينا إلى تلمسان، وهذا ما نلاحظه في كتابات المقري الذي ظل يحن إليها رغم انه توفي بعيدا عنها، وعموما فان هجرة العلماء من الجزائر لم يرتبط بالعهد العثماني فحسب، بل سبق ذلك العصر وامتد إلى العهد الفرنسي، ويتواصل إلى غاية يومنا هذا، أما فيما يخص مواقف علماء تلمسان من العثمانيين، فلقد تحكمت فيها عوامل شتى، ذاتية وأخرى موضوعية.

الهوامش:

1- المدني احمد توفيق ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و اسبانيا 1492- 1792، الطبقة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص127.

2- صادق محمد حاج ، مليانة ووليها سيدي احمد بن يوسف ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1989،ص 103.

3- التميمي عبد الجليل ،"أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519"، المجلة التاريخية المغربية العدد 6، تونس، جويلية 1976 ،ص ص 116- 120.

4- Haede (fray Diégo de). « Histoire des rois d'Alger », traduit et annotée par H.D de Grammont, R.A, Tome 24, pp. 124-125.

5- الجديري محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلالي بن رقية التل مساني ،" الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة "، تحقيق سالم بابا عمر ، مجلة تاريخ و حضارة المغرب كلية الأدب الجزائرية ،عدد 3 ،جويلية 1976، ص7.

6- يعطينا حسن الوزان تفاصيلا هامة عن الوضع الثقافي في تلمسان قبيل مجيئ العثمانيين ، لمزيد من التوضيح انظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف أفريقا، ترجمة حجي محمد والأخضر محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983 ، ص ص20-21.

7- Gaïd Mouloud. L'Algérie sous les turcs ,2éme édition, Edition Mimouni, Alger, 1991, p.41.

8- الحسني محمد بن عسكر الشفشاوني ،دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر (تحقيق حجي محمد)، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الطبعة الثالثة، مطبعة الكرامة، الرباط، 2003، ص ص 121-122.

9- المدني أحمد توفيق، المرجع السابق، ص189.

10- ابن مريم المليتي التلمساني أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد ،البستان في ذكر العلماء و الأولياء بتلمسان (تقديم طالب عبد الرحمن)، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، ص 134.

11- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ،الجزء الأول ،الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،2005 ، ص 421.

12- نفسه، الجزء الثاني، ص 265.

13- سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص428.

14- ذكر هذه القصيدة الشيخ المهدي عند تقديمه لمخطوط الثغرالجماني . لمزيد من التوضيح انظر، ابن سحنون احمد محمد بن علي الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، سلسلة التراث، قسنطينة، 1973،ص 56-57.

15- نفسه ،ص 57.

16- سعد الله أبو القاسم، أبحاث و أراء في التاريخ الجزائر، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2005، ص 225.

17- نفسه ، ص ص 225- 226.

18- نفسه ،ص226 .

19- ابن مريم التلمساني ، المصدر السابق ،ص 132-

20- المصدر نفسه ، ص 133.

21- نفسه ، ص ص 104-105.

22- سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص 43، وراجع كذلك: ابن مريم التلمساني، المصدر نفسه.

23- المصدر نفسه، ص ص 260، 261.

24-سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص433.

25- ابن مريم، التلمساني، المصدر السابق، ص 261.

وكذلك نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، الطبعة الثانية، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1980، ص 188.

26-هلال عمار، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية خلال القرنين التاسع و العشرين الميلاديين(3-14هـ)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص ص 166-167.

27- الحفناوي أبو القاسم محمد بن الشيخ بن آبي القاسم الديسي بن سيدي إبراهيم الغول ،تعريف الخلف برجال السلف، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة بيروت و المكتبة العتيقة بتونس، صص 434- 435.
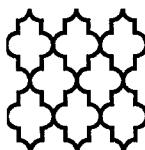
سلاطين مملكة تلمسان الزيانية في مواجهة الإخوة بربروس 1517-1546

د. بن عتو بلبروات*

تمهيد: في مطلع القرن السادس عشر أضحى المغرب الأوسط الممزق إلى جمهوريات وإمارات صغيرة متناثرة ومتنافرة، يعيش مخاضا عسيرا، دام سنوات، ليلد لنا حكومة مركزية عاصمتها مدينة الجزائر، ويشرف عليها الأتراك العثمانيون الذين بشأنهم انقسمت المملكة التلمسانية الزيانية المتضعضعة إلى ثلاثة صفوف، الأول يعاديهم ويستعين بأعدائهم، مثل السلطان أبو حمو الثالث الزياني وأنصاره من قبائل المنطقة الغربية في التل ومشارف الصحراء، والثاني يساندهم ويناصرهم مثل عدد من أعيان تلمسان وكثير من الكادحين، والثالث يتأرجح بين المناصرة والعداوة مثل أشقاء أبي حمو الثالث المذكور والذين حكموا بعده بالتتابع (السلطان المسعود والسلطان عبد الله).

وبهذا الصدد ارتأينا أن نستعرض بعض تفاصيل الصراع الذي قام بين بعض سلاطين تلمسان الزيانيين وقادة الترك في الجزائر وعلى رأسهم الإخوة[1] بربروس[2] في النصف الأول من القرن السادس عشر، وهو صراع لا يزال يكتنفه الغموض أمام تضارب الأطروحات التاريخية بين المصادر التركية والعربية وبين دراسات المستشرقين الفرنسيين. وعليه سنسلط الضوء على أبرز محطات الصراع التلمساني -التركي ودور القوى الأجنبية في تأجيجه في عهد السلطان أبو حمو الثالث المتوفي سنة 1528، وبعده السلطان مسعود والسلطان عبد الله.

1-الصراع بين أبي حمو الثالث الزياني والإخوة بربروس 1517-1528: يرجع تاريخ الصراع التركي -الزياني إلى أول مبادرة للتلمسانيين في إظهار تأييدهم لمشروع الإخوة بربروس في الجزائر سنة 1517 حيث استغل ممثلوهم فرصة انتصار عروج[3] على أمير تنس المسمى بحميد العبد نسبة إلى شدة سمرته والذي عرف بعمالته للاسبان، وانضمام سكان منطقة المتيجة

* - أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث- قسم التاريخ- جامعة الجيلالي ليابس (سيدي بلعباس).

ومليانة والمدية والشلف وجزء من جبال الظهرة والونشريس إلى جيش الترك، فقصدوا مقر إقامته يبلدة تنس وعرضوا عليه التدخل في تلمسان لتحرير غالبية ساكنيها من ملكهم الزياني أبو حمو الثالث الذي أظهر ولاءه للاسبان المحتلين لوهران والمرسى الكبير من خلال قبوله لمعاهدة الحماية الاسبانية على تلمسان سنة 1512م وما تتضمنه من شروط أبرزها دفع الجزية للاسبان سنويا والمقدرة بإثني عشر ألف دوكة وعدد من الخيول، ثم إطلاق سراح الملك الشرعي مولاي أبو زيان وإعادته للعرش الزياني.

وجد أبو حمو الثالث نفسه أمام قوة عسكرية تركية غازية تسندها قوة شعبية تلمسانية فقرر الهرب ومعه محتويات الخزينة المالية، وحينها تمكن عروج من دخول تلمسان دون مقاومة تذكر. وأولى الإجراءات التي اعتمدها عروج بتلمسان هي: تنصيب نفسه على عرش بني زيان أمام هتافات السكان[4]، والإفراج عن الأميرين الأخوين للملك أبي حمو الثالث الفار، وهما مولاي عبد الله ومولاي المسعود اللذان توجها إلى فاس، كما لم يغفل تسريح كل المساجين.

رأى أبو حمو الثالث أن مناصريه من المقاتلين لا يمكنهم استعادة عرشه بتلمسان إلا بمساعدة قوة خارجية، وفضل أن تكون أولا المملكة المغربية، فلجأ في سبيل ذلك إلى فاس وحل على سلطانها المريني، راجيا منه حمايته ومده بالعون للجلوس على عرش آبائه بني زيان التزاما بعلاقات الود والتضامن بين ملوك فاس المرينيين وسلاطين تلمسان الزيانيين في وقت الأزمات عبر التاريخ[5].

والملفت للانتباه في هذا الصدد أن عروج أقدم على إعدام مولاي أبو زيان –الملك الشرعي المحرر– ونحو سبعين فردا من حاشيته ومن العائلات الزيانية وأكثر من ألف من أهل البلد حسب رواية الناصري أبو راس، ولا تزال هذه الحادثة المروعة محل استفهام، لكن الأستاذ أحمد توفيق المدني يرجع سبب ذلك إلى تجدد الفتن[6] في تلمسان، ولعله وجد الملك الزياني وحاشيته وراء ذلك مثلما فعل سليم التومي أمير مدينة الجزائر.

ولما كانت ضواحي قلعة بني راشد المحصنة طبيعيا، ذات أهمية زراعية، فقد ركز الاسبان الذين بوهران على استغلال كل ما تنتجه تربتها الخصبة وبالأخص الحبوب، حيث فرضوا على ساكنيها نقل موادهم إلى وهران، وهو ما أثار حفيظة عروج بتلمسان فهدد بمعاقبة كل من مارس التجارة مع الاسبان ومولهم بما يحتاجونه.

استغل أبو حمو الثالث هذه الحادثة فتقرب من الاسبان طالبا منهم المساعدة لاعتلاء كرسي العرش بتلمسان، فكتب رسالة إلى حاكم وهران العسكري، ذكر له فيها أن منذ سقوطه من على عرش تلمسان وصعود الأتراك العثمانيين، تراجع نفوذ الاسبان بالمنطقة، والدليل على ذلك انقطاع التموين الغذائي لقلعة بني راشد وما جاورها. لكن في ظل التحالف بين الطرفين ضد عروج ومساعدة الاسبان للملك المخلوع، بالعساكر والمال، سيكون الاسبان دوما بعيدون عن القحط والمجاعة. يجب على الاسبان أن يحددوا عواقب تصاعد قوة عروج ويختاروا أفضل السبل لايقافه وإلا سيصيرون ضحايا لتفريطهم، وحينئذ يكون ضياع القلعة التي يسيطرون عليها، هي أهون الأضرار التي تنتظرهم[7].

جاءت الموافقة الاسبانية بشأن التعاون العسكري مع الملك المخلوع "أبو حمو الثالث" ومناصريه ضد العدو التركي العثماني المشترك، وتلبية مطالبه العسكرية والمالية وكل ما يراه ضروريا لقهر عروج شريطة التحضير الفوري لهجوم ضد عروج وجيشه. وكان لرسالة الحاكم الاسباني لوهران وقع على نفسية الملك المخلوع فطلب منه أن يمده بالمال لجمع جيش من القبائل الجزائرية لاسترداد تلمسان من الأتراك العثمانيين ووعدهم بتزويدهم بالمواشي والحبوب والخضر وجميع المستلزمات، حالما يفتك منهم، المناطق التي خضعت لهم.

صدر الرد الاسباني بشكل فوري متضمنا، تزويد أبوحمو الثالث بسبعة آلاف دوكة Ducats مقابل ستين رهينة من أبناء شيوخ القبائل العربية كضمان لوفاء السلطان للاتفاق المبرم بين الطرفين. وفعلا جمع الملك الزياني المخلوع خمسة عشر ألف فارس وأرسل الاسبان من وهران سبعة آلاف وخمسمائة جندي من المشاة[8].

لما علم خير الدين بتحركات الاسبان والملك الزياني المخلوع ضد عروج، أرسل فرق عسكرية تركية إلى قلعة بني راشد بقيادة شقيقه اسحاق بربروس، وعند بلوغهم مشارف القلعة وجدوها محاصرة من طرف الاسبان وأعوانهم، فقرر اسحاق منازلتهم فأسفر ذلك عن انتصار الطرف التركي العثماني الذي قتل ستمائة اسباني في ساحة المعركة، وأسر ثلاثمائة منهم ثم دخلوا القلعة وتحصنوا بها.

حاصر السلطان الزياني أبو حمو الثالث، قلعة بني راشد بجيشه المتكون من العرب والاسبان، من جوانبها وجرت مناوشات عسكرية بين العساكر الأتراك والجيش العربي-

الاسباني، وبعد أيام قلائل اقترح الأتراك العثمانيون بقيادة اسحاق بربروس، العمل على إيجاد منفذ للنجاة من الحصار، لكن لم يفلح ذلك حيث نبه جواسيس بالقلعة، سلطان تلمسان المخلوع، بتشديد الحراسة على المخارج. أما الاسبان فقد صوبوا أحد البطاريات نحو المنفذ المقرر للهروب، وشرعوا في قصفه بعدة رميات مدفعية مما أودى بحياة العديد من الأتراك العثمانيين، وقلة منهم، عادوا إلى القلعة وصمدوا لمدة ستة أشهر[9].

في غضون هذه الفترة حاول المحاصرون اختراق سور القلعة وحصونها بواسطة الألغام، لكنهم واجهوا مقاومة عنيفة من طرف الترك، مما جعل جيش أبي حمو الثالث الزياني يصر على مواصلة الحصار والقتال ولو كلفه ذلك ست سنوات. وأمام هذا الإصرار الزياني-الاسباني على افتكاك قلعة بني راشد من الأتراك العثمانيين، أعلن اسحاق بربروس وجماعته عن مغادرتهم للقلعة مصطحبين أسلحتهم ومستلزماتهم، وفي المقابل أجبرهم المحاصرون على تحرير الأسرى المسيحيين، وتقديم ستة عشر رهينة من كبار الضباط الأتراك.

تم الاتفاق على هذا الشرط وخرجت الحامية التركية من القلعة لكن باغتتها قوات الزياني والاسبان ونقضت عهد الأمان وجرى قتال بين الطرفين وكانت المحصلة، مقتل جميع العساكر الأتراك العثمانيين بما فيهم القائد اسحاق.

سيطر أبو حمو الثالث الزياني على قلعة بني راشد، وشرع في إنجاز أهم الأعمال التي تتطلبها القلعة، وأقام بها حامية عسكرية قوية، ثم توجه إلى مدينة تلمسان وحاصرها مدة ستة وعشرين يوما حتى شعر عروج بربروس بحلول القحط، وقيل أن سكان المدينة ثاروا ضده[10]، فقرر الابتعاد عن الأعداء، فخرج من تلمسان وبصحبته صناديق، من النهب والفضة، كانت مودعة بالخزينة المالية حتى لا يستولي عليها أعداءه.

طارد الاسبان عروج بربروس وجنوده مستعملين خيل بني موسى ولم تنطل عليهم خدعة القطع النهبية التي رماها عروج على الأرض لإلهائهم عن ملاحقته، وعندما لم يجد سبيلا للنجاة قرر عروج مواجهة المطاردين الاسبان فأصيب في بداية القتال بطلقة نارية أودت بحياته وهو لم يتجاوز الخمسة والأربعين من عمره، ولم يسلم أحد من جنوده البواسل[11]. وكان ذلك في يوم عيد الفطر من سنة 935هـ/ شتاء 1518.

غير أن المؤرخين لا يتفقون على مكان استشهاده، فصادف أنه قتل قـرب واد المـالح أو في جبل بني موسى غرب تلمسان قرب نهر وجدة على الحدود الجزائرية المغربية، أو في جبل بـني يزناسن[12].

تأثر خير الدين بوفاة شقيقيه عروج واسحاق وجنودهما، فانتظر فـصل الربيـع ليغـزو الغرب الجزائري بجيش يتكون من ستمائة تركي وعشرون ألف فـارس عـربي، قـصد إعـادة إخضاع سكانه. ولما تحقق له ذلك قرر العودة إلى مدينة الجزائر وأوصـى أنـصاره مـن سـكان المقاطعة الغربية بتجنب مقاومة سلطان تلمسان "أبو حمو الثالث" عندما يغزو أراضيهم بـل علـيهم إظهار ولائهم لسلطانه اتقاء للضرر إلى أن يحين موعد الانتقام منه ومن أسياده الاسبان.

وعليه لم يتأخر أبو حمو الثالث الزياني في غزو المناطق الغربية الخاضعة للأتـراك العثمـانيين، مدنا وأريافا حتى وصل إلى ضواحي مدينة الجزائر في حين أرست سفن اسـبانية قـرب المدينـة وجرى القتال بين الأتراك العثمانيين والاسبان وبعد أن تبين للـسلطان الزيـاني، هزيمـة حلفائـه الاسبان، عاد أدراجه إلى مدينة تلمسان[13]، وكان ذلك في سنة 1520م.

وفي أعقاب ذلك بدأت تتصاعد قوة خير الدين بربروس، فقد نجح في إلحـاق الجزائـر بالباب العالي ومنحه السلطان العثماني لقب بايلرباي (باي البايات أو أمـير الأمـراء) وشـرع في إعادة تحصين مدينة الجزائر ومينائها مما أثار قلق سلطان تونس الذي هـرع إلى مكاتبـة سـلطان تلمسان "أبو حمو الزياني" قائلا له فيها: "أن الأتراك المتمركزون بمدينة الجزائر، يتميـزون بـالطموح إلى فرض سيطرتهم على ممتلكات جيرانهم من الحفصيين بتونس والزيانيين بتلمـسان، وإذا تركنـا المجال مفتوحا أمام خير الدين لتقوية مركزه فإننا سنفقد مستقبلا، مناطق حكمنا. وعليـه أدعـوك إلى اتخاذ التدابير اللازمة ما دام هناك متسعا من الوقت. ولـيكن في علمـك أن مـصدر نمـوه العسكري والسياسي بالجزائر هي تلك المداخيل الناتجة عن القرصنة البحرية الممارسـة في عـرض الحوض الغربي للبحر المتوسط، والدعم المادي الذي يقدمه له السلطان العثمـاني. وبالتـالي فـلا مناص من أن يكون هدفه هو إزاحة الحفصيين والزيانيين من عرشيهما، مما يفـرض علينـا العمـل سويا لاختراق هذه الامبراطورية الناشئة، ولعل أولى الإجراءات الـتي نتخـذها هـي اسـتمالة شخصيتين عسكريتين مواليتين لخير الدين تتقاسمان مناطق نفوذ الأتراك العثمانيين بالبلاد، أحـدهما في مقاطعة الشرق وهو أحمد بن القاضي والآخر في مقاطعة الغرب وهو محمد بن علـي، فعليـك

كسلطان لمملكة تلمسان أن تظفر بمحمد بن علي، ولما ننجح في إثارة الانقسام بين الرجلين من جهة وخير الدين من جهة أخرى، تبقى أمامنا تدابير أخرى سهلة الإنجاز"[14].

كانت هذه الرسالة قوية في تحريك أحقاد سلطان تلمسان "أبو حمو الثالث" ضد خير الدين بربروس، حيث يعلم أن هذا الأخير، يكن له هو الآخر،حقدا ويتعجل الانتقام منه ما دام هو المتسبب في قتل أخويه عروج واسحاق، ناهيك عن مساندته للاسبان في غزو مدينة الجزائر. لقد رأى أبو حمو الثالث أنه من الضروري الاستجابة لنصيحة سلطان تونس وتجنب التريث وإضاعة الوقت بغية الحفاظ على حياته وعرشه.

سارع سلطان تلمسان إلى مكاتبة محمد بن علي قائلا له:" أنه بلغني من أطراف موثوقة بأن خير الدين عازم على تجريدك من مهامك كقائد للمقاطعة الغربية، فالعربي في نظره، كائن بخس، وقد عول عليك لما كان فاقدا للقوة، أما الآن فيمكنه الاعتماد على الدعم العثماني، وهو يعتقد أن مكانتك تليق بشخصية تركية. وإذا كنت تثق في شخصي فاسمع نصائحي واستعد إلى أن تتبعني وتحارب إلى جانبي، وهذا هو السبيل الوحيد لحماية نفسك من المهالك التي تنتظرك، وإذا ظللت وفيا لخير الدين فلا تفكر في اللجوء إلى بلاطي، فما عليك إلا التفكير في نصيحتي التي تملي عليك الحذر"[15].

وبالموازاة بدأ سلطان تلمسان "أبو حمو الثالث" في تعبئة القبائل العربية، طالبا منهم غزو المناطق الخاضعة لخير الدين في المقاطعة الغربية للايالة، فقابلها البايلرباي خير الدين بربروس بحزم، حيث نجح في إخضاع المناطق الثائرة ضده وفرض على أعدائه التراجع عن أراضي ايالته، وبالتالي فشل سلطان تلمسان في مسعاه مثله مثل سلطان تونس الذي لم يوفق في استمالة القائد أحمد بن القاضي[16]، أما محمد بن علي فيقال أن شارك في الحرب وكان مصيره الهلاك[17].

وجد سلطان تلمسان "أبو حمو الثالث" نفسه في مأزق سياسي، فقرر استقدام أخويه "عبد الله والمسعود" من فاس قصد مساعدته، فبعث كتابا إلى السلطان المغربي طالبا منه تسريحهما إلى تلمسان، لكن لم يستجب سلطان المغرب خشية التنكيل بهما، فجدد سلطان تلمسان الطلب وكتب له عهدا بالأمان وأنه لا يبغي سوى إصلاح أخطاء الماضي مع أخويه ومعاملتهما معاملة أخوية. وعندها لم يكن بوسع سلطان فاس المريني إلا دعوة الأخوين إلى مجلسه وإعلامهما بكتاب

سلطان تلمسان وخيرهما بين الانتقال إلى تلمسان أو البقاء بفاس مبديا لهما رغبته وواجبه في معاملتهما معاملة أبوية.

قرر الأخوين الانتقال إلى تلمسان نزولا عند رغبة شقيقهما السلطان " أبو حمو الثالث" مصحوبين برفقة من شيوخ العرب، ولما بلغا أراضي تلمسان تشاورا فيما بينهما ولم يتمكنا من احتواء قلقهما حيال نوايا شقيقهما السلطان، فعوض النزول بمدينة تلمسان، افترق الأخوان، أحدهما (الأمير عبد الله) اتجه إلى وهران حيث الاسبان والآخر (الأمير المسعود) إلى ايالة خير الدين بربروس، حيث نزل على أحد شيوخ العرب قرب مدينة الجزائر.

2-الصراع بين المسعود وخير الدين 1528-1529: خطط الأمير المسعود للإطاحة بشقيقه، سلطان تلمسان "أبو حمو الثالث" حيث كتب لخير الدين طالبا منه حمايته ومده بالدعم العسكري للاستيلاء على مملكة تلمسان. وقد اعتبر خير الدين هذا المسعى فرصة للانتقام من سلطان تلمسان، فدعا شيوخ العرب في كافة أنحاء البلاد إلى التقرب منه لتعيين " المسعود" على كرسي عرش تلمسان[18].

رحبت العديد من القبائل الجزائرية باقتراح خير الدين بربروس، فقدمت عشرون ألف فارس لمساعدة الأمير "المسعود"، كما انضم إليهم خير الدين بقوة تركية تتكون من المشاة، وتوجه الجيش العربي- التركي بقيادة المسعود نحو تلمسان. ولم يجرؤ سلطان تلمسان " أبو حمو" على مجابهة هذه القوة الغازية، ففضل الفرار من مدينة تلمسان، تاركا العرش الزياني للأمير المسعود الذي صار حينئذ سلطانا لمملكة تلمسان تحت حماية خير الدين بربروس حسبما وعد به. لكن بعد انصراف الفرق العسكرية التركية إلى مدينة الجزائر، سارع السلطان المسعود إلى زعزعة القيود التركية من خلال عقده اتفاق عسكري هجومي ودفاعي بينه وبين حاكم وهران الاسباني ضد أتراك الجزائر.

استاء خير الدين من تطور موقف سلطان تلمسان "المسعود" حيال الأتراك العثمانيين، فكاتبه يهدده بالعدول عن تعاونه مع الاسبان وإلا سيكون عبرة لمن تسول له نفسه بالمساس بقيم الإسلام وأمن البلاد، وفي الوقت ذاته أمر بجمع العساكر لغزو تلمسان وإسقاط سلطانها[19].

وفي سياق ذلك برز "الأمير عبد الله" المقيم بوهران، على الساحة السياسية حيث كلف أحد أعوانه بزيارة شيخ صوفي يحظى باحترام وتقدير خير الدين بربروس طالبا منه أن يتوسط له

عنده لمساعدته على اعتلاء كرسي عرش تلمسان محل شقيقه " المسعود" المناوئ له، ويتعهد له أن يحكم تحت أوامره.

وافق خير الدين على طلب الأمير عبد الله احتراما للشيخ الصوفي، واشترط عليه أن يزور مدينة الجزائر لبحث الترتيبات الكفيلة بتنصيبه ملكا على تلمسان إلا أن عبد الله قد رأى شقيقه المسعود يراقب تحركاته، فطلب منه أن يسيطر على مدينة مستغانم حتى يتمكن من الانتقال إليها ومنها إلى مدينة الجزائر، وهو ما حدث فعلا[20].

وبعد السيطرة على مدينة مستغانم توجه جيش خير الدين إلى قلعة بني راشد وتمكن من الاستيلاء عليها بعد مقاومة ضعيفة، ومنها إلى تلمسان التي حاصرتها القوات الموالية لخير الدين لمدة عشرين يوما دون تحقيق نتيجة بفعل غياب المدفعية وحصانة مدينة تلمسان. وفي نهاية المطاف لجأ المحاصرون إلى خدعة حربية مفادها أنهم أوهموا جيش المسعود بالانسحاب وترك أخبيتهم مما جر جيش تلمسان وملكهم إلى الخروج والسعي إلى تحصيل الغنائم المتروكة وتتبع أثر الجيش الغازي، وحينها ظهر جيش الترك والعرب فجأة وانقض عليهم. وإذا تمكن الملك مسعود من العودة إلى داخل المدينة رفقة جيشه، فإنه شعر بالهزيمة وخيبة الأمل مما حفز عددا من عساكر تلمسان إلى مبايعة خير الدين –وقد سبق لهم أن بايعوا عروج قبله–، وأشاروا على قائد الحملة بثغرات تلمسان التي تسمح له بالدخول إليها عبر سلالم، نصبت لعساكره.

بدأ التسلل إلى مدينة تلمسان ليلا على الساعة الثالثة، وتوزعت الفرق العسكرية على الأبواب والأسوار والمآذن وبدأت صفارات تقدم الجيش نحو أبواب المدينة المفتوحة، ثم اتجه العساكر إلى القصر للقبض على السلطان " المسعود" لكنه فر رفقة مائة فارس باتجاه الصحراء.

فرح خير الدين بربروس بدخول جيشه مدينة تلمسان، فكتب لقائد الحملة يوصيه بمبايعة الأمير عبد الله سلطانا على تلمسان وإلباسه القفطان الشرفي شريطة الالتزام بضرب عملة تلمسان باسم السلطان سليم خان، وأن تدعو خطب الجمعة في جميع أنحاء المملكة التلمسانية للسلطان العثماني. وقد وافق السلطان عبد الله على شروط خير الدين وطلب من قائد الحملة أن يعين بتلمسان حامية عسكريةانكشارية يستعين بها في حالة قيام أنصار شقيقه "المسعود" بتمرد داخل المدينة[21].

انطلقت ردة فعل المسعود ضد ملك تلمسان عبد الله من الصحراء حيث عقد الملك الهارب اتفاقا مع العديد من شيوخ القبائل العربية والبربرية المنتشرة بجنوب الغرب الجزائري، بغية محاصرة تلمسان وافتكاكها من عبد الله والأتراك العثمانيين على السواء. وقد اختار السلطان عبد الله الفرار من تلمسان إلا أن قائد الحامية التركية العثمانية فرض عليه الالتزام بقصره في انتظار النجدة من الجزائر العاصمة، وفعلا وصل إلى مشارف تلمسان حوالي خمسمائة مقاتل تركي الذين ألحقوا هزيمة نكراء بالقبائل المحاصرة للمدينة مما دفع بالمسعود إلى الهرب مجددا[22].

وفي المقابل قام السلطان عبد الله بتهنئة المقاتلين الأتراك العثمانيين وبعث لرؤساء القبائل المنتصرة للمسعود بإعلان ولائها له وللعثمانيين وكل من يستجيب لذلك، يكافأ بوسام الشرف. وبالنسبة لشقيقه المسعود الهارب، فكل من يقبض عليه ويسلمه حيا لبلاط تلمسان، تعفى قبيلته من الضرائب لمدة عشر سنوات، لكن كان السلطان عبد الله، يعلم جيدا أن إغراءاته ودعواته لا تلقى تجاوبا من قبل شيوخ القبائل العربية والبربرية بالغرب الجزائري، فراح بالموازاة يتتبع أخبار أحد رؤساء القبائل الذين تمتعوا بفضائل المسعود، لعله يكون ملاذه، وهو ما كان مؤكدا، فجهز قوة عسكرية من الفرسان وتمكنت من القبض على السلطان الهارب، وتسليمه لشقيقه مولاي عبد الله الذي زج به في زنزانة ضيقة، أما أتباعه فقد قطعت رؤوسهم، وبهذه الطريقة انتهت المعارضة السياسية ضد السلطان عبد الله وحينها قام بتسريح الجيش العثماني للعودة إلى الجزائر العاصمة[23]، وهنا نلاحظ مدى خطورة الصراع بين الإخوة الأمراء الزيانيين على عرش المملكة التلمسانية ودوره الكبير في تمهيد السبل للتدخل الخارجي مهما كانت طبيعته وجنسه.

3-الصراع بين عبد الله وخير الدين 1529-1546: في ظل تمرد أحمد بن القاضي وقارة حسن التركي اللذان كانا يتقاسمان مناطق النفوذ بالشرق الجزائري ضد خير الدين بربروس، وتصاعد خطر الاسبان ببجاية[24]، وانشغال خير الدين بقمع أعدائه المسلمين من جهة والنصارى من جهة أخرى وخوضه غمار القرصنة في مياه البحر المتوسط وغزوه لتونس، ومن ثمة غيابه عن الجزائر العاصمة بين سنتي 1529-1531، رأى سلطان تلمسان عبد الله أن الفرصة مواتية للتملص من وصاية الأتراك العثمانيين وتحديدا وصاية خير الدين على تلمسان، فأصدر الأوامر بأن تضرب عملة تلمسان باسمه وأن تدعو جوامع المملكة التلمسانية أثناء خطب الجمعة للسلطان الزياني مولاي عبد الله[25].

لما بلغ مسامعه أن خير الدين بربروس قد عاد إلى مدينة الجزائر، انتاب السلطان عبد الله القلق وأخذ يستعد لمواجهة هجمات خير الدين، وبعث بكتاب لشقيق أحمد بن القاضي يعرض عليه التحالف للانتقام من خير الدين الذي يسعى إلى الاستيلاء على ملك آبائهم والفتك بهم الواحد تلوى الآخر. ولما علم خير الدين بالأمر، راسل سلطان تلمسان عبد الله وحذره من عواقب تصرفاته وأمره أن يعيد خطب الجمعة وعملة تلمسان إلى ما كانت عليه سابقا، وأن يدفع ضريبة سنوية للجزائر العاصمة، قدرها عشرة آلاف دوكة قصد صرفها على الجيش الانكشاري -وهي ضريبة خفيفة مقارنة بالضريبة التي كان يدفعها الزيانيون للاسبان- وستون ألف دوكة أخرى كديون لمدى ست سنوات سابقة، ثم وعده بأن يعفو عنه ويدافع عن الأخطار التي تهدد مملكته إذا امتثل لشروطه ونفذها بشكل كامل وفي المقابل نبهه أن يتعظ من تجربة شقيقه المسعود ودعاه إلى أن يكون وفيا لاتفاقه مع الأتراك العثمانيين. وفي الوقت ذاته أوصى خير الدين رسوله إلى تلمسان أن يبين للسلطان عبد الله خطورة التحالف مع الاسبان المحتلين لوهران والمرسى الكبير باعتبارهم أعداء الإسلام وأن أقوالهم وصداقتهم لا تعدو أن تكون زائفة ويتوجب عليه أن يساعد خير الدين لدفعهم إلى بلدهم، وهذا يدل على أن خير الدين بربروس كان على علم بالمراسلات التي جرت بين سلطان تلمسان عبد الله، والملكة ايزابيل Isabelle-التي كانت تحكم اسبانيا نيابة عن شارلكان Charles-Quint- سنة 1531، ثم مع شارلكان نفسه سنة 1532، بوساطة اليهودي يعقوب أليجر Jacob Alegre كممثل لمولاي عبد الله، ونشرت الجمعية التاريخية الجزائرية بمجلتها الافريقية Revue Africaine سنة 1955 رسالتين لمولاي عبد الله، وكلاهما باللغة الاسبانية .

لم يحرر السلطان عبد الله جوابا لخير الدين بربروس لكنه صرح لرسوله قائلا: " لا أتذكر أنني استلمت قرضا من سيدك، يجبرني على تسديده. وإذا يعتقد أن قواته كافية لمحاصرة مملكتي، فليفعل ذلك. إنني أحتفظ بممتلكات آبائي وأجدادي، ولم يكن الأتراك على الإطلاق، ورثة لحقوق بني زيان"[26].

وبعد مغادرة رسول خير الدين، مدينة تلمسان، دعا مولاي عبد الله مستشاريه ووزرائه وزعماء عائلة بني عبد الواد وذكر لهم أن صعوده على عرش تلمسان، كان شرعيا باعتباره من أحفاد يغمراسن بن زيان، وتساءل أمامهم عن السبب الذي يجعل خير الدين يفرض عليه دفع

اللزمة السنوية، ثم تطرق إلى أن خير الدين قد استولى على مدينة الجزائر وما جاورها بطرق وجدت مجراها داخل مجتمع مترهل، وهي جزء من مملكة تلمسان التي تصل حدودها إلى المسيلة.

ثم استطرد قائلا: "وهذا خير الدين المتوحش الذي صير مناطق نفوذه جحيما وآذى العرب، يريد الآن تجريدي من ميراث آبائي وتحويلكم أنتم آل عبد الواد إلى عبيد، وأسس مطامحه على بعض الخدمات التي قدمها لي في غضون النزاعات التي جرت بيني وبين أشقائي. صحيح أنه زودني بحامية عسكرية تركية ساعدتني لصعود العرش الزياني، ولم أكن يوما ناكرا لجميله، لكنني كافأت عساكره الذين قدموا لي النجدة، واعترافي بفضائله هو الذريعة التي جعلت خير الدين يسعى إلى تجريد بني زيان من ميراث آبائهم وأجدادهم". وفي نهاية حديثه قال لهم:" أطلب منكم أيها الأمراء والأعيان بمملكة تلمسان أن تعينوني بحكمتكم وترشدوني إلى ما يمكن فعله وأيهما أجنح إليه، الحرب أم السلم؟".

نهض أحد كبار عائلة بني عبد الواد وقال أمام الحضور:" لا يحتاج سلطان تلمسان إلى مشورتنا، فهو الذي يمكنه أن يقرر الحرب أو السلام، وفي جميع الأحوال سنكون الرعية الوفية لولي أمرها، وسنقدم له موجبات تلاحمنا"[27].

قرر السلطان عبد الله خيار الحرب فجمع جيشه وأمر بالاستعداد لمهاجمة خير الدين بربروس، وفي خضم التحضير للحملة، انتاب الابن الأكبر للسلطان عبد الله قلقا بشأن عواقب محاربة الأتراك العثمانيين، فاختار اللجوء إلى بلاط خير الدين بالجزائر العاصمة، فلقي ترحابا من لدنه وأسكنه منزلا أنيقا وسخر له عددا من الإماء والعبيد، وأجرى له جراية، وحول هذه النقطة يرى المستشرقون الفرنسيون أن هذا الابن للسلطان عبد الله هو الأمير محمد، الذي سبق وأن ثار ضد والده بتلمسان وطلب الدعم الاسباني لكنه لم ينل سوى الوعود، فكان مصيره الحبس لأنه كان من مصلحة الاسبان توثيق الروابط مع عبد الله للتصدي لخطر الأتراك العثمانيين، الأمر الذي جعل الأمير محمد يلجأ إلى خير الدين بمدينة الجزائر ثم يستخدم في محاربة أبيه عبد الله ويحاصره بتلمسان ثم يجلس على كرسي العرش بمساعدة خير الدين بربروس، وهذا ما يتناقض مع كتابات سنان شاوش كمصدر تركي.

وعليه نلاحظ أن العائلة الزيانية المالكة قد عرفت تفككا بين الإخوة من جهة وبين الأب وأبنائه من جهة أخرى وكلا الجهتين قد اختارتا قوة خارجية حسب الميول والمصلحة، فأي مستقبل للمملكة التلمسانية على ضوء هذه المستجدات الخطيرة؟

تحرك جيش تلمسان والتقى بجيش خير الدين بمنطقة الجزائر العاصمة، ودارت المعارك بينهما وكان النصر حليف الأتراك العثمانيين[28]، وعاد السلطان عبد الله وأمامه سوى خيار الخضوع لخير الدين بربروس، فأرسل إليه بعض أعيان تلمسان، يطلبون منه العفو والسلام، ودفع ستين ألف دوكة التي اشترطها على السلطان، والزيادة في مقدار اللزمة السنوية لتصل إلى عشرين ألف دوكة، كما يدفع السلطان ضرائب إضافية في شكل خيول وعبيد سود وأقمشة رفيعة.

كان موقف خير الدين من شروط السلطان هو القبول وكإشارة لعفوه أرسل له قفطانا ثم توجه لإخضاع شقيق أحمد القاضي الثائر في الشرق الجزائري وقد نجح في ذلك وكلفه ذلك سنتين من المطاردة والغياب عن مدينة الجزائر[29].

في خضم تصاعد خطر خير الدين في البحر المتوسط والسلطان العثماني في البلقان، طلب ملك الجر، المحاصر بقلعته، النجدة العسكرية من الملك الاسباني شارلكان فطلب هذا الأخير المشورة من وزرائه ومستشاريه وبين لهم قلقه من استغلال خير الدين بربروس، انشغال العساكر الاسبانية بمساعدة الجر لتنفيذ حملته ضد اسبانيا، فاقترح عليه رئيس وزرائه باللجوء إلى إثارة الاضطرابات بداخل الجزائر، قصد إلهاء خير الدين وقواته، ومن ثمة تأمين الأراضي الاسبانية من أي غزو عسكري تركي، وذلك من خلال استمالة سلطان تلمسان عبد الله وإغداقه بالمال شريطة إعلان الحرب ضد خير الدين.

وافق الجميع على مشروع الوزير الأول الاسباني باستثناء شارلكان الذي راوده الشك والتردد بشأن نجاح المشروع العسكري، إلا أن جموع الوزراء بينوا لملكهم أن خير الدين سيخرج بنفسه لمحاربة سلطان تلمسان لأن ثورة عبد الله –الذي لولا خير الدين لما كان سلطانا– ستصدمه نفسيا ولا يعد يثق بأحد. وحينها اقتنع الملك الاسباني بجدية الفكرة فأمر بالاتصال بسلطان تلمسان وتركيز العمل معه للمرور إلى الخطوة الثانية وهي إشعال فتيل الحرب بالجزائر[30].

في أثناء زيارة خير الدين للسلطان العثماني باستنبول، أرسل شارلكان-ملك اسبانيا- أحد أعوانه إلى سلطان تلمسان عبد الله وعرض عليه أموالا تكفيه لخوض حرب برية ضد خير الدين بربروس بالجزائر العاصمة في حين أن الاسبان يحاصرون المدينة بحرا، وبعد السيطرة على مدينة الجزائر، تصير جزءا من مملكة تلمسان وتحت سلطة مولاي عبد الله في إطار استرجاع ميراث أسلافه الزيانيين.

أعجب سلطان تلمسان بمشروع الملك الاسباني وأخذ يتشوق لاسترجاع مدينة الجزائر وما جاورها وقرر خوض حرب ثانية ضد خير الدين، فشرع في جمع جيشه و تعبئة عرب الصحراء ونصب الأخبية خارج مدينة تلمسان. أما ملك اسبانيا فقد جهز أربعة عشر سفينة حربية ورست بخليج رشغون غير بعيد عن مدينة تلمسان[31].

لما علم خير الدين بما يخطط ضده، أمر بإرسال إحدى مراكبه البحرية التي تسير بالتجديف لاستطلاع عدد سفن الأسطول الاسباني، على أن لا تتجاوز المهمة مدة عشرة أيام. وفي أثناء ذلك انطلق جيش تلمسان من مختلف أنحاء المملكة -وكان للقبائل العربية حضورا قويا في هذه الحملة- ونزل بمنطقة البليدة القريبة من الجزائر العاصمة، فسارع أحد الشيوخ العرب وأعلم خير الدين بوصول جيش سلطان تلمسان عبد الله، فلم يكن بوسع خير الدين سوى الاستعداد للخروج ومقابلة الجيش الغازي بالبليدة، فأمر حامياته العسكرية المنتشرة في مناطق نفوذه بالاقتراب منه ومنع رياس البحر من مهاجمة الأسطول الاسباني في مياه رشغون وطلب منهم الانضمام إليه، وجرت المعركة بين جيش خير الدين وجيش مولاي عبد الله الذي انهزم مجددا بفعل انسحاب القبائل العربية من المعركة لعوامل تبقى مجهولة[32] لكننا نعتقد أن عامل المصلحة كان وراء الانسحاب.

قرر خير الدين بربروس، ملاحقة مولاي عبد الله، ومحاصرة مدينة تلمسان، فخيم قرب أسوارها، وعندئذ رأى السلطان الزياني ضرورة مفاوضته، فبعث إليه كبار دولته، وأعيان المدينة، يعرضون عليه السلام مقابل دفع ثلاثين ألف دوكة ذهبية.

صمت خير الدين أمام إلحاح المفاوضين التلمسانيين ثم قال لهم: "هذا الرجل فاقد للايمان والشريعة، ولا يمكننا الوثوق بقسمه وعهده، فتارة يتخلى عن نزواته، وتارة أخرى يتحالف مع النصارى، وإني أراه، لا يكف عن حمل السلاح ضدي، ولا أستطيع مساعدته في أية تسوية"[33].

عاد المفاوضون إلى مولاي عبد الله بجواب يبعث على القلق، لكن سلطان تلمسان كان يدرك جيدا مدى سماحة خير الدين فقصده بنفسه إلى مخيمه، وترجاه وألح عليه، فنال عفوه، ورجع الاثنان إلى مقر حكمهما.

أما أسطول الملك الاسباني شارلكان فقد تلقى خبر انتكاسة حليفه مولاي عبد الله وانشغل بحملته لإنقاذ ملك المجر من الحصار التركي بقيادة سليمان القانوني، لكنه رجع على أعقابه بعدما سمع أن القلعة التي كان من المفترض أن يحررها قد سقطت بيد الأتراك العثمانيين[34].

خاتمة: في سنة 1546م توفي خير الدين بربروس متأثرا بالحمى تاركا مملكة تلمسان تحت إمرة مولاي عبد الله، ومدينة الجزائر تحت حكم ابنه بالتبني، حسن بربروس الذي وصله لقب أمير أمراء الجزائر (بايلرباي) وحمل على عاتقه الدفاع عن تلمسان ومناطق نفوذها من الاسبان المحتلين لوهران والمرسى الكبير وأعوانهم من القبائل الجزائرية من جهة والجيش الفاسي المغربي من جهة أخرى، بمشاركة سلطان تلمسان، مولاي عبد الله وشقيقه الأمير عبد الرحمن[35].

وبوفاة خير الدين بربروس ينتهي مسلسل الإخوة بربروس لكن لم ينته مسلسل الصراع بين الأتراك العثمانيين وبني زيان بمملكة تلمسان، وكل ما يمكن استنتاجه على ضوء ما سبق أن السلطان أبو حمو الثالث طيلة فترة حكمه كان دائما وفيا لتحالفه مع الاسبان الموقع سنة 1518م، أما السلطان المسعود فقد لعب على الحبلين إذ راح يستنجد بخير الدين للإطاحة بشقيقه أبي حمو الثالث ولما بلغ أمانيه انقلب على الأتراك وتحالف مع الاسبان وبشأنه لاحظنا أن أبا راس الناصري قد اختلطت عليه الحقائق حيث يصف أحداثا تاريخية لأبي حمو الثالث ضد عروج، لكنه ينسبها للمسعود، ولا ندري مصيره بعد سجنه بتلمسان. وفيما يتعلق بالسلطان عبد الله فقد لاحظنا أنه انقلب على خير الدين مرتين كما انقلب على الاسبان كذلك، وبخصوص سياسته، لاحظ الرواد الفرنسيون للجمعية التاريخية الجزائرية أنها سياسة مغايرة لسابقيه حيث تعامل مع الطرفين على السواء، الأتراك من جهة والاسبان من جهة أخرى سعيا منه إلى تصفية الخصمين وبسط سيادته على كامل التراب الجزائري[36].

الهوامش:

(1) وهم عروج وخير الدين واسحاق من جزيرة مدلي، والدهم تركي مسلم، ووالدتهم نصرانية.

(2) بربروس لفظة روسية تعني اللحية الحمراء.

(3) عروج أصلها أوروج وتعني الصيام أو رمضان.

(4) يذكر المؤرخ التركي التر Ilter أن عروج نصب أولا أبو زيان سلطانا لتلمسان ثم عزله وأعدمه وأعلن نفسه حاكما للبلد.

(5) Sinan chaouch. Fondation de la régence d'Alger –histoire des frères Barberousse Aroudj et khair Ed din- Traduction de jean Michel venture de paradis, éditions grand Alger livres, Alger, 2006.p.74.

وبهذا الصدد تشير الدراسات التاريخية أن العديد من العائلات التلمسانية وعلمائها، استقروا بفاس مما وثق علاقات المودة والإخاء بين التلمسانيين والفاسيين.

(6) أعتقد أن المقصود بالفتنة في هذا المقام هو أن بني زيان رغبوا الناس في ملك آل عبد الواد وهجموا على الترك على منبر الجامع الأعظم.

(7) Sinan chaouch. Op, cit, p.75.
(8) Ibid, pp.75-76.
(9) Ibid, p.77.

(10) أبو راس الناصري. تاريخ الجزائر. مخطوط بالمكتبة الوطنية الفرنسية، رقم 4614، ورقة 135ظ.

(11) Sinan Chaouch, op, cit, pp.77-78.

(12) بوشنافي محمد. "مساهمة عروج بن يعقوب في مواجهة الخطر الاسباني على المغرب الأوسط". مجلة عصور، العددان 04-05، وهران، جوان 2004، ص 275.

(13) Sinan Chaouch, op, cit, p.83.
(14) Ibid, pp.99-100.
(15) Ibid, pp.100-101.
(16) Ibid, p.102.

(17) أبو راس الناصري. المخطوط السابق، ورقة 135 و.

(18) Sinan Chaouch, op, cit, p.103.
(19) Ibid, p.104.
(20) Ibid, pp.105-106.
(21) Ibid, pp. 108-110.
(22) Ibid, p.114.
(23) Ibid, p.115.

(24) احتل الاسبان مدينة بجاية المحصنة سنة 1510، وحاول الإخوة بربروس تحريرها سنة 1515 لكنهم فشلوا وفيها أصيب عروج برمية مدفعية أدت إلى بتر ذراعه اليمنى.

(25) Sinan Chaouch, op, cit, p.139.
(26) Ibid, p.140.
(27) Ibid, p.141.

(28) يعكس هذا الانتصار العسكري لخير الدين وجيشه إلى ضعف الجيش التلمساني من حيث التنظيم والتدريب والتجهيز ولذلك كانت المملكة التلمسانية تبحث دائما عن قوة خارجية تسندها، فأجبرها سوء الأحوال والمصلحة إلى اختيار الاسبان كقوة عسكرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

(29) Sinan Chaouch, op, cit, pp.142-143.
(30) Ibid, p.170.
(31) Ibid, p.171.
(32) Ibid, p.172.
(33) Ibid, p.173.
(34) Idem.

(35) إلتر، عزيز سامح. الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية. ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى 1409هـ/1989م، ص 180.

(36) Chantal de la Vérone." Deux lettres inédits d'un roi de Tlemcen 1531-1532". In Revue Africaine, Année 1955, p.174.

الغارات الإسبانية على مدينة تلمسان خلال النصف الأول من القرن السادس عشر.

د. عبد القادر فكاير*

مقدمة: عرفت الدولة الزيانية متاعب كثيرة، منها التدخلات الأجنبية في شؤونها الداخلية، من سلاطين الدول المجاورة، المرينيين في المغرب الأقصى والحفصيين في تونس. ومع بداية القرن السادس عشر زاد ظهور الخطر الإسباني من تلك المتاعب، حيث كان تدخلهم في المملكة قد تطور إلى التلاعب بمصيرها من أجل السيطرة عليها. وكانت المملكة خلال هذه الفترة تعاني من ضعف داخلي خطير بسبب التراع الداخلي بين أمرائها على كرسي الحكم. وقد شجع هذا الوضع الإسبان على تطبيق مخطط عملي للنيل من هذه الدولة، منها الأعمال التجسسية والإسراع في احتلال أهم موانئها، ثم الاتصال مع حكام تلمسان وترغيبهم في الوقوف إلى جانبهم. وكانوا من حين لآخر ينظمون هجوما على تلمسان لتأمين تلك التبعية، كما أنهم ألزموا ملوك تلمسان الموالين لهم بدفع الضرائب.

1- تجسس الإسبان على تلمسان: بدأت أعمال التجسس على مملكة بني زيان عقب سقوط مملكة غرناطة، إذ عينت الملكة إيزابيلا "لورينثو دي باديا"**Lorenzo de Padilla**، حاكم مدينة القلعة في الأندلس في مهمة سرية تجسسية تتمثل في استطلاع أحوال تلمسان وتوابعها التي لجأ إليها كثير من الأندلسيين؛ فذهب إلى هذه المملكة خلال سنة 1493[1]، متنكرا في صورة تاجر من أهل البلد، واستقر بها لمدة زمنية تجاوزت السنة، تمكن خلالها من رصد أخبار هامة عن المنطقة، وجمع المعلومات الضرورية للقيام بأعمال الغزو الذي كان بصدد التحضير له.

أما الكاردينال "خيمينيس"، فقد قرب إليه تاجرا من البندقية يدعى "جيرومينو فيانيللي" (**Geromino vianelli**)، الذي كان عارفا بشؤون الرحلات إلى شمال إفريقيا، وعلى اطلاع

* - أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- المركز الجامعي خميس مليانة.

واسع بسواحلها، وحتى ببعض مناطقها الداخلية؛ فقد سبق له وأن تردد على تلك المناطق عدة مرات بصفته تاجرا، وخلال لقاءاته المتكررة مع الكاردينال كان يبلغه عن أخبار المنطقة الساحلية؛ فهو الذي وجه أنظار الإسبان نحو ميناء المرسى الكبير، الذي اعتبره موقعا ممتازا، ووكرا رئيسا للتجار المغاربة والأندلسيين الذي التحقوا به، كما أنه وجه عنايتهم إلى مدينة وهران التي اعتبرها المدينة الأجمل، وأكثر المدن الساحلية غنى ويسرا [2]، ولتوضيح المناطق الساحلية وتقريب معالمها أكثر إلى ذهنية الكاردينال خيمينيس، قام الجاسوس المذكور برسم خريطة لكل الساحل إلى جانب ذلك صنع نموذجا مصغرا من الشمع يمثل بلدة المرسى الكبير وقلعتها[3].

وكانت عناية الإسبان قبل توجيهات "فيانيللي" منصبة نحو مناطق ساحلية أخرى، حيث كان تفكيرهم في البداية موجها نحو مدينة هنين الزيانية لأنها مدينة مشهورة بتجارتها، كما أنها كانت في بعض الأحيان هدفا لغارات القراصنة الإسبان الذين سبق لهم أن استولوا منها على كثير من الأسلاب والأسرى[4].

وفي سنة 1494م أرسل فرديناند جاسوسا آخر يدعى "فيرناندو دي زافرا" (**Fernando de Zafra**) الذي كان كاتبا للملكين الكاثوليكيين، فقد سبق له أن كلف منذ سنة 1492م بمراقبة حركة الأندلسيين المهجرين إلى السواحل الإفريقية، كما سمحت له الظروف بالاطلاع على أحوال القبائل الساحلية الخارجة عن طاعة مملكة تلمسان[5]، وفي نهاية مهمته أرسل هذا الجاسوس تقريرا إلى سيده يبلغه فيه عن حالة الفوضى السياسية والاضطراب التي كانت تتخبط فيه المملكة.
استغلت الملكة إيزابيلا تلك المعلومات وقررت تنفيذ مشروع غزو مملكة تلمسان؛ وأعدت جيشا بلغ عدده 12000 جندي، ترأسه "دي تينديا" **DeTendilla** الحاكم السابق لغرناطة، غير أن موتها سنة 1504م عطل تنفيذ مخططها، غير أن رغبتها لم تذهب أدراج الرياح، بل ظلت موجودة ضمن وصيتها[6]، التي تكفل بتنفيذها زوجها الملك فيرديناند والكاردينال خيمينيس. وتمكن الإسبان إثر ذلك من احتلال المرسى الكبير ووهران وبجاية، وفرض سيطرتهم على مدن أخرى بواسطة المعاهدات.

وبعد احتلالهم لهنين سنة 1531م، واصل الإسبان نشاطهم التجسسي، وذلك باستخدام بعض العرب الذين كانوا يكيدون لملك تلمسان أبي عبد الله محمد (1528-1540) [7]، إذ جاء في خطاب أرسله حاكم هنين "د.إنيغو دي بالليخو باتشيكو" **(D.Inigo de Vallejo Pacheco)**، مؤرخ في 13 مارس 1534م، إلى شارل الخامس يخبره فيه عن الأحوال الداخلية

لتلمسان بناء على تلقيه في أيام 9 و 10 و 11 من الشهر ذاته ثلاثة تقارير تجسسية من العرب الجواسيس "قد حذروني عادة عما يحدث في داخل المملكة، وأن المعلومات التي زودوني بها تعد صحيحة على الدوام، ولي أن أثق فيما قالوه لي"[8].

وكانت تقاريرهم أحيانا تحمل أخبارا كاذبة، نذكر منها على سبيل المثال التقرير المؤرخ في 26 أفريل من سنة 1534م، الذي أرسله حاكم هنين قبل تدميرها، "الدون إينيغو دي بابيكو باتشيكو" إلى الإمبراطور تكلم فيه عن الأوضاع السائدة في تلمسان، ثم جاء فيه أن ملك تلمسان مولاي محمد أعد جيشا يهدد به الإسبان، وأضاف بأنه أعلم من طرف أحد الجواسيس بموت خير الدين، مبرزا له تأثر ملك تلمسان بعد سماعه ذلك الخبر[9]، لعلاقته الحميمة مع خير الدين[10]، وقد مكنت هذه الأعمال الاستطلاعية الأسبان الحصول على أخبار المملكة، حتى جعلت قواتهم العسكرية تتغلغل ابتداء من سنة 1515م إلى السهول العليا الوهرانية عند المنحدرات الرملية لجبل عمور[11]، ثم استغلوا استنجاد بعض الأمراء الزيانيين بهم، فكانوا يرسلون الغارات العسكرية ضد تلمسان.

2- الغارات الإسبانية على تلمسان: لقد ظل الإسبان في وهران حريصين على إبقاء ملوك تلمسان موالين لهم بعد قبول ملك تلمسان محمد الخامس بن محمد الثابتي (1505-1516)، الخضوع لسيادتهم في سنة 1512 [12]؛ فأيدوا كل أمير زياني تعاون معهم ضد منافسيه، وكانوا يشنون الغارات على تلمسان من حين لآخر من أجل إزاحة الأمراء المعادين لهم وتنصيب المستجيرين بهم في سنوات: 1518، 1535، 1543، 1544، 1547، وفيما يلي عرض لهذه الحملات:

- حملة 1518 على تلمسان: وفي عهد أبي حمو الثالث بن محمد الثابتي (1516-1528) الذي التزم بمبدأ مسالمة الإسبان متبعا سياسة أخيه، تجدد الصراع العائلي على الحكم في تلمسان عندما تحزب ضده أنصار أخيه أبي زيان- الذي السجن- واستنجدوا بعرّوج؛ فتوجه هذا الأخير إلى تلمسان وأطلق سراح الملك المسجون، ونصب أبا زيان في الحكم، وفر أبو حمو الثالث إلى وهران عن طريق فاس[13].

لم يكن أنصار أبي حمو مرتاحين للأوضاع الجديدة التي أصبحت تعيشها مدينتهم، فكانوا ناقمين على عروج، وكانت سياسة هذا الزعيم ترمي إلى تكوين سلطة قوية في هذه المنطقة، حتى تتمكن من مواجهة الأخطار المتربصة بها وخاصة الإسبان الذين ذهب استجار بهم أبو حمو،

وأدت سياسته هذه وسلوكات البعض من جنوده تجاه السكان التي أثارت غضبهم، إلى وقوع الفتنة من جديد في تلمسان، أدت بعروج أن يقدم على قتل الملك أبي زيان، إلى جانب سبعين شخصا من أفراد أسرته، كما قضى جنوده على بعض سكان المدينة[14]، ثم اتخذ عروج من قلعة المشور مقاما له، وقام بترميم أسوارها، وأعاد تحصين المدينة تحسبا لمواقف أبي حمو والإسبان، كما راح يعمل على كسب ولاء سكان ضواحي تلمسان وأحوازها، فأرسل إليها مفارز عسكرية يدعوها إلى إعلان الطاعة له[15]؛ فأعلنت قبائل بني عامر وبني سناسن ولاءها له، والتزمت بدفع الضرائب حبوبا لتموين الجيش من أجل صد الحصار الإسباني المتوقع على تلمسان.

ومن فاس راسل أبو حمو الإسبان في وهران قبل التحاقه بها، واستغل سوء أحوال الإسبان فيها لأن عروج منع أهل قلعة بني راشد تزويدهم بالمحاصيل الزراعية التي كانت تنتجها المنطقة، ومما قاله لهم: "أنظروا ما حلّ بك حين انقطعت دولتنا عنكم وتمكنت منها الأتراك، كيف قطعوا عنكم الميرة من القلعة وغيرها"، كما ذكر لهم أن سبب ذلك يعود إلى عدم تقديم النصارى العون له لقتال عروج ورجاله[16].

وكان أبوحمو قد توجه إلى وهران في سرية تامة مع أبنائه وأتباعه، ومن أجل النجاح في مهمته أرسل أحد إخوانه إلى الإمبراطور شارل الخامس، الذي كان يتخذ من مدينة طليطلة مقرا لحكمه، وبعد استقبال الإمبراطور للأمير الزياني، وعده بتقديم المساعدة التي طلبها[17]، وذكر بعض الكتاب الأوربيين أن أحد شيوخ ضواحي تلمسان، ويدعى بورقبة، توجه هو الآخر إلى وهران يطلب من القائد الأسباني مساعدات عسكرية لمحاربة قوات عروج، وأنه سلم له اثنين وثلاثين طفلا من أبناء الأعيان كرهائن بناء على طلب الإسبان مقابل تقديم المساعدات [18].

استغل القائد الإسباني غوماريس نداءات أبي حمو وبورقبة، وأرسل تقريرا إلى الملك الإسباني يدعوه فيه إلى ضرورة ضم تلمسان إلى سلطتهم، أو تشكيل حكومة موالية لهم فيها. كما طلب مساعدات عسكرية لتنفيذ ذلك المخطط، فوافق الملك على تزويده بجيش يتألف من عشرة آلاف رجل[19]، وقبل وصول تلك القوات من إسبانيا أرسل دي غوماريس نجدة عسكرية تتألف من ثلاثمائة جندي إلى قلعة بني راشد لاعتراض المساعدات التي طلبها عروج من أخيه خيرالدين في مدينة الجزائر، ثم أرسل القائد الإسباني قوات أخرى تتكون ن 600 جندي[20].

وتوجت هذه الإجراءات بخروج القائد مارتينيز دي أرغوت من وهران رفقة أبي حمو متوجها إلى تلمسان، وفي طريقه إليها استولى على قلعة بني راشد، وقضى على الحامية التابعة لحكومة الجزائر، التي كان على رأسها اسحاق أخو عروج، ولما وصل إلى تلمسان ضرب عليها حصارا استمر لمد ستة أشهر، ولشدة القصف المدفعي الإسباني اضطر عروج إلى ترك قلعة المشور، فتعقبته القوات الإسبانية وقتلته في معركة شديدة، وذلك في شهر ماي 1518م[21]، وعقب ذلك دخل جيش الأسبان تلمسان وعينوا أبا حمو الثالث ملكا عليها، وأملوا عليه معاهدة أخرى مؤرخة في 13 سبتمبر 1535م كانت تحتوي على قيود كثيرة تجعله واقعا تحت هيمنتهم[22]، لعل من أخطرها المادة التي تقول: "أن يكون الملك صديقا لمن يصادق جلالته، وعدوا لمن يعاديه"، كان ذلك الشرط موجها من دون شك إلى عدم تعاونه مع السلطة في الجزائر، وقد استغل الأسبان هذا التحالف مع تلمسان وخططوا لضرب مدينة الجزائر، واتفقوا مع أبي حمو أن يهاجم المدينة من البر، ويتولون مهاجمتها من جهة البحر، ولما جاء هيغو دي مونكادي مع جيوشه سنة 1519م، تخلف أبو حمو عن الموعد[23]، وفشلت الحملة في تحقيق أهدافها.

– حملة "أونجيلو مارتينيز"1535: وفي عهد الملك أبي محمد عبد الله بن محمد الثابتي (1528–1540) تعرضت تلمسان إلى مكيدة أخرى أدت إلى غزوها مرة أخرى، لقد كان هذا الملك يميل إلى التحالف مع خير الدين لتعاظم شأن الدولة الجزائرية في عهده خاصة بعد تمكنه من تحرير الصخرة من الوجود الأسباني بها سنة 1529م، وكان عبد الرحمن بن رضوان أحد كبار شيوخ قبيلة بني عامر يود تنصيب حفيده الطفل[24] عبد الله الأخ الأصغر لمحمد بن عبد الله على ملك تلمسان، ولهذا الغرض اتصل بالإسبان في وهران، الذين وافقوا على مساعدته؛ فأرسل حاكم وهران "ميلغاريخو"(Melgarejo) خطابا إلى الإمبراطور مؤرخا في 11 سبتمبر 1534م، يخبره فيه عن رغبة ابن رضوان في السماح له بالالتحاق بمدينة وهران مع حفيده، كما نصح الإمبراطور في نفس الرسالة على ضرورة استقباله من أجل كسر التحالف بين ملك تلمسان والسلطة في مدينة الجزائر[25]، وقد أدت تلك المساعي إلى انتقال ابن رضوان مع حفيده إلى مدينة وهران في 3 فيفري 1535م[26]، ووافق الكونت دي الكوديت– الذي التحق بوهران خلال تلك السنة– على تزويده بقوة عسكرية تتألف من ستمائة رجل، وأرسل معهم أربع قطع من المدفعية الصغيرة[27].

وقد أدت تلك التحركات إلى تعرض تلمسان من جديد إلى غزوة أخرى؛ ففي سنة 1535م وجه قائد وهران الكونت دالكوديت حملة أخرى على تلمسان قادها ابن عمه، "ألونسو مارتينيز دي أونجيلو" (Alonso Martinez de Angelo) مصطحبا معه ابن رضوان ومعه أربعمائة فارس، وسلم ملك تلمسان قيادة جيشه للمنصور بن بوغانم زعيم قبيلة بني راشد، فخرج لمنع المعتدين من التقدم نحو تلمسان، وبدأ القتال بين الطرفين، واستمر لمدة ثلاثة أيام [28] اضطر خلالها مارتينيز إلى الاحتماء مع قواته بين خرائب الأسوار.

وفي 4 جويلية تغلغل مائتا فارس من بني راشد إلى داخل المعسكر الإسباني، وتمكنوا من تشتيت قواتهم، وأجبروهم على القتال في حالة تراجع حتى ينسحبوا بأقل الخسائر، وخوفا من الهلاك تظاهر مارتينيز بجنوحه إلى التفاوض مع قائد بني راشد، بينما ذكر مارمول أن المنصور "لما تحقق من ضعف مارتينيز جاء فورا إلى تبدة مع جميع الأعراب والبربر بدعوى التفاوض"[29]، حيث أرسل مترجمه يطلب من ابن غانم السماح له ولقواته بالعودة بسلام إلى وهران، لكن المنصور أدرك نية عدوه في ربح الوقت ريثما يتمكن من طلب المساعدات من وهران؛ ففوت عليه الفرصة، وتقدمت قواته إلى داخل التحصينات الأسبانية، وألحقت بهم وبمن كان معهم من العرب هزيمة نكراء، وقضت على عدد كبير منهم [30]، من بينهم أحد الضباط يدعى "بالبوا" (Balboa)، أما عن عدد الأسرى فهناك من حددهم بسبعين رجلا [31]، كان من بينهم القائد مارتينيز، الذي اقتيد مع الأسرى الآخرين إلى تلمسان، وكان مصيره فيما بعد القتل، بينما تمكن الآخرون من الفرار والالتحاق بوهران في أيام متفرقة[32]، أما عن الخسائر البشرية التي ألحقت بأهل تلمسان فقد بلغت مائتي رجل[33].

- حملة "الكونت دالكوديت" على تلمسان 1543م: عندما توفي الملك أبي محمد عبد الله سنة 1540م خلفه في الحكم ابنه أبو عبد الله محمد [34]، وكان الملك مواليا للإسبان في وهران؛ فثار عليه أخوه أبوزيان أحمد سنة 1542م بتأييد من قوات حسن باشا بن خير الدين، وافتك منه الحكم؛ فهرب محمد السابع إلى وهران يستجير بالإسبان كالعادة، ووضع نفسه تحت حمايتهم، ولهذا عزم الكونت دالكوديت على غزو تلمسان بنفسه، وشرع في تنظيم حملة كبيرة على تلمسان يقودها بنفسه.

وفي 27 جانفي 1543م خرج إلى تلمسان على رأس قوة عسكرية تتألف من أربعة عشر ألف جندي، وخمسمائة فارس[35]، وقبل خروجه ببضعة أيام اتصل ابنه ألونسو ببعض القبائل مثل أولاد موسى وتسالة لاستمالتهم إلى جانب الأسبان، وتزويدهم بعدد من الجمال والماشية غير أن هؤلاء رفضوا العرض الإسباني، وحسب بعض الروايات التاريخية الأوربية فإن أبا زيان حاول التفاوض مع الأسبان، ومنحهم مائتي ألف دوقا مقابل تخليهم عن فكرة الزحف على المدينة، فرفض الكونت ذلك العرض.

ولما فشلت تلك المساعي، دعا قائد بني راشد المنصور بن بوغانم إلى الخروج بقواته[36] من تلمسان لمواجهة دالكوديت وقطع الطريق عنه؛ فقاتلهم عند وادي يسر لكنه لم يتمكن من وقف زحفهم، فتراجع أمام القوات الأسبانية نتيجة للتسلح الجيد للأسبان، وارتفاع عدد القتلى في صفوف رجاله، حيث أكد ذلك مارمول في قوله إن الإسبان: "قتلوا العديد منهم"[37] وهكذا تمكن الأسبان من بلوغ حصن تيبدة وعسكروا فيه.

ولما وصلت أنباء هزيمة جيش المنصور إلى تلمسان، نقل الناس نساءهم وأطفالهم إلى الجبال المجاورة في ليلة 4 –5 فيفري، ثم عادوا إلى المقاومة، وخرج من جهته الملك أبو زيان على رأس قواته [38] بالإضافة إلى الأربعمائة جندي التي تركها لديه حسن آغا.

وفي يوم 5 فيفري واجه أبو زيان الكونت دالكوديت عند أسوار المدينة في معركة عنيفة استمرت من العاشرة صباحا إلى غاية المساء، وفي الأخير أجبر أبا زيان على الانسحاب مع رجاله إلى منطقة أنغاد[39]، وقد ذكر بعضهم أن الخسائر البشرية كانت كبيرة من جانب ملك تلمسان دون تحديد حجمها، وقتل من الجيش الأسباني ثمانمائة جندي، وجرح ما بين ثمانية واثني عشر آخر[40]، كان من بينهم ابن الكونت "اللدون مارتين دي كوردوبا"(**Martin de Cordova Don**).

وفي 6 فيفري دخلت القوات الإسبانية مدينة تلمسان ومعها أبو عبد الله محمد، وتعرضت المدينة إلى النهب والتدمير، فقد "نهبوها من أقصاها إلى أقصاها، وهم يقتلون أو يأسرون كل من يصادفونه فيها"[41]، وانتقموا خاصة من القبائل التي رفضت مساندتهم[42]. كما وضعوا في أيديهم كل ما وجدوه من مختلف أنواع المؤونة كالقمح والشعير والزبيب والأنعام، وبعد مرور خمسة وعشرين يوما من دخوله المدينة؛ خرج دالكوديت من المدينة للسطو على قافلة كبيرة كانت تحمل القمح والشعير لسكان المدينة الفارين الذين كانوا يقيمون في أحوازها، وتمكن

من الاستيلاء على ثلاثمائة وخمسين جملا ومائة وخمسين من الرماح، وأسر ألف رجل وقتل ستين آخر(43)، ولم تسلم حتى المؤسسات الدينية من آذاهم فقد ربطوا دوابهم بالجامع الأعظم، واستمرت أعمال العدوان ثلاثة عشر يوما(44) أبدى فيها السكان مقاومة باسلة، قضوا خلالها على أكثر من ألف جندي إسباني(45).

وبعدما نصب أبو عبد الله على عرش تلمسان، أبرم مع دالكوديت معاهدة في يوم 26 فيفري أعلن فيها الولاء للإمبراطور(46). وفي 11 مارس خرج دالكوديت من تلمسان في طريقه إلى وهران، ومعه عدد من الأسرى وكثير من الأسلاب.

استغل الملك المخلوع أبو زيان المتعاون مع السلطة العثمانية في مدينة الجزائر انشغال الإسبان بحملتهم على مستغانم سنة 1543م، وتقدم نحو تلمسان لاسترجاع عرشه وحاصرها؛ فخرج إليه أخوه أبو عبد الله محمد وقاتله خارج المدينة وانتصر عليه، لكنه عندما كان راجعا إلى تلمسان، أغلق السكان أبوابها في وجهه لقبوله التحالف مع الأسبان، واستدعوا أبا زيان ليحكمهم؛ فاستقبلوه بحفاوة كبيرة (47).

أسرع أبو عبد الله محمد إلى وهران لطلب النجدة مرة ثانية من الكونت دالكوديت، ولم يتردد هذا الأخير في الإستجابة، حيث خرج على رأس جيش يتألف من ألفي جندي من المشاة، بالإضافة إلى عدد من قطع المدفعية متوجها عبر وادي تليلات إلى معسكر حيث كانت قوات أبي زيان المؤلفة من ألفين وأربعمائة مقاتل معسكرة هناك(48)، وجرت معركة بين الفريقين كانت الغلبة فيها لصالح جيش أبي زيان، مما أجبر دالكوديت على الانسحاب، وعندما كان راجعا إلى مدينة وهران تعرض إلى هجوم آخر شنه عليه سكان منطقة مديوني أوشك دالكوديت خلاله على الهلاك(49)، وتمكن أتباع أبي زيان من القبض على أبي عبد الله، فقتلوه وحملوا رأسه إلى أخيه في تلمسان(50).

وأصبحت تلمسان إثر ذلك محل تنافس كبير بين حكومة الجزائر والإسبان، وبخاصة في عهد حسن بن خير الدين الذي كان وراء صد الإسبان في غاراتهم على مستغانم عامي 1543 و1547م، كما أنه كان وراء تنصيب الملك حسن بعد وفاة أبو زيان أحمد سنة 1550م. وشهدت تلمسان هذه السنة تدخل الأشراف السعديين، حينما حاول محمد الشيخ بسط نفوذه عليها، لكن قوات حسن بن خير الدين تمكنت من طرده في السنة الموالية (1551م). ولما وصلت

المحور الرابع: تأثره وتأثيره: كان الشيخ متأثرا بالشيخ العلامة محمد عبده الذي كانت له زيارة للجزائر العاصمة وقسنطينة، وكان الشيخ يحمل نفس الهموم التي يحملها محمد عبده، وكانت مقالات الشيخ المجاوي في الصحف تصب في نفس المنحى.

وممن تأثروا بالشيخ نفسه تلاميذه عامة، وبالخصوص تلميذه المولود ابن الموهوب، فقد قال الأستاذ أبو القاسم سعد الله: "انتشرت دعوته التي تبناها في قسنطينة بالذات تلميذه المولود بن الموهوب ثم الشيخ عبد الحميد ابن باديس...".

المحور الخامس: مميزاته ومشاركته في المعارف: من خلال متابعتي لأعماله المطبوع منها والمخطوط، وما وسمه به من عرفوه استطعت أن أجمع جملة من المميزات كان الشيخ المجاوي يتصف بها: فهو العلامة الجليل والحبر الأصيل، الأديب المدرس الشهير، المفسر، الفقيه، الحبر الهمام، ذؤابة العلماء الأعلام، أستاذ الأساتذة ورئيس الجهابذة، حيث كان يتميِّز بقدرة فائقة في مجال التَّحصيل، حيث أن كلَّ كتابٍ يقرؤه لا يعيدُ قراءته، وكان يرى أن مآل الأمور تتغير إن أخذنا بالجانب الأخلاقي..، ومن كلام الشيخ المجاوي في هذا الضدد: "ما كثر الفساد في أمة إلا بعدم التربية، فإننا نرى الأولاد مهملين يتعلمون الفساد، وإننا نرى الأمم الحية إنما حصل لها الرقي بتربية أولادهم، وتعليمهم العلوم النافعة والمعرفة المفيدة..."، ومما امتاز به أيضا عن بقية مشايخ وقته أنه كان يتأجج غيظا وحنقا وعداوة للاستعمار الفرنسي الذي يحتل وطنه الجزائر ويأخذ بخناقها، وكان يوقن بأن العدو الذي قيد الجزائر للاستعمار إنما هو الجهل وضعف الأخلاق بضعف الدين، وما ساد في المجتمع الجزائري والمغربي من خرافات وعقائد باطلة تساعد الاستعمار على الإمعان في دوس كرامة البلاد وأهلها بأقدامه الوسخة ونعاله القذرة، آمن بأن الوسيلة لنهوض الجزائر والوصول إلى استقلالها إنما هي التربية والتعليم، والتربية الدينية العربية الصحيحة التي تخلق الأجيال الصالحة التي تكسر أغلال الاستعمار وتكنسه إلى البحر، والدواء الناجع الثاني هو إصلاح المجتمع والقضاء على العصبية المذهبية والجنسية التي زرعها الجهل وأنعشها الاستعمار، وكان الشيخ عبد القادر معتدا بدينه وبنفسه وبشخصيته الجزائرية الإسلامية كل الاعتداد، ترى ذلك في ملامحه وتقرؤه في أخباره وتلمسه في مؤلفاته، ومما امتاز به أيضا غيرته على الدين والعربية.

كان غيورا على الدين الإسلامي واللغة العربية، ويدافع عنهما بالحجة البالغة والبراهين المقنعة، ويرد دعوى من يجرؤ على مسهما بسوء أو يحاول أن يحوم حول حماهما بالشبهات الباطلة، ولقد كان شجاعا صريحا، قوي الحجة، حاضر البرهان، لا يهاب ولا يخاف، وكان يجادل المستشرقين المتكبرين فيخجلهم ويفحمهم، ويظهر لهم جهلهم بالإسلام والعربية، كما يبين للعامة في دروسه دسائس المبشرين وكيدهم للإسلام والمسلمين، وكان حربا على البدع والخرافات التي انتشرت في المجتمع، وألف فيها كتابا سماه "اللمع في إنكار البدع"، وهو شرح لقصيدة تلميذه الشيخ المولود بن الموهوب، وكانت ولاية قسنطينة أكثر استعدادا لقبول الإصلاحات والنهضة العلمية التي كان الشيخ المجاوي يسعى إليها، وهذا هو سبب مجيئه إليها وعمره يومئذ نحو اثنين وعشرين عاما[18].

المحور السادس: نشاطه وأعماله العلمية: بدأ الشيخ المجّاوي حياته التعليميـــة بالتـــدريس في مساجد قسنطينة متطوعا منذ سنة 1870م، درّس خلالها مختلف الفنون من نحو وصـــرف وبلاغـــة وفلك وتفسير وحديث، ونتيجة لذلك طارت شهرته وملأت آفاق قـــسنطينة ومـــا جاورهـــا، وكان حلوله بهذه المدينة في هذه الفترة الحرجة من تاريخها بصفة خاصّة وتـــاريخ الجزائـــر بـــصفة عامّة، بمثابة نسمة الخير والبركة التي هبت من جهة الغرب عليها[19].

– في سنة 1873م عينته الحكومةُ الفرنسية مُدرِّساً في قسنطينة بـــ"جامع سيدي الكتاني"

– وفي سنة1877م تمّت ترقيته، فعين أستاذا بالمدرسة الشرعية بقسنطينة المخصصة لتخريج قضاة الأحوال الشخصية والموثقين والأساتذة.

– لم ينقطع عن التدريس الحرّ في المساجد والخطابة فيها، فكأنّما خلق ليكون مدرّسا، فهو ممن كان يرى أنّ النهضة لا تكون إلاّ بالتعلّم، وأنّ الجهود الإصلاحية لا تأت من فراغ، واستمر عطاؤه العلمي فيها– تدريسا وتأليفا – إلى غاية سنة 1898م.

– في سنة 1898م نقل إلى الجزائر العاصمة؛ فانتسب إلى المدرسة العربية بشارع الـــسفراء بـــباب الوادي، مدرساً لفنون العربية[20].

– رقي إلِى التّدريسِ بـــ"مدرسة الجزائر العُليا" أوالمدرسة الثعالبية، التي بنيت بمرسوم من الحاكم العام للجزائر شارل جونار (1902—1912م)، والتي افتتحت للتدريس سنة 1905م.

– في 1908 مُنِحَ الإمامةَ والخِطابةَ بـ"جامع سيدي رمضان"[21].

المحور السابع: إجازاته العلمية: كان التعليم العالي في جامعة القرويين، وهي يومئذ في أوج ازدهارها واشتهارها، وفيها علماء أجلة مخلصون من تلامذة الشيخ محمد المجاوي والد المترجم له، ودخل عبد القادر جامعة القرويين فوجد بغيته وبخاصة في فنون العربية التي كان يحبها، ودرس فيها التفسير والحديث ومصطلحه والفقه وأصوله، والفرائض والمنطق والحساب والفلك، والتاريخ والتصوف، والنحو والصرف والبلاغة والأدب وعلم العروض، وتخصص في هذه العلوم، وأجازه شيوخه فيها بأسانيد متصلة بالكتب المتداولة عندهم، وإسناده كإسناد الحجوي صاحب مختصر العروة الوثقى مع اختلاف في بعض المشايخ، والقادري صاحب إتحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية، وغيرها من الفهارس المغربية، ولولا خشية الإطالة لأوصلت جميع الكتب التي تلقاها عن شيوخه إلى مؤلفيها بسند متصل خال من كل شذوذ، أو علة قادحة تستوجب نبذه.

المحور الثامن:مؤلفاته:

– مؤلفاته المطبوعة: لم يؤلف الشيخ المجاوي على الرغم من تمكنه من علوم مختلفة إلاّ بعد أنْ مارسها تدريسا لمدة عقد كامل من الزمن، في مساجد قسنطينة تدريسا حرّا، ثمّ في مسجد الكتاني ومدرستها الشرعية لّما عينته سلطة المحتلّ، حينما ذاع صيته وطارت شهرته في قسنطينة وما جاورها من المدن القريبة، ولاقت هذه المؤلفات قبولا واسعا ورواجا لدى طلاب العلم، وبالمقابل أحدثت زلزالا عنيفا في صفوف العدو ومن يدور في فلكه، وقد طبعت جلّ هذه المؤلفات، ولا تزال بعض نسخ مخطوطاتها محفوظةً، وسنشير إليها في الحديث عن كلّ مؤلف منها، وتنوعت مواضيعها بحسب فنون العلم التي كان يدرّسها، وبحسب ما كانت تقتضيه ظروف الجزائر العامّة في ذلك الوقت، وسنبدأ الحديث عنها بالتسلسل الزمني لتأليفها:

– إرشاد المتعلمين: هي من أوائل رسائله تأليفا، وقد قسم مباحثها إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، وبين سبب تأليفها بقوله: "..ولقد ساءني ما رأيت في هذا الزمان من فتور المعلمين والمتعلمين حتى أن أهل قطرنا من إخواننا المسلمين القسنطينيين والجزائريين والوهرانيين قد تراكم عليهم الجهل... وسبب ذلك هو عدم اعتنائهم بالعلوم التي بها تهذيب أخلاقهم وإصلاح منطقهم ..."، قال عنها الأستاذ القماري: "هي رسالة كثيرة الفائدة في وقته، دعا فيها إلى الإصلاح

الاجتماعي بنقده للتقليد، كما دعا مواطنيه والمسلمين عامة إلى نبذ الركود، والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة...[22].

– المرصاد في مسائل الاقتصاد: بعد الديباجة المعتادة عند الأقدمين، نوّه بموضوع الكتاب فقال ما نصه: "... فإنه لما دلت الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة النبوية على أن الله خلق هذا العالم للعمارة، وهي تتوقف على تنظيمات اقتصادية وافرة، وقوانين يصار إليها في المعيشة الدنيوية، وكان هذا العلم مفرقا في بطون الكتب والدواوين السامية؛ فصعب لأجل ذلك الإطلاع على قواعده واقتطاف أزهاره وفوائده، ظهر لنا أن نجمع تلك القواعد لتكون على خير فوائد؛ فشرعنا في ذلك بعد الاستخارة وتكرر الاستشارة؛ فانشرح الصدر لذلك، وإن كنا لسنا أهلا لنسلك تلك المسالك، وجعلناه مشتملا على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة، وسميناه "المرصاد في مسائل الاقتصاد"، والله المعين متوسلين إليه سبحانه بنبينا الصادق الأمين"، وقد قسم مباحث الكتاب إلى أربعة أبواب وخاتمة[23].

– شرح على المنظومة المرضية في المسائل النُّجومية للإمام ابن غازي: جاء في استهلال الشرح بعد البسملة والصلاة على سيِّدنا محمد وسلَّم ما نصه: "نحمدُ مَن زيَّن السَّماءَ الدُّنيا بالكواكب والنُّجوم، الخالق البارئ الحي القيوم، والصَّلاة والسَّلامُ على قُطب دائرة الأنبياء والرُّسل، سيِّدنا محمَّد الذي مَن اتَّبعَ طريقَه فقد اتَّبعَ خيرَ السُّبل، وآله الطَّيِّبينَ البررَة، وأَصحابه المنتخَبين الخيرة، والتَّابعينَ وتابع التَّابعين، وجميع أمَّته المتَّقين، وبعد؛ فيقولُ العبدُ الفاني عبد القادر المجاوي الحسني: إنَّه قَد ظهرَ لي أن أَشرحَ هذه المنظومة المختصَرة المحتَوية على مَعرفة دخُول المنازِل والأَبراجِ الفَلكية، لناظمها العلَّامة ابن غازي قدَّسَ الله سرُّه قاصدًا بذلك نفعَ العباد، والله الموفِّق لما فيه الصَّلاح والسَّداد، وآخرها كان الفراغ مِن تَبييضِ هذه الرِّسالة في العاشر مِن شَعبان المعظَّم سنة خمس وتسعين ومائتَين بعد الألف مِن الهجرة النبوية[24].

– الدُّرَرُ النَّحْويَّةُ عَلَى المَنْظُومَة الشَّبْرَاوِيَّة: جاء في مقدمتها بعد البسملة والصلاة على سيِّدنا محمد وسلَّم ما نصه: "وبعد فيقول المعترف بالذنوب والمساوئ عبد القادر بن عبد الله المجاوي هذه كلمات قليلة محتوية على فوائد جليلة لمنظومة العلامة الكامل الشيخ الشبراوي صاحب الفضائل... وآخرها وكان تمام جمع هذا الشرح المفيد ليلة الجمعة التاسع عشر من صفر الخير سنة 1296...[25].

- شرح جمل الخونجي: وهو مختصر في المنطق، وكان الفراغ من تأليفه في 29 رجب سنة 1295هـ، صفحاته: 9 ورقات ضمن مجموع تحت رقم 650، بخط مغربي مقروء، وهو موجود بوزارة الشؤون الدينية بالجزائر- مصلحة الثقافة والتراث.

- كشف اللثام في شرح شواهد ابن هشام: أوله نحمد من شهد بوجوده وقدمه افتقار الكائنات، وآخره انتهى بحمد الله وعونه الشرح المبارك الجليل أحسن الله إلى من ألفه، وأطال حياته ببلوغ أمله على يد كاتبه ومتممه من عدد خمسة وعشرين من أوراقه عبد الواحد المانح الراجي منه العفو في الدارين ابن العنتري مصطفى بن محمد الصالح في شعبان المبارك سنة 1295هـ، وهو كتاب قيم في المجال الأدبي والنحوي والبلاغي، شرح فيه كلّ الشواهد الشعرية التي تطرق لها صاحب قطر الندى وبل الصدى، وهو الإمام النحوي ابن هشام الأنصاري- رحمه الله- فشرحها الشيخ أبياتها شرحا لغويا، وإعرابا مع التطرق إلى الجانب البلاغي في الأبيات المستشهد بها، وترجم للأعلام الوارد ذكرهم في القطر، وهذا دليل على تمكنه من فن التراجم.

- نزهة الطرف فيما يتعلق بمعاني والصرف: وهو شرح لطيف مختصر على متن البناء في الصرف أوله نحمد من بيده تصريف الأفعال، وآخره وكان الفراغ من تبييض هذه العجالة ليلة الإثنين الثاني والعشرين من أول الربيعين الأبركين عام 1298هـ...[26].

- شرح منظومة الإمام المترلي في آداب المريدين: وهو شرح لمنظومة محمد المترلي التونسي القادري في التصوف، والمترلي قادري الطريقة، وشرح الشيخ يدل على تمكنه من مصطلحات القوم، ولولا ممارسته لهذا الفن لما استطاع أن يدلي بدلوه في هذا المجال، وبخاصة أن الجانب التصوفي كان مستحكما في معظم زوايا القطر الجزائري، وما ذكره شيخ المؤرخين في قطرنا من أنه ربّما كتبه من أجل أصهاره- عائلة الأمير عبد القادر- القادريّين فيه نظر، ولعلّ أحد الباحثين في المجال التصوفي ممن تقوم همته ببحث أكاديمي يزيل الإشكال، ويدفع الإيهام، في هذا الموضوع بعينه[27].

- الدرر البهية على اللامية الجرادية: طبع بالمطبعة الحجرية مطبعة جوردان بالجزائر، توجد منها نسخة بمصلحة الثقافة والتراث بوزارة الشؤون الدينية تحت رقم 464، وجاء فيها وكان الفراغ من الشرح المبارك عشية يوم عرفة من ذي الحجة الحرام عام 1320هـ، وعدد أوراقها 63 صفحة من الحجم المتوسط، كتبت بخط مغربي يمكن قراءته، وقد ذكر الأستاذ المؤرخ أبو القاسم سعد

الله في تاريخه أنّ هذه اللامية في الجمل اهتم بها العلماء والمدرسون في قسنطينة، وألف فيها الشيخ ابن الفكون شرحاً، غير أنّه يرى بأنّ الشيخ المجّاوي خير من انبرى لها شرحا وتدريسا، لما له من فهم وخبرة في التدريس، فأفاد طلبة العلم وأثرى به المكتبة وبغيره من المؤلفات المختلفة.

– الفريدة السنية في الأعمال الجيبية: وهو كتاب موجه إلى التلاميذ، طبع على نفقة الإدارة سنة (1320هـ/1903م)، وهي رسالة في 85 صفحة، جعلها في مقدّمة وعشرين باباً وخاتمة، وتطرق فيها إلى علم الحساب والميقات وتعديله، وضمنه أراجيز ليسهل حفظه[28].

– منظومة في التوحيد: وضع تلميذه ابن الموهوب شرحا عليها، ولا يُعلم هل طبع أمْ لا ؟ وهل هي أساس كتابه: القواعد الكلامية أم لا ؟ كما أنَّ شرح تلميذه غيّرمعروف[29].

– القواعد الكلامية: طبع آخر سنة 1911م بمطبعة فونتانة بالجزائر في 157صفحة، وقد قرَّظه تلميذه ابن الموهوب وهو موجّه إلى طلبة القسم العالي بالمدرسة الثعالبية، تطرَّق فيه إلى علم التوحيد بأسلوب علمي سهل ميسر، بهدف تصحيح العقيدة بالدليل، وقد جعله في مقدّمة وعشرة فصول وخاتمة[30].

– اللمع في نظم البدع: وهو شرح لمنظومة تلميذه ابن الموهوب "المنصفة في البدع"، ويقع في 198 صفحة، وقرظه تلميذه محمود كحول وأحمد بن الشيخ باش عدل بمحكمة سيدي عقبة، والكتاب امتداد لمنهجه الإصلاحي المعتمد في أول ما صدر له؛ وهو رسالته "إرشاد المتعلمين"[31].

– منظومةً في علم الفلك: هذا يدل على شدَّة اهتمامه بهذا العلم، ومنظومة تقع في 86 بيتا، استهلّها بقوله:

يقول عبد القادر المجاوي   معترفا بالذنب والمساوي

ولعلّها آخر ما ألّف كما يقول الدكتور ابن قينة في كتابه "صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث[32].

* مؤلفاته المخطوطة: قد أشرنا لها عند حديثنا عن الكتب المطبوعة، وجلها فد طبعت، والفهرسة كفياة ببيان ذلك.

* مقالاته في الصحف والمجلات: ساهم المجاوي في الحركة الصحفية، حيث ساهم في الكتابة في كل من "المنتخب"، و"جريدة المغرب" 1903م، كما شارك في تحرير جريدة "كوكب إفريقيا" في الفترة ما بين (1908—1909م).

أما عن المواضيع التي عالجها في مقالاته، فهي في المجال العقائدي والعبادات، أما في الجانب الاجتماعي فحارب مختلف الأمراض الاجتماعية التي انتشرت وسط الجزائريين، كالقمار ويظهر في قوله: "فلا تجد قمارا لابسا ثوبا حسنا، فضلا عن غيره من الضّروريات، وقرنه الله تعالى بالخمر في التحريم لشدة جرمه ولأنه من الكبائر".

* شهادات ومواقف:

– قالت مجلة الشهاب مارس 1932: "العلامة االأستاذ عبد القادر المجاوي رحمه الله، ومما قال فيه المصلح الليبي سليمات الباروني المتوفى سنة 1359هـ/1940م حينما التقاه في قسنطينة:

سيبويه العصر من هذّبه　　　أدب العلم فأروى من وردْ

ذاك عبد القادر الطود الذي　　　لا يقول القول إلاّ بسندْ

قال الإمام محمد البشير الإبراهيمي: "... مع علو سنه أخذه عن طبقة بعيدة الصيت في عالم الشهرة، كالشيخين عبد القادر المجّاوي وحمدان الونيسي، وغيرهما ممن الأخذ عنهم مدعاة للفخر والاستطالة وشموخ الأنف".

* الإستحقاقات والتشريفات:

– وِسامُ الاحترام (شوفالي) (1906).

– وِسامُ المعارف الذّهبي (1898).

– وِسامُ الافتخار التُّونسي مِن درجة التّطويق (1910)".

وفاته: جاء قسنطينة زائرا فوافاه أجله فيها في ذي القعدة من عام 1337هـ الموافق لسنة 1918م، وقبره على حافة طريق الوسط الذي يتوسط المقبرة على يمين المتجه غربا وقبله على بعد أمتار يوجد قبرا الشيخين المرحومين صالح بن مهنة وعاشور الخنقي اللذين كانا متنافرين في الدنيا، وشاء الله أن يتجاورا في طريق الآخرة، هذه نبذة قصيرة عن حياة هذا العالم الجليل وجهاده البطولي وسلوكه المثالي قلمناه للقراء كنموذج لنشأة الأدب الجزائري ورجاله في عهد الحروب والثورات التي قامت على أنقاضها ثورتنا التحريرية الكبرى، وأدت إلى استقلالنا السياسي والاقتصادي الكامل وقيام نظام حياتنا الجديدة في الثقافة والتربية وشؤوننا الاجتماعية وانبعاث نهضة جديدة تبشر بمستقبل زاهر، هذا وإن ترجمة الشيخ المجاوي هي أوسع بكثير مما ذكرنا فمن أراد معرفتها كاملة فعليه بمراجعتها في كتاب "تعريف الخلف برجال السلف" للمرحوم أبي

القاسم الحفناوي الجزائري، وأوسع منه ما كتبه عنه العالم الجليل المؤرخ محمد علي دبوز أستاذ الأدب والتاريخ في معهد الحياة بالجزائر ففيه غنية وكفاية.

الهوامش:

1- مجلـّة الشّهاب - الجزء الثالث- ديسمبر1930 - ص8.

2- عبد الله حشلاف- سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول الرسول- المطبعة التونسية- 1929 م- ص 53.

3- محمود كحول- التقويم الجزائري لسنة 1329- مطبعة فونطانا الأخوين وشركائهما- الجزائر-1911- ص 105.

4- محمد بن الحسن الحجوي- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي- ط1- 1416هـ- دار الكتب العلمية- بيروت- ج2ص303/أحمد بن محمد الزكاري- الفهرسة الصغرى والكبرى - تحقيق محمد بن عزوز- ط1- 2003م- دار ابن حزم- بيروت- ص164.

5- أحمد بن محمد الزكاري- نفس الرجع -ص 153/محمود كحول-نفس المرجع- ص 106 وما بعدها.

6- محمد بن القاسم القادري-إتحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية- تحقيق محمد بن عزوز- ط1- 2004م- دار ابن حزم- بيروت- ص 83/محمد بن الحسن الحجوي- الفكر السامي- ج4 ص136.

7-محمد بن الحسن الحجوي-مختصر العروة الوثقى في مشبخة أهل العلم والتقى- تحقيق محمد بن عزوز- ط1- 2003م- دار ابن حزم- بيروت- ص98.

8- محمد بن القاسم القادري- نفس المرجع- ص82.

9- محمد بن الحسن الحجوي- مختصر العروة الوثقى- ص60-61.

10- محمود كحول-نفس المرجع- ص 106.

11- محمد بن القاسم القادري- نفس المرجع- ص80-81.

12- أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- ط6- 2009م- دار البصائر- الجزائر- ج3ص130-131.

13- نفسه- ج4 ص383-385/محمود كحول- نفس المرجع-ص 105 وما بعدها.

14- أبو القاسم سعد الله- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر- ط2-1990م- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ج2 ص193-196.

15- الشيخ العربي بوعمران ومجموعة من الأساتذة- معجم مشاهير المغاربة- 1995م-جامعة الجزائر- ص473/محمود كحول-نفس المرجع- ص 105.

16- عبد القادر المجاوي- كتاب اللمع في إنكار البدع-مطبعة فونتانا- الجزائر- 1902م- ص3 وما بعدها.

17- أبو القاسم سعد الله -تاريخ الجزائر الثقافي- ج3 ص128.

18- عمار الطالبي- آثار الشيخ ابن باديس- ج1ص28.

19-محمود كحول-نفس المرجع- ص 106 وما بعدها.

20- نفسه- ص 106 وما بعدها.

21- نفسه- ص 106 وما بعدها.

22- طبعت بالمطبعة الوهبية بمصر طبعة حجرية سنة 1294هـ/1877م، وقرّظها كاتبان كبيران هما: حامد سليمان من الشام، ووهبي أفندي معلّم اللغة الفرنسية ، وأعيد طبعها سنة 2008م بدار ابن حزم- بيروت.

23- طبعت بالمطبعة الشرقية لبيير فونتانا- الجزائر- 1904م.

24- طبع هذا الكتاب بمطبعة بومون-قسنطينة سنة 1879م.

25- طبع بالمطبعة الشرقية لبيير فونتانة- الجزائر- سنة 1907م.

26- طبع بالمطبعة الشرقية لبيير فونتانة- بالجزائر- 1907م، وتوجد نسخة مخطوطة ضمن مجموع تحت رقم 654 بوزارة الشؤون الدينية بالجزائر- مصلحة الثقافة والتراث، وعدد أوراقها 12 ورقة، وكان الفراغ من نسخها يوم 26 ربيع الثاني من سنة 1298هـ، على يد الناسخ عبد الله محمّد أمقران بقسنطينة.

27- ألفه بقسنطينة، وطبع بمطبعة الدولة التونسية سنة 1314هـ.

28- أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- ج7ص249.

29- نفسه- ج7 ص154.

30- محمود كحول-نفس المرجع- ص105/أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- ج7ص153.

31- طبع سنة 1912م بمطبعة فونتانة الشرقية بالجزائر.

32- ابن قينة- صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث- ص75.

33- محمود كحول-نفس المرجع- ص107.

التراث العربي الإسلامي

الخطاب الإصلاحي في تلمسان خلال القرن 8هـ/14م من خلال واسطة السلوك لأبي حمو الزياني.

د سعيد بنحمادة*

يعود العمق الحضاري للقرن 8هـ/14م في الغرب الإسلامي إلى هزيمة الموحدين في معركة العُقاب سنة 609هـ/1212م، التي أفضت إلى التفكك السياسي ببلاد المغرب والأندلس[1]، مما جعل أحداثها تندرج ضمن "أزمة القرن الرابع عشر"[2]، الذي اعتبر لذلك من أسوأ العصور التي عرفتها حضارات البحر الأبيض المتوسط[3].

ومن مظاهر ذلك التحول بروز كيانات سياسية وريثة للحكم الموحدي؛ إذ عرفت الأندلس "عصر الطوائف الثالث"، قبل استقرار الأمر لبني الأحمر، والمرينيين بالمغرب الأقصى، وبني عبد الواد بالمغرب الأوسط، والحفصيين بإفريقية.

وكان من البديهي أن يعرف القرن 8هـ/14م، في ظل هذه التحولات السياسية والعسكرية، إنتاجا يهدف إصلاح الدولة والمجتمع والثقافة بالغرب الإسلامي؛ من قبيل "الإشارة إلى أدب الوزارة"، و"مقامة في السياسة" للسان الدين بن الخطيب (ت. 776هـ/1374م)، و"الشهب اللامعة في السياسة النافعة" لابن رضوان (ت. 782هـ/1380م)، و"واسطة السلوك في سياسة الملوك" لأبي حمو الزياني (ت. 791هـ/1388م)، و"عين الأدب والسياسة في زين الحسب والرياسة" لابن هذيل الأندلسي، و"المقدمة" لابن خلدون (ت. 808هـ/1405م).

وتدخل هذه المصنفات ضمن كتب الأحكام السلطانية، التي تعد بمثابة فكر سياسي عملي، قائم على التجربة، عبر مبدأ النصيحة، المستمدة من المرجعية الفارسية واليونانية والإسلامية[4].

ومن ثم جاء اهتمامنا بـ"واسطة السلوك في سياسة الملوك" لأبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن (760- 791هـ/1358- 1388م)، أحد سلاطين دولة بني عبد الواد بتلمسان. غير أن ما يهمنا ليس سيرة هذا الملك، ولا التاريخ السياسي للدولة الزيانية بالمغرب الأوسط،

---

*- أستاذ باحث- الرشيدية- المغرب.

بقدر نتوخى التركيز على الخطاب الإصلاحي كما يراه حاكم تلمسان، في إطار ما سمي بـ"النظرية السياسية للسلطان أبي حمو الزياني الثاني"[5]، من خلال الكتاب المذكور.

والكتاب عبارة عن وصايا سياسية عملية خص بها أبو حمو الزياني ولي عهده؛ إذ يقول محددا غرض الكتاب: ((فرأينا أولى ما نخف به ولي عهدنا، ووارث مجدنا، والخليفة إن شاء الله من بعدنا، وصايا حكمية، وسياسة عملية علمية مما تختص به الملوك، وتنتظم بها أمورهم انتظام السلوك في سياسة الملوك؛ ولذلك سميت هذا الكتاب بواسطة السلوك في سياسة الملوك، ليكون اسمه يوافق مسماه، ولفظه يطابق معناه))[6].

وبذلك فالمصنَّف يندرج ضمن كتب "العهود"؛ فهو وصية سياسية يثبت فيها سلطان تلمسان طرق الحكم وآليات التدبير السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدولة، مما يجعل منه دليلا عمليا، وأخلاقيا وسياسيا، هدفه تبيين الصفات الخلقية والأسس السياسية الواجب اتباعها من قبل ابنه للحفاظ على الحكم بتلمسان، وهو ما أعطى للسياسة الموصى بالاهتداء بها مفهوما تقنيا[7].

وقد حظي كتاب "واسطة السلوك" باهتمام الباحثين المعاصرين، في إطار القراءات المتباينة للآداب السلطانية عموما[8]؛ إذ منهم من تتبع بدقة مصادر الكتاب، وأسلوبه، والإطار التاريخي الذي ألف فيه، من خلال التركيز على دولة بني عبد الواد بتلمسان خلال القرن 8هـ/14م، وبالأخص زمن أبي حمو[9].

وقد اختار أبو حمو تقنية النصيحة أو التمثيل التارخي؛ فإذا كانت معظم كتب الأحكام السلطانية تزاوج بين التصورات النظرية والوقائع في صياغة متوهما، فإن كتاب "واسطة السلوك" يقوم بالإساس على التاريخ والتجربة السياسية والعسكرية لسلطان تلمسان نفسه، أكثر من اعتماده على التجارب الساسانية واليونانية والإسلامية السابقة.

كما أن بنية التأليف في الكتاب تستند إلى "شبكة فعلية للتفاعل النصي"، أي بؤر التناص المتداخلة فيه؛ إذ نقل من "سراج الملوك" للطرطوشي في 20 موضعا، ومن "العقد الفريد" لابن عبد ربه في 7 مواضع، ومن "المنهج المسلوك في سياسة الملوك" للشيزري في 7 مواضع أيضا، ومن كتاب "سلوان المطاع في عدوان الاتباع" لمحمد بن ظفر المالكي في 3 مواضع[10].

وقد أثنى المقري على الكتاب؛ فهو في نظره ((تأليف حسن في السياسة، لخص فيه "سلوان المطاع" لا ظفر، وزاد عليه فوائد، وأورد فيه جملة من نظمه، وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بني مرين وغيرهم، وصنّفه برسم ولي عهده أبي تاشفين))[11].

ومن تم فالكتاب هو بمثابة مذكرة سياسية، تروم إصلاح الدولة والمجتمع والاقتصاد، لاستمرار الدولة الزيانية بتلمسان. إلا أن هذا الخطاب الإصلاحي يجعل من أخلاق السلطان قطب الرحى، وهو ما

يبدو جليا من خلال أبواب الكتاب وأقسامه، التي فصلت في شخص السلطان، و سلوكه مع بطانته، ورعيته، ونظرائه من الملوك، وخاصة الباب الثالث المتعلق بـــ"الأوصاف المحمودة التي هي نظام الملك وجماله وبهجته وكماله، وهي قواعد أربعة: الشجاعة والكرم والعفو والحلم"[12].

لقد أعاد أبو حمو بالإخلاق إلى أهمية العقل؛ "فالملك بالنسبة إلى العقل على أربعة أقسام؛ ملك له عقل يصلح به دنياه وأخراه، وملك له عقل يصلح أخراه دون دنياه، وملك له عقل يصلح به دنياه دون أخراه، وملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا أخراه؛ ... فإذا كان الملك على هذه الخصال التي ذكرناها؛ والأوصاف التي بيّناها، اقتضى ملكه الدوام، وأجمع على محبته الخاص والعام، ورجئ له النصر في كل مقام، وتسنى له الظفر بكل المرام؛ فإن مات بقي ذكره دائما والثناء عليه قائما"[13].

وهكذا يتضح أن أبا حمو لم يخرج عن المألوف في الخطاب السلطاني، لما ربط بين قوة الدولة واستمرارها بالبعد الأخلاقي في شخصية السلطان. بل إن تلك الكتابات حين تتحدث عن "أخلاقيات السلطة" لا تطرحها بمنظور تطوري مواكب لعمر الدولة، كما فعل ابن خلدون، وإنما من خلال رؤية سكونية مرتبطة بمدى نفعها أو ضررها للسلطان، دون الخروج بها عن "نظم القيم" في العقل الأخلاقي العربي[14].

غير أنه، وبقدر تركيز أبي حمو على الجانب الأخلاقي، وخاصة ما تعلق بالكرم[15]، فإن الرواية المرينية تطفح بمعلومات عن جوانب من شخصية سلطان تلمسان؛ فحسب تلك الرواية، أنه كان "بخيلا مسيكا، لا يرى في وقته أبخل منه، وكان كذابا لا ينطق بكلمة حق، غدارا خائنا غشاشا، إذا عاهد خان، وإذا وعد أخلف"[16]، وتضيف الرواية المرينية، بنوع من التحامل، أن "بخله لم يسمع لغيره من الملوك وغيرهم، كان يذبح في كل يوم رأسا من الضأن فيأكل نصفه ويبيع نصفه بالسوق"[17].

كما نجد أبا حمو يركز على الحاشية؛ ويقصد بها المراتب أو الوظائف بنوعيها الديني والدنيوي، والتي تشكل خدام السلطان وأعوانه، مركزيا ومحليا؛ إذ أدرك سلطان تلمسان أهمية الحاشية الملكية؛ فأوصى بها ابنه، جاعلا ذلك من أركان الدولة؛ مركزا على الوزراء والجلساء والكتاب وأصحاب الأشغال والفقهاء والقضاة والأعوان وقواد الجند والعمال وصاحب الشرطة والسفراء[18].

وإذا كان كتاب "واسطة السلوك" لا يختلف عن باقي مؤلفات الآداب السلطانية في الاستناد إلى ركائز السلطة؛ فإن التباين يكمن في ترتيبها حسب أبي حمو الزياني الذي أعطى الأولوية القصوى لـــ"الجند"، على حساب "العمارة"، وهو ما يعزى إلى الطابع الحربي لبني عبد الواد في عهد السلطان المذكور[19]، بل إنه يربط النظم العسكرية بالبعد القبلي[20]؛ مما يفسر أهمية العصبية في هذه الفترة التاريخية، ليس في دولة بني عبد الواد بتلمسان، وإنما بالغرب الإسلامي كله.

وبالمثل فإن الدولة، في نظر أبي حمو، تتوقف على وجود نخب سياسية وإدارية وثقافية، تتوفر فيها شروط الأخلاق، والكفاءة المهنية، والرأسمال الاجتماعي، من خلال تنصيص حاكم تلمسان على ضرورة انتماء بعض كبار رجال الدولة إلى قبائل وأسرة وجيهة وبيوتات معروفة، ليكون ذلك مساعدا للموظف على التتره عن الفساد؛ فكون الوزير مثلا من "خيار قومه وعشيرته، فإنه يكون محافظا على بيته ومروءته، مجانبا للنقائص والشبهات، متنزها عن المعايب في جميع الحالات"[21].

كما تزودنا المذكرة الإصلاحية بتوصيات مرتبطة بالعلاقة بين السلطان وشركائه المدنيين والعسكريين، مثل الجنود والمتطوعة، فيما يخص شؤون العطاء والتموين وتدبير قضاياهم الاقتصادية والاجتماعية. وهو ما دفع أحد الدارسين[22] إلى حصر وظيفة الدولة في العصر الوسيط في جمع الضرائب وممارسة العنف، مما يرسخ جدلية المال والجيش في النظرية السياسية لدى أبي حمو الزياني.

غير أن ما يطفح به الكتاب هو التجربة السياسية والعسكرية لأبي حمو، ومنها المعركة التي دارت بين بني عبد الواد والمرينيين قرب تلمسان سنة 760هـ/1358م، وكيف انتصروا عليهم، ونعم بنو عبد الواد بالاستقرار، رغم قوة المرينيين؛ "فاستقللنا بحضرتنا العلية، والبلاد كلها مرينية. واستولينا على ما كان بتلمسان، واستقر لنا بها الملك والسلطان، ومرين محدقة بنا من كل جهة ومكان؛ ليس بيننا وبينهم إلا مسيرة يوم أو نصف يوم. ومن شدة الحزم لم تكتحل أجفاننا بنوم؛ فلم نزل ... نستعمل معهم المحاولات والمكائد، وننصب لهم الأشراك بكل المراصد، إلى أن استخلصنا جميع بلادنا من أيديهم، وجازيناهم على تعديهم. وذلك بين محاولة وقهر وتأييد ونصر. ولقد دخلناها عليهم دون كثير جيش، ولا مال؛ فبلغنا بالسياسة والمحاولة غاية الآمال إلى أن صارت أموالنا أكثر من أموالهم، وأحوالنا أحسن من أحوالهم، وأعدادنا أكثر من أعدادهم، وأجنادنا أوفق من أجنادهم، وبلادنا أمهد من بلادهم[23].

وفي الميدان السياسي والديبلوماسي والعلاقات الخارجية مع الدول، يستلهم أبو حمو تجربته كذلك لتوجيه ابنه، وخاصة فيما يخص التجسس وبث العيون والإيقاع بالعدو؛ فيذكره بما حصل له مع المرينيين من حروب وتجسس، وخاصة في عهد السلطان أبي سالم، مثلما أخبره بهزيمة أبي الحسن المريني في إفريقية وغرق أسطوله[24]، كما يحضر البعد التاريخي في الكتاب من خلال تاريخ الأندلس؛ مثل الاستراتيجية الحربية التي نهجها ابن هود للإيقاع بابن رذمير بوشقة؛ وانتصارات المنصور بن أبي عامر خلال القرن 5هـ/11م[25].

وإذا كان أبو حمو قد لمز إلى الصراع بين بني عبد الواد والمرينيين، وأكد لابنه أهمية الشجاعة في تدبير الملك[26]؛ فإن هؤلاء لم يغفلوا الأمر، وحاولوا النيل من القدرات الحربية لسلطان تلمسان؛ ففي نظرهم أنه "كان جبانا لا يقدر على مدافعة الجيوش المرينية خوفا على نفسه"[27]؛ إذ "ما رئي يجري فرسه

قط، فإن اعتذر عن ذلك من رزانته فليس الأمر كذلك، إذ من شأن الملوك الكبار الذين هم أكبر قدراً منه في الحسب وضخامة الملك أن يلعبوا مع خدامهم الموالي بجري الخيل بقصد الثقافة ومعرفة ركض الخيل. وهذه عادة مطردة لهم، ومن لا يفعل ذلك منهم فهو خواف على نفسه أن يقع من الفرس من جهله بالفروسية"[28].

كما أن من ملامح البناء الفكري لكتاب "واسطة السلوك"، توظيف أبي حمو للبعد السياسي لاحتفالات بني عبد الواد بالمولد النبوي، ورسالة الأشواق التي بعثها إلى النبي صلى الله عليه وسلم[29].

ومن مظاهر التدبير العملي الذي يوصي به أبو حمو، علاوة على المعايير الخلفية والكفاءة، ما يمكن نعته بالاستعلامات؛ ففي تعيين الوزير قال: "ومع ما ذكرنا من الاختيار، فلا تخليه من الاختبار"[30]، كما ينصحه بالأمر نفسه فيما يخص العمال؛ إذ يوصيه بعدم الإفراط في الثقة في العمال؛ "وقد جرت عادة الخلفاء والملوك باختبار العمال في جبايات الأموال"[31].

وبناء على ذلك، فإن كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" يمثل أنموذجا للمذكرات السياسية والخطاب الإصلاح، للنهوض بالأوضاع العامة بتلمسان خلال القرن 8هـ/14م، في مناخ إقليمي ينذر بالتحول في الجناح الغربي للحوض المتوسطي، الذي سينتقل منه الثقل الحضاري إلى المحيط الأطلسي، و"كأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث"[32].

وقد عملنا على إبراز ذلك من خلال إعادة تركيب فقرات الكتاب لتبيين النظرية السياسية لأبي حمو الزياني، وفق أبواب وفصول؛ فقسمنا الوثيقة المستخرجة من "واسطة السلوك" إلى أبواب، منها الباب الأول الخاص بقواعد الحكم، ويشمل فصول العدل، والمال، والجيش؛ والباب الثاني المتعلق بأخلاق السلطان، ويضم الفصول الخاصة بالعقل، والشجاعة، والكرم، والحِلم، والعفو؛ والباب الثالث المرتبط بموظفي الدولة، ويهم الوزراء، والحاشية، والكُتّاب، وصاحب الأشغال، والفقهاء، والقضاة، والأعوان، والقواد، والعمال، والحرس الملكي، ومماليك الملك؛ أما الباب الرابع فخاص بالحكامة السياسية؛ والباب الخامس المتعلق بالسياسة الحربية. وفي ما يلي نص المذكرة:

الباب الأول: قواعد الحكم

العدل

– ((الملك بناء والعدل أساسه؛ فإذا قوم الأساس، دام البناء، وإن ضعف الأساس انهار البناء؛ فلا سلطان إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال، ولا مال إلا من جباية، ولا جباية إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل؛ فالعدل أساس. ومن استعمل العدل حصن ملكه؛ ومن استعمل الظلم عجل هلكه)).

- ((إذا تقرر أن العدل أس الدولة، وإقامة الملة، ورأس السياسة، ومدار الرياسة؛ فالملك بالنسبة إليه على أقسام: أن يكون الملك عدلا في نفسه، عدلا في رعيته وأهله وخاصته؛ أن يكون الملك جاريا مع الرعية على العوائد المألوفة، والأحوال المعروفة، من غير خرق، ولا إحداث زيادة، مقلا على أموره الدنيوية، وإن كان مفرطا في بعض الأمور الأخروية)).

- ((العدل سراج الدولة؛ فلا تطفئ سراج العدل بريح الظلم)).

- ((صلاح الدولة بقواعدها، وفسادها بخرق عوائدها)).

- ((أربعة لا يزال معها المُلك: حسن التدبير في الأمور؛ والعدل في الخاصة والجمهور؛ والأخذ بالحزم؛ والصبر في الأزم.

أربعة لا يثبت معها المُلك: سوء التدبير؛ ومخالفة النصيح والمشير؛ وخبث السريرة والنية؛ والجور على الرعية)).

- ((العدل نِعْم ما يجتنى، والجور بئس ما يقتنى، والعدل كنز الأمير، وحياة الغنى والفقير)).

- ((الأمير العاقل لا ينفذ فيه قدح أهل البغي؛ فمن انقطع إليه ولازمه كالجوهر المضيء بنوره، لا تطفئه عواصف الرياح)).

المال

- ((المال حرز الملك، وبه ينتظم انتظام السلك؛ فاحرز حرز مالك بتقليل الثناء، وتصرف فيه تصرف أهل العقل والذكاء)).

- ((ابذل مالك في الثناء، فإنه خير من الغنى، ولا تكثر فيه السرف، فإنه يؤدي إلى التلف، ثمّ مالك تبلغ آمالك؛ فإن من قلّ ماله تلاشت حاله، وقلت أعوانه، وضعفت أنصاره)).

- ((المال زين والإقلال شين، والمال عون على العذى، وحصن يتقى به من الرذى، به يستفتح الصياصي وتستملك النواصي، ويقاد العاصي، ويستدنى القاصي. وبالمال تستعبد الرجال، وتبلغ الآمال، وتدل به الرقاب، وتستفتح به الأبواب، وتستهل الأمور الصعاب، وتنال الرغائب، وتنجو به من المصائب)).

- ((خير المال ما وقع به الانتفاع، وشر المال ما تركْته للضياع؛ فاجمعه من مواضعه ووفره، وقوّ مادته بالعدل، وتوسط في العطاء والبذل)).

جبهة التحرير بالمغرب، عين نائبا لرئيس فدرالية الجبهة بالمغرب، شارك في مؤتمر طرابلس عام 1962م. وابتعد بعد الاستقلال عن الحياة السياسية[14].

9- قزان الجيلالي (سي عفان): قيادي في الولاية الخامسة.

ولد بالخميس قرب تلمسان عام 1935م، درس بالكتاب ونشأ في أسرة محافظة، ارتبط بنشاط الحركة الثورية مبكرا حيث كانت قريته الواقعة على الحدود تستقطب كثيرا من الوطنيين، ومنهم بوالصوف، انخرط في تحضير العمل الثوري، بالمنطقة تحت إشراف سي جابر، بدأ مشواره النضالي بالعمل السياسي والتحق في نوفمبر 1955م بجيش التحرير الوطني، كلف بعدة مهام ثورية، وعين بعد مؤتمر الصومام عضوا في قيادة أول فيلق شكل بالمنطقة، شهد العديد من المعارك، وفي أواخر افريل 1957م أشرف على نقل عبان ودحلب من سيدي بلعباس الى الحدود المغربية، فضل الاستقرار في المنطقة الاولى داخل الوطن بدل الانتقال الى القاعدة الخلفية بالمغرب، وظل فيها الى غاية وقف اطلاق النار، عين بعد استشهاد سي جابر في فيفري 1958م مسؤولا عن ناحية سبدو، وكان تابعا لقائد المنطقة سي الزوبير، وقد اختاره هذا الاخير ليكون عضوا في قيادته مكلفا بالاتصال والأخبار، وكان يساعده في إدارة شؤون الثورة وفض بعض النزاعات التي كان يتورط فيها سي الزوبير، وكان ينوب عنه في خرجاته الكثيرة الى المغرب، والتي كانت آخرها الخرجة التي أعلن فيها التمرد نهاية عام 1959م، وكان مصيره الإعدام، تولى بعدها سي عفان قيادة المنطقة الأولى، وكلف بعدها بمسؤولية التنسيق بين المناطق، ورقي بعدها إلى رتبة رائد عضوا في قيادة الولاية، وقد عمل مع الرائد عباس مشرفا على قيادة الولاية الخامسة بالداخل منذ نهاية عام 1961م، وخاض خلالها العديد من المعارك الكبرى والاشتباكات، بعد وقف إطلاق النار تولى الإشراف على قيادة الولاية إثر خروج قيادتها إلى طرابلس، وكان شاهدا على صراع المرحلة الانتقالية بين هيئة الأركان وقيادة الداخل في الولاية الخامسة، وهو ما أثار تذمره وجعله يفضل التخلي عن الخدمة العسكرية.

عين عضوا في أول مجلس تأسيسي، وتعرض للتهميش في عهد بومدين، وعين عضوا في المكتب السياسي للجبهة خلال مؤتمرها الرابع، وما يزال على قيد الحياة[15].

10- لواح محمد بن احمد (سي فراج): عضو قيادة الولاية الخامسة وشخصية ثورية مرموقة السمعة.

ولد عام 1936م في غورايا ناحية سبدو التابعة لتلمسان، زاول دراسته الأولى بالكتاب وبالمدرسة الابتدائية بمسقط رأسه، وانتقل إلى مدينة الخميس لمواصلة الدراسات الشرعية. وفي سنة 1952 عاد إلى مسقط رأسه ليمارس مهنة التعليم، وانخرط في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وأصبح عضواً عاملاً في خلايا المنظمة الخاصة.

التحق بصفوف الثورة مبكرا، وشارك بفعالية في تنظيم العمليات العسكرية بوهران ابتداء من أكتوبر 1955، وكان على رأس فرقتين مسلحتين وهو لم يبلغ بعد سن العشرين من العمر، تمكن من إرساء التنظيم وإنجاح العمليات العسكرية، واعترفت قيادة الولاية الخامسة بمواهبه وقدراته الحربية فعينته في ماي 1958 قائداً للمنطقة الخامسة، ثم عضواً في قيادة الولاية الخامسة برتبة رائد. بذل جهوداً كبيرة في مواجهة المخططات الفرنسية بالمنطقة الخامسة، وخاض معارك واشتباكات عنيفة في جبال سبدو ومرباح وجبل يوسف، عرف بأخلاقه الرفيعة وتواضعه وأشتهر بحنكته السياسية وثقافته الواسعة.

كان رفقة قائد الولاية سي لطفي في طريق العودة من اجتماع المجلس الوطني للثورة عندما اكتشفت القوات الفرنسية طريقهما، وواجهتهما في معركة ضارية بجبل بشار يوم 25 مارس1960 فكانت نهاية البطلين بعد حياة حافلة بالبطولات والانجازات[16].

11- تيجاني هدام: شخصية سياسية وتاريخية مرموقة، ولد في جانفي 1921 بتلمسان، واصل دراسته العليا في الطب وشارك في النضال الطلابي، التحق بصفوف الثورة التحريرية بداية سنة 1955، كان مقربا من ابن بلة وعمل مساعدا له في الوفد الخارجي بالقاهرة، وبعد اعتقال ابن بلة شارك في تأدية عدة مهام سياسية وعسكرية، بعد الاستقلال تولى عدة مسؤوليات عليا: منها وزيرا للشؤون الدينية سنة 1964، ثم وزيرا للصحة سنة 1965، وعميدا لمسجد باريس، عاد إلى أرض الوطن واشتغل أستاذا للطب بجامعة الجزائر، عين في جانفي سنة 1992 عضوا في المجلس الأعلى للدولة[17].

* ثالثا: النخب الطلابية: ساهمت النخبة الطلابية بدور فاعل في الحركة الوطنية وثورة التحرير الكبرى ، ومن رموزها البارزة عدد من المجندين في الجزائر والمغرب اثر الإضراب الطلابي، ومنهم نذكر:

1- خميستي محمد: أمين عام الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. وأول وزير للخارجية في عهد الاستقلال.

ولد يوم 11 أوت 1930 بمغنية ولاية تلمسان، درس المرحلة الثانوية بوهران، ودخل كلية الطب بمونبيليه الفرنسية، وهناك ساهم في نشاط الطلبة الجزائريين، وانتخب ضمن قيادة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في أوائل سنة 1956، ألقي عليه القبض يوم 12 نوفمبر 1957 وهو طالب بجامعة مونبيليه، وبعد أسابيع من التعذيب نقل إلى سجن برباروس، وقد وجهت له تهمة القيام بنشاطات سياسية للمس بالأمن العام الفرنسي، أطلق سراحه بعد سنتين ليعود إلى نضاله ويتم دراسته في الطب، انتقل إلى المغرب وعمل في فدرالية جبهة التحرير الوطني بقاعدة المغرب، عين عضوا في اللجنة التنفيذية المؤقتة، وانتخب سكرتيرا عاما لرئيسها فارس عبد الرحمان، وبواسطته كانت قيادة الثورة تطلع على ما يجري من تطورات.

ساند ابن بلة، وقد شارك بعد أزمة صيف 1962 في انضمام الجزائر في هيئة الأمم المتحدة، عين نائبا في المجلس الاستشاري، ووزيرا للخارجية إلى غاية أفريل 1963، حيث اغتيل في ظروف غامضة(18).

2- شريف بلقاسم: مناضل وسياسي محنك، تولى مسؤوليات قيادية في جيش الحدود الغربية وفي الحزب والدولة في عهد الرئيس هواري بومدين .

ولد عام 1930 وهاجرت به عائلته إلى المغرب، أتم دراسته الاكمالية والثانوية بالدار البيضاء وانتسب لكلية الحقوق بالرباط، ولما اندلعت الثورة التحريرية التحق بصفوفها عام 1955، عين في البداية مسؤولا عن الطلبة الجزائريين في المغرب، ثم قائدا على منطقة صبرة بتلمسان، وتولى في عام 1959م قيادة المنطقة الأولى من الولاية الخامسة (تلمسان). التحق بقيادة هيئة الأركان في وجدة، وكلفه بومدين بالإشراف على معسكرات التدريب والتاطير، عين عضوا في قيادة المنطقة الشمالية التي كلفت بدخول تراب الولاية الخامسة، وعشية الاستقلال ساهم في تجنيد قيادة الجيش وبعض السياسيين لدعم تحالف هيئة الأركان- بن بلة، وكان واحدا من مجموعة تلمسان.

عين بعد الاستقلال عضوا في المجلس التأسيسي ثم وزيرا للإرشاد القومي، شارك في انقلاب 19 جوان 1965م وعين عضوا في مجلس قيادة الثورة ووزيرا للمالية، كان مساعدا لبومدين في تطبيق سياسته الزراعية والصناعية، وفي عام 1975 حدثت اختلف معه، غادر الجزائر ليعود بعد سنة 1988م لمراقبة الساحة السياسية، وقد توفي مؤخرا(19).

3- رحال منصور: ضابط في جيش التحرير الوطني ومخابر بالولاية الأولى.

ولد عام 1938 بمدينة وجدة المغربية، من أسرة تعود في أصولها إلى ندرومة، نشا في وجدة وبها درس، شارك في إضراب 19 ماي 1956 وهو طالب في الصف الثانوي والتحق بصفوف الثورة، فاختير ليكون ضمن الفوج الثاني الذي دخل مدرسة الناظور للاتصالات السلكية واللاسلكية، وبعد تخرجه في ماي 1957 نقل إلى تونس لمباشرة عمله.

في نهاية عام 1957 أرسل إلى ولاية الاوراس للعمل في ميدان الاتصالات، واستقر في المنطقة الثانية التي كان يقودها علي النمر، وقد بذل جهود كبيرة في ربط الاتصالات بين قيادة الولاية الأولى وقيادة الثورة في الخارج وتذليل كثير من الصعوبات، تعرف على كثير من قيادات الثورة، وكان شاهدا على كثير من الأحداث التي نقلها لنا في مؤلفه "الثوار" الصادر عام 2000، وخاصة ما تعلق بالصراع الذي شهدته الولاية الأولى وتصفية المشوشين، والصعوبات التي واجهها العقيد لخضر عبيدي، وانعكاسات خطة شال على ولاية الاوراس.

واصل تأدية مهامه إلى غاية استرجاع السيادة الوطنية، وبعد الاستقلال فضل الابتعاد عن السياسة، أكمل دراسته وعمل في ميدان الهندسة المعمارية، وهو ما يزال على قيد الحياة[20].

4- عبد العزيز بوتفليقة: قيادي بجيش الحدود وبالجبهة الجنوبية، ورئيس الجمهورية الجزائرية الحالي.

ولد سنة 1935 بمدينة وجدة المغربية من أسرة مهاجرة تعود أصولها الى ندرومة، نشأ بوجدة في أسرة فقيرة، واصل تعليمه في معهد مولاي إدريس الثانوي.

التحق بصفوف الثورة عام 1956م في المغرب، وعمل ضابطا في الولاية الخامسة مكلفا بالنشاط السياسي، واختاره قائد الولاية هواري بومدين ليكون أمين سر الولاية ومساعده في تسيير شؤون الولاية، وانتقل معه للعمل في القيادة العامة للجيش بالحدود الغربية، كلفه قائد هيئة أركان الجيش في بداية عام 1960م بفتح جبهة جنوبية في أقصى الصحراء، فوفق في قيادة هذه الجبهة وإنجاح مهامها.

وفي ظل صراع هيئة الأركان مع الحكومة الجزائرية المؤقتة منذ جويلية 1961م تولى مسؤوليات حساسة منها خلافة الثلاثي المستقيل من هيئة الأركان، كان محل ثقة هواري بومدين وقد أدى له المهمات الحساسة، ومنها الاتصال بالزعماء الخمسة المعتقلين في فرنسا بقصد عقد التحالفات المستقبلية، وقد تحاور مع بوضياف وبن بلة ومال إلى كفة هذا الأخير.

بعد الاستقلال عين الرائد بوتفليقة عضوا في المجلس التأسيسي ووزيرا للشباب والرياضة، وتولى سنة 1963م وزارة الخارجية التي قضى على رأسها ستة عشر عاما، أزيح من قبل فريق الشاذلي بن جديد عام 1979م فهاجر خارج الوطن، عاد بعد عشرين سنة لينتخب رئيسا للجمهورية الجزائرية، وقد انتخب عام 2004 لعهدة ثانية، ولعهدة ثالثة في 2009م[21].

5- رحال عبد اللطيف: من عائلة مناضلة، بدأ مشواره النضالي في صفوف أحباب البيان والحرية ثم تحول إلى جمعية العلماء، وتأثر بالأفكار الثورية.

كان طالبا عندما التحق بصفوف الثورة، وقد شغل العديد من المسؤوليات السياسية والعسكرية.

عشية وقف إطلاق النار عينته قيادة الثورة عضوا في الهيئة التنفيذية المكلفة بإدارة الشؤون الإدارية وتسليم السلطات. وبعد الاستقلال عين مديرا لديوان الرئيس بن بلة، وكلف بعدها بعدة مسؤوليات دبلوماسية، سفيرا وممثلا للجزائر في الهيئات الدولية، ثم تم تهميشه في عهد الشاذلي بن جديد. وكلف في عام 1991م بوزارة الداخلية، وعينه الرئيس بوتفليقة مستشارا سياسيا له.

6- الطاهر الزرهوني: ولد بندرومة، زاول تعليمه الابتدائي والمتوسط باللغتين، شب على مبادئ الوطنية، وتجند مبكرا في صفوف الثورة الجزائرية، والتحق بعد الإضراب الطلابي بصفوف جيش التحرير الوطني، خاض العديد من المعارك وأصبح ضابطا في صفوف الجيش.

بعد الاستقلال تولى عدة مسؤوليات منها وزارة التعليم خلال سبعينيات القرن العشرين، ما يزال على قيد الحياة[22].

7- يزيد زرهوني: ولد بندرومة، من اسرة محافظة وعلمية، درس بمسقط رأسه وبالمغرب، التحق مبكرا بصفوف الثورة وهو طالب، تلقى تكوينا في الاتصالات السلكية واللاسلكية، عين ضابط اتصالات، بعد الاستقلال تولى عدة مسؤوليات منها وزارة الداخلية.

* رابعا: النخب النسوية: قامت المرأة التلمسانية بأدوار مختلفة ابان الثورة التحريرية، يمكن الوقوف عليها في قسمين، الأول خاص بالنضال في المدن والثاني بالنضال في الأرياف؛ ففي مدينة تلمسان ومراكزها الحضرية اعتمد العمل الفدائي على المرأة في تأدية مهام حيوية، منها وضع المتفجرات في مراكز العلو والملاهي والمقاهي التي يتردد عليها غلاة المستوطنين والحركة، ونقل

المعدات والأسلحة والوثائق السرية من مكان لأخر داخل المدينة وخارجها، وكذا جمع الاشتراكات وتوزيع النفقات على مستحقيها من أسر الشهداء، والقيام بالدعاية والتعبئة بين أوساط النساء.

وفي الأرياف كانت المرأة حاضنا أساسيا للثوار، فهي توفر لهم المأوى، وتقدم لهم الأخبار والمستجدات، وتجمع لهم المؤونة وتحضر لهم الأكل، وقد نهضت المرأة في مناطق تلمسان الاستراتيجية بأدوار مضاعفة، وذلك نتيجة للوجود المكثف لجيش التحرير الوطني وكثافة النشاط المسند لها كونها منطقة حدودية ومنطلق للنفوذ الى باقي مناطق الولاية الخامسة.

وتؤكد لنا الشهادات أن عدد مهما من الفتيات المثقفات التحقنا بصفوف الثورة منذ اضراب الطلاب عام 1956م، وتلقين تكوينا سياسيا وعسكريا بمنطقة تلمسان وفي قاعدة وجدة، وعدن الى المنطقة الثانية (تلمسان ونواحيها) للمشاركة في صفوف جيش التحرير الوطني وبين أوساط المدنيين، ومنهن نذكر: حميدو مليحة، ورحال لطيفة، وحجاج مليكة، وأنيسة بركات، وجميلة مهدي، ووسعيدة نميش، وفتيحة بريكسي، وباية مرابط، وعويشة حاج مسعود...الخ.

وقد تحمل هؤلاء مسؤوليات شاقة ونهضوا بأدوار استراتيجية مدنية وعسكرية، وضربن أروع الأمثلة في الشجاعة والتضحية، فقد لاقت عويشة حاج سليمان الجندية الشجاعة الشهادة في ناحية مسيردة عام 1957م، وتحملت زميلاتها مهام شاقة في مرافقة جيش التحرير الوطني والتمريض، وفي تنظيم النساء وتوجيههم وتثقيفهم ورعاية شؤونهم[23].

وفيما يلي نعرف بنضال بعضهن:

1- بركات انيسة درار: ولدت بندرومة، من عائلة عريقة مشهورة بالعلم، درست بتلمسان وبثانوية الثعالبية بالعاصمة.

التحقت بالثورة التحريرية بعد إضراب الطلبة في ماي 1956م، وعملت بالمنطقة الثانية من الولاية الخامسة بعد أن تلقت تكوينا عسكريا ووطنيا بقاعدة وجدة، نهضت بمهام عديدة كالتمريض والاتصالات والتعبئة في صفوف المواطنين، وأصيبت في إحدى الاشتباكات سنة 1957م بجروح بليغة. وبعد الاستقلال واصلت دراستها في الأدب العربي، وعملت أستاذة بجامعة الجزائر إلى جانب نشاطها في الكتابة الأدبية والتاريخية[24].

2- حاج سليمان عائشة (فوزية): الشهيدة من مواليد تلمسان سنة 1940م، من أسرة محافظة استطاعت أن تواصل دراستها إلى غاية المرحلة الثانوية.

وعندما أعلن إضراب الطلبة والثانويين في ماي 1956م التحقت رفقة زميلاتها في الثانوية الثعالبية بالثورة التحريرية، كلفت بالعديد من المهام النضالية والتحقت في نهاية سنة 1956م بمركز جيش التحرير الوطني بوجدة، حيث تلقت تكوينا عسكريا وسياسيا واختصت في التمريض، وبعد تأهيلها أرسلت إلى المنطقة الثانية من الولاية الخامسة، حيث نهضت بالعديد من المهام منها إعداد التقارير الإدارية والإرشاد الاجتماعي، استشهدت في سبتمبر 1957م بالمنطقة الثانية ناحية مسيردة قرب ندرومة عندما حوصرت رفقة عدد من المجاهدين في إحدى المغارات ورفضت الاستسلام؛ فقام العدو بتفجير المغارة بمن فيها. عرفت بصمودها وإقدامها وبروحها الثورية العالية، وهي صفات بوأتها مكانة هامة في أعين أفراد جيش التحرير وسكان المنطقة الثانية من الولاية الخامسة[25].

3- عوالي ويسي: ولدت سنة 1938م بأولاد ميمون، استطاعت أن تواصل دراستها الثانوية بمدينة الجزائر، واثر الاضراب الطلابي قررت الالتحاق بصفوف الثورة، نقلت الى القاعدة الخلفية رقم 15 بوجدة، حيث تلقت تكوينا في المجال السياسي والطبي والعسكري، وأرسلت الى المنطقة الثانية في اكتوبر 1956م، ونقلت بعدها الى المنطقة الثالثة أو الرابعة، وأصبحت مراقبة ومحافظة سياسية تشرف على مراقبة الوضع في كامل المنطقة الثانية[26].

4- فتيحة رمعون (رشيدة): ولدت المجاهدة عام 1932م، واصلت تعليمها وتحصلت على شهادة التمريض، عملت في المستشفى العسكري الفرنسي بوهران، قدمت الكثير من الخدمات لصالح الثورة، وفي سنة 1957م قررت الالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني، فعملت في المنطقة الثانية من الولاية الخامسة حيث نهضت بعدة ادوار، ممرضة ومجاهدة وموجهة اجتماعية، انقضت عددا من المجاهدين بخبرتها ومهارتها في التمريض، كما شاركت في عدة معارك، ومنها معركة جبل فلاوسن ومعركة وادي السباع، القي عليها القبض بمنطقة السواحلية في أوت 1957م، تعرضت لصنوف التعذيب المختلفة لكنها صبرت ورفضت الاعتراف بنشاطات الثورة وأسرارها في المنطقة، قام الجيش الفرنسي بتشويه جسدها وإفقاد ذاكرتها ومثل بها بين السكان[27].

5- نميش سعيدة: السيدة نميش المدعوة سعيدة ممرضة ومجاهدة في جيش التحرير الوطني، ولدت عام 1936م، والتحقت بصفوف الثورة وعمرها عشرون سنة، كانت تقوم بمعالجة المرضى والجرحى، شاركت في عدة معارك، وكانت مرافقة باستمرار للشهيدة فتيحة رمعون بالمنطقة الثانية، ونجت بأعجوبة من الاعتقال عندما اعتقلت رفيقتها رمعون[28].

6- باية مرابط (أمينة): من تلمسان، ولدت في حدود عام 1945م، تذكر أنيسة بركات أنها فرت من بيت أهلها يوم زفافها لتلتحق بصفوف جيش التحرير الوطني عام 1957م، أوكلت لها مهمة علاج المرضى فقامت بواجبها على أكمل وجه[29].

7- بريكسي فتيحة(حورية): ولدت في حدود عام 1947م، التحقت بصفوف الثورة وهي طالبة بوهران، عملت ممرضة، حيث كانت تقوم بمعالجة المرضى،-وقد عرفت باخلاصها في عملها وبوطنيتها الجامحة[30].

8- جميلة مهدي: ولدت بأولاد ميمون عام 1936م، استطاعت أن تواصل دراستها وأن تصبح معلمة في المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء، تلقت تكوينا في وجدة، وارسلت الى المنطقة الثانية أواخر عام 1956م، حيث عملت ممرضة بين صفوف المجاهدين والمدنيين بالمناطق الحدودية[31].

9- ولد قابلية زبيدة (صليحة): ولدت عام 1934م بمدينة طنجة المغربية، حيث كان والدها يعمل ضابطا في الدرك الفرنسي، تابعت دراستها الابتدائية بمعسكر مسقط رأس والدها، وواصلت تعليمها إلى أن تحصلت على شهادة البكالوريا، ثم التحقت بجامعة الجزائر لدراسة طب الأسنان.

نشطت في النضال الطلابي بجامعة الجزائر، وعملت على كسب تأييد الطلبة للثورة التحريرية، التحقت بالثورة إثر الإضراب الطلابي عام 1956م، وكلفت في المنطقة السادسة من الولاية الخامسة بالإشراف على المراكز الصحية وتكوين الممرضين، شاركت في العديد من المعارك، وقد كانت تعمل مساعدة لطبيب المنطقة السادسة الشهيد عبد الكريم دامرجي.

لقيت استشهادها في 19 سبتمبر 1958م رفقة ثلاثة مجاهدين، وذلك في كمين نصبه العدو في الطريق الرابط بين بني شقران وبوحنيفية[32].

10- حميلو مليحة: من عائلة محافظة، تلقت تعليمها في تلمسان، والتحقت بصفوف الثورة في وجدة، تلقت تكوينا سياسيا وعسكريا، وكلفت بعدة مسؤوليات أدتها بشجاعة وإخلاص، سقطت شهيدة في معركة ضد العدو بنواحي تلمسان.

وعلى ضوء ما سبق عرضه من نخب نضالية ساهمت بأدوار فاعلة في الحركة الوطنية وثورة التحرير نخلص لتسجيل ما يلي:

– ان منطقة تلمسان أنجبت كثيرا من المناضلين المخلصين، لعبوا أدوارا وطنية مختلفة في خدمة القضية الوطنية، وذلك منذ عهد محمد بن رحال في نهاية القرن التاسع عشر إلى مصالي الحاج زمن الحركة الوطنية وصولا الى مرحلة الثورة التحريرية، حيث برز بن بلة وسي لطفي وأبرز قيادات الولاية الخامسة.

– إن مختلف التيارات والفئات ساهمت بفعالية في الحركة الوطنية وثورة التحرير، ومنهم القادة الثوريون الاستقلاليون، ورجال الاصلاح والعلماء والمثقفين، وفئة الطلاب والنساء، وكل هذا أسهم في ثراء مساهمة التلمسانيين في الحركة الوطنية وثورة التحرير.

– إن البطولات المسجلة والصفحات النضالية المشرقة هي عنوان فخر واعتزاز لسكان المنطقة يسجلها التاريخ ونتذكرها اليوم، وفيها كثير من العبر والدروس عن استبسال نخب المنطقة في مواجه الاستعمار والتضحية من اجل الاستقلال.

الهوامش والتعليقات:

1-MERAD ALI , Apercus sur lenseignement des musulman en algerie 1880-1960, in confluent , n juin- juillet 1963, p 615

2- ابو القاسم سعدالله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، دار البصائر، الجزائر، ص ـ ص 224ـ 226

3- للتوسع انظر Mohammed benamar djebbari, op cit, p p 36 -46

4- معلومات استقيتها من تلاميذ الشيخ بندرومة، ومنهم الشيخ يخلف البوعناني وبركات انيسة درار، وهران، ديسمبر 2006، وكذا محاضرة للدكتورة انيسة بركات حول مدرسة التعليم الحر بندرومة

5- انظر عنه محمد ساري: من يتذكر محمد مصايف، جريدة الشروق اليومي، عدد 370 (22 جانفي 2002)، وفوزي مصمودي: الاديب الناقد الدكتور محمد مصايف الندرومي حياته واثارة، مداخلة في ملتقى ندرومة ونواحيها، الجمعية الموحدية.

6- انظر عنه جيلالي صاري: بروز النخبة المثقفة الجزائرية ، تر عمر المعراجي، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والاشهار، الجزائر، 2007، ص 219ــ 240، وقد التقيناه مرارا وسجنا شهادته في ديسمبر 2006 بوهران.

7- نعتمد في ترجمته مذكراته، احمد ابن بلة، مذكرات أحمد ابن بلة، ترجمة العفيف الاخضر، دار الاداب ، بيروت، 1979،

8- Ahmed Bensadoun , Guerre de leberation, pareelle de vérités de la wilaya 5 Oranie, Editions EL BOUSTANE Teemcen , 2006, p p171 J177

9- معلومات جمعناها من شهادة المجاهد الطاهر الزرهوني، مقابلة شخصية، ندرومة، 24 مارس 20011

10- انظر حوار معه أجرته مجلة الراصد، يصدرها المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، عدد 3، (2002)

11- انظر عنه عبدالقادر جلالي: العقيد بن حلو بوحجر المدعو "سي عثمان" 1927ـ 1977، مجلة عصور، يصدرها مخبر البحث التاريخي، جامعة وهران، عدد 1، 2002، ص 86ـ 88

12- مقلاتي عبدالله: قاموس أعلام شهداء وابطال الثورة الجزائرية، منشورات بلوتو، الجزائر، 2009، ص ـ ص 346ـ347

13- مقلاتي عبدالله: المرجع نفسه، ص 523

14- معلومات جمعناها من أرشيف الثورة الجزائرية، بئر خادم ، الجزائر،

15- للتفصيل انظر عنه حوار اجراه معه محمد عباس، محمد عباس: خصومات تاريخية، دار هومة، الجزائر، 2010، ص ـ ص 303ـ 316

16- انظر اشارت متفرقة عنه في ، Ahmed Bensadoun op cit, p 171-177

17- مقلاتي عبدالله: المرجع السابق، ص 194

18- عاشور شرفي: قاموس الثورة الجزائرية، دار القصبة، الجزائر، 2006، ص 159ـ 160

19- مقلاتي عبدالله: المرجع السابق، ص 333ـ 334

20- RAHAL (mansour) .les maquisads (pages du maquise des aurés durant la guerre de libération, Alger, auto-edition, impr .echourouq, 2000, 446 p.

21- مقلاتي عبدالله: المرجع السابق، ص 119ـ120

22- مقابلة شخصية مع الطاهر الزرهوني، ندرومة، 24 مارس 2011

23- انيسة بركات درار: المصدر السابق، ص 42ـ 43

24- شهادة قدمتها المجاهدة للباحث في عدة مقابلات جمعتنا

25- مقلاتي عبدالله: قاموس أعلام شهداء وأبطال الثورة الجزائرية، منشورات بلوتو، الجزائر، 2009، 212ـ 213

26- انيسة بركات : المصدر السابق، ص 42

27- مقلاتي عبدالله: المرجع السابق، ص 298

28- انيسة بركات : المصدر السابق، ص 45

29- المصدر نفسه، ص 45

30- انيسة بركات : المصدر السابق، ص 45

31- أنيسة بركات درار: المصدر السابق، ص 42

32- مقلاتي عبدالله: المرجع السابق، ص ـ ص 537ـ 538

الشيخ عبد القادر المجاوي التلمساني

1264—1332هـ/1848—1914م.

أ. حسني بليل*

مقدمة: إن العالم الذي خصصنا له هذه الترجمة هو الذي قالت في التنويه بشأنه مجلّة الشّهاب عند تقريظها لكتاب الجزائر للأستاذ توفيق المدنيّ: "إنّ الكتاب وُضع على الاختصار فما كنّا لنطالب مُؤلفه باستقصاء جميع الرّجال، ولكنّه سكت عن أفراد لا تكمل الصّورة التّاريخيّة إلاّ بهم، منهم العلاّمة الأستاذ عبد القادر المجاوي رحمه الله هذا الرّجل هو أبو النّهضة العلميّة بقسنطينة، وهو شيخ النّاس بجميع عمالتها، عليه تخرّج القضاة ورجالُ المحاكم والتدريس والفتوى فلا تجد واحدا من هؤلاء إلاّ وهو من تلامذته، ولو كان هذا الرّجل من أمّة عاملة لأحيت ذكراه في كلّ مُناسبة..."[1].

لقد كان من الشخصيات الوطنية التي ساهمت كثيرا في النهضة العلمية الجزائرية الحديثة، ولقد حاول جاهدا مستغلا ثقافته واطلاعه الواسع لإخراج الأمة من براثين الجهالة إلى نور العلم، والمحافظة على الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية ضد الممارسات التعسفية للاستعمار الفرنسي، ونظرا لاهتمام فحول علماء الجزائر بالشيخ المجاوي، فقد اخترت أن يكون موضوعي هو إبراز بعض الجوانب من سيرته الذاتية، وفقا للمحاور التالية:

المحور الأول: شخصيته: هو عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمان بن عيسى بن داوود بن أبي حناش بن حمليش بن علي بن محمد بن عبد الجليل المشهور بالمجاوي عالم الجزائر ومدرسها وخطيبها، وهو من البيوتات العلمية في تلمسان، فقد كان والده عبد الله بن محمد فقيه تلمسان الكبير، وقاضيها لمدّة ربع قرن من الزمن، ورائد العلماء المدرّسين في عصره، وعمه كذلك ، وجده من العلماء الأعيان بتلمسان ، وكذا سائر أصوله إلى عبد

*- أستاذ العلوم الإسلامية- ثانوية الشيخ عبد القادر الياجوري- وهران.

الجليل، ومن هذه الأسرة الكريمة حفدة المولى عبد الجليل العلامة الأجل الشريف المبجل الشيخ شعيب بن علي قاضي محروسة تلمسان كان تغمده الله برحمته الواسعة آمين.

وقال القاضي حشلاف والجامع لهذه الفروع الكريمة الطيبة المباركة هو السيد عبد الجليل بن أحمد بن محمد ابن عبد الله بن مسعود بن عيسى بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن أحمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمان بن عبد السلام بن أيوب بن أحمد بن محمد بن مولانا إدريس باني فاس ودفينها بن مولانا إدريس دفين زرهون بن مولانا عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]، ولد في تلمسان سنة 1266هـ/1848م، وبها قرأ القرآن، وأتمّ قراءته بمدينة طنجة حيث تقلّد والدُه خطّةَ القضاء بها.

المحور الثاني: حياته العلمية:

شيوخه وأساتذته:

I- شيوخه في القرآن الكريم: بدأ الشيخ عبد القادر المجّاوي طلب العلم منذ صباه، شأنه شأن الصبيان المتميزين ، قرأ القرآن بتلمسان، ثم هاجر والده إلى المغرب الأقصى، وتولى التدريس في جامعة القرويين، ثم تقلّد خطة القضاء بطنجة، لّما خرج إليها من فاس سنة (1262ه/1857م)، فأتمم قراءته بأحد كتاتيب طنجة، وهو لم يبلغ بعد سن التمييز فحفظ القرآن الكريم وجوّده، ثمّ بعثه والده إلى تيطوان لمتابعة دروسه الإبتدائية والثانوية، وقد آثر والده تيطوان على طنجة نظرا للمحيط الذي اختاره وأودعه إبنه ليكون في مأمن عليه من الناحية الأخلاقية لأن محيط تيطوان، وهي قاعدة بلاد الريف يختلف عن محيط طنجة التي كانت يومئذ مقر أوزاع من الناس وكان في الريف علماء صالحون يتولون التعليم الإبتدائي والثانوي في مساجدها، فأخذ مبادئ العلوم على علمائها الشيخ مفضل أفيلال العلمي، والشيخ أحمد النجار، والشيخ الطيب اليعقوبي[3].

II- شيوخه وأساتذته في العلم:

- شيخ الجماعة بفاس في وقته ، وفريد أهل زمانه وعصره ، المبرز على جميع أقرانه من أهل مصره ، العلامة المحقق ، المحدث، المشارك المدقق المسن البركة أبو العباس أحمد بن أحمد بناني المعروف أو المدعو بـ: كلا، توفي 8 جمادى الأولى عام 1306م[4].

– أبو عبد الله محمَّد الصديق بن الهاشمي العلوي: الشريف الجليل ، الماجد الأصيل ، الفقيه النوازلي ، المحدث ، الإمام ، البركة، الصالح ، قاضي مدغرة ثم فاس[5].

– محمّد قنون (كنون): خاتمة المحققين، وحامل راية المدققين، أعجوبة أهل زمانه، وفريد عصره وأوانه، العالم العلامة، القدوة الفهامة، المشارك في كثير من الفنون، أبو عبد الله الحاج محمّد بن الحاج المدني قنون (كنون)صاحب اختصار حاشية الرهوني، والدرر المكنونة في النسب الشريفة المصونة، وغيرهما[6].

– أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن سودة المري: الفقيه العالم العلامة الأديب الدراكة اللوذعي الأريب ، خطيب جامع الأندلس بفاس، أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن سودة المري، كان رحمه الله ممن له الباع الكبير في علم النحو ، وإليه فيه المصير، توفي أواخر ذي القعدة عام 1299هـ[7].

– أبو محمد جعفر بن إدريس الكتّاني الحسني الفاسي الإمام الفقيه الورع الناسك، الواعظ الدال على الله بحاله ومقاله، كان ناشرا للعلم، متحريا في دينه، متقشفا في عيشه، عاكفا على نفع الخلق، عالم بالتراجم، كثير التصنيف، له الشرب المحتضر، وفتاوى، وغيرهما، توفي1323هـ/1905م[8].

– أبو العباس أحمد بن محمد بن حمدون بن الحاج: العلامة المحقق المشارك المدقق المسن البركة الأسعد المؤرخ الضابط الأمجد، كان فقيها عالما أديبا، ذا مروءة واستبصار ومعرفة بنوادر التاريخ والأخبار، له حاشية على المكودي في شرح الألفية، وحاشية على الأزهري على الأجرومية وغيرهما، توفي في 27 من ذي الحجة سنة 1316م[9].

– الشيخ الحاج أبو العباس أحمد بن الطالب السودي المري: شهاب العلم، وقبس التحصيل والفهم، بقية السلف وزينة الخلف، شيخ الجماعة بالمغرب، بحر العلوم العقلية والنقلية الزاخر وفلكها الدائر، له عدة تآليف فقهية حديثية، ولد سنة 1241م، وتوفي سنة 1321م بفاس، توسع في ترجمته عبد الرحمن بن زيدان في مؤلفه إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار مكناس[10].

– الشيخ الحاج الصالح الشاوي.

– الشيخ مولاي أحمد العراقي الحسني الخطيب بجامع مولاي إدريس[11].

– الشيخ أبو عيسى مهدي بن الفقيه العلامة محمد بن حمدون بن الحاج: الفقيه العلامة المشارك، الحافظ الصوفي، كان رحمه الله متواضعا خاشعا، انتفع به خلق كثير، وتخرج به كثير من العلماء المدرسين، توفي سنة 1290هـ.

تلامذتـــه: تخرج عليه كثير من العلماء والقضاة والمدرسين والأئمة والأدباء، ولهذه السمة التي امتاز بها أطلق عليه شيخ الجماعة في القطر الجزائري، ومن جملة هؤلاء التلاميذ:

– حمدان بن أحمد الونيسي: هو العلامة المدرس الفقيه المحدث المصلح من علماء قسنطينة، ولد بقسنطينة سنة **1856**م، وحضر دروس الشيخ عبد القادر المجاوي، ثم ما لبث أن صار زميلا له في التدريس لأنه يقاربه سنا، عين مدرسا بالجامع الكبير بقسنطينة في يناير **1881**م، درس النحو والحساب والأدب العربي والفقه والتوحيد، وأبعد عن سلك التعليم سنة **1910**م بعد 30 سنة من العمل لأسباب غير معروفة، قد تكون من مكائد المستعمر الفرنسي؛ فهاجر حمدان الونيسي إلى الحجاز، و استقر بالمدينة المنورة، و ظل مدرسا للحديث النبوي بها إلى حين وفاته سنة **1920**م، وقد قال عنه الأستاذ أحمد لطفي السيد عند أدائه فريضة الحج سنة 1911م: ".. أما نحن فقد كنا نغشى الوقت بعد الوقت درس الأستاذ الكبير الشيخ حمدان الونيسي مدرس الحديث والبيان بالحرم النبوي الشريف". قرأ عليه العربي التبّاني تفسير الجلالين وألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل. وأكثر ما حفظ ذكراه للناس هو تلميذه الإمام عبد الحميد بن باديس عليه، ومن مؤلفاته القول الحنيف في الرد على من أجاز الفتوى بالقول الضعيف[13].

2- الشّيخ محمود بن دالي المشهور بكحّول (1872م–1936م): أخذ عن الشيخ المجّاوي سماعا في مساجد قسنطينة وتخرّج عليه، درّس في سيندي مسيد- المدرسة الفرنسية الابتدائية- اشتغل محررا في جريدة المبشر بالعاصمة، ولّما أسست إدارة جونار جريدة "كوكب إفريقيا" سنة 1907م عهدت إليه بإدارة تحريرها، ثمّ أسس مع لويس بودي "التقويم الجزائري"، التي صدرت سنوات 1911—1912 و1913م، ولو استمر لكان أكبر موسوعة لأعلام الجزائر، وكانت تصدر من ميزانية الإدارة، وتحت إشرافها ثمّ تولى الشيخ بعد ذلك التدريس في المدرسة الشرعية الفرنسية بالعاصمة، وعُهد إليه بالإمامة والفتوى بالجامع الكبير في الجزائر العاصمة، وكرّمته فرنسا بوسام جوقة الشرف الفرنسي، ثمّ تولى بعد ذلك التدريس في المدرسة الثعالبية، وعُهد إليه بالإمامة

والفتوى، اغتيل في سنة 1936م، واتّهمت السّلطات الفرنسيّة الشّيخَ الطّيّب العقبي بقتله واعتقلته من أجل ذلك[14].

3- مولود بن الموهوب (1866م- 1939م): هو من أكثر تلاميذ الشيخ شهرة، فهو فقيه ومفت وخطيب وشاعر وناثر، أخذ عنه في المدرسة الشرعية الفرنسية بقسنطينة، ولما تخرّج منها صار زميلا له في التدريس، وعاصر أحداثا هامة في قسنطينة، فتأثر بها منها بروز بوادر حركة الإصلاح، والنهضة الوطنية، وساهم فيها بحظ وافر، وما منظوته المسماة بمنظومة البدع، التي وضع عليها شيخه المجّاوي شرحا قيما إلاّ دليل على ذلك، وهي منظومة في محاربة البدع التي انتشرت آنذاك، بوحي من فرنسا، ثمّ عين مدرسا بالمدرسة الكتانية سنة 1895م، فمفتيا عامّا لقسنطينة سنة 1908م، وفي سنة 1926عُيّن مفتياً في مسجد باريس، ولم يغادره إلى أن قضى إلى ربه ومواهب الشيخ ابن الموهوب جعلته يتقلّد مناصب هامة وعديدة، فهو بالإضافة إلى التدريس والفتوى، كان يتولى الخطابة بالجمع الكبير، ويسهر على المساجد، وأوقافها في ولاية قسنطينة، ورئاسة الجمعية الخيرية، محاولا قدر المستطاع أنْ لا يضيع مصالح قومه وأمته ودينه، وأن لا يُغضب سلطة المحتلّ، وساهم بشكل لافت في تفعيل الحركة الأدبية بنشر المقالات في الجرائد والمجلاّت، فهو ممن أسس نادي صالح باي سنة 1907م، وشرح بعض أعمال شيخه المجاوي[15].

4- أحمد مرزوق بن سعيد الحبيباتني: هو أحد أهم أئمة وفقهاء مدينة قسنطينة في عصر النهضة الفكرية، ولد سنة 1284هـ/1867م) في منطقة بني حبيبي بولاية جيجل شرق الجزائر، حفظ القرآن في سن مبكرة على يد مشايخ منطقته، وتلقى أولى مبادئ اللغة العربية والفقه، ثم انتقل بعد ذلك إلى قسنطينة لإكمال تعليمه، فكان له ذلك، حيث تتلمذ على يد أهم فقهاء مدينة وهو الشيخ عبد القادر المجاوي التلمساني، استقر الشيخ احمد الحبيباتني في مدينة قسنطينة أين كان يؤم الناس ويدرس القرآن الكريم والفقه في كثير من المساجد كجامع سيدي عبد المؤمن في حي السويقة، هذا وقد حظي في زمانه بمكانة واحترام كبيرين بين سكان مدينة قسنطينة والشرق الجزائري كله، فكان يعتبر أهم ملجأ للناس يستفتونه في أمور دينهم ودنياهم، وكان على ذلك حتى وافته منيته في العاشر من شهر محرم سنة 1355هـ الموافق للفاتح أبريل سنة 1936م، كان للشيخ أحمد الحبيباتني الفضل في تكوين جيل من الفقهاء والعلماء ممن ساهموا في توجيه الأمة كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، رغم أن الاستعمار الفرنسي حاول كثيرا إثارة الفتنة وتدبير

المكائد بين الشيخ وبعض أعضاء الجمعية، وبخاصة عبد الحميد بن باديس، حيث اقم الأخير بالتخطيط لمحاولة اغتيال الشيخ الحيباتني، لكن الجميع تفطنوا وتيقنوا أن ذلك كان من كيد المستعمر للنيل من مكانة ابن باديس وعمله الإصلاحي، تخرّج عليه من المدرسة الكتانية إماما ومدرّسا وهو من صلّى على رفيقه الشيخ كحول بقسنطينة لّما اغتيل سنة 1936م[16].

5- الشّيخ عبد الله الدراجي: الّذي كان يدرّس بجامع محمد الشريف بحيّ القصبة، فلازمه مدّة ثلاث سنوات، وأكرمه الله يومئذ بأن أخذ عنه شرح "ألفية ابن مالك" في النّحو، و"شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني[17].

المحور الثالث: رحـــلاتـــه: بالنسبة لرحلاته خارج الوطن فلا نجد في المصادر المتاحة والمراجع المتداولة كتعريف الخلف والنهضة لدبوز، أو تاريخ الجزائر الثقافي في أجزائها كلها أو التقويم الجزائري 1911م...الخ إلا إشارات طفيفة حول رحلته التعليمية الأولى إلى طنجة وتطوان وفاس، أما في المشرق العربي أو الدول الأوربية فلا نكاد نجد أثرا مع أن بعض مؤلفاته طبعت في تونس بالمطبعة الدولية التونسية وذلك سنة 1314هـــ، وفي مصر سنة 1294م، ولعلّ الإجابة عن هذا السؤال في مؤلفاته المخطوطة التي استحوذ عليها بعض الأفراد، والتي كان بإمكانها أن تنيرنا في هذا الصدد، وريثما نعثر عليها يبقى السؤال مطروحا، أما التخمين والظن والاعتقاد بدون أدلة يقينية موصلة للمطلوب فهذا مستبعد في مجال المناقب لأنها وقائع، ولابد أن يكون المستند فيها إلى وثيقة تزيل اللثام عن مخدرات الأفهام، ولو تمكنا من الإطلاع على الأرشيف الفرنسي لزال الإشكال.

أما داخل التراب الوطني فقد زار يقينا عدة أماكن وعلـــى رأســـها تلمـــسان ووهـــران ومازونة وغيرها، وكان الهدف منها استقراء أحوال البلاد، وتوثيق الصلة بينه وبين مـــشايخ هـــذه المناطق، ثم السعي الحثيث للحصول على المخطوطات النفيسة، وقد ظفر بمكتبة ثرية إما شـــراء أو إهداء ، وقد آلت بعد موته إلى نجله الفاضل الأجل العلامة المبجل الشيخ مصطفى بن عبد القـــادر المجاوي قاضي محكمة البرواقية، ثم آلت بعد وفاته إلى وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، وبعـــضها الآخر إلى أفراد.

المحور الرابع: تأثره وتأثيره: كان الشيخ متأثرا بالشيخ العلامة محمد عبده الذي كانت له زيارة للجزائر العاصمة وقسنطينة، وكان الشيخ يحمل نفس الهموم التي يحملها محمد عبده، وكانت مقالات الشيخ المجاوي في الصحف تصب في نفس المنحى.

وممن تأثروا بالشيخ نفسه تلاميذه عامة، وبالخصوص تلميذه المولود ابن الموهوب، فقد قال الأستاذ أبو القاسم سعد الله: "انتشرت دعوته التي تبناها في قسنطينة بالذات تلميذه المولود بن الموهوب ثم الشيخ عبد الحميد ابن باديس...".

المحور الخامس: مميزاته ومشاركته في المعارف: من خلال متابعتي لأعماله المطبوع منها والمخطوط، وما وسمه به من عرفوه استطعت أن أجمع جملة من المميزات كان الشيخ المجاوي يتصف بها: فهو العلامة الجليل والحبر الأصيل، الأديب المدرس الشهير، المفسر، الفقيه، الحبر الهمام، ذؤابة العلماء الأعلام، أستاذ الأساتذة ورئيس الجهابذة، حيث كان يتميَّز بقدرة فائقة في مجال التَّحصيل، حيث أن كلَّ كتابٍ يقرؤه لا يعيدُ قراءته، وكان يرى أن مآل الأمور تتغير إن أخذنا بالجانب الأخلاقي..، ومن كلام الشيخ المجاوي في هذا الصدد: "ما كثر الفساد في أمة إلا بعلم التربية، فإننا نرى الأولاد مهملين يتعلمون الفساد، وإننا نرى الأمم الحية إنما حصل لها الرقي بتربية أولادهم، وتعليمهم العلوم النافعة والمعرفة المفيدة..."، ومما امتاز به أيضا عن بقية مشايخ وقته أنه كان يتأجج غيظا وحنقا وعداوة للاستعمار الفرنسي الذي يحتل وطنه الجزائر ويأخذ بخناقها، وكان يوقن بأن العدو الذي قيد الجزائر للاستعمار إنما هو الجهل وضعف الأخلاق بضعف الدين، وما ساد في المجتمع الجزائري والمغربي من خرافات وعقائد باطلة تساعد الاستعمار على الإمعان في دوس كرامة البلاد وأهلها بأقدامه الوسخة ونعاله القذرة، آمن بأن الوسيلة لنهوض الجزائر والوصول إلى استقلالها إنما هي التربية والتعليم، والتربية الدينية العربية الصحيحة التي تخلق الأجيال الصالحة التي تكسر أغلال الاستعمار وتكنسه إلى البحر، والدواء الناجع الثاني هو إصلاح المجتمع والقضاء على العصبية المذهبية والجنسية التي زرعها الجهل وأنعشها الاستعمار، وكان الشيخ عبد القادر معتدا بدينه وبنفسه وبشخصيته الجزائرية الإسلامية كل الاعتداد، ترى ذلك في ملامحه وتقرؤه في أخباره وتلمسه في مؤلفاته، ومما امتاز به أيضا غيرته على الدين والعربية.

كان غيورا على الدين الإسلامي واللغة العربية، ويدافع عنهما بالحجة البالغة والبراهين المقنعة، ويرد دعوى من يجرؤ على مسهما بسوء أو يحاول أن يحوم حول حماهما بالشبهات الباطلة، ولقد كان شجاعا صريحا، قوي الحجة، حاضر البرهان، لا يهاب ولا يخاف، وكان يجادل المستشرقين المتكبرين فيخجلهم ويفحمهم، ويظهر لهم جهلهم بالإسلام والعربية، كما يبين للعامة في دروسه دسائس المبشرين وكيدهم للإسلام والمسلمين، وكان حربا على البدع والخرافات التي انتشرت في المجتمع، وألف فيها كتابا سماه "اللمع في إنكار البدع"، وهو شرح لقصيدة تلميذه الشيخ المولود بن الموهوب، وكانت ولاية قسنطينة أكثر استعدادا لقبول الإصلاحات والنهضة العلمية التي كان الشيخ المجاوي يسعى إليها، وهذا هو سبب مجيئه إليها وعمره يومئذ نحو اثنين وعشرين عاما[18].

المحور السادس: نشاطه وأعماله العلمية: بدأ الشيخ المجّاوي حياته التعليمية بالتدريس في مساجد قسنطينة متطوعا منذ سنة 1870م، درّس خلالها مختلف الفنون من نحو وصرف وبلاغة وفلك وتفسير وحديث، ونتيجة لذلك طارت شهرته وملأت آفاق قسنطينة وما جاورها، وكان حلوله بهذه المدينة في هذه الفترة الحرجة من تاريخها بصفة خاصّة وتاريخ الجزائر بصفة عامّة، بمثابة نسمة الخير والبركة التي هبت من جهة الغرب عليها[19].

– في سنة 1873م عينته الحكومةُ الفرنسية مُدرِّساً في قسنطينة بـ"جامع سيدي الكتاني"

– وفي سنة1877م تمّت ترقيته، فعين أستاذا بالمدرسة الشرعية بقسنطينة المخصصة لتخريج قضاة الأحوال الشخصية والموثقين والأساتذة.

– لم ينقطع عن التدريس الحرّ في المساجد والخطابة فيها، فكأنّما خلق ليكون مدرّسا، فهو ممن كان يرى أنّ النهضة لا تكون إلاّ بالتعلّم، وأنّ الجهود الإصلاحية لا تأت من فراغ، واستمر عطاؤه العلمي فيها– تدريسا وتأليفا – إلى غاية سنة 1898م.

– في سنة 1898م نقل إلى الجزائر العاصمة؛ فانتسب إلى المدرسة العربية بشارع السفراء بباب الوادي، مدرساً لفنون العربية[20].

– رقي إِلى التَّدريسِ بـ"مدرسة الجزائر العُليا" أوالمدرسة الثعالبية، التي بنيت بمرسوم من الحاكم العام للجزائر شارل جونار (1902–1912م)، والتي افتتحت للتدريس سنة 1905م.

- في 1908 مُنِحَ الإِمامةَ والخِطابةَ بـ"جامع سيدي رمضان"[21].

المحور السابع: إجازاته العلمية: كان التعليم العالي في جامعة القرويين، وهي يومئذ في أوج ازدهارها واشتهارها، وفيها علماء أجلة مخلصون من تلامذة الشيخ محمد المجاوي والد المترجم له، ودخل عبد القادر جامعة القرويين فوجد بغيته وبخاصة في فنون العربية التي كان يحبها، ودرس فيها التفسير والحديث ومصطلحه والفقه وأصوله، والفرائض والمنطق والحساب والفلك، والتاريخ والتصوف، والنحو والصرف والبلاغة والأدب وعلم العروض، وتخصص في هذه العلوم، وأجازه شيوخه فيها بأسانيد متصلة بالكتب المتداولة عندهم، وإسناده كإسناد الحجوي صاحب مختصر العروة الوثقى مع اختلاف في بعض المشايخ، والقادري صاحب إتحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية، وغيرها من الفهارس المغربية، ولولا خشية الإطالة لأوصلت جميع الكتب التي تلقاها عن شيوخه إلى مؤلفيها بسند متصل خال من كل شذوذ، أو علة قادحة تستوجب نبذه.

المحور الثامن:مؤلفاته:

- مؤلفاته المطبوعة: لم يؤلف الشيخ المجاوي على الرغم من تمكنه من علوم مختلفة إلاّ بعد أنْ مارسها تدريسا لمدة عقد كامل من الزمن، في مساجد قسنطينة تدريسا حرّا، ثمّ في مسجد الكتاني ومدرستها الشرعية لّما عينته سلطة المحتلّ، حينما ذاع صيته وطارت شهرته في قسنطينة وما جاورها من المدن القريبة، ولاقت هذه المؤلفات قبولا واسعا ورواجا لدى طلاب العلم، وبالمقابل أحدثت زلزالا عنيفا في صفوف العدو ومن يدور في فلكه، وقد طبعت جلّ هذه المؤلفات، ولا تزال بعض نسخ مخطوطاتها محفوظةً، وسنشير إليها في الحديث عن كلّ مؤلف منها، وتنوعت مواضيعها بحسب فنون العلم التي كان يدرّسها، وبحسب ما كانت تقتضيه ظروف الجزائر العامّة في ذلك الوقت، وسنبدأ الحديث عنها بالتسلسل الزمني لتأليفها:

- إرشاد المتعلمين: هي من أوائل رسائله تأليفا، وقد قسم مباحثها إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، وبين سبب تأليفها بقوله: "..ولقد ساءني ما رأيت في هذا الزمان من فتور المعلمين والمتعلمين حتى أن أهل قطرنا من إخواننا المسلمين القسنطينيين والجزائريين والوهرانيين قد تراكم عليهم الجهل... وسبب ذلك هو عدم اعتنائهم بالعلوم التي بها تهذيب أخلاقهم وإصلاح منطقهم ..."، قال عنها الأستاذ القماري: "هي رسالة كثيرة الفائدة في وقته، دعا فيها إلى الإصلاح

الاجتماعي بنقده للتقليد، كما دعا مواطنيه والمسلمين عامة إلى نبذ الركود، والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة..."[22].

– المرصاد في مسائل الاقتصاد: بعد الديباجة المعتادة عند الأقدمين، نوّه بموضوع الكتاب فقال ما نصه: "... فإنه لما دلت الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة النبوية على أن الله خلق هذا العالم للعمارة، وهي تتوقف على تنظيمات اقتصادية وافرة، وقوانين يصار إليها في المعيشة الدنيوية، وكان هذا العلم مفرقا في بطون الكتب والدواوين السامية؛ فصعب لأجل ذلك الإطلاع على قواعده واقتطاف أزهاره وفوائده، ظهر لنا أن نجمع تلك القواعد لتكون على خير فوائد؛ فشرعنا في ذلك بعد الاستخارة وتكرر الاستشارة؛ فانشرح الصدر لذلك، وإن كنا لسنا أهلا لنسلك تلك المسالك، وجعلناه مشتملا على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة، وسميناه "المرصاد في مسائل الاقتصاد"، والله المعين متوسلين إليه سبحانه بنبينا الصادق الأمين"، وقد قسم مباحث الكتاب إلى أربعة أبواب وخاتمة[23].

– شرح على المنظومة المرضية في المسائل النُّجومية للإمام ابن غازي: جاء في استهلال الشرح بعد البسملة والصلاة على سيِّدنا محمد وسلَّم ما نصه: "نحمدُ مَن زيَّن السَّماءَ الدُّنيا بالكواكب والنُّجوم، الخالق البارئ الحي القيوم، والصَّلاة والسَّلامُ على قُطب دائرة الأَنبياء والرُّسل، سيِّدنا محمَّد الذي مَن اتَّبعَ طريقَه فقَد اتَّبعَ خَيرَ السُّبل، وآله الطَّيِّبينَ البرَرة، وأَصحابه المنتَخَبين الخيرة، والتَّابعينَ وتابع التَّابعين، وجميع أمَّته المتقين، وبعد؛ فيقولُ العبدُ الفاني عبد القادر المجاوي الحسني: إنَّه قَد ظهرَ لي أن أَشرحَ هذه المنظومة المختصَرة المحتَوية على مَعرفة دخُول المنازلِ والأَبراجِ الفَلكية، لناظمها العلَّامة ابن غازي قدَّسَ الله سرَّه قاصدًا بذلك نفعَ العباد، والله الموفِّق لما فيه الصَّلاح والسَّداد، وآخرها كان الفراغ مِن تَبييضِ هذه الرِّسالة في العاشر مِن شَعبان المعظَّم سنة خمس وتسعين ومائتَين بعد الألف من الهجرة النبوية[24].

– الدُّرَرُ النَّحْوِيَّةُ عَلَى المَنْظُومَةِ الشَّبْرَاوِيَّةِ: جاء في مقدمتها بعد البسملة والصلاة على سيِّدنا محمد وسلَّم ما نصه: "وبعد فيقول المعترف بالذنوب والمساوئ عبد القادر بن عبد الله المجاوي هذه كلمات قليلة محتوية على فوائد جليلة لمنظومة العلامة الكامل الشيخ الشبراوي صاحب الفضائل... وآخرها وكان تمام جمع هذا الشرح المفيد ليلة الجمعة التاسع عشر من صفر الخير سنة 1296..."[25].

– شرح جمل الخونجي: وهو مختصر في المنطق، وكان الفراغ من تأليفه في 29 رجب سنة 1295هـ، صفحاته: 9 ورقات ضمن مجموع تحت رقم 650، بخط مغربي مقروء، وهو موجود بوزارة الشؤون الدينية بالجزائر- مصلحة الثقافة والتراث.

– كشف اللثام قي شرح شواهد ابن هشام: أوله نحمد من شهد بوجوده وقدمه افتقار الكائنات، وآخره انتهى بحمد الله وعونه الشرح المبارك الجليل أحسن الله إلى من ألفه، وأطال حياته ببلوغ أمله على يد كاتبه ومتممه من عدد خمسة وعشرين من أوراقه عبد الواحد المانح الراجي منه العفو في الدارين ابن العنتري مصطفى بن محمد الصالح في شعبان المبارك سنة 1295هـ، وهو كتاب قيم في المجال الأدبي والنحوي والبلاغي، شرح فيه كلّ الشواهد الشعرية التي تطرق لها صاحب قطر الندى وبل الصدى، وهو الإمام النحوي ابن هشام الأنصاري- رحمه الله- فشرحها الشيخ أبياتها شرحا لغويا، وإعرابا مع التطرق إلى الجانب البلاغي في الأبيات المستشهد بها، وترجم للأعلام الوارد ذكرهم في القطر، وهذا دليل على تمكنه من فن التراجم.

– نزهة الطرف فيما يتعلق بمعاني والصرف: وهو شرح لطيف مختصر على متن البناء في الصرف أوله نحمد من بيده تصريف الأفعال، وآخره وكان الفراغ من تبييض هذه العجالة ليلة الإثنين الثاني والعشرين من أول الربيعين الأبركين عام 1298هـــ...[26].

– شرح منظومة الإمام المترلي في آداب المريدين: وهو شرح لمنظومة محمد المترلي التونسي القادري في التصوف، والمترلي قادري الطريقة، وشرح الشيخ يدل على تمكنه من مصطلحات القوم، ولولا ممارسته لهذا الفن لما استطاع أن يدلي بدلوه في هذا المجال، وبخاصة أن الجانب التصوفي كان مستحكما في معظم زوايا القطر الجزائري، وما ذكره شيخ المؤرخين في قطرنا من أنه ربّما كتبه من أجل أصهاره- عائلة الأمير عبد القادر- القادريّين فيه نظر، ولعلّ أحد الباحثين في المجال التصوفي ممن تقوم همته ببحث أكاديمي يزيل الإشكال، ويدفع الإيهام، في هذا الموضوع بعينه[27].

– الدرر البهية على اللامية الجرادية: طبع بالمطبعة الحجرية مطبعة جوردان بالجزائر، توجد منها نسخة بمصلحة الثقافة والتراث بوزارة الشؤون الدينية تحت رقم 464، وجاء فيها وكان الفراغ من الشرح المبارك عشية يوم عرفة من ذي الحجة الحرام عام 1320هـ، وعدد أوراقها 63 صفحة من الحجم المتوسط، كتبت بخط مغربي يمكن قراءته، وقد ذكر الأستاذ المؤرخ أبو القاسم سعد

الله في تاريخه أنّ هذه اللامية في الجمل اهتم بها العلماء والمدرسون في قسنطينة، وألف فيها الشيخ ابن الفكون شرحاً، غير أنّه يرى بأنّ الشيخ المجّاوي خير من انبرى لها شرحا وتدريسا، لما له من فهم وخبرة في التدريس، فأفاد طلبة العلم وأثرى به المكتبة وبغيره من المؤلفات المختلفة.

– الفريدة السنية في الأعمال الجيبية: وهو كتاب موجه إلى التلاميذ، طبع على نفقة الإدارة سنة (1320هـ/1903م)، وهي رسالة في 85 صفحة، جعلها في مقدّمة وعشرين باباً وخاتمة، وتطرق فيها إلى علم الحساب والميقات وتعديله، وضمنه أراجيز ليسهل حفظه[28].

– منظومة في التوحيد: وضع تلميذه ابن الموهوب شرحا عليها، ولا يُعلم هل طبع أمْ لا ؟ وهل هي أساس كتابه: القواعد الكلامية أم لا ؟ كما أنَّ شرح تلميذه غيّرمعروف[29].

– القواعد الكلامية: طبع آخر سنة 1911م بمطبعة فونتانة بالجزائر في 157صفحة، وقد قرَّظه تلميذه ابن الموهوب وهو موجّه إلى طلبة القسم العالي بالمدرسة الثعالبية، تطرَّق فيه إلى علم التوحيد بأسلوب علمي سهل ميسر، بهدف تصحيح العقيدة بالدليل، وقد جعله في مقدّمة وعشرة فصول وخاتمة[30].

– اللمع في نظم البدع: وهو شرح لمنظومة تلميذه ابن الموهوب "المنصفة في البدع"، ويقع في 198 صفحة، وقرظه تلميذه محمود كحول وأحمد بن الشيخ باش عدل بمحكمة سيدي عقبة، والكتاب امتداد لمنهجه الإصلاحي المعتمد في أول ما صدر له؛ وهو رسالته "إرشاد المتعلمين"[31].

– منظومةً في علم الفلك: هذا يدل على شدَّة اهتمامه بهذا العلم، ومنظومة تقع في 86 بيتا، استهلّها بقوله:

يقول عبد القادر المجاوي معترفا بالذنب والمساوي

ولعلّها آخر ما ألّف كما يقول الدكتور ابن قينة في كتابه "صـــوت الجزائـــر في الفكـــر العـــربي الحديث[32].

* مؤلفاته المخطوطة: قد أشرنا لها عند حديثنا عن الكتب المطبوعة، وجلها فد طبعـــت، والفهرســـة كفياة ببيان ذلك.

* مقالاته في الصحف والمجلات: ساهم المجاوي في الحركة الصحفية، حيث ســـاهم في الكتابـــة في كل من "المنتخب"، و"جريدة المغرب" 1903م، كما شارك في تحرير جريدة "كوكـــب إفريقيـــا" في الفترة ما بين (1908—1909م).

أما عن المواضيع التي عالجها في مقالاته، فهي في المجال العقائـــدي والعبـــادات، أمـــا في الجانـــب الاجتماعي فحارب مختلف الأمراض الاجتماعية التي انتشرت وسط الجزائريين، كالقمار ويظهـــر في قوله: "فلا تجد قمارا لابسا ثوبا حسنا، فضلا عن غيره من الضَّروريات، وقرنه الله تعالى بـــالخمر في التحريم لشدة جرمه ولأنه من الكبائر".

* شهادات ومواقف:

– قالت مجلة الشهاب مارس 1932: "العلامة االأستاذ عبد القادر المجاوي رحمه الله، ومما قال فيه المصلح الليبي سليمات الباروني المتوفى سنة 1359هـ/1940م حينما التقاه في قسنطينة:

سيبويه العصر مـــن هذّبـــه أدب العلم فأروى من وردْ

ذاك عبد القادر الطود الذي لا يقول القـــول إلاّ بسندْ

قال الإمام محمد البشير الإبراهيمي: "... مع علو سنه أخذه عن طبقة بعيدة الصيت في عالم الشهرة، كالشيخين عبد القادر المجّاوي وحمدان الونيسي، وغيرهما ممن الأخذ عنهم مدعاة للفخر والاستطالة وشموخ الأنف".

* الإستحقاقات والتشريفات:

– وِسامُ الاحترام (شوفالي) (1906).

– وِسامُ المعارف الذَّهبي (1898).

– وِسامُ الافتخار التُّونسي مِن درجة التَّطويق (1910)".

وفاته: جاء قسنطينة زائرا فوافاه أجله فيها في ذي القعدة من عام 1337هـ الموافق لسنة 1918م، وقبره على حافة طريق الوسط الذي يتوسط المقبرة على يمين المتجه غربا وقبله على بعد أمتار يوجد قبرا الشيخين المرحومين صالح بن مهنة وعاشور الخنقي اللذين كانا متنافرين في الدنيا، وشاء الله أن يتجاوروا في طريق الآخرة، هذه نبذة قصيرة عن حياة هذا العالم الجليل وجهاده البطولي وسلوكه المثالي قدمناه للقراء كنموذج لنشأة الأدب الجزائري ورجاله في عهد الحروب والثورات التي قامت على أنقاضها ثورتنا التحريرية الكبرى، وأدت إلى استقلالنا السياسي والاقتصادي الكامل وقيام نظام حياتنا الجديدة في الثقافة والتربية وشؤوننا الاجتماعية وانبعاث نهضة جديدة تبشر بمستقبل زاهر، هذا وإن ترجمة الشيخ المجاوي هي أوسع بكثير مما ذكرنا فمن أراد معرفتها كاملة فعليه بمراجعتها في كتاب "تعريف الخلف برجال السلف" للمرحوم أبي

القاسم الحفناوي الجزائري، وأوسع منه ما كتبه عنه العالم الجليل المؤرخ محمد علي دبوز أستاذ الأدب والتاريخ في معهد الحياة بالجزائر ففيه غنية وكفاية.

الهوامش:

1- مجلـّة الشّهاب - الجزء الثالث- ديسمبر1930 - ص8.

2- عبد الله حشلاف- سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول الرسول- المطبعة التونسية- 1929 م- ص 53.

3- محمود كحول- التقويم الجزائري لسنة 1329- مطبعة فونطانا الأخوين وشركائهما- الجزائر- 1911- ص 105.

4- محمد بن الحسن الحجوي- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي- ط1- 1416هـ- دار الكتب العلمية- بيروت- ج2ص303/أحمد بن محمد الزكاري- الفهرسة الصغرى والكبرى - تحقيق محمد بن عزوز- ط1- 2003م- دار ابن حزم- بيروت- ص164.

5- أحمد بن محمد الزكاري- نفس الرجع -ص 153/محمود كحول-نفس المرجع- ص 106 وما بعدها.

6- محمد بن القاسم القادري-إتحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية- تحقيق محمد بن عزوز- ط1- 2004م- دار ابن حزم- بيروت- ص 83/محمد بن الحسن الحجوي- الفكر السامي-ج4 ص136.

7-محمد بن الحسن الحجوي-مختصر العروة الوثقى في مشبخة أهل العلم والتقى- تحقيق محمد بن عزوز- ط1- 2003م- دار ابن حزم- بيروت- ص98.

8- محمد بن القاسم القادري- نفس المرجع- ص82.

9- محمد بن الحسن الحجوي- مختصر العروة الوثقى- ص60-61.

10- محمود كحول-نفس المرجع- ص 106.

11- محمد بن القاسم القادري- نفس المرجع- ص80-81.

12- أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- ط6- 2009م- دار البصائر- الجزائر- ج3ص130-131.

13- نفسه- ج4 ص383-385/محمود كحول- نفس المرجع-ص 105 وما بعدها.

14- أبو القاسم سعد الله- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر- ط2-1990م- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ج2 ص193-196.

15- الشيخ العربي بوعمران ومجموعة من الأساتذة- معجم مشاهير المغاربة- 1995م-جامعة الجزائر- ص473/محمود كحول-نفس المرجع- ص 105.

16- عبد القادر المجاوي- كتاب اللمع في إنكار البدع-مطبعة فونتانا- الجزائر- 1902م- ص3 وما بعدها.

17- أبو القاسم سعد الله -تاريخ الجزائر الثقافي- ج3 ص128.

18- عمار الطالبي- آثار الشيخ ابن باديس- ج1ص28.

19-محمود كحول-نفس المرجع- ص 106 وما بعدها.

20- نفسه- ص 106 وما بعدها.

21- نفسه- ص 106 وما بعدها.

22- طبعت بالمطبعة الوهبية بمصر طبعة حجرية سنة 1294هـ/1877م، وقرّظها كاتبان كبيران هما: حامد سليمان من الشام، ووهبي أفندي معلّم اللغة الفرنسية ، وأعيد طبعها سنة 2008م بدار ابن حزم- بيروت.

23- طبعت بالمطبعة الشرقية لبيير فونتانا- الجزائر- 1904م.

24- طبع هذا الكتاب بمطبعة بومون—قسنطينة سنة 1879م.

25- طبع بالمطبعة الشرقية لبيير فونتانة- الجزائر- سنة 1907م.

26- طبع بالمطبعة الشرقية لبيير فونتانة- بالجزائر- 1907م، وتوجد نسخة مخطوطة ضمن مجموع تحت رقم 654 بوزارة الشؤون الدينية بالجزائر- مصلحة الثقافة والتراث، وعدد أوراقها 12 ورقة، وكان الفراغ من نسخها يوم 26 ربيع الثاني من سنة 1298هـ على يد الناسخ عبد الله محمّد أمقران بقسنطينة.

27- ألفه بقسنطينة، وطبع بمطبعة الدولة التونسية سنة 1314هـ.

28- أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- ج7ص249.

29- نفسه- ج7 ص154.

30- محمود كحول—نفس المرجع- ص105/أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- ج7ص153.

31- طبع سنة 1912م بمطبعة فونتانة الشرقية بالجزائر.

32- ابن قينة- صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث- ص75.

33- محمود كحول—نفس المرجع- ص107.

التراث العربي الإسلامي

الخطاب الإصلاحي في تلمسان خلال القرن 8هـ/14م من خلال واسطة السلوك لأبي حمو الزياني.

د سعيد بنحمادة*

يعود العمق الحضاري للقرن 8هـ/14م في الغرب الإسلامي إلى هزيمة الموحدين في معركة العُقاب سنة 609هـ/1212م، التي أفضت إلى التفكك السياسي ببلاد المغرب والأندلس[1]، مما جعل أحداثها تندرج ضمن "أزمة القرن الرابع عشر"[2]، الذي اعتبر لذلك من أسوأ العصور التي عرفتها حضارات البحر الأبيض المتوسط[3].

ومن مظاهر ذلك التحول بروز كيانات سياسية وريثة للحكم الموحدي؛ إذ عرفت الأندلس "عصر الطوائف الثالث"، قبل استقرار الأمر لبني الأحمر، والمرينيين بالمغرب الأقصى، وبني عبد الواد بالمغرب الأوسط، والحفصيين بإفريقية.

وكان من البديهي أن يعرف القرن 8هـ/14م، في ظل هذه التحولات السياسية والعسكرية، إنتاجا يهدف إصلاح الدولة والمجتمع والثقافة بالغرب الإسلامي؛ من قبيل "الإشارة إلى أدب الوزارة"، و"مقامة في السياسة" للسان الدين بن الخطيب (ت. 776هـ/1374م)، و"الشهب اللامعة في السياسة النافعة" لابن رضوان (ت. 782هـ/1380م)، و"واسطة السلوك في سياسة الملوك" لأبي حمو الزياني (ت. 791هـ/1388م)، و"عين الأدب والسياسة في زين الحسب والرياسة" لابن هذيل الأندلسي، و"المقدمة" لابن خلدون (ت. 808هـ/1405م).

وتدخل هذه المصنفات ضمن كتب الأحكام السلطانية، التي تعد بمثابة فكر سياسي عملي، قائم على التجربة، عبر مبدأ النصيحة، المستمدة من المرجعية الفارسية واليونانية والإسلامية[4].

ومن ثم جاء اهتمامنا بـ"واسطة السلوك في سياسة الملوك" لأبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن (760- 791هـ/1358- 1388م)، أحد سلاطين دولة بني عبد الواد بتلمسان. غير أن ما يهمنا ليس سيرة هذا الملك، ولا التاريخ السياسي للدولة الزيانية بالمغرب الأوسط،

*- أستاذ باحث- الرشيدية- المغرب.

بقدر نتوخى التركيز على الخطاب الإصلاحي كما يراه حاكم تلمسان، في إطار ما سمي بــ"النظرية السياسية للسلطان أبي حمو الزياني الثاني"[5]، من خلال الكتاب المذكور.

والكتاب عبارة عن وصايا سياسية عملية خص بها أبو حمو الزياني ولي عهده؛ إذ يقول محددا غرض الكتاب: ((فرأينا أولى ما نحف به ولي عهدنا، ووارث مجدنا، والخليفة إن شاء الله من بعدنا، وصايا حكمية، وسياسة عملية علمية مما تختص به الملوك، وتنتظم بها أمورهم انتظام السلوك في سياسة الملوك؛ ولذلك سميت هذا الكتاب بواسطة السلوك في سياسة الملوك، ليكون اسمه يوافق مسماه، ولفظه يطابق معناه))[6].

وبذلك فالمصنَّف يندرج ضمن كتب "العهود"؛ فهو وصية سياسية يثبت فيها سلطان تلمسان طرق الحكم وآليات التدبير السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدولة، مما يجعل منه دليلا عمليا، وأخلاقيا وسياسيا، هدفه تبيين الصفات الخلقية والأسس السياسية الواجب اتباعها من قبل ابنه للحفاظ على الحكم بتلمسان، وهو ما أعطى للسياسة الموصى بالاهتداء بها مفهوما تقنيا[7].

وقد حظي كتاب "واسطة السلوك" باهتمام الباحثين المعاصرين، في إطار القراءات المتباينة للآداب السلطانية عموما[8]؛ إذ منهم من تتبع بدقة مصادر الكتاب، وأسلوبه، والإطار التاريخي الذي ألف فيه، من خلال التركيز على دولة بني عبد الواد بتلمسان خلال القرن 8هــ/14م، وبالأخص زمن أبي حمو[9].

وقد اختار أبو حمو تقنية النصيحة أو التمثيل التارخي؛ فإذا كانت معظم كتب الأحكام السلطانية تزاوج بين التصورات النظرية والوقائع في صياغة متونها، فإن كتاب "واسطة السلوك" يقوم بالإساس على التاريخ والتجربة السياسية والعسكرية لسلطان تلمسان نفسه، أكثر من اعتماده على التجارب الساسانية واليونانية والإسلامية السابقة.

كما أن بنية التأليف في الكتاب تستند إلى "شبكة فعلية للتفاعل النصي"، أي بؤر التناص المتداخلة فيه؛ إذ نقل من "سراج الملوك" للطرطوشي في 20 موضعا، ومن "العقد الفريد" لابن عبد ربه في 7 مواضع، ومن "المنهج المسلوك في سياسة الملوك" للشيزري في 7 مواضع أيضا، ومن كتاب "سلوان المطاع في عدوان الاتباع" لمحمد بن ظفر المالكي في 3 مواضع[10].

وقد أثنى المقري على الكتاب؛ فهو في نظره ((تأليف حسن في السياسة، لخص فيه "سلوان المطاع" لا ظفر، وزاد عليه فوائد، وأورد فيه جملة من نظمه، وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بني مرين وغيرهم، وصنّفه برسم ولي عهده أبي تاشفين))[11].

ومن ثم فالكتاب هو بمثابة مذكرة سياسية، تروم إصلاح الدولة والمجتمع والاقتصاد، لاستمرار الدولة الزيانية بتلمسان. إلا أن هذا الخطاب الإصلاحي يجعل من أخلاق السلطان قطب الرحى، وهو ما

يبدو جليا من خلال أبواب الكتاب وأقسامه، التي فصلت في شخص السلطان، و سلوكه مع بطانته، ورعيته، ونظرائه من الملوك، وخاصة الباب الثالث المتعلق بـ"الأوصاف المحمودة التي هي نظام الملك وجماله وبهجته وكماله، وهي قواعد أربعة: الشجاعة والكرم والعفو والحلم"[12].

لقد أعاد أبو حمو بالإخلاق إلى أهمية العقل؛ "فالملك بالنسبة إلى العقل على أربعة أقسام؛ ملك له عقل يصلح به دنياه وأخراه، وملك له عقل يصلح أخراه دون دنياه، وملك له عقل يصلح به دنياه دون أخراه، وملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا أخراه؛ ... فإذا كان الملك على هذه الخصال التي ذكرناها؛ والأوصاف التي بيّناها، اقتضى ملكه الدوام، وأجمع على محبته الخاص والعام، ورجئ له النصر في كل مقام، وتسنى له الظفر بكل المرام؛ فإن مات بقي ذكره دائما والثناء عليه قائما"[13].

وهكذا يتضح أن أبا حمو لم يخرج عن المألوف في الخطاب السلطاني، لما ربط بين قوة الدولة واستمرارها بالبعد الأخلاقي في شخصية السلطان. بل إن تلك الكتابات حين تتحدث عن "أخلاقيات السلطة" لا تطرحها بمنظور تطوري مواكب لعمر الدولة، كما فعل ابن خلدون، وإنما من خلال رؤية سكونية مرتبطة بمدى نفعها أو ضررها للسلطان، دون الخروج بها عن "نظم القيم" في العقل الأخلاقي العربي[14].

غير أنه، وبقدر تركيز أبي حمو على الجانب الأخلاقي، وخاصة ما تعلق بالكرم[15]، فإن الرواية المرينية تطفح بمعلومات عن جوانب من شخصية سلطان تلمسان؛ فحسب تلك الرواية، أنه كان "بخيلا مسيكا، لا يرى في وقته أبخل منه، وكان كذابا لا ينطق بكلمة حق، غدارا خائنا غشاشا، إذا عاهد خان، وإذا وعد أخلف"[16]، وتضيف الرواية المرينية، بنوع من التحامل، أن "بخله لم يسمع لغيره من الملوك وغيرهم، كان يذبح في كل يوم رأسا من الضأن فيأكل نصفه ويبيع نصفه بالسوق"[17].

كما نجد أبا حمو يركز على الحاشية؛ ويقصد بها المراتب أو الوظائف بنوعيها الديني والدنيوي، والتي تشكل خدام السلطان وأعوانه، مركزيا ومحليا؛ إذ أدرك سلطان تلمسان أهمية الحاشية الملكية؛ فأوصى بها ابنه، جاعلا ذلك من أركان الدولة؛ مركزا على الوزراء والجلساء والكتاب وأصحاب الأشغال والفقهاء والقضاة والأعوان وقواد الجند والعمال وصاحب الشرطة والسفراء[18].

وإذا كان كتاب "واسطة السلوك" لا يختلف عن باقي مؤلفات الآداب السلطانية في الاستناد إلى ركائز السلطة؛ فإن التباين يكمن في ترتيبها حسب أبي حمو الزياني الذي أعطى الأولوية القصوى لـ"الجند"، على حساب "العمارة"، وهو ما يعزى إلى الطابع الحربي لبني عبد الواد في عهد السلطان المذكور[19]، بل إنه يربط النظم العسكرية بالبعد القبلي[20]؛ مما يفسر أهمية العصبية في هذه الفترة التاريخية، ليس في دولة بني عبد الواد بتلمسان، وإنما بالغرب الإسلامي كله.

وبالمثل فإن الدولة، في نظر أبي حمو، تتوقف على وجود نخب سياسية وإدارية وثقافية، تتوفر فيها شروط الأخلاق، والكفاءة المهنية، والرأسمال الاجتماعي، من خلال تنصيص حاكم تلمسان على ضرورة انتماء بعض كبار رجال الدولة إلى قبائل وأسرة وجيهة وبيوتات معروفة، ليكون ذلك مساعدا للموظف على التتره عن الفساد؛ فكون الوزير مثلا من "خيار قومه وعشيرته، فإنه يكون محافظا على بيته ومروءته، مجانبا للنقائص والشبهات، متترها عن المعايب في جميع الحالات"[21].

كما تزودنا المذكرة الإصلاحية بتوصيات مرتبطة بالعلاقة بين السلطان وشركائه المدنيين والعسكريين، مثل الجنود والمتطوعة، فيما يخص شؤون العطاء والتموين وتدبير قضاياهم الاقتصادية والاجتماعية. وهو ما دفع أحد الدارسين[22] إلى حصر وظيفة الدولة في العصر الوسيط في جمع الضرائب وممارسة العنف، مما يرسخ جدلية المال والجيش في النظرية السياسية لدى أبي حمو الزياني.

غير أن ما يطفح به الكتاب هو التجربة السياسية والعسكرية لأبي حمو، ومنها المعركة التي دارت بين بني عبد الواد والمرينيين قرب تلمسان سنة 760هـ/1358م، وكيف انتصروا عليهم، ونعم بنو عبد الواد بالاستقرار، رغم قوة المرينيين؛ "فاستقللنا بحضرتنا العلية، والبلاد كلها مرينية، واستولينا على ما كان بتلمسان، واستقر لنا بها الملك والسلطان، ومرين محدقة بنا من كل جهة ومكان؛ ليس بيننا وبينهم إلا مسيرة يوم أو نصف يوم. ومن شدة الحزم لم تكتحل أجفاننا بنوم؛ فلم نزل ... نستعمل معهم المحاولات والمكائد، وننصب لهم الأشراك بكل المراصد، إلى أن استخلصنا جميع بلادنا من أيديهم، وجازيناهم على تعديهم؛ وذلك بين محاولة وقهر وتأييد ونصر. ولقد دخلناها عليهم دون كثير جيش، ولا مال؛ فبلغنا بالسياسة والمحاولة غاية الآمال إلى أن صارت أموالنا أكثر من أموالهم، وأحوالنا أحسن من أحوالهم، وأعدادنا أكثر من أعدادهم، وأجنادنا أوفق من أجنادهم، وبلادنا أمهد من بلادهم[23].

وفي الميدان السياسي والديبلوماسي والعلاقات الخارجية مع الدول، يستلهم أبو حمو تجربته كذلك لتوجيه ابنه، وخاصة فيما يخص التجسس وبث العيون والإيقاع بالعدو؛ فيذكره بما حصل له مع المرينيين من حروب وتجسس، وخاصة في عهد السلطان أبي سالم، مثلما أخبره بهزيمة أبي الحسن المريني في إفريقية وغرق أسطوله[24]، كما يحضر البعد التاريخي في الكتاب من خلال تاريخ الأندلس؛ مثل الاستراتيجية الحربية التي نهجها ابن هود للإيقاع بابن رذمير بوشقة؛ وانتصارات المنصور بن أبي عامر خلال القرن 5هـ/11م[25].

وإذا كان أبو حمو قد لمز إلى الصراع بين بني عبد الواد والمرينيين، وأكد لابنه أهمية الشجاعة في تدبير الملك[26]؛ فإن هؤلاء لم يغفلوا الأمر، وحاولوا النيل من القدرات الحربية لسلطان تلمسان؛ ففي نظرهم أنه "كان جبانا لا يقدر على مدافعة الجيوش المرينية خوفا على نفسه"[27]؛ إذ "ما رئي يجري فرسه

قط، فإن اعتذر عن ذلك من رزانته فليس الأمر كذلك، إذ من شأن الملوك الكبار الذين هم أكبر قدراً منه في الحسب وضخامة الملك أن يلعبوا مع خدامهم الموالي بجري الخيل بقصد الثقافة ومعرفة ركض الخيل. وهذه عادة مطردة لهم، ومن لا يفعل ذلك منهم فهو خواف على نفسه أن يقع من الفرس من جهله بالفروسية"[28].

كما أن من ملامح البناء الفكري لكتاب "واسطة السلوك"، توظيف أبي حمو للبعد السياسي لاحتفالات بني عبد الواد بالمولد النبوي، ورسالة الأشواق التي بعثها إلى النبي صلى الله عليه وسلم[29].

ومن مظاهر التدبير العملي الذي يوصي به أبو حمو، علاوة على المعايير الخلفية والكفاءة، ما يمكن نعته بالاستعلامات؛ ففي تعيين الوزير قال: "ومع ما ذكرنا من الاختيار، فلا تخليه من الاختبار"[30]، كما ينصحه بالأمر نفسه فيما يخص العمال؛ إذ يوصيه بعدم الإفراط في الثقة في العمال؛ "وقد جرت عادة الخلفاء والملوك باختبار العمال في جبايات الأموال"[31].

وبناء على ذلك، فإن كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" يمثل أنموذجا للمذكرات السياسية والخطاب الإصلاح، للنهوض بالأوضاع العامة بتلمسان خلال القرن 8هـ/14م، في مناخ إقليمي ينذر بالتحول في الجناح الغربي للحوض المتوسطي، الذي سينتقل منه الثقل الحضاري إلى المحيط الأطلسي، و"كأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث"[32].

وقد عملنا على إبراز ذلك من خلال إعادة تركيب فقرات الكتاب لتبيين النظرية السياسية لأبي حمو الزياني، وفق أبواب وفصول؛ فقسمنا الوثيقة المستخرجة من "واسطة السلوك" إلى أبواب، منها الباب الأول الخاص بقواعد الحكم، ويشمل فصول العدل، والمال، والجيش؛ والباب الثاني المتعلق بأخلاق السلطان، ويضم الفصول الخاصة بالعقل، والشجاعة، والكرم، والحِلم، والعفو؛ والباب الثالث المرتبط بموظفي الدولة، ويهم الوزراء، والحاشية، والكُتّاب، وصاحب الأشغال، والفقهاء، والقضاة، والأعوان، والقواد، والعمال، والحرس الملكي، ومماليك الملك؛ أما الباب الرابع فخاص بالحكامة السياسية؛ والباب الخامس المتعلق بالسياسة الحربية. وفي ما يلي نص المذكرة:

الباب الأول: قواعد الحكم

العدل

- ((الملك بناء والعدل أساسه؛ فإذا قوم الأساس، دام البناء، وإن ضعف الأساس انهار البناء؛ فلا سلطان إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال، ولا مال إلا من جباية، ولا جباية إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل؛ فالعدل أساس. ومن استعمل العدل حصن ملكه؛ ومن استعمل الظلم عجل هلكه)).

- ((إذا تقرر أن العدل أس الدولة، وإقامة الملة، ورأس السياسة، ومدار الرياسة؛ فالملك بالنسبة إليه على أقسام: أن يكون الملك عدلا في نفسه، عدلا في رعيته وأهله وخاصته؛ أن يكون الملك جاريا مع الرعية على العوائد المألوفة، والأحوال المعروفة، من غير خرق، ولا إحداث زيادة، مقلا على أموره الدنيوية، وإن كان مفرطا في بعض الأمور الأخروية)).

- ((العدل سراج الدولة؛ فلا تطفئ سراج العدل بريح الظلم)).

- ((صلاح الدولة بقواعدها، وفسادها بخرق عوائدها)).

- ((أربعة لا يزال معها المُلك: حسن التدبير في الأمور؛ والعدل في الخاصة والجمهور؛ والأخذ بالحزم؛ والصبر في الأزم.

أربعة لا يثبت معها المُلك: سوء التدبير؛ ومخالفة النصيح والمشير؛ وخبث السريرة والنية؛ والجور على الرعية)).

- ((العدل نِعْم ما يجتنى، والجور بئس ما يقتنى، والعدل كنز الأمير، وحياة الغني والفقير)).

- ((الأمير العاقل لا ينفذ فيه قدح أهل البغي؛ فمن انقطع إليه ولازمه كالجوهر المضيء بنوره، لا تطفئه عواصف الرياح)).

المال

- ((المال حرز الملك، وبه ينتظم انتظام السلك؛ فاحرز حرز مالك بتقليل الثناء، وتصرف فيه تصرف أهل العقل والذكاء)).

- ((ابذل مالك في الثناء، فإنه خير من الغنى، ولا تكثر فيه السرف، فإنه يؤدي إلى التلف، نمّ مالك تبلغ آمالك؛ فإن من قلّ ماله تلاشت حاله، وقلت أعوانه، وضعفت أنصاره)).

- ((المال زين والإقلال شين، والمال عون على العذى، وحصن يتقى به من الرذى، به يستفتح الصياصي وتستملك النواصي، ويقاد العاصي، ويستدنى القاصي. وبالمال تستعبد الرجال، وتبلغ الآمال، وتذل به الرقاب، وتستفتح به الأبواب، وتستهل الأمور الصعاب، وتنال الرغائب، وتنجو به من المصائب)).

- ((خير المال ما وقع به الانتفاع، وشر المال ما تركْته للضياع؛ فاجمعه من مواضعه ووفره، وقوّ مادته بالعدل، وتوسط في العطاء والبذل)).

- ((استعن بثقاة عمالك على جميع مالك، ولا يحملنك حب المال على المسامحة في جور العمال؛ فإنه غدا هلكت الرعايا عدمت الجبايا؛ وإذا عوملت الرعية بالرفق، كثر فيها النماء والرزق)).
- ((خذ المال من حقه، وأنفقه في مستحقه، تكن أعدل الناس، وأفضل مَن مَلَك وساس)).
- ((حاسب نفسك وعمالك، يحفظون مالك)).
- ((المال أعظم الذخائر الفاخرة، وبه تنال الدنيا والآخرة)).

الجيش

- ((تنتخب لجيشك أنجاد القواد من أنجاد الأجناد)).
- ((خير الجيوش أربعة آلاف، ولن يبلغ جيش يبلغ اثنا عشر ألفا من قلة إذا اتفقت كلمتهم)).
- الجيش ينقسم إلى أربعة أقسام: خاصتك، وقبيلك، وأنصارك، ومماليكك)).
- ((ينبغي لك أن تتخذ خاصة من وجوه القبائل وكرام العشائر، تستخلصهم لنفسك، ليعلمك كل واحد محبا في جانبك ومائلا إليك، ومعتمدا في أموره عليك؛ لأنه إذا كان محبا في جانبك قاد جميع جماعته إلى بابك، وسعوا كلهم في مرضاتك وآرائك؛ فليترل كل واحد منهم في مترلته، وترتبه على قدر ما يليق به من مرتبته)).
- ((ينبغي لك أن تكون محافظا على قبيلك مواسيا لهم من كثيرك وقليلك، لا تحوجهم إلى غيرك، ولا تمنعهم من خيرك. وتختص منهم من يكون محبا ناصحا مخلصا، ومن تراه لاختصاصك أهلا، ولاصطفائك محلا. وتقدم الأشياخ على الجموع؛ فإن التابع يصلح بالمتبوع؛ فتجعل على كل جماعة منهم شيخا من كبارهم وأعيانهم وخيارهم محبا في سلطانك وجماعتك باذلا في خدمتك جهد استطاعته، مأمون القائلة من النميمة والغيبة، سالما من النقيصة والريبة، محرضا لجماعته على طاعتك، مطالعا لك بأحوالهم في كل أحيانه، ولا يقول عنهم إلا الحق، ولا يُعامل سلطانه إلا بالحذق)).
- ((الجيش والمال قسم واحد، لأن كل واحد منهما متوقف على صاحبه، ومطلوب بمطلبه؛ فلا مال إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال، وأصلهما العدل، لأن العدل مجمع المال، والمال يكفل الجيش، والجيش يحوط الرعية)).
- ((الملك بالنسبة إلى ذلك على أربعة أقسام:

- ((القسم الأول: الملك والجيش والمال بقدر ما تحب إيالته من البلاد، وماله من الأقاليم والإعداد، لا أقل من ذلك ولا أكبر ولا أصغر.

ينبغي أن تتخذ جيشا بقدر ما تحكم به بلادك، ولا يحملك الحرص على أن تكثر أعدادك؛ فليكن جيشك قدر ما يكفيك من المال، ولا يكون مفرطا، لئلا يتعذر عليك الحال، لأنك إذا ضعف مالك، كثر جيشك، بل همك، وتنكد عيشك، وصار عليك جيشك أعوانك، وأصبحت لقلة ذات يدك مهانا، فيدعوك طلب الجيش إلى طلب الرعية؛ وإذا طلب الرعية، فسد ملكك بالكلية. وإن كنت قليل الجيش، كثير المال، كان ملكك صائرا لاختلال؛ فإنه ربما تدعوك الضرورة، وحوادث من أعدائك كثيرة، منها أن يزيد عدوك الاستيلاء على بلادك، ويحتقرك لقلة أجنادك، فيأخذ الأمر على حين غفلة، ويعتريك العدو دفعة، ولا تجد مهلة، فتلتمس ضم الجيش بما عندك من المال؛ فلم تجده في نفس الحال، ولا من يأخذه منك، ولا يصدر بنفسه)).

- ((ينبغي أن لا تنفق مالك إلا في حقه، ولا تخرجه إلا في مستحقه، ولا تعطيه إلا فيما يصلح عنك، ويجلب المنفعة إليك، ولا تسرفه فيه لذات دنياك، ولا في محارب لا تصلك إلى هواك.

ينبغي أن لا تعطي لغير فائدة؛ فإن تلك سجية فاسدة، ولا تعطي ألفا لمن يستحق مائة، ولا مائة لمن يستحق ألفا؛ فإن فعلت ذلك كان ظلما وسرفا.

إياك أن تحملك شهوة الشكر على بذل المال، فيفضي بك ذلك إلى الإقلال؛ فإنه إذا نفذ المال، نفذ الشكر.

إياك أن تحتقر ما تجمعه من المال، لا من كثير ولا من إقلال، ولا تتساهل بإخراجه، وإن سهل عليك جمعه من خراجه؛ فإن التبذير يؤدي إلى التدمير، والإمساك يؤدي إلى الإهلاك: فليكن مالك موازيا لجيشك، ومقاوما عندك؛ فقد يحدث في الزمان اعتلال من غير علو ولا قتال؛ مثل أن يكون قحط في البلاد، أو ثوران فتنة تؤذن بالفساد، فتجد ما ترجع إليه من المال. يقوي جيشك، ويعتمد عليه، فإن كانت الفتنة فيضعف عليك العدو، وتسكنه إذا أظهر العو. وإن كان القحط استعنت به على الرعية، وأنفقته في حقوق الرعية)).

- ((عليك أن تتشاغل بجمع أجنادك، وتوفير أحشادك وأعدادك، وترتيب خدمك وقوادك فتعدهم في زمن الرخاء، لتجدهم عند الشدة)).

- ((عليك باستسلاف قلوب الأنجاد من قبيلتك، ومشاركتهم في كثيرك وقليلك، واصطنعهم بالإحسان، ولا تغلظ عليهم، واخفض لهم عند الاحتياج الجناح، وعامل من أظهر لك العداوة منهم بإظهار المودة، وسايسهم حتى يرجعوا إلى حزبك؛ فإنك تبلغ منهم بحسن المحاولة ما لا تبلغ منه بقبح المعاملة، وتنال بالسياسة واللطف ما لا تدركه بالغلظة والعنف؛ فإن اصطناع الأعداء مكيدة، واستجلابهم بالخير ضرورة وكيدة)).

- ((ينبغي أن تدخل الدواخل بين بعض أعدائك لتهدئ بذلك جانب أعدائك، ولتوقع الشتات في قلوبهم، وتصدعهم عن مطلوبهم؛ فإنك إذا أدخلت بينهم الدواخل، وجعلت أسافلهم وأعاليهم هم أسافل، فتطمئن من جوانبهم، وتحسر عواقبك بسوء عواقبهم، وتأمن من غوائلهم وشواغلهم؛ فيكون كل واحد يتحرز من صاحبه، ويطلب سقطة يوقعها في جانبه، فيعلمك بما انطوت عليه أسراره، وما تحدث به صاحبه إضماره؛ إذا تشاغل بعضهم ببعض، وتشاجروا في رفع وخفض، رجعوا إلى صداقتك واصطفائك، ودخلوا في حزب أولئك، ومالوا إلى جانبك، وإن لم يكونوا من أصحابك)).

- ((ينبغي أن تكون في سنة تدرك جيشك، وتدبر أمرك وترتبه شيئا بعد شيء، وذلك بقدر تنمية المال وتكثيره، وضعفه وتوفيره، وعلى قدر الاستطاعة والسياسة والحركات والرياسة، لأن زيادة المال والجيش للملك تنويه لملكه، وزيادة في نظم سلكه؛ فيعظم قدرك في أعين أوليائك، وتقطع رهبة في قلوب أعدائك، وقل أعوانك، ونقص ملكك، وتلاشي سلطانك.

ويكون ترتيب الجيش في العطاء على قدر بيناتهم، وشجاعتهم، وسباقتهم للخدمة، واصطناعتهم، ومحبتهم، وانقيادهم، وألفتهم، واجتهادهم، وهؤلاء أهل الطاعة والمجابي والبلاد، وهم القبيل والجماعة بل الحماة والأنجاد، والأنصار ما عدا مماليكك والمنقطعين إليك، المتصرفين في خدمتك بين يديك؛ فإن جراياتهم في المرتب مشاهرة، وأرزاقهم من بيت المال مياسرة، جريا على توالي الشهور، وهم في جريانهم على قدر طبقاتهم؛ فأصحاب البلاد يجبونها في أوقات معلومة على حسب ما هي عليهم مقسومة، وذلك بقدر ما يقيم أولادهم، ويصلح أهلهم وأودهم، وخيلهم وعددهم، ثم تتفقد أحوالهم جهد استطاعتك، ليستمروا على خدمتك وطاعتك؛ لأن من فرط في جيشه أعار عدوه عليه، ومن تحفظ به فلا يجد العدو سببا إليه)).

- ((القسم الثاني: أن يكون الملك ينشغل بجمع المال ويفرط في الجيش؛ فهذا حاله غير محمود، وفعله عليه مردود؛ فإنه ربما دهمه عدو أقوى منه، فيوشك أن يطلبه ولا ينفك عنه، وإن كان أضعف منه في المال، فهو أشد عليه في القتال؛ فإن العدو يستعين عليك بقوته، وكثرة جيشه وشدته، فتأخذ بلاده، وتنال أطرافه وبلاده، فتكون ذلك سبب خرابه وذلته واكتئابه، لأنه يطلب لمن يعطي المال، فلا يجده في نفس الحال، فتدخل عليه الآفة من هنالك، فلا يصل بالمنى وإن أعطى المال، فإنه لا يقبل منه، ولا ينفعه، ولا ترد عنه بأسه ولا يدفعه، فإن الناس تعودوا منه قلة العطاء في الشدة والرخاء، وإن همّته مصروفة، بجمع الأموال مجبولة على قلة الأبدال)).

- ((القسم الثالث: أن يكون الملك يشتغل بجمع الجيش، ويفرط في المال؛ وهذا أيضا غير محمود الفعال.

لا يقبل لك عذر في قلة العطاء، ولا حجة لك في ذلك عند الأولياء، لأنك ربما دهمك أمر عدوك، موازن لك، يكون في الجيش مثلك، وأقوى في المال، يريد أن يدخل عليك بعض إخلال، فيعطي المال لجيشه، ويخدع جيشك بماله وغشه)).

- ((القسم الرابع: أن يكون الملك يفرط في الجيش والمال، ولا تصرف همته في ملكه إلى إصلاح حال؛ وهذا في الملوك مرفوض معكوس، الآراء منقوص، لأنه اشتغل بالإهمال واللذات، والمباني والزخارف والنزهات، واللهو واللعب، والفتك والطرب، والقيان والآلات، والاستغراق في كل الحالات)).

- ((لازم التقوى، وتجنب اللهو والهوى، ولا تغتر بالدنيا، وكن حازما في جيشك ومالك، تبلغ جميع آمالك)).

الباب الثاني: أخلاق السلطان

العقل

- ((الملك بالنسبة إلى العقل على أربعة أقسام؛ ملك له عقل يصلح به دنياه وأخراه، وملك له عقل يصلح أخراه دون دنياه، وملك له عقل يصلح به دنياه دون أخراه، وملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا أخراه)).

- ((الملك الذي له عقل يصلح به دنياه وأخراه هو العقل التام الذي تميز فيه الخاص من العام، والسياسة الكاملة التي تعلو بالمنفعة الشاملة. وعلامة المتصف به أن يسير في الرعية بأحسن سيرة،

وأن يكون حاكما على هواه؛ يؤثر عقله على ما سواه، وأن يحب لرعيته ما يحب لنفسه، وما يستجلب به الرعايا من لطف أنسه)).

- ((الملك الذي له عقل يصلح به آخرته دون دونياه؛ فهذا له عقل ناقص وليس له سياسة. وعلامته أن يتشاغل بالعبادة ويجعل ما يتعلق من أمور خلافته كالزيادة ولا يترفه في ملبس ولا مطعم ولا يهتم بأمور رعيته، ويشتغل بأهل الصلاح، ويفرط في الجيش والمال الذي هما صلاح دنياه وأخراه؛ فصارت الولاة تأخذ ماله ولا شعور له بهم، وضاع جيشه بسببه لعدم نظره فيهم؛ فإن دهمه عدو فلعدم نظره في ماله وجنده، لا يجد ما يصادر به عدوه عن رعيته، وذلك مما يؤول إلى خراب ملكه، وتعجيل هلكه، لعدم اكتراثه بأمور رعيته، واتباعه بما جنى على نفسه)).

- ((الملك الذي له عقل يصلح به دنياه دون أخراه؛ فهذا له سياسة وليس له عقل تام، ويرجو ثبوت ملكه وانتظام سلكه لحسن سياسته التي يقوم بها أمور رعيته؛ فهو يجري الناس على عوائدهم المألوفة، وأحوالهم المعروفة؛ وإن أحدث على رعيته زيادة لم يشعروا بها حتى كانت عادة، وذلك من لطف سياسته وحسن تدبيره ورياسته. يعامل رعيته بما يجذب به نفوسهم ويوجب الفتح وتأنيسهم، ويصلح أمورهم، ويحوط خاصتهم وجمهورهم. هذا وإن كان قد ضيعَ أمر رعيته وأصلح دنياه بحسن محاولته، فيرضى له دوام دولته وبقاء مملكته)).

- ((ملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا أخراه؛ فهذا له عقل ناقص ولا سياسة له. وعلامته أن يجور على رعيته ويسئ إليهم، ويحدث الحوادث عليهم، ويحسن لمن أساء، ويسيء لمن أحسن، وينطق خلاف ما أظهر ويظهر خلاف ما أنطق، وتقليد الأمور غير مستحقيها وتوليها غير أهلها)).

الشجاعة

- ((أصل الشجاعة الصبر في المواقف، وربط الجأش عن المخاوف، ورأسها الحذر والتوقي، وسياستها الممارسة عند التقي)).

- ((إذا وضعت قتالك في موضعه، وحذرت ما يتقى من مصرعه، كنت شجاعا كاملا، وفي الحروب شهما باسلا. وإن تركت الحذر في حين القتال، وتوكلت على شجاعتك في ملاقاتك الأبطال، والمباشرة بنفسك للأهوال، كانت شجاعتك هرجا، وقوام حربك عوجا)).

- ((إذا كان الملك شجاعا، كان منصورا مطاعا، ترهبه الأعداء، وتطمئن به الأولياء، يعتد به جيشه في مواقع الحروب، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب)).

- ((الشجاعة تنقسم على أربعة أقسام: الشجاعة التي يصيبها الرأي، ما يصحبه العقل دون الرأي، شجاعة غير مفرطة، بل بين ذلك متوسطة، غير أنها يصاحبها الرأي المصيب، وينتفع بها مع الرأي في الموقف الصعب، والشجاعة التي لا يصحبها عقل ولا رأي)).

- ((رتب جيشك يوم الحرب واللقاء؛ فإن في ترتيبه إرهابا للعداء، وهيئة تهيئ حسن الانتظام، مضبوط الانقسام على أربعة أقسام: ميمنة من حماة أنجادك، وميسرة من كفاة أجوادك، وتقدمة من أبطال فرسانك، من أسود شجعانك. وتقدم على كل واحد من الميمنة والميسرة قائدا مقداما بطلا ضرغاما.

فأما التقدمة فتقدم منهم فرسانا بين يديك، يكونون في نحر العدو، وإذا قصد إليك من أنجاد قبائلك الشجعان، وأهل دخلتك العارفين بالضراب والطعان، وتقدم عليهم قائدا من الأبطال، الخائضين بحور الأهوال، واجعلهم على قسمين: قسم يلي الميمنة، بين يديها، وقسم يلي الميسرة، بين يديها، ويكون قتال كل قسم من هذين القسمين اللذين في الجهتين مستند لمن خلفه من الميمنة والميسرة، فتكون الأجنحة بأولئك الحماة منتصرة.

وأما الساقة، وهي قلب جيشك، توازي الميمنة والميسرة، والقلب يوقف الجيش، ويشده، ويصد العدو ويرده؛ فلا يكون فيه إلا أهل الشجاعة والنجدة، والكفاية والشدة، من كل بطل مقاتل، وشهم في الحرب باسل؛ فترتب هذه الساقة، وتجعل عليها من زعماء خاصتك الأنجاد، وحماتك الأسود الأفراد، قائدا عن يمينها، وقائدا عن يسارها، يضبطانها ويحفظانها، في إقبالها وإدبارها، وإيرادها وإصدارها، بحيث لا يقبل أحد من الساقة ولا يختل، ولا يتزحزح ولا يتحول)).

الكرم

- ((ينبغي للملك أن يكون كريما متوسطا، لا مقترا ولا مفرطا. الملك بالنسبة إليه على أربعة أقسام:

أ- ليكن كرمك على نفسك، ورعيتك، من غير تبذير ولا إسراف في التقدير؛ فإذ ذلك هو الكرم المحمود.

ب- أن يكون الملك كريما على رعيته، دون نفسه وخاصته وأهل بيته؛ فهذا كرم غير محمود)).

ج- أن يكون الملك كريما على نفسه وأهله، دون رعيته؛ فهذا الكرم غير محمود؛ فإن هذا الكرم يحمله على أخذ أموال الناس، بل الرعية، وجريانه على غير السبيل السوية، ينفق في لذات نفسه الأموال، ولا يؤثر رعيته بأفضال، ولا يواسي من تعلق به من الأبطال)).

د- أن يكون الملك لا يتكرم إلا على نفسه، ولا يتكرم على خاصته ولا رعيته، بل يحتكر المال بكليته؛ فهذا لا يعد من الكرام، ولا ينتظم في هذا النظام. ومثل هذا لا يترك شيئا للرعية، ولا يجري على السوية، بل يأخذ من مستحق وغير مستحق، وينفق ذلك في المغاني والملاهي والمباني، فلا يجد ما يصادر به دنياه ، ولا ما يلقى به أخراه)).

الحِلم

- ((هو بالنسبة إلى الملك على أربعة أقسام:

أ- أن يكون الملك حليما على خاصته ورعيته، يعاملهم بحسن نية، يحلم عنهم في صغار الجرائم، ويقتص منهم في العظائم؛ فهذا ملك غالب عقله على هواه.

ب- أن يكون الملك حليما على الرعية دون الخاصة، لا يؤاخذ إلا خاصة الخاصة؛ فمن عمل من الخاصة ذنبا، فيستوجب عليه العقوبة، عاقبه، ومن عمل من الرعية عملا يستوجب به العقوبة ترك مطالبته، ويصفح عن هفواتهم، ولا يعاقبهم لضعفهم، وقلة قدرتهم، وخوفهم، وضعف عقولهم، وحقارتهم، وخمولهم، ولاختلاف طبائعهم، ولقلة وقائعهم، إلا أن الخاصة ينتقم منهم، ولا يعفو عنهم، يرى أن ذلك جزاء لهم، وردعا وكفا عن العامة، وقمعا، لئلا يتأذى الضعيف، ويقع من أهل الجاه لهم التخويف؛ فهذا حلم غير محمود، لأن من العدل المساواة في أحكام بين الخاص والعام، بل الخاص أولى بالحلم في ضغار الجرائم من العامة.

ج- أن يحلم الملك عن الخاصة دون العامة؛ فهذا عين الآفة الطامة.

د- أن يكون حلمه مضطربا، أحيانا فأحيانا، تارة وتارة، لا يقف عند حد في أقواله وأفعاله، ولا يأمن أحد من اغتياله؛ فهذا حلمه مذموم، ولو نسب له الحلم، لأنه لا يأمن أحد حلمه، ولا من غائلته وسمه؛ فالعامة تخاف نكاله، والخاصة لا تأمن اغتياله)).

العفو

- ((الملك بالنسبة إليه على أربعة أقسام:

القسم الأول: أن يعفو الملك عمن يستحق العفو، ويعاقب من يستحق العفو، ولا يتم العفو عن هتك الحرم، وإفشاء السر المكتتم، والقدح في المللوك.

القسم الثاني: أن يعفو الملك عمن لا يستحق العفو؛ فهذا عفو غير محمود، لأن من الجرائم جريمة لا يحسن العفو فيها، والعقاب أجمل لتلافيها.

القسم الثالث: أن يكون العفو من الملك متوسطا، لا تاركا للعقوبة.

القسم الرابع: أن يعفو الملك عمن لا يستحق العفو)).

الباب الثالث: موظفو الدولة

الوزراء

- ((يجب أن تختار وزيرا كبيرا، مهذبا خطيرا، بالأمور بصيرا. يجمع من محمود الخلال ثمانية، وهي أن يكون من خيار قومه وعثرته، وكبير عشيرته وبيته، وأن يكونَ وافر العقل عاريا عن الجهل، عاضر اللذهن سريع الفهم، راجح الرأي محمود السعي، محبا. ناصحا ودودا صالحا، شجاعا في المهمات وعند نزول الملمات، حسن الصورة فصيح اللسان، بديع العبارة بليغ البيان، كثير المال غير ذي حاجة ولا إقلال)).

- ((لا تخليه من الاختبار)).

- ((ينبغي للوزير ان يكون أحسن فطنة وسياسة ورأيا من الملك، لأن الملك يسوس مَن دونه من رعيته. وأما الوزير فإنه يسوس مَن فوقه وهو الملك، ومَن دونه وهم الرعية)).

- ((أحسن الوزراء حالا من أعد لكل أمر يجوز وقوعه، ويمكن كونه عدة؛ فإذا وقع الأمر قابله لما يكون أعد له. وأسوأ الوزراء حالا من توكل على لفظ فطنته وقوة حيلته ودربة ممارسته؛ فترك الإعداد للأمور قبل نزولها ثقة بنفسه)).

حاشية السلطان

- ((يجب أن تختر لنفسك جلساء رؤساء من قومك، ذوي عقول وافرة، وأذهان حاضرة، فصحاء اللسان، نصحاء في السر والإعلان، يجانبون مخالطة الناس، ويعظمونك إذا أظهرت لهم البسط والإيناس)).

- ((يجب أن تختبر أحوالهم، وتمتحن أقوالهم وأفعالهم)).

- ((إن مات وزير من وزرائك اخترت وزيرا منهم لسبق معرفتك لما انطوت صدورهم عليه، وما تقدم منهم وما صدر من النصيحة عنهم، فتجعله مكانه، وتشد به أزر الملك وأركانه؛ فمن وجدته منهم بعدَ الاختبار مذيعا للأسرار، غير واف بالعهد ولا مبرم للعقد، وصدرت منه نميمة أو غيبة، أو ظهرت عليه زلة أو ريبة أبعدته عن منزلة الرفعة والإيناس، وجعلته كسائر الناس)).
- ((جالس الفضلاء، وشاور العقلاء، وخذ الرأي مع النصحاء، واقتد بذوي التجارب النبلاء)).

الكُتاب

- ((الكتّاب عنوان المملكة لتبين الأمور المشتبكة)).
- ((تخير لسرك كاتبا من وجوه بلدك، موفيا لغرضك ومقصدك، فصيح اللسان، حرير الجنان، بليغ البيان، عارفا بالآداب، سالكا طريق الصواب، بارع الخط، حسن الضبط، عالما بالحل والربط، كاتما للأسرار، متحليا بتحلي الوقار، ذا عقل وافر، وفهم حاضر، وذهن ثاقب، وفكر صائب، حلو الشمائل، موسوما بالفضائل، جميل الهيئة واللباس، والموالاة للناس)).

صاحب الأشغال

- ((صاحب أشغالك وضابط أعمالك، تخير من وجوه بلدك الأخيار، وكفاة الحساب والنظار. ويكون ذا ثقة وأمانة وعفة وصيانة، وصلاح وديانة، وحزم وكفاية، وضبط ودراية، عدلا في أحواله، صادقا في أقواله، عارفا بأنواع الخراج والجبايات، ضابطا للزمام والحسابات. ويكون ذا مال ويسار، وأثاث وعقار)).

الفقهاء

- ((تختر لنفسك فقيها عالما نبيها، موسوسا بالصلاح، سالكا طريق الرشاد والفلاح، يرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسدد الأمور، ويأمر بالسداد، ليبين لك ما أشكل عليك من الأحكام، وما تأتيه من الحلال، وتدعه من الحرام، وما تقف عنده من الحدود الشرعية التي هي قوام الملك والرعية، وما يصلح لك من الأمور الدنيوية والأخروية، وينحو لك بالموعظة، ويذكرك أحوال الآخرة، ولينبهك من سنة الغفلة)).

القضاة

- ((يجب عليك أن تتخير قاضيا من فقهائك، أفضلهم في متانة الدين، وأرغبهم في مصالح المسلمين؛ لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يسمح لظلامة ظالم، يساوي بين الشريف

والمشروف، والقوي والضعيف، عالما بتنفيذ الأحكام، مفرقا بين الحلال والحرام، قاضيا بالعدل، آخذا بالفضل، موجزا منجزا في الفصل)).

الأعوان

- ((تخير عونا تجعله مقدما على أعوانك، ومتصرفا في أمور سلطانك، يصرف شرطه بين يديك فيما لا يمكن توصلك إليه، ويتولون الانتفاع ممن سخطت عليه.

وينبغي أن يكون ذا دربة وشدة وكفاية ونجدة، مبادرا لامتثال الأوامر، متيقظا لما تريد منه في الباطن والظاهر، عارفا بتصرفاتك وأخلاقك في حالتي توقفك وإرهافك؛ فربما غضبت على من لا تريد أن يدركه عقابك، بل يزجره تخويفك وإرهابك؛ فليثبت في أمره ولا يعجل عليه من فوره إلى أن تسكن من غضبك، ويكون ذلك من جنس تصرفه في قضاء أربك.

ويجب عليه أن يكون مرتقبا لبابك، شديد المحبة في جنابك)).

القواد

- ((تخير قوادا من أنجاد جندك، زعماء صادقين في محبتك، وافين بعهدك، ذوي حزم وكفاية، ومعرفة ودراية، لا يصلون إلى الرعية بمضرة ولا بإذاية، بل يسدون الثغور، ويصدون العدو المحذور، ويحوطون البلاد ويمنعونها من كل باغ وعاد وساع في الفساد، فتكون بهم مطمئن الخاطر، أمناء في الباطن والظاهر، لتسد بهم الثغور المخوفات، وكفهم الأكف العاديات، وإجزائهم عنك في المعضلات؛ بحث إذا بعث العدو جيشا لفساد البلاد قابلته بقائد من هؤلاء القواد)).

العمّال

- ((تخير منهم العارفين بجبايات الخراج، وأهل البصر بالألقاب التي بها الاحتياج، ويكون ذوي حزم وكفاية ودربة ودراية وضبط وأمانة وفضل وديانة، لا يضيعون أعمالك المخزنية، ولا يضرون في ذلك الرعية، وتحتاطون في الحالتين جريا على السبيل السوية)).

- ((لا تطمئن إلى العمال وإن أظهروا لك التقشف والإقلال، وتلبسوا بالعبادة والزهادة في الحال. وقد جرت عادة الخلفاء والملوك باختبار العمال في جبايات الأموال)).

الحرس الملكي

- ((ينبغي أن تتخذ لنفسك أنصارا لا يفارقونك ليلا ولا نهارا؛ وهم أربعة أقسام: ميمنة، وميسرة، وتقدمة، وساقة)).

- ((الميمنة: تتخيرهم من ذوي الشدة والكفاية والنجدة والحماية، وتقدم عليهم من خاصتك الأجواد قائدا من القواد، رابط الجأش، صادق البأس. وأن يكون نزولهم في محلتك عن يمينك في المترلة متزيين أحسن زي وأجمله)).
- ((الميسرة: تتخذهم من حماة الأبطال المقتحمين للأبطال من مشاعرة الفرسان، وأسود الضراب والطعان، وأهل الجلاد والإقدام والنطاح. وتقدم عليهم قائدا ثابت القلب، عارفا بمواقع الحرب، صابرا للطعن والضرب. ويكون نزولهم في محلتك عن يسارك مرتقبين إليك)).
- ((التقدمة: تتخيرهم من أصحاب الخيول السوابق، العارفين بالشدائد والمضايق، من كل أسد باسل، وبطل صائد للمقاتل. وتقدم عليهم قائدا بصيرا بمواضع الفرص والغرة؛ قد مارس الحروب المرة بعد المرة، لا يحجم عن الإقدام، ولا يتزحزح عند تزلزل الأقدام. ويكون نزولهم في محلتك أمامك، لا يتجاوزون غرضك ومرماك)).
- ((الساقة: أهل دخلتك المخصوصين بموالاتك ونصرك.

ينبغي لك أن تتخد دخلة من الحماة الأمجاد والأعيان الأنجاد من سراة القبائل وصناديد المواقف والمحافل، ذوي ثبوت عند نزول النوازل، وصبر عند فراغ الكتاب، وأهل نجدة عند حلول المصائب؛ لأنهم القطب الذي عليه المدار والمرفد الذي يرجع إليه، وبهم ترد الهزائم، وتدفع العظائم، وتكشف الكروب، وتدور عليهم الحروب؛ فهم يرهبون العدو بوقوفهم، ويخذلونه بثبوت صفوفهم؛ فيكون جميعهم يقاتل أهل الميسرة والميمنة والتقدمة. وهذا رأي من ساس الحرب وقومه وأحكه وأبرمه؛ لأنه ربما وقع من بعضهم اختلال وعصيان وشنآن في بعض الأحيان؛ فتدفعهم بأهل الدخلة، وتردهم بهم عن تلك الفعلة.

ولتقدم عليهم قائدا من خيار خاصتك الأقربين الممارسين للحروب المجربين، ممن ظهرت نجابته، وكثرت إصابته، واعتورته الأمور، واشتهر في كل معترك مشهور من ذوي الحسب اللباب، والكرم في الأنساب. ويكون نزولهم في محلتك، وكذلك في ركوبك، وحالتي سلمك وخروجك.

وهذه الجموع المذكورة المخصوصون من المحلة بهذه المنازل المشهورة يركبون لركوبك، ويترلون لتزولك، لتبلغ بهم غاية مقصدك ومأمولك؛ فيحذقون بك من جميع جهاتك في ليلك ونهارك وسائر أوقاتك، ويكونون مقاومين لقبيلك في الشجاعة لئلا يخرج بعضهم عن الامتثال والطاعة؛ فإن ظهر من بعض قبيلك تخاذل وإنكار، فتدفعهم بهؤلاء الحماة والأنصار)).

مماليك الملك

- ((مماليك الملك على أربعة أقسام: الأعلاج والنصارى والأغزاز والوصفان، وقد يكون قدر هؤلاء الذين ذكرناهم قدر الحماة والأنصار الذين قدمناهم؛ بحيث إذا ظهر منهم جموح لعصيانك، وإخلال لجانبك؛ فتقمعهم بهؤلاء الأصناف، وتمنعهم من الخذلان والخلاف)).

- ((ليكن هؤلاء المذكورون أهل شدة وكفاية ونجدة في غاية وزينة، وعدة وجرءة وشدة وحدة)).

- ((ليكن سكناهم ببلد حضرتك لتجدهم لعضدك ونصرتك، لا يفارقونك طرفة عين، ولا يزالون تلقاء وجهك كل أين)).

- ((أما ترتيبهم في الركوب وطبقاتهم في هذا الغرض المطلوب: فليكن أغزازك وأعلاجك بين يديك، وركاب خيلك بإزائهم يتقدمون عليك، وكذلك النصارى والوصفان يركبون خلفك مع أهل دخلتك الفرسان. وليتقدم على كل جماعة من هؤلاء قائدا متحفظا ناجدا. وكذلك الأغزاز والعلاج يجرون في التقديم على هذا المنهاج.

والأغزاز لتقسم إلى أربعة أقسام: وصفان وأتراك وأعلاج ومناصفون. وتقدم على كل جماعة منهم قائدا يقتدون به، ويكون لهم علم يمتازون بسببه. ويستحب للملك أن يتخذ رجالا أنجادا كفاة أطرادا، مشائين بين يديك إذا ركبت، ومنصرفين حيث ما صرت، يكون لهم ترتيب في اللباس يمتازون بذلك، يتزينون بالأقبية الحسان المختلفات الألوان، وبأيديهم الحراب، عليها صغار الرايات، لأنهم مما يزيدون به بهاء الملك وجماله وضخامته وكماله، وهم مما يتزيا بهم الملوك والأمراء والأشراف الكبراء)).

الباب الرابع: الحكامة السياسية

- ((أصل السياسة التدبير، ولا يكون التدبير إلا بفكر صائب سليم. ومن حسنت سياسته عظمت رياسته)).

- ((أن تكون سياسة الملك على تدبير شديد ورأي مِصيب رشيد)).

- ((ينبغي أن تدبر في وزرائك وجلسائك وكتّابك وفقهائك وقضاتك وأعوانك وعمّالك وقوادك وأجنادك)).

- ((ينبغي أن تكون فراستك في وزيرك وكتّابك وجلسائك وقاضيك ومفتيك وصاحب شرطتك وعمالك وصاحب أشغالك وقوادك وسائر أجنادك وعدوك، والإرسال المتوجهة من قبلك إلى الملوك أمثالك، والكتب الواردة عليك من العدو وغيره)).

- ((ينبغي أن تتفرس في وزيرك الذي اتخذته لرأيك وشاركته في قليلك وكثيرك، وتنظر إلى أقواله وأفعاله، وكافة أحواله)).

- ((ينبغي أن تتفرس في جلسائك، وتختبرهم، وتنظر في طبائعهم، لتختبر من هو المحب في جنابك، اللائذ ببابك، المسرع لقضاء أربك، ومن هو على غير ذلك. واختبر المفشي منهم لأسرارك، والمحافظ على أخبارك)).

- ((ينبغي أن تتفرس في كاتب سرك المباشر لمهم أمرك، إذا كان فيه أربع خصال فهو كامل على كل حال؛ وهو أن يكون صحيح المذهب، قائلا بالحق، قليل الأخوة والأصحاب، ومن ذوي النيات والأحساب)).

- ((إذا أردت أن تختبر قضاتك، فتفرس فيه تفرسا سياسيا، واحكم على اختباره حكما رياسيا، وانظر إلى أحواله؛ فإن كان يميل إلى خطة القضاء، ويعتني بها غاية الاعتناء، فتعلم أنه رفيق الدين، وأنه في أحواله ليس بالمتين)).

- ((أما قوادك فتكون فراستك فيهم بالاختبار، وزرعك الرشا عليهم من غير استشعار؛ فإذا رأيتهم قبلوا الرشا، وعلقت أذيالهم منه برشا، فتعلم أنهم أضاعوا حقك، وخرقوا رتقك، فلا توليهم أبدا، وإن وليتهم فاعزلهم، تكن راشدا)).

- ((أما جيشك وأجنادك وأنصارك وقوادك، فاختبرهم بأن تنظر في أحوالهم، وتتوسم في أفعالهم؛ فإن رأيتهم مشتغلين بالبناء والزينة واللهو واللعب والنساء، فتعلم أن هؤلاء غير معول عليهم في الشدائد، ولا في المواقف والمشاهد، وإن رأيتهم آخذين في التفاخر بالخيل والعدد وآلة الحرب والجدة، فتعلم أن هؤلاء يعول عليهم في الشدائد، وبهم في المواقف تزول النكائد.

وإن كانت عادتهم في السلم اشتغالهم بالعدة وآلة الحرب؛ فتفرس فيهم أيضا عند اللقاء؛ فإن رأيتهم عند القرب من العدو يزيدون نشاطا وشجاعة واجتهادا وبراعة وحرصا على الملاقاة، وكلمة خاصتهم وعامتهم كلمة واحدة متفقة، فيرجى لك الظفر على عدوك والنصر. وإن رأيتهم عند القرب من اللقاء يقل نشاطهم، ويكثر اختلافهم؛ فمنهم من يحب اللقاء، ومنهم من

يكرهه، اجتهد على أن ترد كلمتهم متفقة بالإعطاء والإحسان، والكلام الجميل، ولا تلاق هؤلاء إلا في موضع تملك فيه أمر نفسك، وتسكن به قلوب جيشك، وتقوي نفسهم بإسناد ظهورهم إليه)).

– ((أما صاحب أشغالك، المقدم إلى أعمالك، الناظر على كافة عمالك؛ فإنك تختبره وتتفرس فيه حتى يظهر لك من حاله ما يخفيه)).

– ((أما ولاتك، تختبرهم وتتفرس فيهم وتعتبر، فإذا رأيت واليك يأخذ أموال الناس ويتقرب بها إليك، ويرى أن ذلك نصيحة إليك، ومسرة يدخلها عليك، ليعلم مكانه عندك، ويرى أن في ذلك بقيتك وقصدك، فهو شر الولاة وأردأهم وأظلمهم وأعداهم، ولا تقربه إلى خدمتك)).

– ((أما حكامك، فتتفرس فيهم وتقع على مخابئهم؛ إذا رأيت حاكمك تبغضه الخيار، وتحبه الأشرار، فتعلم أنه على غير استقامة، وأنه أخذ الرشا على الظلامة)).

– ((تكون فراستك في عدوك فراسة واحدة، وإن بدا لك مؤانسة، ومواصلة مساعدة)).

– ((ينبغي إذا وجهت رسولا إلى ملك من الملوك أن تختاره من وجوه قبيلتك، وخيار عشيرتك ممن يليق بالرسالة، ويتصف بالطهارة والجلالة، ولا يكون توجيهك إياه إلا بعد الاختبار على وفق الاختيار)).

– ((تتفرس في أرسال عدوك إذا قدموا عليك، ووصلوا بالرسالة إليك، فتسايسهم أحسن مسايسة، وتمارس حالهم أجمل ممارسة، وتخادعهم بألطف مخادعة، وتصانعهم بوجوه المصانعة، حتى يظهر الحبيب والنصيح، والباطل والصحيح؛ فتعامل كلا منهم بما يليق، وتجري معه على ما تراه من مذهبه)).

– ((ينبغي لك أن تنزل الناس في منازلهم، وترتبهم بحسب أقدارهم عندك ومناصبهم، وذلك على طبقات الطبقة الأولى)).

– ((ينبغي أن يكون أول ذلك عليك مزوارك الموصوف، وعونك المعروف، ليعرفك بمن ببابك من وزرائك وحجابك وأرباب دولتك وكتّابك)).

– ((أول من يدخل عليك كاتبك ووزيرك؛ إذ بهما صلاحك وتدبيرك، ليجمع معك على الرأي والتدبير، والجليل من أخبارك والحقير؛ فإن الوزير إذا كان على ما وصفناه، وبالصفة التي

ذكرناه، فلا ينبغي لك أن يخفى عليك شيء من أمرك، بل يشاركه في حلولك ومرك وقلك وكثرك.

ويجب على هذا الكاتب التي تقدمت الذي تقدمت صفته، ووصفت نباهته ومعرفته، أن يكون دريبا في قراءة الكتاب وسردها، متحرزا من ألفاظ شائنة، أو وصمة في ضمن الكتاب ثاقبة؛ فإنه ربما يجد فيها ما يكون في حق الجلساء وصما وقبحا يستحق في الوقت كتمانه؛ فيتجاوز الكاتب ذلك اللفظ المشين ولا يبينه في الحين، ثم ينتظر به خلوة إليك فيعيد قراءته عليك، ويظهر لك ما أخفاه عن الجلساء؛ فيعد ذلك من جملة فطنته والذكاء؛ فإذا فرغ الكاتب من عرض كتبك، وتلقى بالتوقيع ما أدرت من أربك، خرج لكتابة ما أمرته به، ويجري على أحسن منهبه، وتبقى أنت مع وزيرك تتفاوض فيما يصلح الدولة، ويعود عليها بالمنفعة على التفصيل والجملة)).

- ((ينبغي أن يكون مجلسك مع وزيرك مجلس هيبة ووقار، وتعظيم وإكبار، وتفاوض في الأخبار، وأخذ في المصالح وتدبير، يعود بالمناصح والمنامح، لا مجلس هتار ومزاح، ومباسطة اطراح؛ فإنه إذا مازرحت وزيرك أسقط المزاح عنده هيبتك وتوقيرك، لأنه ربما تكلمت بما تزول به عند الوزير هيبتك، وربما أيضا تكلم الوزير بما يستخف به عقلك، فتسقط رتبته عندك)).

- ((بعد دخول وزيرك وكاتبك، وقضاء ما أردته من مآربك، يدخل صاحب أشغالك الموكل بحفظ جبايات أموالك، يعرفك بما تجمل وتصير من مالك، وبمحاسبة عمالك، وبجميع أشغالك المختصة بدارك في إيرادك وإصدارك، مثل أصناف الحلي وأنواع الثياب وغير ذلك.

وليتلقى أيضا منك ما تأمره به جاريا على عرضك في تقلبه مما يستأنف في يومه من الأشغال، وما يليق من الأعمال)).

- ((يدخل صاحب شرطتك وحاكم بلد حضرتك، ليخبرك بما تزايد في ليلتك، حتى لا يخفى عليك شيء من أحوال رعيتك وبلدك، ومع ضبط مملكتك؛ فتسأله عن القليل والكثير، والجليل والحقير، لئلا يتوصل أهل العناية للرعية بالمضرة والإذاية، ولا يقع من الحاكم جور في البلد، ولا ظلم لأحد؛ وأنه إذا علم الحاكم وغيره من أهل العنايات وأهل الدعارات والجنايات، فإن الملك لا يغيب عنه شيء من أحوال بلده، فيمتنع كل منهم من استطالة يده، فيقف الناس عند

حدودهم، ويأمنون من الجور في صدورهم وورودهم، وفي هذا إبقاء لنظام الحكم، وأمان للعية من الهلك)).

- ((ينبغي أن تتخير صاحب الشرطة، لأنها عند الملوك أكبر خطة؛ فتقدم لها من يكون صاحب ديانة وعفة، وصيانة وهمة، ومكانة وسياسة، ورأي وفراسة)).

- ((تدعو للدخول عليك الأقرب فالأقرب من خاصتك، وخلصائك، وأشياخ قبيلك، وأوليائك؛ فتشاركهم فيما ظهر من آرائك، وتأخذ معهم فيما عليهم وما لهم، وما يصلح أحوالك وأحوالهم، ثم تدعو إلى الدخول أشياخ دخلتك، وأشياخ القبائل المقربين لخدمتك، وقواد أجنادك المستمسكين بحرسك)).

- ((ينبغي أن تتخذ طعاما تجعله عادة مستمرة لتستجلب به القلوب للمسرة، لإطعام ما ذكرناه من أشياخ القبائل، ومن يرد عليك من قبل الملوك بالرسائل.

فإذا فرغ الناس من أكل الطعام بين يديك قمت إلى منزلك ودخلت إليه، وانصرف الناس ما عدا الحاشية، ثم تعود إلى مجلسك ثانية، ثم تدعو للجلوس وزيرك وخاصتك، وتتخذ ذلك سيرة وعادة؛ فيكون جلوسك معهم مجلس وقار وهيبة، وسكون ورغبة، يصغون لحديثك وأخبارك، غير مذيعين لأسرارك بما انطوت عليه سرائر خدامك، وجميع أجنادك؛ ففاوضهم بما يصلح أمور دولتك، ويعود بالمنفعة عليك وعلى رعيتك.

ويكون جلوسك معهم بقدر ما يقتضيه الحال، ويحتمله المجلس من المقال، ثم تدخل إلى دارك لراحتك واستقرارك، وتنصرف الخاصة إثر ذلك، ويتربص الوزير قليلا هنالك لقضاء حوائج من لا يبلغ إليك ولا يجد من سبيل ولا مسلك للوقوف بين يديك؛ فإذا استوفى مآرب الناس على اختلاف الأنواع والأجناس، رتب الحراس على أبواب القصر، وقد استوفى ما قبله من الأمر؛ فإذا أذن المؤذن للعصر خرجت إلى الصلاة، وتترتب للجلوس في أحسن الهيآت، ثم تجلس لمجلسك المعتاد، وتأذن لوزيرك بالدخول دون الخاصة والقواد؛ ففاوضه فيما يختص بك، وما تراه من مطلبك، ثم تأمر بدخول الخاصة بعد ذلك؛ فتسلك معهم في الحديث أحسن المسالك، وتأخذ معهم فيما يظفر بالأعداء، ويصلح على حماتك الأولياء، وكيف تتوصل لأحد بلاد العدو والمعاند، والمناوئ الحاسد، بوجوه المقاصد.

وليكن جلوسك ذلك متصلا بالعشاء الآخرة، تقطع ذلك في المفاوضة والمذاكرة، ثم تدخل لدارك، وقد نلت من التدبير معهم غاية اختيارك، فتخرج الخاصة إلى ديارهم، ويبقى الوزير قليلا بعد انتشارهم، ترتب لك الحراس للبيات، وتغلق بعد الترتيب على البيات، ويأخذ الحراس بالطواف على القصر من خارجه، ويحض بالتحفظ على جميع مناهجه.

وعلى هذا تكون عادتك في سائر الأيام على الاستمرار والدوام ما عدا يوم الجمعة؛ فإنه يوم راحة وسعة، فيه تستعد للصلاة، ويعتد الخدام لركوبك في أحسن الهيئات؛ فتطيب وتتعطر وتتنظف، وتخرج في أحسنِ اللباس نوعا على الترتيب المطلوب شرعا.

وبعد فراغك من الصلاة تجلس لمجلسك للشكايات، وتأخذ في قضاء الحاجات، والفصل بين الخصماء، والانتقام من الظلمة الغشماء؛ فتقمع الظالم وتقهره، وتحمي المظلوم وتنصره، وتحضر الفقهاء في مجلسك حين الفصل بين الناس لإزالة ما يقع في الأحكام من الالتباس.

وهذا المجلس في هذا اليوم المذكور مخصوص بالرعية وبالجمهور تنفق على الضعفاء والمساكين والأرامل والأيتام المحتاجين، وتنظر في أهل سجوناتك، وفيما أخذ المأخوذ من رعياتك؛ فتسرح من ترى تسريحه، وترد إلى السجن من لم يرد الله أن يريحه، وتواسي ذوي الحاجات ومن يستحق المواساة؛ فمن كان حق من الحقوق الشرعية، رددت له أمره إلى قاضي البلد ليفصل في القضية، ومن كان في غير ذلك من الأحكام التي لا يقضي فيها أحد سوى الإمام، فصلته بما يتقضيه نظرك السديد، ورأيك المصيب الرشيد)).

- ((ينبغي أن تتخذ في أيام الجمعة يوما تتخلى فيه عن الناس، ولا تمضي فيه حكما، تنفرد فيه بالنظر في مجابيك وأموالك، وتتفقد أحوالك، وتعرف أموالك ومالك من الحاجات في ديار الصناعات؛ مثل النظر بالعدد الحربية التي تظهر بها القوة في الكلية، وفيما يخصك في نفسك ومالك وأهلك، وما تحتاج إليه من كثرك وقلك)).

- ((ينبغي أن تتخذ أياما في السنة، وتلك من السير الحسنة؛ فتفقد فيها أحوال جيشك، وقوادك، وأجنادك، وعددك، وأعدادك؛ فتميزهم تمييزا تعرف منه أحوالهم، وتختبر قطائعهم، وأموالهم، وتضبط عددهم؛ فتحسن لمن يستحق الإحسان، وتمتهن من يستحق الامتهان)).

- ((ينبغي أن يجري مع الناس على وقف زمانهم وأوقاتهم وأغراضهم وطبائعهم وطبقاتهم، وأن تسايس من كل مفرط الجهالة من الخدام، وترابطه مُرابطة الجموح باللجام، حتى تنتفع بخيره،

وتأمن من شره؛ فتستدرجه بلطف سياستك، وترده إلى وقف غرضك، وذلك من رياستك، حتى يصير بعد جفوته طوع قيادتك، ولا تتلقاه بالعنف من أول وهلة؛ فالخير كله في التأني والمهلة، ولا خير في السرعة والعجلة، ولا تعنفه على لجاجة إذا كانت لك به حاجة، وكن كالطبيب الماهر الذي يعرف الأعراض فيعطي الأدوية على حسب الأمراض.

وكذلك إذا كانت لك قبيلة وافرة وجموع متكاثرة، وأحوالها متشاجرة؛ فتجري أولا على أغراضهم، ولا يسوءك ما تراه من جفوهم وإعراضهم، وعدم نيل مطلوبهم، ليميلوا إليك بقلوبهم؛ فإن رجع بعضهم إلى غرضك وهواك وبقي البعض تابعا لسواك، فسلط من أطاعك منهم على من عصاك، لتبلغ فيهم مرادك ومناك، وانتقم لبعضهم من بعض، وأدخل بينهم الشنآن والبغض.

وكذلك تفعل بخدامك وأجنادك وحواضر بلادك؛ ترتبهم ترتيبا حسنا، وتوسعهم إكراما ومننا؛ فيكون الشرفاء عند أرفع الناس في الرتب كأنهم أشرفهم في الحسب وأعلاهم في النسب، ثم الفقهاء، لأنهم مصابيح الدين، وبهم اقتداء المسلمين؛ بهم تقام الشرائع، وتسد الذرائع، وتعتصم بهم من الأهوال والبدع، ويعتز بهم الإسلام ويرتفع، لأنهم ورثة الأنبياء، وهم أعلام الاقتداء، ثم أشياخ البلد، والأمناء، والوجوه، والفضلاء، والضابطين لجموعهم، الرابطين تابعهم لمتبوعهم، مثل أهل التجارات، وأهل الحرف والصناعات؛ فتنزل كل جماعة منزلتها، وترتبها في طبقتها.

ولتكن عوائدك جارية بالفضل عليهم، وأياديك منبسطة إليهم؛ فربما تدعوك الضرورة إلى الانتفاع بهم في الشدائد، فيقفون معك الموقف المرضي في المصادر والموارد، وذلك لحسن مدافعتك عنهم، وتوثقك بالإحسان منهم، ولتكن معاملتك لهم بما يليق من إكرامهم وحفظهم واحترامهم)).

- ((أما العامة والدهماء، فتسلك بهم طريقة واحدة يقفون عندها، ولا يتعدون حدها، وتجريهم على ما تعودوا من السير المحمودة، والموالاة الجيدة، ثم لا تتركهم لأغراضهم الفاسدة، وعقولهم التي هي عن الصواب شاردة؛ فإن العامة مجبولة على الفساد، وعلى اتباع الأهواء وقلة السداد، لأن العامة الغالب عليها الشرار، والهرج والاضطرار؛ فإن العامة إذا قدرت أن تقول، قدرت أن تصول.

وأما الجري معهم على حسب أوقاتهم وأزمانهم وطبقاتهم؛ فإن كان زمان رخاء وخير، فتسير فيهم أحسن سير؛ تعدل في مغارمهم عند الغرامات، وتوصي بالتحفظ عليهم الولاة، ولا زيادة ولا إحطاط؛ وإن كان زمان فتنة ثائرة، وفساد في البلاد ومشاجرة، فتشد على الرعية جهد الاستطاعة، وتظهر عليهم فضلك، فتنتفع بهم في الطاعة، وتدافع عنهم إما بوجوه السياسة وتدبير الخلافة والرياسة، وإما بوافر أجنادك بما تراه من قوته واستعدادك، وإن كان من قحط ومجاعة واقعة وأزل؛ فترفق بهم في المخازن والمجابي، وتحسن لضعفائهم المحتاجين وتحابي، وتؤثرهم مما ادخرته لشدائدهم في زمن الرخاء من فوائدهم، فيعم أسواقهم بما اختزنته من الطعام مما يقوم بهم أود الناس في ذلك العام)).

- ((بالطعام قوام عالم الإنسان؛ فلا تفرط في اختزانه في كل أوان)).

- ((ينبغي أن تكون يقظا، ماهرا، حازما، دهقانا، ضابطا لأمورك، عالما بصغير الأمور وكبيرها في تدبيرك)).

- ((اليقظة رأس الحزم، وعمدة العزم: أن من حزم الملك وسياسته ويقظته ورياسته، أن يعتد لنفسه بأربعة أمور لا محيد عنها لكل ملك مشهور الأمر:

أ- المعقل: ينبغي لك أن تتخذ لنفسك معقلا يكون لك في المهمات موئلا، تلجأ إليه عند الشدائد، وتتحصن به من العدا والمعاند. وصفة المعقل أن يكون حصنا حصينا لا يرام، وركنا منيعا لا يضام، وذروة لا تفرع، ومروة لا تقرع، وعقيلة لا تفترع، وبكر لا تخطب، وقلعة لا تطلب. قد اشتمل على الماء والاختزان، والعدد والإمكان، تجعل فيه ذخائرك وأموالك، وأثاثك وأمتعتك وأثقالك، تسكن فيه أجواد أجنادك، وحماتك وقوادك، تشحنه بالرجال والرماة المرتجلة، والزعماء من الرجال المحصلة، الذين لا يروعهم الحمام، ولا يخوفهم سل الحسام، ولا يبالون بما أبرق وأرعد، ولا بمن تجرع وأوعد، وتسكن فيه أهل الصناعات، وأرباب التجارات والبضاعات، حتى لا يحتاج الحصن إلى غيرهم على قلتهم أو كثرتهم.

وليكن غرس ذلك الحصن ما يكون به الانتفاع؛ مثل التين والزيتون، وما قارب هذه الأنواع. وإن تأتى أن يكون ذلك الحصن على ساحل البحر، فنعم الحصن والثغر، وإن قدرت أن يكون بحره تحت حكمك، فهو أحسن لنظمك، وليكن حصنك ذلك أحسن من جميع الحصون، وأحصن وأمنع منها وأمكن.

ب- الجواد: ينبغي لك أن تختار جوادا من خيار الخيل وعتاقها، وكارمها وسابقها، كامل الخلقة، معتدل الحركة والمشي، لا يكل من السير، ولا يسأم من الجري، كالطير إذا غار وإذا سار، لا يعارض في التيسار، وإذا جرى لا يسبق، وإذا طرد لحق، أسبق من السهم، وأسرع من الوهم، تعده للمهمات، وتدخره للشدائد والملمات.

ج- ينبغي ألا تفارق ذخيرة من الذخائر، مما غلا ثمنها وخف حملها، كاليواقيت والجواهير الثمينة العظيمة، التي لها نفاسة وخطر وقيمة، تصادر بها أعداءك، وتصلح بها آراءك؛ فإن اقتناء الذخائر عونة على الشدائد والضرائر.

د- ينبغي أن تتخذ وزيرا على ما وصفناه، محتو على ما قررته، تجده في الشدة، أنيسا في الوحدة، يقصد في مرضاتك المهالك، ويسلك بك أحسن المسالك، لأنه قد ثمر بالأسفار، وجرب الأمور بالاختبار، وعرف مخادع الطرق ونواحيها، وسار في أقاصيها، وأنت غير عارف بالطرق وتشعبها ومخادعها وخباياها؛ فلهذا يجب لك اتخاذ الوزير الصالح المشير الناصح)).

الباب الخامس: السياسة الحربية

- ((العدو بالنسبة إلى الملك على ثلاثة أقسام: عدو أقوى منك، وعدو أضعف منك، وعدو مساو لك:

أ- أن يكون العدو أقوى منك: إذا كان العدو أقوى منك؛ فيجب عليك أن تدفعه بأنواع المحاولات، وتستميل قلبه بالمراسلات، وتسايسه برأيك ومالك، وتصانعه في جميع أحوالك، ولا يجب عليك أن تدافعه بنفسك. وأن تكون لك جواسيس في بلاد العدو، ويرقبون أفعاله على البعد والدنو، وعيون تلاحظ أعماله، وتشاهد أحوالك لا يفارقونه ليلا ولا نهارا، يسألون عن أحوال العدو سرا وجهرا؛ فكلما رام هذا العدو خداعا، وأظهر فيك أطماعا، جاءت الجواسيس بأخباره، وما أكنه في بلاده من أسراره؛ فتأخذه في قوام مدافعته، إما بحيلتك أو بمصانعتك، وذلك بقدر حزمك وجدك وسياستك وكيدك؛ وذلك بأن تكتب كتابا إلى عدوك ووزرائه وخاصته وأهل رايته، تعدهم بإحضاء الأموال والزيادات الكثيرة من الأفضال، وتعاملهم بالتعطف والسياسة والتلطف، حتى تخدعهم بمالك، وتستميل قلوبهم بنوالك؛ فإن صحت معاملتك بإعطاء الأموال، وتلت بغيتك في كل الأحوال، سكنت عدوك من غلوه حططته من سموه. وإذا لم تقدر

على دفع عدوك بما ذكرناه، ولا تجد في خاصته من يقبل مأثورة، بل يرده ويأباه، فتحيل بوجوه الحيل، لتنال من عدوك غاية الأمل، وتأخذ بضروب من المخادعات.

ومنها أن تزوّر كتبا تعدها أجوبة، وتزخرفها بزخاريف معجبة، وتبدع في تزويرها، وتحسن في تصورها كأنها وردت عليك من خاصة عدوك، تظهر بها غاية سلوك؛ فتقرأها على خاصتك الأقربين، وتعلمهم أن خاصة عدوك في جنابك مجير، وأن خواص العدو قد كتبوا إليك بما يعود بالمنفعة عليك؛ فيشيع ذلك بين خواصك الأخيار، ويناولها أهل الحضرة الحظار. وفي هذا مكرة عجيبة، وحكمة بديعة غريبة؛ فإذا قرأت هذه الكتب المزورة على خاصتك بما أردت ودبرت من مصلحتك، أمرت بالجواب عليها بما يناسبها وينضاف إليها؛ منها أن تضمن لهم ما طلبوا في كتبهم، وتعين لهم ما عينوه من مطلبهم، ويضبطها كاتبك بأمارات كأنها حق عند السامع، وصدق وتفرع المسامع، وتبث هذه الكتب صحبة من يبلغها إلى العدو.

إذا رأيت عدوك الذي هو أقوى منك أراد التحرك عليك، والمبادرة إليك؛ وكان قليل السياسة، ضعيف الرياسة، مع كثرة جيشه وماله، وأمداده وأبطاله؛ فيرجى لك الظفر به، والنصر عليه، وذلك لعدم سياسته، وضعف عيلته، وسوء تدبيره)).

- ((إن كان لك معقل تلجأ إليه، لكنك ترجح التعويل عليه، ينبغي حينئذ تحصين معقلك الذي أعددته لحصرك، وتلجأ إليه في مهم أمرك، وأثاث جيشك، وأولادك وحماتك ورجالك، ثم تتسع لعدوك عن البلاد، بما عندك من الأجناد، خارجا عن طريقة ذلك، راكبا المهالك، قاصدا لبلاد العدو لتسكنه من الغلو، وتصده عن العتو. وذلك إذا قصد بلادك، وأراد قصرك ونكادك، فإنه يأتيك بجميع أحشاده وأنصاره، وإمداده وقواده، ويترك بلاده خالية من الحماة، ومعرضة للآفات؛ فتقصدها أنت لفرصة تنتهزها، أو وقيعة تنتجزها؛ فتفعل ذلك في بلاده، لتقابل ما فسد من بلادك، بمضادة من فساد بلاده. وفي ذلك مشقة على العدو القاصد، لما يلحق بلاده من المفاسد)).

- ((إن كان العدو صاحبك خرج، وترى أنك لا تقدر على ملاقاته، ولا قبل لك بجيوشه ولا ساقاته، وهو موازن لك في الدهاء والسياسة والآراء، ولم يقدم على بلادك بأجناده حتى حصن معاقل بلاده، حتى لا تجد فيه فرصة ولا نكاية توجب له غصة؛ فينبغي أن تخرج عن صوبه وطريقه، إلى أن ينزل معقلك، ويهم بتضييعك؛ فإذا نزل معقلك، فتحرك عليه، وآت جيوشه

قاصدا إليه؛ فما يمكن عدوك المذكور إلا ترحزحه عن معقلك المشهور، وقصده إلى بلادك وملاقاتك بمن معك من الجمهور؛ فإذا رحل العدو عن ذلك المعقل، اشتد أهله وانتعشوا، وأنسوا بالفترة بعدما استوحشوا، ووقعت الرجفة في جيش العدو، وسكن من ذلك العلو؛ فإذا صمم العدو للقائك قاصدا، ورحل إليك مواجها جاهدا، فترحل مرحلة من أمامه، تحل بها عقدة اعتزامه؛ فلا يزال ذلك كذلك، ترصده في وجوه المسالك، كل ما دنا منك العدو، وتعرفت مكانه، وأين هو، جعلت مسافة بينك وبينه، لا يقدر فيها على التوصل إليك، ولا أن يقاتلك، ويهجم عليك؛ فيضطرب العدو في أحواله، ويضعف في ترحاله، فلا يقدر على العودة إلى الحصار، فيتوقف بين الإقدام والفرار، وتضعف حينئذ حركته، وتنكسر شوكته، وتقل حدته، وتقل نجدته، وينكره جيشه، وينخفض عرشه، فما يرى أرجح من الرجوع إلى بلاده ليريح نفسه، ويحمل أجناده)).

- ((إن لم يرحل العدو عن معقلك الذي نزله، ولم يرد إلا نكايتك حين قدمت له؛ فينبغي لك أن تتحر من جملك وحماتك وأهل نصرتك وكفاتك، وتغير على أطراف محلته، ولا تترك من أتباعه من يتحرك في حيلته، فيكره مقامه، ويجنح إلى رحلته؛ فلا يزال ذلك دأبك مساء وصباحا، تضيق عليه المسالك، قتلا وكفاحا، فتمنع عنه القوافل، وترصد فرسانه في المخادع والمخاتل، حتى يصير محصورا، بعد أن كان حاصرا، ومقهورا بعد أن كان قاهرا، فتضيق حاله حينئذ بأجنادك، وتقل قوهم، فيضعف عن استبداده، ولا يتحصل بمراده، فتشتت عليه الأجناد، وتختلف عليه آراء القواد، وتضعف نجدة الأحشاد، فيرحل عن المعقل بغير اختياره)).

- ((إن كان العدو حين أتى مصمما، إلى معقلك قاصدا، أو إلى مجلسك ومنزلك متابعا لك ليلا ولا نهار، عاملا عليك سرا وجهرا؛ وكان العدو مثلك في الدهاء ونظيرك في الحزم والآراء؛ فيرجى لك أن تظفر به وإن كنت مطلوبا، وتغلبه وإن ظنك مغلوبا؛ فإن المطلوب يغلب الطالب حتما، ويستولي عليه رغما، لأن الفرض أن التابع أكثر جيشا وأثقالا، وأثقل حركة وانتقالا، وفي الجيش الكبير القوي والضعيف، والثقيل والخفيف، والطالب أبدأ على اختياره، والمطلوب لا يهتم إلا بفراره؛ فهو أقوى جَلدا وصبرا، فلا يأمن الطالب منه مكرا لا سيما في المواضع المعطشات، والمهامة المدهشات)).

- ((ب- أن يكون العدو أضعف منك، وكان ذا رأي وحزم وانتهاض وعزم، وله معاقل حصينة، وأماكن آمنة، ينحصر فيها ويمتنع، ويتأمن فيها وينقطع، فلا يقدر قائد من قوادك عليه، ولا أنت؛ فإذا قصدت بنفسك إليه إما لتحصين قلة الحصينة، وإما لركوبك المعطشات التي يبلغ بها تأمينه؛ فينبغي حينئذ أن تغزوه مرتين في السنة، ولا تغفل في يقظة ولا سنة، وذلك من زمن الصيف والخريف، وحين يستوي في حين الخيرات من بلاده، من كل تليد وطريف، فتستعد له الاستعداد التام، وتنهض له بالجد والاعتزام؛ فترحل إلى بلاده، فتأكل زرعهم في أول حصاده، وثماره في إبان جناها، وترلزلها في جميع أنحائها، حتى يضيق عليه كل التضييق، وتخرج الرعية عن طاعته بالتشتيت والتفريق، لعدم دفاعه عنهم، وإمكان جيشك منهم، ولخراب بلاده، وقلة جيشه وإعداده، فيضعف بعجزه عن الخروج إلى المعطشات، ولقلة صبره على المدهشات، فيسامه جيشك، ويزداد كربه ووحشته، وينكره خاصته الأقربون، ويعودون عليه بالربون، ولا يمتثل أحد من أتباعه، ولا يوافقه فيما جهر به وسره؛ فحينئذ تقصد إلى حصونه وبلاده، لقلة أعداده، وضعف أجناده، فتأخذ منها الأقرب فالأقرب. فكلما أخذت من حصون عدوك، زاد في قوتك وعلوك، واستعنت عليه بما أخذته من حصونه، وذلك زائد على ضعفه وهونه؛ فتستولي على مجابها وأموالها، وحماة البلاد ورجالها، فتضيق عليهم بأنواع التضييق، وتحاصره محاصرة القوي المضيق، لأنك استعنت ببلاده على بلاده، ثم تأخذ في البناء والتضييق عليه بكل وجه ترى أنك تصل به إليه؛ فتبني على كل برج من بروج معقله برجين، ثم لم يفتر عنه طرفة عين، ثم تشحن الأبراج بالرماة والرجال والآلات التي تحتاج للقتال، ثم تدير بمعقله الحفائر والمخادع التي تليق بالمحاصر، وتستعمل الدرقات والأنفاظ والمنجنيقات، وتستأصل الرمي على ذلك في كل الأوقات؛ فبالضرورة تأخذه عنوة، وتغلب عليه سطوة، ويسلم لك المعقل بالاضطرار، لشدة ما يلقى أهله من الحصار)).

ج- أن يكون العدو مساويا لك في جيشك، وبلادك، وحزمك، وجلادك، وكفايتك، وسياستك، ونجابتك، ورياستك؛ ينبغي لك أن تحاوله بالمصالحة والمهادنة والموالاة والمحاسبة؛ فتكون مصالحتك له من جملة المكائد، ومن الدهاء التي تبلغ المقاصد؛ لأن مصالحة العدو حتى تظفر به مكيدة، وتلك سياسة وكيد، وإن كانت عند الناس مذمومة، وبصفتها بالعدو موسومة؛

فهي عند الملوك محمودة، وآثارها مشهورة. ومع ذلك لا تأمن عدوك في مهادنة، ولا في موالاة، ولا في محاسنة)).

- ((المصالحة بين الملوك مكيدة، وهي عين المحاولة الوكيدة، والحركة الشديدة؛ فلتكن لعهودك يقظانا، وفي محاولته دهقانا)).

- ((أكثر لعدوك الهدايا، ونص على إرساله جزيل العطايا، وآنسه وواليه، وأكرمه وصافيه، وأظهر له الوداد، وابن له الإصفاء، ووال خاصته بالإكرام، وواليهم بجزيل الإنعام، وأظهر للعدو الشفوف عليك في الحال، حتى يظهر أنك تخافه، وأنه ظفر منك بالآمال، وأنك تماديه لأجل المخاف، وتواليه على وجه الاستعطاف.

وكذلك تكاتب خاصة عدوك الذين يوصلون الهدايا إليه، ليعلموك إذا رجعوا ما هو عليه، وما فعل في بلاده، وما خدث من زيادة في أجناده، وما درك من الخير بل الجيش في عامه، وما حدث من الحوادث في مدة مقامه، فتفعل أنت ما يقابل ذلك، وتزيد أضعافا علي ما هنالك، من حيث لا يكون للعدو بك شعور، ولا يعرف لك عند الخاصة ولا الجمهور)).

- ((لا تظهر زيادة بحضرتك، ولا تفش ذلك في امرتك، بل تعجل ذلك في البلاد التي لا تلي العدو، وهي عنه بعيدة، وذلك إذا فعلت من وجوه المكيدة؛ فلا تزال في زمن المهادنة تدرك الفرسان والأجناد، وتستعد لعدوك أتم الاستعداد.

وليكن اشتغالك بتوفير العدة وآلات الحرب، التي تكون منها النجدة والشدة، وكل ذلك بحيث لا يشعر العدو، ولا يعمل وجه تسببه، لأن العدو يكون آمنا من غائلتك، لأجل مهادنتك ومصالحتك، وعاملا على أحوالك، التي تفعلها في أقصى بلادك عن تدريكك، وبجملة أجنادك لا نظير لك، آخذا في مناصحته، مستمسكا بمهادنته ومصالحته، موافقا لجميع أغراضه واختياره، مؤثرا له على خاصته واختباره، وتلك مكيدة أدركتها، وخديعة حسنة دبرتها.

وفي أثناء هذا على عقد الأمر وحله، تكون عادتك، ضم جيشك للأعياد، تجمعهم من سائر البلاد، وتحصر قودك، والأجناد يعيدون لعيدك، ويمتثلون أمرك في وعدك ووعيدك)).

- ((في الأعياد تكون هداياك لعدوك، وفيها تظهر إقامتك وسموك، لتتعرف أحواله في أعياده، وما يزداد في أجناده وقواده يعلمونك إذا رجعوا إليك، حتى لا يخفى عليك شيء من حاله، وحتى يأنس العدو من العدو، ومن غوائلك، لحسن محاولتك وتراسلك؛ فإذا تحققت أن جيشك أكثر

من جيش عدوك، وأنجادك أكثر من أنجاده، ومدادك أوفر من إمداده، ورأيت فرصة فانتهزها، وافتح عليها وانتجزها؛ فإذا فعلت ذلك على حين غفلة، فيرجى لك الظفر به من أول وهلة، لأجل افتراق جيش عدوك في البلاد وطمأنينته بترك الاعتداء؛ فإنك إذا قبلت إليه لا يسعه إلا ملاقاتك إذا ظهرت له راياتك وساقاتك، فالغالب أنك تغلبه، وتظفر به وتنكبه، لأنك أكثر أهبة واستعدادا، وأقوى جيشا، وأوسع إمدادا، وإن لزم العدو موضعه، ولم يخرج إلى لقائك، لعدم وجدان جيشه هنالك؛ فينبغي لك أن تذهب إلى بلاده، وتسعى في شتاته وفساده، وتضعف بلاده غاية الضعف، وترهن أهلها بالغارات والزحف، وإن قدرت على أخذ ذلك العدو وحصاره، والنزول على بلاده وانتهاره، فلا تقصر على إنزالهم، والتضييق عليهم في محاله. وإن لم تقدر عليه، وترى أن أحواله تشتت، ونكاية عدوك تعثرت، فتأخذ أمنك بقدر الاجتهاد، وتعود قافلا إلى بلادك، بما معك من الأحشاد، ثم لم تزل تريد في جيشك ومردك وأعدادك، ولا تنفس عدوك ساعة، ولا تفتره حتى تأخذه وتظفر به وتقهره؛ فإن العدو لا يقدر على ملاقاتك، وتدافع عن نفسه خوفا من جيشك وساقاتك، بل يدخله الخوف والإرهاب والفشل في أحواله، والاضطراب لما يراه من فساد بلاده، وقل جيشه وقلة أحشاده؛ فإن كان حين سمع بحركتك إليه، أرسل إلى جيشه قبل أن تصمم عليه، وكان جيشه قريبا منه، بحيث لا ينفك عنه فيصلون إليه، قبل هجومك عليه، وقد استعد بجيشه للقائك، وقابلك بوجه أعدائك؛ فإن كان اللقاء بين حد بلادكما، وأظهرتما استعدادكما، فيرجى لك الظفر به، والغيلة عليه)).

الهوامش:

1- ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972م، ص: 49.

2- إيف لاكوست: العلامة ابن خلدون، ترجمة: ميشال سليمان، دار ابن خلدون، بيروت، ط1، 1974م، ص: 99، 100.

Pierre chaunu, (1969): L'expansion européenne du XIII siècle au XV siècle, P.U.F. Paris, pp: 104-106.

3- محمد عابد الجابري: العصبية والدولة، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط4، 1984م، ص: 21.

4- عز الدين العلام، الآداب السلطانية: دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي، عالم المعرفة، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 324، فبراير 2006م، ص: 9. كمال عبد اللطيف: في تشريح أصول الاستبداد: قراءة في نظام الآداب السلطانية، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1999م، ص: 8، 109، 110.

5- وداد القاضي: النظرية السياسية للسلطان أبي حمو الزياني الثاني، مجلة أبحاث، منشورات الجامعة الأمريكية، بيروت، 1987م، ع27.

6- أبو حمو الزياني: واسطة السلوك في سياسة الملوك، مخطوط بجامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم: 63ق، ص: 2.

7- عز الدين العلام، م. س، ص: 43، 44.

8- عن مختلف القراءات والمناهج الموظفة في دراسة كتب الأحكام السلطانية، يراجع: عز الدين العلام: م. س، صص: 10- 24. كمال عبد اللطيف: م. س، صص: 26- 40.

9- وهو ما قامت به وداد القاضي في مقالتها المذكورة سابقا.

10- وداد القاضي: م. س، ص: 78. كمال عبد اللطيف: م. س، ص: 100.

11- المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358هـ/1939م، ج1، ص: 249.

12- أبو حمو الزياني: م. س، صص: 92- 97.

13- نفسه، ص: 16.

14- عز الدين العلام، م. س، ص: 46. وعن الموروث الأخلاقي الفارسي واليوناني والعربي، يراجع: محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2006م، ص: 131 وما بعدها.

15- أبو حمو الزياني: م. س، صص: 97، 98.

16- ابن الأحمر: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تقديم وتحقيق وتعليق: هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1421هـ/2001م، ص: 77.

17- نفسه، ص: 80.

18- أبو حمو الزياني: م. س، صص: 22- 55.

19- عز الدين العلام، م. س، ص: 57، 231.

20- أبو حمو الزياني: م. س، ص: 55، 56.

21- نفسه، 4، ص: 22.

22 -Driss Ben Ali, (1983) Le Maroc précapitaliste: formation économique et sociale, Société Marocaine des éditeurs réunis, Rabat, pp: 157-165.

22- أبو حمو الزياني: م. س، ص: 11. عن هذه المعركة، انظر: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2000م، ج7، ص: 163، 164، 165. الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م، ج4، ص: 4، 5. ابن الأحمر: م. س، ص: 77، 78، 79.

23- أبو حمو الزياني: م. س، ص: 74 وما بعدها.

24- نفسه، ص: 85، 86.

25- نفسه، صص: 92- 97.

26- ابن الأحمر: م. س، ص: 77.

27- نفسه، ص: 80.

28- أبو حمو الزياني: م. س، ص: 51.

29- نفسه، ص: 23.

30- نفسه، ص: 23.

مدينة المنصورة الأثرية: ظروف نشأتها وعمرانها.

أ.د بالحاج معروف*

مقدمة: لقد أولى السلاطين المسلمون عناية خاصّة لتأسيس المدن منذ الفترات التاريخية الأولى لظهور الدين الإسلامي، فشيّدوا مدنا عديدة في كلّ المناطق التي فتحوها سواء في المشرق مثل البصرة والكوفة والفسطاط ...الخ، أو في بلاد المغرب الإسلامي مثل القيروان التي شيّدها عقبة بن نافع الفهري سنة 50هـ، وتيهرت التي بناها عبد الرحمن بن رستم سنة 160هـ، وقرطبة التي أقامها عبد الرحمن الداخل وفاس ورقادة والمهدية ومراكش وبجاية وغيرها من المدن الأخرى التي شهدت ازدهارا ونموا منقطع النظير حتّى صارت من الحواضر الإسلامية الكبرى، وقد حذا السلاطين المرينيون حذو أسلافهم فأسّسوا مدنا ضاهت ونافست المدن السابقة لها، وهكذا كانت مدينة المنصورة- التي لم يبق منها حاليا إلاّ الأطلال - بعد تأسيسها من بين أروع ما أنتجته الحضارة الإسلامية في مجال العمران ببلاد المغرب الإسلامي حسب ما ورد في المصادر التاريخية، وقد نشأت هذه المدينة في ظروف استثنائية، إلاّ أنّها تطوّرت في فترة زمنية قصيرة لتصبح قبلة التجار من المشرق والمغرب، وسنحاول هنا التعرّض إلى تلك الظروف الاستثنائية التي نشأت فيها المدينة وإلى عمرانها مع التطرق إلى أهمّ منشآتها المعمارية.

1 – ظروف تأسيس مدينة المنصورة: لم تكن نشأة مدينة المنصورة ضربا من الصدفة أو طفرة حضارية مجهولة السبب، ولكنها تأسّست في ظروف عصيبة واستثنائية وكان ظهورها خاضعا لعوامل وظروف أساسية منها:

أ – الحصار الطويل: بعد أن استعصت مدينة تلمسان الزيانية أمام الغارات التي كان يشنّها عليها أبو يعقوب يوسف المريني[1] وأسلافه لجأ السلطان المريني إلى وسيلة تجعل من مدينة تلمسان لقمة سائغة في يديه، فقرّر ضرب حصار طويل عليها ومنع أيّ تموين خارجي عنها حتّى تسقط،

* - أستاذ التعليم العالي في علم الآثار- قسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة تلمسان.

وذلك ببناء معسكر للجنود إلى جانبها، بحيث يسهر شخصيا على ديمومة الحصار واستمراره لفترة طويلة، ويتطوّر المعسكر مع إضافات المرافق الضرورية شيئا فشيئا إلى مدينة كبيرة محصّنة، وتتّفق جميع المصادر التاريخية على أنّ الحصار الطويل على تلمسان منذ 698 هـ/1299م إلى غاية 706هـ/1307م كان السبب الرئيسي لبناء المدينة.

ب – مناخ المنطقة: تتميّز مدينة تلمسان بمناخها القاري الذي يتّسم بالبرودة الشديدة والأمطار الغزيرة شتاء إضافة إلى تساقط كميات معتبرة من الثلوج، فلم يكن باستطاعة الجنود المرينيين المبيت لفترة طويلة تحت الفساطيط والخيام، وعليه أمر السلطان المريني أبو يعقوب يوسف جيشه حسب ما نقله ابن أبي زرع ببناء قصر له بمجرد حلول أوّل فصل للشتاء ثمّ شيّد مسجدا إلى جانبه، وتكملة لعمران المدينة تلاهما بناء المرافق العامّة.

2 – إستراتيجية اختيار الموقع: تقع مدينة المنصورة حاليا (اللوحة رقم: 1) على بعد 2 كلم غرب مدينة تلمسان، وعلى بعد نصف كلم من باب الخميس، ويحدّها من الشمال السكّة الحديدية التي تحاذي الأسوار، ومن الجنوب هضبة العطّار ومن الغرب مدرسة الزراعة، وتتربّع المدينة على مساحة تقدر بحوالي مائة هكتار تحدّدها الأسوار المشيّدة بالطابية، والتي تمتدّ على مسافة 4 كلم(الشكل رقم: 2). وقد تأسّست داخل الأسوار وفوق البقايا الأثرية سنة 1850م قرية المنصورة التي احتلت مساحة تقدر بحوالي 40 هكتار.

لقد اكتفى كلّ من يحيى بن خلدون وإسماعيل بن الأحمر بالإشارة فقط إلى موقع مدينة المنصورة، حيث ذكرا أنّها تقع بظاهر تلمسان[2] أي بغربها.

أ – التسمية: أشارت العديد من المصادر التاريخية إلى اسم المدينة التي أسّسها السلطان المريني أبو يعقوب يوسف، فقد أورد كلّ من ابن أبي زرع[3] وابن الأحمر[4] والتنسي[5] اسم "تلمسان الجديدة"، بينما ذكرت المصادر الأخرى[6] أنّ أبا يعقوب المريني سمّى مدينته الجديدة بالمنصورة تيمّنا وتبرّكا بالنصر، لكن ما يلفت الانتباه الاسم الآخر الذي نقله ابن أبي زرع وهو"المحلّة"[7].

ب – إستراتيجية اختيار الموقع: لقد أغفلت المصادر التاريخية جميعها عن تلك الإستراتيجية التي كان يتوخاها الأمير المريني في اختياره لهذا الموقع دون غيره، إذ من المعروف أنّ مؤسّسي المدن المشيّدة في بلاد المغرب الإسلامي مثل القيروان وتيهرت وفاس وبجاية قد اختاروا مواقعها وفق إستراتيجية معيّنة، فمدينة المنصورة لا تخرج إذاً عن القاعدة، فما هي الإستراتيجية التي اتّبعها

السلطان المريني أبو يعقوب في اختياره لموقع المنصورة؟ يمكن أن نتصوّر بعض الإستراتيجيات التي على أساسها بنيت المدينة المرينية ونجملها فيما يلي:

أ – لقد اختار أبو يعقوب هذا الموقع نظرا لقربه من عاصمة دولته فاس، فيصبح خط الرجعة آمنا بالنسبة إليه وجيشه في حالة الإخفاق العسكري، كما كان يتوخى اتّقاء ظهره من ضربات الأعداء المفاجئة، لا سيّما بعد سيطرته الكاملة على القبائل والمدن التابعة للحكم الزياني في تلك الجهة.

ب – لم يكن أبو يعقوب يفكّر في بناء مدينته الجديدة بعيدا عن تلمسان، وذلك لمعرفته الدقيقة لمكانة هذه المدينة المتميّزة والمرموقة في التجارة العالمية، بسبب وقوعها وسط شبكة المسالك والطرق التجارية الكبرى، وإنّما كان يهدف في حقيقة الأمر إلى شلّ حركة تلمسان وإغلاق كلّ المنافذ عليها، ومن ثمّ الارتقاء بمدينته الجديدة لتتبوّء مكانتها في مجال التجارة.

جـ – عدم ملاءمة المواقع الأخرى المتاخمة لتلمسان، فالجهة الشرقية تعرّض الجيوش المرينية إلى المباغتة من قبل الحفصيين الذين كانوا يسيطرون على الجهة الشرقية للمملكة الزيانية، وأمّا الجهة الجنوبية فهي منطقة جبلية لا تليق لإقامة مدينة كبيرة، وأمّا الجهة الشمالية فعبارة عن منخفض تطل عليه مدينة تلمسان، وعليه فالجهة الغربية كانت الأنسب لتشييد المدينة.

3 – نشأة المدينة وعمرانها: بعد استقراء المصادر التاريخية تأكّدنا أنّ مدينة المنصورة شيّدت خلال مرحلتين تاريخيتين مختلفتين، فأمّا الأولى فكانت في عهد السلطان المريني أبي يعقوب يوسف، وأمّا الثانية فكانت في عهد حفيده أبي الحسن المريني، وفي ظرف زمني قصير انتقلت هذه المدينة حسب شهادة عبد الرحمن بن خلدون من مجرّد معسكر إلى مدينة تضاهي الحواضر الإسلامية المعاصرة لها لاتّساع رقعتها وانتشار عمرانها وازدهار تجارتها، فصارت قبلة للتجار ورسل مصر والشام وبني حفص[8].

أ – المرحلة الأولى: يتّفق كلّ المؤرّخين القدماء على أنّ بداية تأسيس مدينة المنصورة كان سنة 698هـ/1299م[9]، باستثناء السلاوي صاحب كتاب الاستقصاء، الذي يقدّم سنة 702هـ/1303م كتاريخ لوضع الأسس الأولى للمدينة[10]، في حين يرد هذا التاريخ في المصادر التاريخية الأخرى لتعيين تاريخ الانتهاء من بناء المدينة.

اغتنم السلطان المريني أبو يعقوب يوسف فرصة غياب السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن عن عاصمته تلمسان في مهمّة لتأديب القبائل التي ساعدت المرينيين في حصارهم السابق لتلمسان، وذلك بغية القيام بغارة جديدة عليها بحيث تكون حاسمة وتنهي صمود تلك المدينة التي طالما استعصت عليه.

أرسل أبو يعقوب إلى أخيه يحيى الذي كان عاملا على وجدة طالبا منه السير نحو ندرومة وتاونت للاستيلاء عليهما، فتمّ له ذلك وضمّهما إلى أملاك المرينيين، وبناء على خبر الانتصار سار أبو يعقوب على رأس جيشه نحو المغرب الأوسط وفي طريقه انضم إليه أخوه يحيى، واتّجها سويا صوب العاصمة الزيانية، وقبل وصولهما إليها علم عثمان بن يغمراسن بخبرهما فرجع مسرعا لنجدة مدينته، ووصل بنو مرين إلى ضواحي تلمسان في شعبان من سنة698هـ[11]/ ماي 1299م.

حطّ أبو يعقوب رحاله بمكان غرب مدينة تلمسان يدعى مشجر بن الصقيل[12] وطوّق المدينة من جميع الجهات ضاربا الحصار عليها، ويشير عبد الرحمن بن خلدون إلى أنّه أحاطها بسياج من الأسوار فتح فيها أبوابا ومداخل لحربها، وأردفه بخندق عميق[13]. لا شك أنّ هذه الترتيبات والتحصينات التي أقامها أبو يعقوب تدخل ضمن الإستراتيجية والتكتيك الحربي، فهدفه من بناء الأسوار في الجهة الغربية من تلمسان هو من دون شك حماية المدينة الجديدة التي ينوي الشروع في بنائها.

إنّ من عادة بناة المدن الإسلامية التخطيط أوّلا لبناء المسجد الجامع ثمّ يليها بناء المنشآت المعمارية الأخرى سواء الرسمية منها كدار الإمارة والقصر ودار السكة وغيرها أو المرافق العامّة كالحمّامات والفنادق والمستشفيات والأسواق[14]، إلاّ أنّ ما حدث في مدينة المنصورة شذّ عن هذه القاعدة، إذ أنّ أوّل ما أمر أبو يعقوب يوسف ببنائه كان القصر الذي أقيم بموضع الفساطيط، ولّما انتهى من القصر أقام إلى جانبه مسجدا لأداء الصلوات الخمس، ثمّ أحاطهما بسور[15].

بإمكاننا طرح تساؤل عن مغزى تشييد القصر قبل المنشآت المعمارية الأخرى وبالخصوص قبل المسجد الجامع، لقد علّل ابن أبي زرع تصرّف السلطان المريني بقوله: "إلى أن دخل فصل الشتاء، فابتدأ أمير المؤمنين ببناء قصره"، فالغاية إذاً من الابتداء بالقصر كانت من دون شك الاحتماء من الأمطار الغزيرة وبرودة وقساوة الجو والطبيعة التي تمتاز بها المنطقة في فصل الشتاء،

اغتنم السلطان المريني أبو يعقوب يوسف فرصة غياب السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن عن عاصمته تلمسان في مهمّة لتأديب القبائل التي ساعدت المرينيين في حصارهم السابق لتلمسان، وذلك بغية القيام بغارة جديدة عليها بحيث تكون حاسمة وتنهي صمود تلك المدينة التي طالما استعصت عليه.

أرسل أبو يعقوب إلى أخيه يحيى الذي كان عاملا على وجدة طالبا منه السير نحو ندرومة وتاونت للاستيلاء عليهما، فتمّ له ذلك وضمّهما إلى أملاك المرينيين، وبناء على خبر الانتصار سار أبو يعقوب على رأس جيشه نحو المغرب الأوسط وفي طريقه انضم إليه أخوه يحيى، واتّجها سويا صوب العاصمة الزيانية، وقبل وصولهما إليها علم عثمان بن يغمراسن بخبرهما فرجع مسرعا لنجدة مدينته، ووصل بنو مرين إلى ضواحي تلمسان في شعبان من سنة698هـ[11]/ ماي 1299م.

حطّ أبو يعقوب رحاله بمكان غرب مدينة تلمسان يدعى مشجر بن الصقيل[12] وطوّق المدينة من جميع الجهات ضاربا الحصار عليها، ويشير عبد الرحمن بن خلدون إلى أنّه أحاطها بسياج من الأسوار فتح فيها أبوابا ومداخل لحربها، وأردفه بخندق عميق[13]. لا شك أنّ هذه الترتيبات والتحصينات التي أقامها أبو يعقوب تدخل ضمن الإستراتيجية والتكتيك الحربي. فهدفه من بناء الأسوار في الجهة الغربية من تلمسان هو من دون شك حماية المدينة الجديدة التي ينوي الشروع في بنائها.

إنّ من عادة بناة المدن الإسلامية التخطيط أوّلا لبناء المسجد الجامع ثمّ يليها بناء المنشآت المعمارية الأخرى سواء الرسمية منها كدار الإمارة والقصر ودار السكة وغيرها أو المرافق العامّة كالحمّامات والفنادق والمستشفيات والأسواق[14]، إلاّ أنّ ما حدث في مدينة المنصورة شذّ عن هذه القاعدة، إذ أنّ أوّل ما أمر أبو يعقوب يوسف ببنائه كان القصر الذي أقيم بموضع الفساطيط، ولّما انتهى من القصر أقام إلى جانبه مسجدا لأداء الصلوات الخمس، ثمّ أحاطهما بسور[15].

بإمكاننا طرح تساؤل عن مغزى تشييد القصر قبل المنشآت المعمارية الأخرى وبالخصوص قبل المسجد الجامع، لقد علّل ابن أبي زرع تصرّف السلطان المريني بقوله: "إلى أن دخل فصل الشتاء، فابتدأ أمير المؤمنين ببناء قصره"، فالغاية إذاً من الابتداء بالقصر كانت من دون شك الاحتماء من الأمطار الغزيرة وبرودة وقساوة الجو والطبيعة التي تمتاز بها المنطقة في فصل الشتاء،

اغتنم السلطان المريني أبو يعقوب يوسف فرصة غياب السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن عن عاصمته تلمسان في مهمّة لتأديب القبائل التي ساعدت المرينيين في حصارهم السابق لتلمسان، وذلك بغية القيام بغارة جديدة عليها بحيث تكون حاسمة وتنهي صمود تلك المدينة التي طالما استعصت عليه.

أرسل أبو يعقوب إلى أخيه يحيى الذي كان عاملا على وجدة طالبا منه السير نحو ندرومة وتاونت للاستيلاء عليهما، فتمّ له ذلك وضمّهما إلى أملاك المرينيين، وبناء على خبر الانتصار سار أبو يعقوب على رأس جيشه نحو المغرب الأوسط وفي طريقه انضم إليه أخوه يحيى، واتّجها سويا صوب العاصمة الزيانية، وقبل وصولهما إليها علم عثمان بن يغمراسن بخبرهما فرجع مسرعا لنجدة مدينته، ووصل بنو مرين إلى ضواحي تلمسان في شعبان من سنة698هـ[11]/ ماي 1299م.

حطّ أبو يعقوب رحاله بمكان غرب مدينة تلمسان يدعى مشجر بن الصقيل[12] وطوّق المدينة من جميع الجهات ضاربا الحصار عليها، ويشير عبد الرحمن بن خلدون إلى أنّه أحاطها بسياج من الأسوار فتح فيها أبوابا ومداخل لحربها، وأردفه بخندق عميق[13]. لا شك أنّ هذه الترتيبات والتحصينات التي أقامها أبو يعقوب تدخل ضمن الإستراتيجية والتكتيك الحربي. فهدفه من بناء الأسوار في الجهة الغربية من تلمسان هو من دون شك حماية المدينة الجديدة التي ينوي الشروع في بنائها.

إنّ من عادة بناة المدن الإسلامية التخطيط أوّلا لبناء المسجد الجامع ثمّ يليها بناء المنشآت المعمارية الأخرى سواء الرسمية منها كدار الإمارة والقصر ودار السكة وغيرها أو المرافق العامّة كالحمّامات والفنادق والمستشفيات والأسواق[14]، إلاّ أنّ ما حدث في مدينة المنصورة شذّ عن هذه القاعدة، إذ أنّ أوّل ما أمر أبو يعقوب يوسف ببنائه كان القصر الذي أقيم بموضع الفساطيط، ولمّا انتهى من القصر أقام إلى جانبه مسجدا لأداء الصلوات الخمس، ثمّ أحاطهما بسور[15].

بإمكاننا طرح تساؤل عن مغزى تشييد القصر قبل المنشآت المعمارية الأخرى وبالخصوص قبل المسجد الجامع، لقد علّل ابن أبي زرع تصرّف السلطان المريني بقوله: "إلى أن دخل فصل الشتاء، فابتدأ أمير المؤمنين ببناء قصره". فالغاية إذاً من الابتداء بالقصر كانت من دون شك الاحتماء من الأمطار الغزيرة وبرودة وقساوة الجو والطبيعة التي تمتاز بها المنطقة في فصل الشتاء،

حيث أنّ فساطيط السلطان المريني وخيم الجنود لا يمكنها الصمود في ظل هذه الظروف الصعبة، وبالتالي لن تسمح له من الوصول إلى هدفه المنشود، لاسيّما أنّه كان عاقدا العزم هذه المرّة على اقتحام تلمسان المستعصية.

بعد أن بنى أبو يعقوب قصره والمسجد المحاذي له، أمر الناس بالبناء من حواليهما، فشرعوا في تشييد منازلهم ودورهم، واتّخذوا البساتين، وجلبوا المياه الضرورية للحياة من الينابيع عبر القنوات والسواقي[16].

وقد أولى أبو يعقوب عناية للمرافق العامّة الضرورية للحياة فابتنى الحمّامات التي كانت مكانا يلجأ إليه الناس في كلّ أسبوع على الأقل للاستحمام وإزالة ما علق على أجسادهم من الأوساخ[17]، إضافة إلى أنّ الدين الإسلامي الحنيف يدعو ويحثّ المسلمين على طهارة البدن للقيام بالعبادات، ثمّ رافق ذلك بمجموعة من المنشآت المعمارية العامّة الأخرى كالفنادق التي عادة ما تكون بالقرب من المداخل الرئيسية للمدينة، والأسواق التي لا يمكن الاستغناء عنها في المدينة، فبواسطتها تتمّ التبادلات التجارية، بحيث تتبادل سلع الريف بسلع المدينة.

وممّا يدل على اهتمام الأمير أبي يعقوب ومبالغته في إعداد مدينته الجديدة إعدادا يليق بمقامه ومقام دولته إنشاؤه لبيماريستان (المستشفى) لمداواة المرضى وجرحى الحروب، ولا شك أنّه جعل فيه من الشروط المناسبة بما يساعد على شفاء المرضى لاسيما الجنود وتحسين عالتهم الصحية.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّه لم يتسنّ لنا تحديد مواقع هذه المنشآت في مدينة أبي يعقوب وذلك نظرا لسببين رئيسيين هما:

– إنّ المصادر التاريخية التي أوردت المعلومات حول هذه المدينة لم تشر بتاتا إلى موضع أي منشأة معمارية مهما كانت أهمّيتها، ففي العادة يتمّ تحديد موضعها بالنسبة للمدينة ككل أو بالنسبة لمعلم ذي أهمية مثل المسجد الجامع أو مدخل من مداخل المدينة.

– إنّ مدينة أبي يعقوب تمّ تخريبها من قبل الزيانيين بعد رحيل المرينيين منها نحو المغرب الأقصى إثر وفاة أميرهم أبي يعقوب يوسف سنة 706هـ/1307م[18].

بعد أن انتهى السلطان المريني من تشييد المرافق العامّة التي تحتاج إليها المدينة سنة 703هـ/1303م، شرع في تطويق مدينته بسور ضخم[19]. إنّ ما يمكن ملاحظته عند الاعتماد على

الترتيب الوصفي الذي أورده عبد الرحمن بن خلدون في كتابه العبر[20]، والذي يعدّ في نظرنا المصدر الوحيد الذي قدّم لنا وصفا شافيا وكافيا عن مدينة المنصورة مقارنة بالمصادر الأخرى, أنّ الأمير المريني لم يفكّر في بناء المسجد الأعظم داخل مدينته الجديدة، إلاّ بعد إحاطتها كلّيا بسور.

لقد أشارت المصادر التاريخية بالفعل إلى بناء المسجد الأعظم (الشكل رقم: 4 و5)، إلاّ أنّها لم تذكر أنّ هذا المبنى لم يكتمل في عهد أبي يعقوب بل انتهي منه في عهد أبي الحسن المريني ونستند في ذلك إلى أمرين:

– أوّلهما أنّ الشريط الكتابي الذي يتوّج واجهة مدخل المئذنة (اللوحة رقم:3)، يحمل نصا ينعت فيه السلطان أبو يعقوب بلفظ "المرحوم"[21]، ممّا يدل على أنّ الانتهاء من إنشائها كان بعد وفاته، حيث رحل المرينيون إلى موطنهم فاس ولم يحاولوا الاستيلاء على تلمسان مرّة أخرى سوى في عهد أبي الحسن.

– ثانيهما أنّ المسجد الأعظم بشهادة ابن مرزوق الحفيد لم يتم بناؤه إلاّ في عهد أبي الحسن المريني[22]، حيث كانت الظروف ملائمة جدّاَ، إذ أنّه تمكّن من السيطرة على مدينة تلمسان، فكيف بسلفه أن يتمّم البناء وهو محاصرا لها؟.

ب – المرحلة الثانية: بعد أن قضى أبو الحسن على أخيه المنافس له سنة 734هـ/1333م وانفرد بالملك، اتّجهت أنظاره نحو تلمسان إثر خروج سلطانها أبي تاشفين إلى أعمال الحفصيين، فجمع جيشه قاصدا تلمسان وفي طريقه استولى على ندرومة وهنين ووهران، ثمّ حطّ رحاله بغرب تلمسان في شوال سنة 735 هـ/1334م[23]، حيث مدينة جدّه المنصورة المخرّبة التي ابتنى فيها قصرا له، ثمّ أحاط المدينة بسور وأتبعه بخندق[24] وذلك أثناء محاصرته مدّة سنتين لتلمسان التي استولى عليها سنة 737هـ/1337م، وبقي فيها مدّة أحد عشر عاما.

يشير ابن مرزوق إلى أنّ مدينة المنصورة في أيّام أبي الحسن المريني كانت ذات خصائص متميّزة من الناحية المعمارية، ولا سيّما قصر السلطان ومسكن الإمام. وأمّا جامعها فيضعه في المرتبة الثانية بعد جامع قرطبة من حيث حسن التخطيط وجمال الشكل وروعة الزخرفة والتنميق، كما يقارنه بجامع الكتبيين بمراكش، ويرى أنّه يفوقه فخامة لما يحتويه من رخام مجزّع دقيق الصنع، ومنبر يشتمل على زخارف دقيقة وصغيرة الحجم بقدر البندق والحمص، وبالنسبة لمئذنة الجامع فيعتبرها حسب ما نقله إليه الرحالة والمتجوّلون فريدة في نوعها في العالم الإسلامي[25].

كما اشتملت المدينة على مجموعة من المساجد التي أعطانا ابن مرزوق أمثلة منها كالمساجد التي كانت تحاذي باب الحجاز وباب فاس وباب هنين[26].

ويواصل ابن مرزوق حديثه عن المنصورة فيشير إلى بعض المنشآت المعمارية العامّة كالمدرسة المجاورة للجامع، كما لم يغفل من وصف وسائل الري المستخدمة في المدينة من قنوات وسواقي الناقلة للمياه[27].

إنّ معلوماتنا عن أحياء مدينة المنصورة منعدمة، إذ لم يرد لها ذكرا في المصادر التاريخية، كما لم تجر فيها تنقيبات أثرية واسعة بحيث يمكن من خلالها توضيح حقائق وأشياء كثيرة وإزالة الغموض الذي ما زال ينتاب العديد من المنشآت المعمارية المشكّلة للمدينة المرينية، ومن المعلوم أنّ الأحياء في المدينة الإسلامية تصنّف في أغلب الأحيان على أسس مختلفة، كأن تكون حسب القبائل المكوّنة للمجتمع أو أن تكون حسب فئات الموظّفين، كما يمكن أن تقسّم الأحياء على حسب الفئات الحرفية[28].

وتعوزنا المعلومات حول قصبة المدينة، وباعتبار أنّ المنصورة مدينة عسكرية، فمن الضروري أن تشمل على قصبة تحتل موقعا مرتفعا بحيث تشرف على المدينة.

الخاتمة: لقد نشأت مدينة المنصورة في ظروف استثنائية صعبة، فانتقلت في ظرف زمني قصير من مجرّد معسكر للجنود يضرب حصارا على مدينة تلمسان إلى مدينة مزدهرة عامرة يقصدها التجار، وقد كانت مشتملة على كلّ المرافق الضرورية للحياة، ولم يخرج مؤسّسها عن القواعد المعروفة في تأسيس المدن الإسلامية إلاّ في الابتداء ببناء القصر بدلا من المسجد الجامع، وكان ذلك بسبب الظروف التي كانت تحيط بالمؤسّس.

الشكل رقم 1: خريطة تبيّن موقع المنصورة
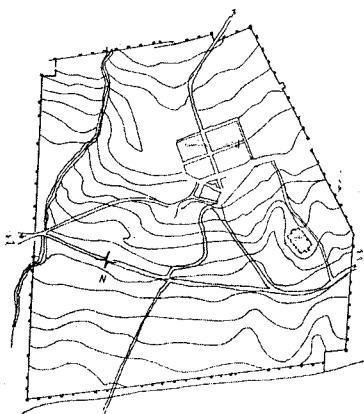
الشكل رقم 2: مخطّط مدينة المنصورة
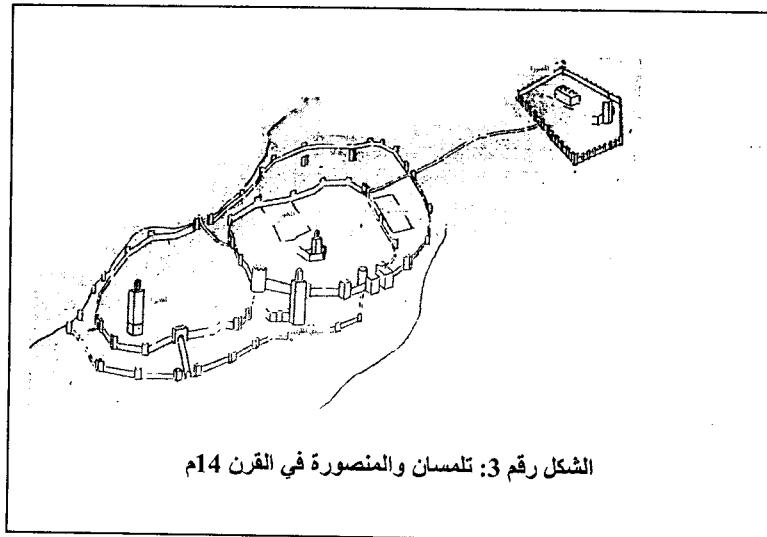
الشكل رقم 3: تلمسان والمنصورة في القرن 14م

الشكل رقم 4: مخطط أفقي لبقايا جامع المنصورة

الشكل رقم 5 : مخطط تصوري لجامع المنصور

اللوحة رقم 1: منظر عام لمدينة المنصورة عن/ Google eart

اللوحة رقم 2: بعض أطلال مدينة المنصورة
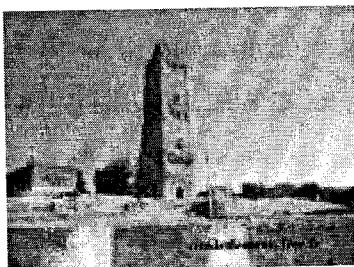
اللوحة رقم 3: أطلال الجامع ومئذنته الشامخة

هوامش البحث

1- قام السلطان المريني أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق بعدة محاولات للظفر بمدينة الزيانيين وبالتالي القضاء على دولتهم، وكان ذلك في السنوات 689 هـ/ 1290م، و695 هـ/ 1296م، و696 هـ/ 1297م، و697 هـ/ 1298م. ينظر عبد الرحمن بن خلدون،، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج: 7، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1968، ص: 195.

2- يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج: 1، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص:210.

3- علي بن محمد (ابن أبي زرع)،الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، د.ت، ص:367.

4- أبو الوليد (ابن الأحمر)، روضة النسرين في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، 1962، ص:50.

5- أبو عبد الله التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، رسالة دكتوراه الدرجة الثالثة، 1975م، ص:199.

6- ينظر عبد ال حمن بن خلدون، المصدر السابق، ص:459. ويحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص:210. وأبو العباس أحمد السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج:3، ص: 79.

7- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 367.

8- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، مج:7، ص: 459.

9- ينظر يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص:209. وعلي بن محمد بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، د.ت، ص:367, وأبو الوليد ابن الأحمر، روضة النسرين، ص:

التصوف العرفاني السني عند محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ/1489م)

د. الطاهر بونابي*

مقدمة: نشأ محمد بن يوسف السنوسي ت 895هـ/1489م في بيت صوفي شريف، فأبوه يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي، كان زاهداً ومتعبدا وأمه حسنيه من الأشراف، درس في صغره عن أبيه عن الشيخ نصر الزواوي، وأخذ القراءات السبع للقرآن عن الشريف أبي الحجاج يوسف بن أبي العباس، والفقه ممثلا في مدونة سحنون عن الفقيه محمد بن إدريس بن عيسى المغيلي، ورسالة بن أبي زيد القيرواني عن أخيه على التالوتي والحديث عن عبد الرحمن الثعالبي، والفرائض والحساب عن محمد بن قاسم بن تونرت الصنهاجي، والاسطرلاب عن أبي عبد الله بن محمد بن الحباك، وعلم الأصول وجمل الخونجي عن أبي عبد الله محمد بن العباس العابدي، والتوحيد عن أبي القاسم المكناسي(1).

لذلك سمح له هذا التكوين المتنوع أن يخوض في علوم كثيرة، كان أبرزها علم الكلام والعقائد والتصوف، والتي بات من العسير الفصل بين مسائلها في مقاله الفلسفي والعقدي والصوفي المبثوثة في مؤلفاته العقدية، وردوده الفقهية، منها: «شرحه لأسماء الله الحسنى»، وفي رده على أبي الحسن الصغير في «نصرة الفقير»، فضلاً على أفكاره العرفانية في مخطوط «المواهب القدسية في المناقب السنوسية» لتلميذه محمد بن عمر الملالي ت 10هـ/16م، وما استدركه أحمد بابا التنبكتي ت 1036هـ/1627م، بعد ذلك أيضا في مخطوطة «اللآلىء السندسية في الفضائل السنوسية»، وهي كلها نصوص تكشف عن طبيعة تصوف التوحيد العرفاني عند السنوسي في صورته الكاملة(2).

---

*- أستاذ محاضر أ في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة محمد بوضياف- المسيلة.

فما هي المؤثرات الصوفية والعقلية التي أثرت في منحاه الفلسفي والعقدي والصوفي؟ وكيف اتخذها اطارا في صياغة منحاه في التصوف العرفاني السني؟

1- المؤثرات الصوفية والعقلية في تكوين السنوسي: كشف السنوسي عن انتمائه لأولياء المقامات والتوحيد العرفاني في قوله: «ونحن بالنسبة لهذا المقام، مقام أولياء الله تعالى وخاصة حضرته على ساحل التمني نغترف من بحر التوحيد والعرفان، الذي خاضوا لجته وغابوا فيه بقدر الإمكان»[3]، وبهذا الاعتراف يكون السنوسي قد كفى الباحثين مؤونة البحث في اسكتشاف وجهته الصوفية، لكن السؤال الجدير بالتقصي يتمحور حول الإحاطة بالمصادر والمؤثرات التي نهل منها السنوسي في تكوين أطروحته في تصوف التوحيد العرفاني السني؟ والتي وردت في نصوص التاريخ والتراجم والمناقب والعقائد متعددة المشارب منها، ما يخص تأثره بأمهات المصادر والمدارس الصوفية في المشرق، ومنها ما هو متعلق بالمؤثرات العقلية والصوفية العائدة إلى عصر الموحدين، فضلا على تأثره بمناخ العرفان السني الذي ساد مدينة تلمسان منذ أوائل القرن الثامن الهجري، وصار يمثل هوية هذه المدينة.

فعلى مستوى المصادر والمدارس الصوفية المشرقية، أظهرت الكتابة الصوفية عند السنوسي أنه عاد بالفكر العرفاني السني إلى منابعه الصافية، أي إلى كل من مدرسة أبي القاسم الجنيد تـ 298هـ/911م في التوحيد والمجاهدات والذكر والتدرج نحو مقام الرضا، والإقرار بالفرق في مقام الجمع، وبالسكر مع الصحو والفناء مع البقاء، ومدرسة أبي حامد الغزالي تـ 505هـ/1111م في المجاهادات والذكر والتوفيق بين الحقيقة والشريعة، وفي توبيخ النفس من خلال كتابيه «توبيخ النفس من إحياء علوم الدين»[4]، و«نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير»، الذي شدد فيه على حتمية التلازم بين الحقيقة والشريعة معتبرًا أن سلوك الطريق القويم بدون أحدهما زندقة، وركز على المعرفة كنور وحكمة في صدور العلماء، وعلى الذكر الذي يشهد للذاكر بإفراد الإيمان لله وحده ويضفي بالقلب إلى الفراغ من التعلق بشيء إلا الله والتوكل عليه دون سواه[5]، وهذا ما جعل تلميذه محمد بن عمر الملالي تـ ق10 يقول أن شيخه السنوسي كان على طريقة الغزالي[6].

ويعكس منحاه في التأصيل للتصوف العرفاني السني اختصاره وشرحه لثلاثة أعمال صوفية مشرقية هي: اختصاره لرعاية المحاسبة، وشرحه لبغية السالك في أشرف المسالك للساحلي، وأبيات الإمام أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري في التصوف(7).

كما كان كتاب «مفتاح الفلاح» لابن عطاء الله السكندري تـ 709هـ/1309م من مقروءاته الدائمة(8)، فقد تأثر به في قضايا استهداف مقام الرضا(9)، واستشعار الحقيقة الإلهية وصدق العبودية والقيام بحقوق الربوبية بوصفها مطلب العارف من الله تعالى(10)، وفي فكرة الزهد(11)، والجمع بين البسط والقبض(12)، والشهود والفناء(13)، واعتبار الذكر طريقًا لتحقيق ذوق التوحيد والطمأنينة واليقين والحضور والغيبة، والشكر واسقاط التدبير(14).

وفيما يخص تأثير الإنتاج العقلي والصوفي لأساطين الفكر الصوفي خلال عصر الموحدين، فقد كان قويًا في تجربة السنوسي، وفي أقرانه من التلمسانيين خلال القرن التاسع الهجري/15م.

ومن القرائن في هذا المضمار اهتمام التلمسانيين بمرشدة المهدي بن تومرت تـ 524هـ/1118م والتبرك بقراءتها لقول الصوفي أبي عبد الله محمد بن أبي العباس النقاش : «رأيت العقيدة المعروفة بالمرشدة المنسوبة إلى الإمام المهدي رحمه الله، كثيرا ما يستعملها أهل الفضل من الصوفية ويقرؤونها على جهة التبرك في أذكارهم، وقد تشوف بعضهم إلى بسط ألفاظها وشرح معانيها»(15)، ومن هؤلاء محمد السنوسي وذلك لما تتضمنه من عبارات التذكير بأمور التوحيد وبقدرة الله على كل أمر وعظمته في كل شيء(16)، ثم إنها تمثل التفكير الأشعري السّنيّ، الذي يعتبر المذهب الأشعري همزة الوصل بين الفكر التومورتي وفقهاء المالكية الذين لم يشجبوا فكرة ابن تومرت وعقيدته تعد انتصارا للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية(17)، لقول عبد الرحمان بن خلدون «لم يحفظ عنه -بن تومرت- فلتة من البدعة إلا ما كان من وفاقه الإمامية من الشيعة في القول بالإمام المعصوم»(18).

فضلا على تشديد بن تومرت فيها على وجوب الشيخ في طريق التربية، فكانت بذلك سند السنوسي في السجال الذي دار في عصره حول هل يصح اتخاذ الشيخ في طريق التصوف أو عدم اتخاذه أو الاكتفاء بالكتب المدونة؟

وإلى جانب المرشدة كانت كتب التوحيد في عصر السنوسي الأكثر قراءة في حلقات الذكر، لقول الونشريسي: «وفيها يقرؤون بعض ما ألف في توحيد الله تعالى، معانيه كلها واضحة لائحة»[19].

ومن أكثر هذه المؤلفات تأثيرا كتاب «الإرشاد في علم الاعتقاد» لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني الشافعي الذي اعتبره ابن صعد التلمساني تـ 901هـ/1469م مدونة علم التوحيد التي صارت لا غنى عنها في حلقات الذكر وميعاد الدرس بتلمسان، واستعاض في وصفه لأهمية هذا المؤلف بقول أحد الفقهاء[20] (الكامل):

مَـن كَانَ مُعتنيًا بذكرِ مَعَـادِ ومعيدهُ فَعَليـه بالإرشَـاد

وليَحتَـرِس بِسَبِيلـه ودَليلـه مـن ظُلمة التَشكيك والإلحَـاد

عَـول عَليهِ تَزَيَنًا فكَفَـى بـه ذخـرًا ليـوم تُجمـعُ الأَشهَاد

وقد أخذ السنوسي هذا المؤلف عن عن الصوفي أبي القاسم الكنباشي التلمساني[21]، ومن هنا اعتبر السنوسي التوحيد، أحد الطرق الموصلة إلى إدراك الحقائق الإلهية[22]، من خلال المعرفة العقلية لأسماء الله الحسنى والتي تعد أساس المعرفة الذوقية التي تتحقق بواسطة الذكر، ولذلك انصب اهتمامه في تأليف عدد من العقائد مثل عقيدته الكبرى المسماة بعقيدة أهل التوحيد التي شرحها تحت اسم «عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد»، وكذا عقيدته الوسطى وهي دون الكبرى[23]، لكن أهم هذه العقائد كلها، عقيدته الصغرى التي وضعها في شرح موسوم بـ «أم البراهين»، وفيها بسط من شرح كلمة «لا الله إلا الله محمد رسول الله» وبين فوائدها التي تحصل لذاكرها في قوله: «إعلم أن المواظبة على ذكر هذه الكلمة المشرفة... تحصل فوائد كثيرة منها، ما يرجع إلى محاسن الأخلاق الدينية ومنها ما يرجع إلى الكرامات والخوارق»[24]، أضف إلى ذلك اعتناءَهُ بـ «شرح أسماء الله الحسني» في كتيب[25] أظهر فيه منحاه في طريق القوم، وفيه يأتي بتفسير كل اسم من أسماء الله الحسنى ويبين حظوظ العبد من هذه الأسماء لتحقيق غايتين أساسيتين هما التَعلقُ والتَخلقُ[26].

وزاد في تأثره بإرشاد أبي المعالي انتفاعه من الشروحات الثلاثة التي أنجزها ابراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق المعروف بابن المرأة تـ 610هـ/1214م[27]، والتي قام السنوسي بدوره بتلخيصها وتأثر بها في كتاباته، خصوصا في فكرة المعرفة الرسمية المفضية إلى الإخلاص في سائر

الأعمال الربوبية وإنارة العقل بعلم أصول الدين والعلم بأحكام الشريعة وكذلك في القضايا المتعلقة بالشروط الواجب توفرها في الولي والأحوال التي تطرأ عليه والمقامات التي يعبرها متدرجا نحو مرتبة الجمع والفرق، ونقلها إلى طلبته بتلمسان، والتي ترتكز على أربعة محاور هي:

أولا: العلم بأصول الدين كي يفرق بين الخلق والخالق وبين النبي ومدعي النبوة.

ثانيا: العلم بأحكام الشريعة نقلا وفهما، أي أن يكون له علم بدين الله وقواعده وأصوله وفروعه.

ثالثا: أن يتخلق بالخلق المحمود الذي يدل عليه العقل والشرع، فأما ما يدل عليه الشرع فالخوف من المحرمات وامتثالُ جميع المأمورات، وأما ما يدل عليه العقل فهو ما يثيره العلم بأصول الدين من ترك الاختيار وإسقاط التدبير والزهد في المواهب والعطايا الإلهية و«أن إذا علم حدوث العالم بأسره لم يتعلق قلبه بشيء منه خوفًا ولا طمعًا لعلمه أنه في قبضة الله تعالى... وإذا علم أن القدر تسابق بما كائن لم يخف فوت شيءٍ مما قدر عليه ولم يبرح نيل شيء مما لم يقدر عليه»[28].

وهذا المُعبر عنهُ بمقام الرضي، أما عِلمهُ بالوحدانية فيقوده إلى الإخلاص في سائر الأعمال في حين لا تحتملِ الربوبية الشركة في شيء.

رابعا: أن يلازمه الخوف ولا يجد الطمأنينة إلى نفسه سبيلا، حتى لا يعود إلى المخالفات ويجتنبها وهذا المعبر عنه بمقام الورع، أي أنه يخاف أن يزول ما حصل له من موافقة بأضدادها، فيخاف أن يتبدل علمه وفهمه إلى الشك والجهل ويخاف أن تخدعه نفسه فيحصل في عِلمِه ما يفسده ويحيطه من الرياء والسمعة[29].

ومن هنا يظهر شرح ابن دهاق على ارشاد أبي المعالي، وقد قنن التصوف العرفاني السني في الأحوال والمقامات لدى السنوسي وأضحى مرجعًا مُؤثرًا في منحاه العرفاني. ناهيك على أخذه فكرة عدم استهداف الكرامة والمواهب الإلهية، وأطروحة الزهد في المواهب والعطايا الإلهية من كتاب «محاسن المجالس» لأبي العباس أحمد بن العريف الصنهاجي تـ 536هـ/1142م[30].

ولا نعدم مختلف نصوص التاريخ والتراجم والمناقب التي تظهر تأثره بأفكار العرفان السني التي كانت رائجة بمدينة تلمسان، خصوصا بعد ذمور التصوف العرفاني الفلسفي بها منذ أوائل القرن 08هـ/ 14م، ويبدوا أن أكثر الأطاريح العرفانية السنية تأثيرا في السنوسي، أطروحة أبي عبد الله محمد المقري تـ759هـ صاحب كتاب «الحقائق والرقائق»[31]، ناهيك على تأثره

بصوفية عصره الذين نهل من تجاربهم في التوحيد العرفاني، وأخذ عنهم طقوسهم، ومن أبرزهم الولي العارف الحسن بن مخلوف أبركان، وشيخ الطريقة التازية بوهران ابراهيم التازي تـ 866هـ/1461م الذي ألبسه الخرقة وبصق في فمه[32].

2- مرتكزات التصوف العرفاني السني عند السنوسي: إن اختيار السنوسي لعلم التوحيد كبوتقة لتصوفه العرفاني نابع من قناعاته، بأن هذا العلم من أفضل العلوم الظاهرة التي تُورث المعرفة بالله والخشية منه والمراقبة وبه أيضا يفتح الله للعبد لفهم سائر العلوم على قدر معرفته به فيزداد بذلك خوفه وقربه من الله[33]، كما أنه منجي القلب مما ارتبك فيه وحل غياهب الشكوك والأوهام والمنقذ له من التلف في غمة الجهل، وما تراكم من ظلمات[34]، لكن كيف جعل السنوسي من التوحيد العرفاني سبيلا إلى الوصول والكشف؟

لقد وضع السنوسي خمسة مرتكزات قام عليها تصوفه التوحيدي العرفاني وهي:

أ- اكتساب المعرفة الرسمية: وفيها يتم معرفة أسماء الله الحسنى بأوصافه الجلالية والجمالية وأبعاد معانيها بواسطة العقل أو ما أسماه بالبراهين العقلية-الدليل العقلي-[35]، وفيها يعلم الموحد أن الألوهية استغناء الإله عن كل ما سواه وافتقار كل ما سواه إليه[36] وأنه هو محدث العالم بأسره وهو أن لا تأثير لشيء من الكائنات في أثر ما، وأن لا يستغني ذلك الأثر عن الله عزوجل[37].

وهذه المعرفة الرسمية لكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله (ص)، يحصل من ورائها العلم بعقائد الإيمان تفصيلاً وإجمالاً فضلاً على ما تنطوي عليه من المحاسن يتشعشع عند ذكرها القلب بأنواع اليقين وتتموج فيه أضواء الإيمان حتى تنبسط على الظاهر فيتفتق لصاحبها كنوز هذه الكلمة فيعلم بذلك، قدر مَا مُنِحَ له من النعمة العظمى التي مَنَّ بها الله عليه وهي أول خُطوة نحو كشف حجاب الحس[38].

ب- اكتساب المعرفة الذوقية: وتتم بواسطة الذكر لأسماء الله الحسنى بصيغة لا إله إلا الله محمد رسول الله[39]، وفيها يرى السنوسي أنّ تحقيق المعرفة الذوقية لا يتأتى إلا بالمعرفة الرسمية التي أنجبتها البراهين العقلية بواسطة الذكر، أي لا يكون الذكر مجرد النطق باللسان، بل استحضار القلب لمعاني أسماء الله الحسنى التي اكتسبها في مرحلة المعرفة الرسمية، فالذكر يُردد بلسانه وفي نفس الوقت يحضر بقلبه اسم الله أو غيره من الأسماء الحسنى إلى أن يكف ومعها اللسان عن الحركة ويستمر ذلك على مستوى القلب ويواظب عليه إلى غاية فناء صورة الكلمة وبقاء معناها

مجرداً حاضراً فيه وكأنه ملتصق به وحينها لا يمكن الفصل بين الذكر والفكر فيصبح طريق الذكر هو نفسه طريق الفكر[40]، وخلالها يحصل للذاكر فوائد كثيرة منها ما يرجع إلى محاسن الأخلاق الدينية ومنها ما يتعلق بالكرامات التي هي الخوارق، فأما الأول فيتمثل في الاتصاف بالزهد والتوكل والحياء والغنى والفقر والإيثار والفتوة والشكر[41]، أما الثانية والمتعلقة بالكرامات فسنأتي على تفصيلها ضمن أسس وجدلية الكشف والزهد
في المواهب والعطايا الإلهية.

ج- المجاهدات والذكر: لجأ السنوسي إلى اعتماد طريق المجاهدة بمعاني أسماء الله الحسنى بواسطة الذكر[42]، لتصفية الباطن حيث يحقق الذكر بالأسماء الحسنى غايتين أساسيتين هما: التعلق وهو التوجه إلى الله بمقتضى معاني الأسماء الحسنى والتخلق وهو التزام الاتصاف بمعاني الأسماء الحسنى فيحصل للذاكر منها حظوظٌ، فمن ذكر اسم الله يحصل له امتحاء ما عدا ذاته تعالى وصفاته وأفعاله من قلبه ومن الرحمن عدم الأخذ من النعم الدنيوية إلاّ ما يوصل. إلاّ أن وصل النعم الأخروية المتعلقة باسم الرحيم كالإيمان والأعمال الصالحات وما يعين عليها من ضروري المعاش والزهد في ما سوى ذلك زهداً كلياً والاتسام بالرحمة والاكتفاء برحمته الواسعة التي إليها الاستناد يوم يقوم الأشهاد ولزوم الشكر لله ورؤية المنة له تعالى وحده في كل ما يبدو من النعم بالتخصص والتعميم[43].

ويأخذ من اسم (الملك) لزوم الخدمة والذلة والتعظيم والمخافة والرجاء والحياء ومن (القدوس) البعد عن كل نقيصة ومن (المؤمن) الإذعان والتزام التصديق بكل ما صدقه المولى والعمل وفق ذلك إلى الممات ومن (المهيمن) الإذعان لحكمه تعالى والمراقبة لله تعالى في حركاته وسكناته ظاهره وباطنه ومن (العزيز) التعزز بعز مولاه حتى يقهر بذلك نفسه وشيطانه وهواه ومن (الجبار) التزام الرياضة وقهر النفس عليها[44]، ولذلك كان السنوسي من أهل المجاهدات كثير الخلوة يقوم الليل ويطيل في الركوع والسجود حتى تنتفخ قدماه، وكان يسمع له أنين عظيم في صدره من شدة خوفه من الله، فضلا على التزامه سنة داود عليه السلام، في الصيام أي يوم بيوم[45].

أما حظه من (المتكبر) فهو قهر النفس وتطهيرها من صفات العظمة والكبرياء، ومن (العلي) الحياء من مولاه أن يرى دنيويا أو أخرويا سوى كماله جل وعلا ومن (الكبير) الانسلاخ

عن الكبر والتعاظم ولزوم لباس الذل والتواضع ومن (المتعال) شكر مولاه الذي تفضل بإظهار علو: حتى حرر بذلك القلب مما كساه من محاسن الكائنات ومن (الخالق) إسقاط تدبيره ومشيئته لعدم انقياد الكائنات لهما والتعلق بتدبير المولى ومشيئته النافذة ومن (الباري) عدم الوقوف مع الصور وكمالها الناقص فهو غني عنها بكمال حالها ومصورها فلا يسبي لذلك قلبه العارف بجمال مولاه وجلاله ومن (الغفار) ستر الذنوب والمعايب الصادرة منه بالتوبة المقتضية تبديل تلك المساوئ وتغطيتها بأضدادها وستر زلات العصاة بالنصح لهم حتى يتركوها والتضرع للمولى أن يغفر لهم(46)، ومن (السميع البصير) صون للظاهر والباطن عن كل ما يستحي أن ينكشف للمولى.

ومن (القابض) قبض قلبه وجوارحه عن كل ما أمره الله بالانقباض عنه ورؤية المنة لله في التوفيق لذلك ومن الباسط بسط قلبه وجوارحه حيث أمره الله بالبسط، وشكره تعالى فيما بسط ذلك بفضله وتكون غاية هذه المجاهدات بمقتضى التعلق والتخلق الوصول إلى حال الفناء(47).

رابعاً: التوفيق بين الشريعة والحقيقة: لقد صرح السنوسي في (نصرة الفقير) على أن الشريعة من غير حقيقة زندقة والحقيقة من غير شريعة زندقة أيضاً، ومن هذه العلاقة حصَن تصوفه في التوحيد العرفاني بالشريعة ووضع لتحقيق ذلك ثلاث آليات هي: اتّباع السنة والإقتداء بالصحابة والعلم بالله وتأصيل الذكر وطقوسه من القرآن والسنة وسيرة صحابته.

فقد اشترط على المريد الصادق قبل أن يدخل في طريق الذكر أن يتبع سنة الرسول (ص) ويقتدي بأصحابه ويشهد المنة ويجتنب البدعة المحرمة والعيث والآثام، ثم يدخل في طريق الذكر بعد معرفته بمن يذكره ومعرفة أوصافه الجلالية الجمالية(48)، ومن ثمة اعتبر العلم بالله المكنون في صدور العلماء نورًا وحكمة وفي غير صدورهم تزويقًا وتشديقًا(49).

ويظهر السنوسي مدافعًا عن المشروعية الدينية للتصوف وخاصةً الذكر وطقوسه، فاعتبره شرعيًا بنص القرآن مستدلا بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾(50)، ومن السيرة بحادثة تلقين النبي (ص) لعلي كرم الله وجهه الذكر في غزوة الخندق ثلاث مرات(51) فضلا على إقراره بصلاحية الاجتماع للذكر عقب كل صلاة وأثر ذلك في تثبيت الإيمان وجواز ما يرافقه من تداول على الذكر والإقرار والمصافحة والتسبيح، فهو وإن كان مستحدثا لم تجربه عادة السلف إلا أن العلماء استحسنوه واعتبروه بدعة مندوبة كسائر

نوافل الخيرات المستحسنة مثل حزب الإرادة وقراءة الفاتحة في كل شيء وزيارة الإخوان والاحتفاء بتوبتهم والإطعام على ذلك[52]، وأكد ما ينجر من ثواب على ذلك لقوله: «وهذه الأذكار والاجتماعات التي يتعاهدها الصوفية... يثابون عليها لأنهم يتزاورون في الله ويجتمعون في ذات الله ويتواصلون على طاعة الله ويلعبون بذكر الله ويرقصون ويصيحون من حب الله، إياك ثم إياك ولحوم هذه الطائفة»[53].

وحتى يربط مسألة الكشف بالشريعة اعتبر المكاشفة الحقيقية هي أن يكاشف عن الله ورسوله بفهم كلامهما وما تضمنه من الأسرار العقلية والأنوار التوحيدية مع علوم غامضة وإفهام دقيقة وهي المرتبة التي لا يعطيها الله إلا لخاصة أوليائه.

ويظهر هذا المنحى التوحيدي العرفاني الملتزم بالرسول(ص) قدوة والتوفيق بين الحقيقة والشريعة منهجا في شرح السنوسي لأدبيات عرفانية لأحد العرفانيين ومطلعها[54] (الطويل):

تَطَهر بماء الغَيب إن كُنت ذا سِـــرِ ... وإلا تيمم بالصعيـــد وبالصخـــر

وقَدم إمامًا إن كنت أنـــت إمامـــهُ ... وصَلِ صَلاةَ الفَجر في أول العَصر

فَهذه صَـــلاة العَارفين برِهـــــــم ... فَإن كُنت منهم فانضح البَر بالبَحر

ومن خلالها يرى السنوسي أن التطهر بماء الغيب القصد منه التطهر من الجنابة المعنوية المنسوبة للغفلة، ورفع حدثها وأثرها من الذكر والفكر ويكون دليل طهرها اكتساب المعارف الربانية والعلوم الدينية وهي طهارة العارفين فالتطهر من الغفلة شرط للدخول في حضرة الله سبحانه، وهذه الطهارة تختلف عن التطهر من الجنابة باستعمال الماء الطهور الذي يرفع الحدث وينظف البدن، والتيمم بالتراب والصخر الذي تستباح به العبادة ولا يرفع حدثا وطهارة المريد المتمثلة في الزهد والمجاهدة النفسية والإدمان على الذكر اللساني وهي دون درجة أهل المعرفة[55]، لكن في هذه الطهارة ما يجعل النفس تتأسى بالغفلة مثل انتظار المريد صفاء سره بالعبادة وميل نفس المحدث الفاقد للماء كذلك إلى الراحة والبطالة فيعسر محافظتها على الصلاة، أما العارف إذا تطهر لصفاء سره بمياه المعارف الربانية، ولم يصل إلى رتبة الفناء والبقاء فإنه ينبغي عليه أن لا يتخلى عن الأعمال المتعلقة بالظاهر. حيث أن مبدأ سلوكه شبيهٌ بوقت صلاة الفجر الذي يمثل أول الانتباه من نوم الغفلات ويكون قريبًا من ظلمة الليل وهما المرحلة التي لم يتخلص فيها العارف من الدنيا وزينتها، فالأعمال التي يبدأ بها العارف قريبة من ظلمات النفس، بينما تكون

أول مقامات العارف شبيهة بوقت صلاة العصر، لأنه آخر النهار ومحل حَطَ الرحال، وإذا كان كل المبتدى عن الطريق والعارف مطالب بها -الأعمال الظاهرة- فإن الفرق بينهما أن المبتدى يعملها في أوائل الانتباه حينما يكون قريبًا من الظلمات ولا تصفو له كُلَ الصفاء بينما العَارفُ يَعملها في آخر النهار وبعد كمال الانتباه ومشاهدة امتلاءُ الآفاق بضوء الشمس ولهذا قال: مُخاطبا العارف «وصلّ صلاة الفجر في أول العصرِ» أي أنه وقت صلاة العارفين لأن غيرهم يعمل تلك الأعمال قبل أن يشاهد أوائل طلوع شمس المعارف فضلا عن انتمائها. وأما قوله: «وقدم إماما كنت إمامه» فوصية هامةٌ معناها أن العارف عليه أن يقدم في أقواله وأعماله الرسول (ص) قدوة له لأن البعض قد يغتر بما يظهر له من مواهب فيترك الاقتداء بالرسول (ص) [56] «وكنت إمامه» أي أنه حَكّم العقل أولاً ونظر واهتدى بالبرهان إلى صدق الرسول(ص) وعرف مرتبته عند الله واحتشم في تقديمه أولا وتقهقر إلى الوراء وعزل.نفسه عن كل نظر وأسلم نفسه إلى الرسول(ص) وقدمه إمامه وحكمه وظاهره وباطنه وقوله «فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر» يعني إن كنت من العارفين فلا تترك الجمع بين الحقيقة والشريعة فالشريعة بر والحقيقة بحر، ولا شك أن ظاهر الشريعة لم يوجد فيها من الإسناد للأعمال والسببية لها شِركٌ فإذا نضج ظاهرها بماء الحقائق التوحيدية كملت محاسنها وانقسم للعارف أعمالها[57].

ويظهر السنوسي كذلك أكثر حذرا في ابتعاده عن الغيبة عند الكشف، لذلك جنح إلى الكشف المصحوب بالصحو، وبالتالي فرغم أن الذوق في نظريته الصوفية العرفانية أعلى درجة من العقل[58] إلا أنه يصر على ضرورة العودة إلى العقل فيما يكشف مما يؤكد بعد المسافة بين السنوسية و فكرتي الحلول و الاتحاد الناجمتين عن حالة الغية والسكر، ومبدأ التوافق بين المدركين القلب والعقل[59].

د- جدلية الكشف والزهد في المواهب والعطايا الإلهية: إن غاية الذكر بأسماء الله الحسنى عند السنوسي هي الوصول إلى حالة الفناء والتي لا يرى فيها الموحد العارف وجود غير ذاته وصفاته وأعماله أي الفناء عن رؤية غنى غير غناه وكبر غير كبره وعلم غير علمه وعز غير عزه وحكم غير حكمه[60]، وحينما يزيد في المجاهدة ليحصل على التأييد الإلهي لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[61]، وقوله تعالى أيضا ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[62].

وهذه الروح عند العارفين هي عين السر ومرآة تجليات وكشوف لأمور وعلوم لم تجر العادة لخلقها، ولا يعرفها إلا أهلها ولا سبيل إلى تعريفها بالقول للغير، بل بإشارة العارفين[63]، ومن هنا يقر السنوسي من أن الكشف لا يتم بواسطة الاستدلال ولا بطرق الاعتبار، بل بمحض إنعام وإلهام من الله ويبدو أن السنوسي كان حذرا إزاء مسألة الكشف فقد رفض أن يستهدف العارف الكرامات بقوله: «إن المؤمن لا ينبغي له أن يقصدها بشيء من طاعته وإلا دخل عليه الشرك الخفي ومكربه»[64].

وكذلك حذر من لحظة الوصول التي يستعجل فيها الموحد حصول المواهب والعطايا الإلهية أو تحدثه نفسه بها أو يدعي رؤية عاجلة أو علما بالله حتى لا تتحول تلك المجاهدات إلى أحلام شيطانية يتوهمها كرامات وعطايا إلهية، ولذلك اعتبر السنوسي أن المكاشفة الحقيقية هي أن يكاشف عن الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- ويفهم كلامهما وما تضمنه من الأسرار العقلية والأنوار التوحيدية مع علوم غامضة وإفهام دقيقة وهي مرتبة لا يعطيها الله إلا لخاصة أوليائه[65]؛ أي أن صحة الكشف الحقيقي يكون وفق ما يشهد به العلم الرسمي -المعرفة الرسمية لأسماء الله الحسنى-، ولم يتوقف تحذير السنوسي عند عدم استهداف الكرامة ورفض استعجال حدوثها، بل اعتبر الزهد فيها كليا هو معيار الولي الحقيقي في قوله «إن الولي الحقيقي هو الذي لو كُشف له عن الجنان وما فيها من الحور والولدان وغير ذلك ما التفت إلى شيء من ذلك ولا مال إليه بالكلية، ومهما سكن إلى شيء من ذلك وركن إليه فقد ركن لغير الله»[66].

إلا أن ما ميز السنوسي كونه لم يهمل العقل في تجربة التوحيد العرفاني، فبه تتم المعرفة الرسمية وبه تضبط حالة الكشف وهذا ما عاناه سعيد عليوان حينما اعتبر العقل عند السنوسي أعلى من الذوق ووصفه بالمحك بينما حَصر مهمة الذوق في التعاطف والتفاعل والهيام في جناب الله عزوجل اقتناعا بوجوده عقليا[67]، ثم إن انتشار المقال العقدي للسنوسي والمشحون بالتصوف بشكل واسع خاصة عقيدته الصغرى وشروحها قد ساهم في انتشار المضامين الصوفية للتوحيد العرفاني، وليس أدل على ذلك من عدد تلامذة السنوسي الذين أخذوا عنه بتلمسان تصوفه في التوحيد العرفاني وقاموا بنشره في بني راشد وغريس وهم محمد بن يحيى المغراوي وعمر العطافي[68]، ناهيك على آخرين بتلمسان مثل أبي القاسم الكنباشي التلمساني[69]، وأبي محمد القلعي[70]، وابن صعد التلمساني وأبي الطاهر الزواوي ومحمد بن أبي مدين -كان حيا سنة

920هـ/1514م-[71]، وأبي العباس الصغير ويحيى بن محمد وابن الحاج البيلدري وإبراهيم الوجديجي وبن ملوكه[72]، لتشمل تجليات فكر السنوسي في التوحيد العرفاني مرحلة ما بعد العصر الوسيط، وهو فصل آخر من بقايا العرفان السني يستحق البحث والتنقيب.

هوامش البحث:

(*) محمد بن عمر الملالي: المواهب القدسية في المناقب السنوسية، مخطوط دار الكتب التونسية، رقم 15354، ورقة 12، 19.

(2) اعتبر محمد بن يوسف السنوسي العارف السني، هو من استشعر الحقيقة الإلهية بمعرفة التوحيد والعبودية والربوبية، فيدرك معنى الربوبية ويقر بالوحدانية وينفي الأنداد عن الله سبحانه وهي الخطوة التي تحصنه في مراحل المقامات التي يقطعها وصولاً إلى مقام الجمع، حيث يتوهم الوحدة التي تكون فيها في اتصال دائم مع الحق لكن وصوله إلى مقام الفرق بما اكتسبه من استشعار للحقيقة الإلهية وبمعرفه بالتوحيد والعبودية والربوبية، يجعله لا ينغمس في الوحدة أو الغيبة أو السكر وهي حالة جمع الفرق التي تتجلى فيها صور السكر مع الصحو والفناء مع البقاء ؛ الملالي: المواهب القدسية، ورقة 179.

(3) الملالي: المواهب القدسية، ورقة 38.

(4) نفسه، ورقة 104.

(5) نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير، مخطوط ضمن مجموع الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات، رقم 1845/د، ورقة 113، 114 ؛ أثارت كنية أبي الحسن الصغير إشكالاً لدى الباحثين، فأبو الحسن الصغير الذي عاصره محمد بن يوسف السنوسي وأحمد زروق هو أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد بن حمامة الأوربي النيجي الصغير وهو شيخ ابن غازي، وقد كانت وفاته سنة 887هـ/1482م . أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج2، تحقيق علي عمر، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004، ص ص 240، 241 ؛ أما المعروف بأبي الحسن علي بن عبد الحق الصغير فهو علي الزرويلي صاحب التقييد على المدونة والقاضي المدرس بفاس والمتوفي سنة 719هـ/1319م . أبو العباس أحمد بن القنفذ: شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف، الرباط، 1976، ص ص 102، 103.

(6) الملالي: المواهب القدسية، ورقة 190.

(7) نفسه، ورقة 143 ؛ الوادآشي البلوي أبو جعفر أحمد بن على تـ 938هـ/1532م: ثَبتُ البلوى، تحقيق عبد الله العمراني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 443 ؛ التنبكتي: نيل الابتهاج، ج2، ص 26 ؛ أبو عبد الله محمد ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر محمد بن أبي الشنب، تقديم، عبد الرحمان طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 246.

(8) نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير، ورقة 115.

(9) يقول ابن عطاء الله «أعبد الله برضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خيرٌ كثيرٌ» . ابن عطاء الله السكندري تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد: التنوير في إسقاط التدبير، ط2، دار الكتب العلمية، لبنان، 2006، ص 5.

(10) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية الكبرى، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003هـ/1424م، ص101.

(11) يوافق فكرة الزهد عند ابن عطاء الله: «كما لا يحب العمل المشترك كذلك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقبلُ عليه» . الحكم العطائية، ص 109.

(12) يرى بن عطاء الله أن الله: «بسَطَكَ كي لا يُبقيكَ مع القبض، ويَقبضكَ كي لا يتركَكَ مع البسط، وأخرجكَ عنهما حتى لا تَكون لشيء دُونه» . الحكم العطائية، ص 101.

(13) يطابق ذلك قول ابن عطاء الله: «فأرباب الجذب –الوجد– يكشف لهم عن كمال ذاته، ثم يردهم إلى شهود صفاته، ثم يرجعهم إلى التعمق بأسمائه، ثم يردهم إلى شهود آثاره» . الحكم العطائية، ص 113.

(14) يوصي بن عطاء الله بعدم ترك الذكر لأهميته في الوصول إلى مرتبة الغيبة في قوله: «لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ... فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة، إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور ...» . الحكم العطائية، ص 99.

(15) الدرة المفردة في شرح العقيدة المرشدة، مخطوط الخزانة العامة للمخطوطات والوثائق، الرباط، رقم 2691، ورقة 305.

(16) حول النص الكامل لمرشدة ابن تومرت. أنظر سعد غراب: مرشدة ابن تومرت وأثرها في التفكير المغربي، مجلة الكراسات التونسية، العدد 13، 104، السنة 1978، ص 119.

(17) نفسه، ص 134.

(18) عبد الرحمان بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، ج6، دار الكتاب اللبناني، 1983، ص ص 471، 472.

(19) أبو العباس أحمد الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس، ج11، تحقيق محمد حجي وآخرون، مطبوعات دار الغرب الإسلامي، 1981، ص 50.

(20) أبو الفضل محمد بن صعد: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق يحي بوعزيز، ط1، منشورات A.N.E.P، الجزائر، 2002، ص 95.

(21) الملالي: المصدر السابق، ص 19؛ أحمد بابا التبكتي: اللآلئ السندسية في الفضائل السنوسية، مخطوط الخزانة العامة للمخطوطات والوثائق، الرباط، رقم 471/د، ورقة 92.

(22) الملالي: المصدر السابق، ورقة 143 ؛ يرى جمال الدين بوقلي أن محمد بن يوسف السنوسي لم يجد في علم التوحيد في صورته الكلامية سوى الخطوة الأولى للتقرب بها إلى الله، وما الانقطاع للذكر والمكاشفة إلا الوجه الثاني المكمل لكلمة التوحيد، فهو الحبل الذي يصل العقل بالقلب. الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 355.

(23) الملالي: المصدر السابق، ص 122.

(24) تحقيق محمد الغمارى، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1989، ص93؛ يذكر سعيد عليوان أن منحى الشرح الذي اعتمده السنوسي، هدفه التبسيط حتى يُسهل على قرائها الاستيعاب. محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق، دكتوراه الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1986–1987، ص 48.

(25) يذكر الملالي أنه رأى هذا الشرح في عشرين ورقة. المصدر السابق، ص123؛ أما التبكتي فيقول بأنه في كراريس. أحمد بابا التبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق أبو يحي عبد الله الكندري، ط1، دار بن حزم للطباعة والنشر ، لبنان، 1422هـ/2002م، ص451.

(26) محمد بن يوسف السنوسي: شرح أسماء الله الحسنى، مخطوط الخزانة العامة للمخطوطات والوثائق، الرباط، رقم 2406/د، ورقة 162 وما بعدها.

(27) الملالي: المواهب القدسية، ورقة 38.

(28) نفسه، ورقة 38.

(29) نفسه، ورقة 38.

(30) بعث ابن العريف رسالة إلى تلميذه أبي الحسن بن غالب، يجسد فيها أطروحته في الزهد في المواهب والعطايا الإلهية والكرامات بقوله: «لا تكذب بها ولا تعمل عليها، فإن العمل على الكتاب والسنة هو الهداية». عبد الله محمد بن عباد الرندي: الرسائل الصغرى، تحقيق بولس نويا (من الملحق رقم خمسة الرسالة الرابعة)، دار الشروق، بيروت، 1974، ص 220.

(31) حول أطروحة محمد المقري في العرفان السني ؛ أنظر: الطاهر بونابي: الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 8 و 9 الهجريين/ 14 و 15 الميلاديين، القسم الأول، أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 2008-2009، ص 442 وما بعدها.

(32) الملالي: المصدر السابق، ورقة 197.

(33) نفسه، ص 52؛ التنبكتي: اللآلئ السندسية، ورقة120؛ المراقبة هي استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه في جميع أحواله. أنور فؤاد: معجم المصطلحات الصوفية، ص 160؛ أما الخوف فهو الحالة التي لا يخاف فيها العبد غير الله أي لا يخاف في نفسه وإنما يخافه إجلالا له، لأنه الخوف على نفسه هو خوف العقوبة. عبد القاهر السهروردي: عوارف المعارف، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ص 315؛ القرب هو قرب العبد من الله بكل ما يعطيه من السعادة وهو على قسمين: قرب علمي وأعلاه العلم بتوحيد الألوهية، وقرب عملي وينقسم إلى: قرب فرضي لقول الرسول (ص): «ما يقرب المقروبون بأحب إليَّ من أداء ما فرضته عليهم» وفيه يتجلى الحق للعبد ويظهر العبد بحسب الحق غير محدود ولا متناه، وقُربٌ فعلي لقول النبي (ص): «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته، كنت له سمعاً وبصراً»، وفيه يتجلى الحق للعبد ملتبساً القابلية المحدودة. عبد الرزاق الكاشاني: رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال، تحقيق سعيد عبد الفتاح، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 1415هـ/1995م، ص ص 85- 87.

(34) محمد بن يوسف السنوسي: شرح كفاية المريد، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 2075، ورقة 6؛ يرى الملالى أن علم التوحيد يزيل من القلب داء الشبه وضروب الشكوك والامتراء. المصدر السابق، ص 41.

(35) محمد بن يوسف السنوسي: شرح أم البراهين، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 74؛ وكذلك نصرة الفقير، ص 120.

(36) الاستغناء وجوب له تعالى، الوجود والقدم والبقاء والمخالفات للحوادث والقيام بنفسه والتنزه عن النقائص، وما يندرج عن عقائد الإيمان كوجوب السمع له تعالى والبصر والكلام، والدليل على إثباتها كون أضدادها نقائصًا، كما أنه تعالى منزه عن الأغراض في أفعاله وأحكامه، فلا يجب عليه فعل شيء من الممكنات لا تركه، إذ لو جب عليه تعالى شيء منها غفلا كالثوب مثلا لكان عز وجل مفتقراً إلى ذلك الشيء ليكمل به، إذ لا يجب في حقه تعالى وأحكامه كلها لا علة لها باعثة وإنما هي بمحض الاختيار وما رعى الله من مصالح الخلق فبمحض فضله ولا حق لأحد عليه تعالى أما وجوب الافتقار إليه تعالى فيستلزم قدرته تعالى على إيجاد الشيء المفتقر فيه إليه، وذلك يستلزم وجوب اتصافه تعالى بالقدرة والإدارة والعلم العامة لجميع متعلقاتها لما عرف من وجوب توقف تأثير القدرة على الإرادة والعلم ويستلزم أيضاً وجوب اتصافه تعالى بالحياة لوجوب توقف تلك الصفات على صفة الحياة. شرح أم البراهين، ص ص 74، 75.

(37) يرى السنوسي أنه لو كان هناك شيء أقدم من الله تعالى لكان ذلك الشيء مستغنيا عنه الله تعالى.ولا يوجد في الكائنات يؤثر بطبعه خاصة وأن الله لم يجعل من قدرته في هذا الشيء لأنه لو كان كذلك لصار عز وجل مفتقرا في إيجاد بعض الأفعال إلى

واسطة، وبهذا يبطل مذهب القدرية القائلين بتأثير القدرة الحادثة في الأفعال مباشرة أو تولدًا ويبطل مذهب الفلاسفة القائلين بتأثير الأفلاك والعلل ويبطل مذهب الطبائعيين القائلين بتأثير الطبائع والأمزجة ونحوها. شرح أم البراهين، ص76.

(38) محمد بن يوسف السنوسي: شرح أم البراهين، ص65.

(39) يرى السنوسي أن الذكر لا يكون بالشهادة الأولى-لا إله إلا الله- فقط، بل يجب إضافة الثانية-محمد رسول الله- لأن الأولى تمحق كل شك في الربوبية والثانية تلغي كل شك في الرسالة وكما أن العقيدة لا تصح إلا بالشهادتين معاً، فإن الفتح لا يأتي دونهما معا ولأجل ذلك اعتبر السنوسي أن الاقتصار على ذكر الشهادة الأولى وإهمال الثانية استدراجًا إلى فرض الشريعة والانحلال من ربقتها وتعطيل رسومها. شرح أم البراهين، ص 90.

(40) نفسه، ص ص 87- 90.

(41) حدد السنوسي معاني هذه المحاسن الأخلاقية فاعتبر الزهد خلو الباطن من الميل إلى فان وفراغ القلب من الثقة بزائل، والتوكل بثقة القلب بالوكيل وهي حالة يسكن فيها العبد عن الاضطراب عند تعذر الأسباب ثقةً بمسبب الأسباب والحياءُ تعظيم الله بدوام ذكره وإكبارًا وسكوت اللسان عنها بالكلية مدحاً وذماً والإيثار على نفسه بما لا يذمه الشرع والفتوة وهي التجافي عن مطالبة الخلق بالإحسان إليه ولو أحسن إليهم لعلمه بأن إحسانه إليهم وإساءتهم إليه كل ذلك مخلوق له وتعالى والشكر وهو إفراد القلب بالثناء على الله ورؤية النعم في طي النِّقَم. شرح أم البراهين، ص ص 93، 94.

(42) يذكر الملالي أن شيخه السنوسي كان إذا صلى الصبح يأخذ في الذكر حتى طلوع الشمس وربما جعل رأسه بين ركبتيه فيغيب عن الخلق، حتى أنه كان لا يشعر بمن حوله. شرح أم البراهين، ص 134.

(43) السنوسي: شرح أسماء الله الحسنى، ورقة 134.

(44) نفسه، ص ص 163، 164.

(45) الملالي: المصدر السابق، ص183 ؛ التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 256؛ ابن مريم: المصدر السابق، ص 243.

(46) السنوسي: شرح أسماء الله الحسنى، ص ص 164، 165.

(47) السنوسي: شرح أسماء الله الحسنى، ص ص 165، 166.

(48) نصرة الفقير، ص 120.

(49) نفسه، ص 113.

(50) سورة الزخرف: الآية 36.

(51) نصرة الفقير، ص115، 116.

(52) نصرة الفقير، ص 116.

(53) نفسه، ص 117.

(54) الملالي: المصدر السابق، ص179.

(55) نفسه، ص 189.

(56) الملالي: المصدر السابق، ص 180.

(57) نفسه، ص180.

(58) تعتبر المعرفة الذوقية، أعلى أنواع المعارف وألذها لما تتيحه من الإطلاع على الأسرار الربوبية والعلم بترتيب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات، وبه تستشعر النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها. الملالي: المصدر السابق، ص53.

(59) تظهر هذه العلاقة المحدودة لمكانة العقل والذوق في شرح السنوسي لأبيات عرفانية تنسب لأبي إسحاق إبراهيم بن دهاق ومطلعها (البسيط):

رأيتُ ربي بعيــن قَلبـــــي فقلت لا شــك أنت أنـــتَ
أنتَ الذي حُزت كل أيـــنٍ بحيــث لاَ أيــنَ ثــمَ أنـــتَ

فقوله: «رأيت ربي بعين قلبي» يعني عرفت وجوده ما يجب له وما يستحيل وما يجوز ببصيرة قلبي التي هي عين القلب وهو الجزء مني الذي يقوم به العلم والفكرة الصحيحة المصيبة. وقوله: «لاشك أنت أنت» يعني فقلت بقلبي لما عرفته بالبرهان وتميز لي عن كل ما سواه لا شك ولا ريب أنت يا مولاي الموصوف بهذه المحاسن التي أبصرها بالبرهان عين قلبي، وإنما رتب القول على رؤية القلب وهو معرفته بالله تعالى تنبيها على حصول الإيمان عند حصول المعرفة لأن الإيمان على الأصح هو حديث النفس التابع للمعرفة لا نفس المعرفة، خلافاً للأشعري والأفضل أن يكون المراد برؤية عين القلب المعرفة الذوقية التي هي مقام السالكين ويكون حينئذ معنى قوله: أنت أنت الآن بحسب المعرفة الذوقية هو أنت أولا بحسب المعرفة الرسمية التي أنجبتها البراهين العقلية، إذ علامة صحة الذوق أن يجيء على وقف الرسمي. الملالي: المصدر السابق، ص182؛ أعطى الباحث سعيد عليوان تفسيرًا لشرح السنوسي فاعتبر العقل هو المحك والذوق تابعًا له وبذلك تصبح مهمة الذوق التعاطف والتفاعل والهيام في جناب الله عز وجل الذي اقتنعا بوجوده عقليا. فالذوق في نظره يأتي بعد اقتناع العقل. محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق، ص 110.

(60) يرى السنوسي أن الفناء والبقاء هما منتهى سفر السالك في تجربة تصوف التوحيد العرفاني. الملالي: المصدر السابق، ص180.

(61) سورة العنكبوت: الآية 69.

(62) سورة المجادلة: الآية 22.

(63) التنبكتي: اللآلئ السندسية، ص 100.

(64) شرح أم البراهين، ص 95.

(65) التنبكتي: اللآلئ السندسية، ص 113، 114.

(66) الملالي: المصدر السابق، ص63.

(67) محمد بن يوسف السنوسي: شرحه لمختصره في المنطق، ص110.

(68) ينتمي محمد بن يحيى إلى قبيلة بني راشد وقد امتاز بالتصوف والورع والأحوال المرضية والكرامات العلية ولم تنحصر استفادته من السنوسي في التوحيد، بل أخذ عنه كذلك الفقه والأصول والبيان والمنطق والحساب والفرائض والنحو. ابن مريم: المصدر السابق، ص 276، 277؛ حسب محمد بن يوسف الزياني فإن محمد بن يحيى المغراوي كانت له تآليف في التوحيد ويعد أول من بث التوحيد في قبيلة غريس. محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص 60، 61.

(69) ابن مريم: المصدر السابق، ص152.

(70) يعتبر القلعي من كبار تلامذة السنوسي وعرف بأنه فقيه سني موحدّ ومتصوف وكثير التمسك بأخلاق السلف الصالح ومن أعماله: أسئلة تزيد عن الخمسين مسألة تسمى بالقلعية. ابن مريم: المصدر السابق ، ص 271.

(71) اشتهر ابن أبي مدين بتدريسه لعقائد السنوسي الصغرى والكبرى وشرح الكبرى. التنبكتي: نيل الابتهاج، ج2، 275.

(72) التنبكتي: نيل الابتهاج، ج2، ص260.

النشاط العلمي لمخبر تاريخ الجزائر

عرض أ. د عبد القادر بوباية*

تنظيم ندوة تاريخية حول: جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر: مجازر جبال الظهرة نموذجا بمساهمة بلدية عشعاشة- جمعية نشاطات الشباب "إقرأ" (عشعاشة).

* إشكالية الندوة: إن جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر كثيرة ومتنوعة، إذ كانت سياسة القمع رهيبة، ونتائجها لم تضبط إلى يومنا هذا.

لقد انتهك الفرنسيون كل حقوق الإنسان، وسجّلوا طوال تواجدهم فوق تراب الجزائر جرائم يندى لها جبين الإنسانية، وستبقى وحشية الاستعمار راسخة منقوشة في ذاكرة الأجيال، وستبقى أحداثها بكثرتها وقسوتها وفظاعتها رمزًا لهمجية الاستعمار، ومن أجل تسليط الضوء على جرائمه عامة، وعلى واحدة من أفظع الجرائم التي ارتكبها المحتلون تنظم بلدية عشعاشة بمساهمة جامعة عبد الحميد بن باديس بمستغانم ومخبر تاريخ الجزائر- جامعة وهران- يومي 18 جوان 2011م ندوة تاريخية ببلدية عشعاشة حول:

جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر: مجازر غار الفراشيش (18 جوان 1845م) نموذجًا.

إن هذا الملتقى العلمي التاريخي يهدف إلى تسليط الضوء على الجرائم التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ويركز أكثر على مجزرة جبال الظهرة كأنموذج لهذه الجرائم في حق الإنسانية، ويستذكر الوجه البشع الذي ميز الاستعمار الفرنسي بالجزائر، ويحاول وضع أسس لكتابة تاريخ وطني يجلي حقيقة ما قام به الفرنسيون في الجزائر.

* محاور الملتقى الوطني حول جرائم الاستعمار الفرنسي:

- الاحتلال الفرنسي للجزائر وبداية المقاومة المسلحة.

* - مدير مخبر تاريخ الجزائر- جامعة وهران.

- دور الطرق الصوفية في المقاومة المسلحة.
- جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر.
- مجازر الظهرة: ظروفها- أسبابها- نتائجها.

* البرنامج العلمي للندوة التاريخية:

يوم السبت 18 جوان 2011م صباحا:

الجلسة العلمية الأولى: رئيس الجلسة: د. لخضر العسال.

9 سا- 9 سا 12د: شريط وثائقي حول محرقة غار الفراشيش.

9سا 12د-9 سا 22د: أ. د عبد القادر بوباية- جامعة وهران: جرائم الاستعمار الفرنسي بالجزائر: مدخل عام.

9سا 22د-9 سا 32د: د. بوسيف مخالد- جامعة وهران: تأملات حول جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

9 سا 32د-9 سا42د: أة. تالية سعدو- جامعة تيارت: محرقة أولاد رياح من خلال المجلة الإفريقية.

9 سا 42د-9 سا 52د: أ. عبد القادر جلالي- جامعة سيدي بلعباس: الاستعمار الفرنسي: جريمة مبرمجة.

الجلسة العلمية الثانية: رئيس الجلسة: أ. د عبد القادر بوباية.

10سا 10د- 10سا 20د: د. محمد خاين- جامعة الشلف: الذاكرة والتاريخ.

10 سا 20- 10 سا 30: أ. د عبد القادر خليفي- جامعة وهران: جرائم الاستعمار الفرنسي من خلال كتابات الفرنسيين.

10سا 30د- 10سا 40د: د. ودان بوغوفالة- جامعة معسكر: استراتيجية مقاومة الاستعمار عند الشيخ بوعمامة وأتباع الطريقة الشيخية.

10 سا 40-10سا 50د: أة. فاطمة حباش- جامعة تيارت: انتفاضة سكان جبال الظهرة (ثورة الشريف بومعزة).

10سا 50- 11سا: د. بن عتو بلبروات- جامعة سيدي بلعباس: التعذيب الفرنسي أثناء الثورة التحريرية.

11 سا- 12سا 30د: مناقشة عامة.

15سا: رحلة إلى غار الفراشيش موقع المجزرة الاستعمارية.

ملخصات بعض مداخلات الندوة العلمية:

* أ. د عبد القادر بوباية- قسم التاريخ- جامعة وهران.

جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر: مدخل عام

ملخص المداخلة: إن الحديث عن جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر هو بمثابة التعرّض إلى الجانب الظالم والمظلم من سياسة استعمارية دامت طيلة قرن وحوالي ثلث القرن، عانى خلالها الشعب الجزائري الأمرين، حيث انتهج المستعمر الفرنسي منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر سياسة قمع رهيبة أهدرت كل حقوق الإنسان، وفاقت ما ارتكبته النازية في حق الشعوب التي سيطرت عليها، وقد اتسمت هذه السياسة بالتطبيق الكامل والتام للسادية، ومن أبرز مظاهر سياسة فرنسا الإجرامية:

- حرب الإبادة التي شنها المحتل على الشعب الجزائري.
- البطش الاستعماري وسياسة التمييز العنصري.
- تعسف الإدارة الاستعمارية التي جعلت من المستوطنين طبقة متسلطة، لها كل الحقوق والامتيازات بينما أبقت السكان الأصليين تحت الاضطهاد والقهر.
- انتهاج سياسة محو مقومات الشخصية الجزائرية، والمتمثلة في محاربة الإسلام واللغة العربية وإلحاق الجزائر بفرنسا.

سياسة إبادة الجنس الجزائري: إن السياسة الاستعمارية في إراقة الدم الجزائري ظاهرة التصقت بسلوكات الضباط الفرنسيين منذ أن وطئت أقدامهم أرض الجزائر، إذ شرعوا في محاولة إبادة شعب بأكمله والقضاء على شخصيته الوطنية ووجوده وقيمه الخاصة به، وهذا بإراقة

دم السكان الأبرياء العزل، وتنظيم مذابح جماعية تقشعر الأبدان لفظاعتها، ويصعب على العقل تصورها، وللتدليل على ذلك ارتأينا أن نستشهد ببعض المذابح كخير دليل على همجية الاستعمار في إبادة الجنس الجزائري:

مذبحة البليدة: في 26 نوفمبر من عام 1830م نظمت الحامية الفرنسية في مدينة البليدة مذبحة رهيبة ضد السكان العزل، لم يرحم فيها شيخ مسن ولا عجوز ولا امرأة ولا حتى الأطفال الرضع الذين ذبحوا على صدور أمهاتهم، لقد تفنن الضابط ترولير قائد الحامية في تنظيم هذه المذبحة بحيث حول المدينة إلى مقبرة في بضع ساعات، إذ امتلأت الشوارع بجثث القتلى الذين يجهل عددهم.

مذبحة قبيلة العوفية: في ليلة الخامس من شهر أفريل من عام 1832م أعطى دو روفيقو الذي عرف بسياسته الحاقدة تعليمات لإبادة أفراد قبيلة العوفية المستقرة عند وادي الحراش عن آخرها عند نومها.

ويعترف الرائد مونتانياك (Montagnac) الذي كان يقود الجيش الفرنسي الاستعماري بنواحي سكيكدة عام 1843م بجريمة قطع رؤوس العرب لاعتقاده بأن العرب البالغين خمس عشرة سنة فما فوق يجب أن يقتلوا، ويقول: "هذه هي طريقتنا في الحرب ضد العرب يا صديقي...، قتل الرجال، وأخذ النساء والأطفال، ووضعهم في بواخر، ونفيهم إلى جزر الماركيز البولينيزية، باختصار: القضاء على كل من يرفض الركوع تحت أقدامنا كالكلاب".

ويذكر في كتابه "رسائل جندي" واصفا القمع الوحشي في إحدى المعارك: "لقد أحصينا القتلى من النساء والأطفال فوجدناهم ألفين وثلاثمائة، أما عدد الجرحى فلا يكاد يذكر لسبب بسيط هو أننا لم نكن نترك جرحاهم على قيد الحياة".

عمليات إبادة جماعية: كما يعترف الجنرال كافينياك (cavaignac) بجريمته في إبادة قبيلة بني صبيح عام 1844م "لقد تولى الأجناد جمع كميات هائلة من أنواع الحطب ثم كدسوها عند مدخل المغارة التي حملنا قبيلة بني صبيح على اللجوء إليها بكل ما تملك من متاع وحيوانات، وفي المساء أضرمت النيران وأخذت الاحتياطات كي لا يتمكن أيا كان من الخروج حيا...".

أما الناجون من فرن كافينياك الذين كانوا خارج أراضي القبيلة، فقد تولى العقيد كونروبار(Conrobert) جمعهم بعد حوالي عام من حرق أهاليهم، ثم قادهم مقيدين إلى مغادرة

ثانية وأمر ببناء جميع مخارجها ليجعل منها على حد تعبيره "مقبرة واسعة لإيواء جثث أولئك المتزمتين. ولم ينزل أحد إلى تلك المغارة، ولا يعرف أحد غيري أنها تضم تحت ركامها خمسمائة من الأشرار الذين لن يقوموا بعد ذلك بذبح الفرنسيين".

وفي تعليقه على هذه الجريمة قال السيد برار (Berard): "لقد ظلت تلك المقبرة مغلقة وبداخلها جثث رجال ونساء وأطفال وقطعان، تتآكل أو يأكلها التراب".

محرقة غار الفراشيش: وهذا نموذج آخر من سياسة القهر والإبادة التي انتهجها بيجو ضد الجزائريين، والتي حصل بمقتضاها على لقب "قاهر الجزائر" وعلى عصا الماريشالية، وتعني بذلك المجزرة الرهيبة التي وقعت في أولاد رياح بغار الفراشيش في ناحية الظهرة في جوان 1845م، ومرتكب هذه المجزرة هو العقيد بيليسييه، وخلاصتها أن معركة كبيرة وقعت خلال شهر يناير 1845م بناحية الظهرة، وتعرف عند الفرنسيين بانتفاضة الطرق الصوفية، شاركت فيها على الخصوص القادرية والرحمانية والدرقاوية والطيبية وفروعها.

وكانت قبيلة أولاد رياح التي شاركت في الانتفاضة تقطن جنوب تنس، فغزاها بيليسييه وحطم أملاكها طبقا لسياسة الأرض المحروقة؛ ففرت القبيلة، وكان عدد أفرادها يزيد عن ألف شخص رجالا ونساء وأطفالا مع حيواناتهم، واحتمت بغار محصن يسمى غار الفراشيش يوم 17 جوان؛ فحاصر بيليسييه وجنوده المغارة من جميع الجهات، وطالب القبيلة بالاستسلام؛ فردّت عليه بإطلاق الرصاص؛ فقام بيليسييه بجلب أكداس الحطب ثم أشعله محاصرًا به الغار، وكان هدفه من ذلك إجبار القبيلة على الخروج والاستسلام أو الموت اختناقا بالدخان، وضاعف العقيد من تكثيف الدخان في مداخل المغارة.

وانتهت المأساة باختناق ما يزيد عن ألف شخص في ذلك الغار الذي حاصرته النيران والدخان مدة يومين، وكان المنظر فظيعا وقد علقت الصحف على ذلك بقولها إنها: "مذبحة فظيعة جعلت حتى المتوحشين يخجلون"، ومع ذلك فقد امتدح بيجو العقيد بيليسيه على ما قام به في حق قبيلة أولاد رياح، وقامت صحيفة "لا دياش" تمدح ضباط الجيش الفرنسي على أعمالهم في الجزائر، كما قامت صحيفة الجزائر الفرنسية التي كمان يصدرها بيجو بوصف الجريمة وأثنت على مرتكبيها.

هذه بإيجاز إطلالة عابرة على ما ارتكبه المحتل الفرنسي في الجزائر، وإننا وبمناسبة إحياء ذكرى المحرقة التي قام بها المستعمر الفرنسي في غار الفراشيش نسعى إلى تذكير الأجيال التي جاءت بعد الاستقلال بما تعرض له هذا الوطن، وما تكبده أهله على يد مجرمي الحرب التي خاضتها فرنسا من أجل إخضاع الجزائر وتركيع سكانها، ورغم الخسائر الفادحة التي تكبدها الجزائريون طيلة الوجود الاستعماري بالجزائر إلا أنهم لم يستسلموا بل ظلت شعلة الجهاد مشتعلة، وتوجت بثورة نوفمبر التي وضعت حدا للوجود الاستعماري بالجزائر بعد ثورة دامت سبع سنوات وثمانية أشهر وخمسة أيام من تاريخ اندلاع الثورة في أول نوفمبر 1954م.

ملاحظة: نقلا عن مجلة أول نوفمبر- العددين 155/156- 1977م- صص35-41.

---

*د. مخالد بوسيف- قسم التاريخ- جامعة وهران

تأملات حول الجرائم الكولونيالية الفرنسية في الجزائر

ارتكبت فرنسا الكولونيالية جرائم لا تحصى في الجزائر منذ بداية الاحتلال يوم 14 جوان **1830** واستمرت جرائمها إلى ما بعد الاستقلال، ولا بد من التذكير دائما ان الاستعمار جريمة.

لقد كانت الإبادة الجماعية للسكان العزل ضمان وجود وبقاء فرنسا الكولونيالية، والدفاع عن مصالحها وامتيازات الأوروبيين-بمختلف جنسياتهم-الذين جلبتهم من أوروبا قاطبة تطبيقا لسياستها الاستيطانية.

وبقيت هذه الجرائم عار في ذاكرة الشعب الفرنسي الذي وقف-في فترات متعددة-إلى جانب القضية العادلة للشعب الجزائري، وتوضح الوثائق الأرشيفية الفرنسية السياسة الكولونيالية في الجزائر ونتائجها المختلفة والإبادة الجماعية للسكان العزل باستعمال الوسائل الحربية الضخمة والأسلحة المحظورة ضد الأبرياء.

استمرت الجرائم الفرنسية بعد وقف إطلاق النار يوم 19 مارس1962م، وبعد الاستقلال وتمثلت في جرائم منظمة الجيش السري الإرهابية التي تأسست فسنة 1961 بهدف احتفاظ المعمرين الكولون الغلاة بالجزائر "فرنسية"، وجرائم الانفجارات النووية التي استمرت في الحمودية برقان

وعين ايكر بتمنراست، وسيبقى خطر الإشعاع النووي يهدد الأبرياء بالقتل أو التشويه، وبقيت كذلك القنابل المضادة للانسان تقتل وتشوه الأبرياء بعد الاستقلال.

وأبقت فرنسا الاستعمارية الكولونيالية وجودها بارتكاب جرائم الابادة الجماعية، وتذكر الوثائق الأرشيفية الفرنسية أسماء الجنرالات و السياسيين البارزين، وكل المدافعين عن الوجود الفرنسي في الجزائر الذين أصبحت أسماؤهم مرتبطة بهذه الجرائم.

بلغ عدد سكان الجزائر في سنة 1830- حسب التقديرات الرسمية الفرنسية-ثلاث ملايين نسمة وبعد عشرين سنة من الاحتلال قل ب 700000 نسمة حيث أصبح لا يتعدى 2300000 نسمة في سنة 1856، ويعادل هذا التناقص ثلث مجموع السكان.

ومن المجاعات الرهيبة التي سببها الاستعمار الكولونيالي الفرنسي أذكر مجاعة عامي 1867 و1868م التي دامت 9 أشهر ونصف (من نوفمبر من سنة1867 الى جويلية من سنة 1868)، مات خلالها خمس سكان الجزائر حسب التصريحات الفرنسية الرسمية.

وانتشار الأوبئة الفتاكة من الجرائم كذلك التي لا يمكن حصر ضحاياها، وكانت تصيب الجزائريين بالآلاف نتيجة السياسة الكولونيالية، وانعدام العناية الصحية والوضعية الاقتصادية ونتائجها المؤلمة. وأذكر هنا- على سبيل المثل فقط لا الحصر- أن وباء الحمى الصفراء قتل لوحده 55274 جزائريا بين سنتي 1939 و1945- حسب الحالات المعلن عنها رسميا، و في ظرف 3 سنوات فقط من سنة 1941 الى سنة 1943 قتل هذا الوباء 48375 جزائريا.

أما بقية الأوبئة الفتاكة الأخرى وهي الطاعون والجذري والدفتيرية والحمى التيفويدية فقد قتلت 36130 جزائريا حسب الحالات المعلن عنها رسميا.

والتصريحات الفرنسية الرسمية بعيدة عن الواقع، وتقلل من مسؤولية الاستعمار الكولونيالي والمدافعين عنه.

ومن الجرائم الكولونياليةكذلك أذكر تجنيد الجزائريين في الحروب التي لا تعنيهم؛ ففي الحرب العالمية الأولى قتل 26000 جزائريا من ضمن 210000 مجندا طبقا لقانون التجنيد الاجباري، وقتل

16600 جزائريا من ضمن 150000 شاركوا في الحرب العالمية الثانية، واعتقدوا انهم يحـاربون مـن أجل انتصار الحرية وتحقيق الاستقلال.

هذه أمثلة عن بعض جرائم الاستعمار الكولونيالي الفرنسي في الجزائر، ولا يمكن أن نعـرف عـدد الضحايا الأبرياء، وسنبقى نتكلم فقط عن تقديرات بعيدة عن الواقع والحقيقة.

---

* أ.د عبد القادر خليفي- قسم التاريخ- جامعة وهران.

نماذج من جرائم الاستعمار الفرنسي مـن خـلال تصـريحات بعض قادته.

ملخص المداخلة: عاش الجزائريون في الفترة الممتدة من سنة 1830 إلى سنة 1962 في معتقل كبير هو وطنهم الجزائر الذي تحول إلى محتشدات ومراكز للتجميع، وسُلطت على ساكنيه مختلف أنواع القهر والظلم كالاعتقال والسجن والمطاردة والنفي والتقتيل، بينما عاش الأوربيون، الوافدون من وراء البحر، في بحبوحة من العيش، يتمتعون بخيرات البلاد في أمن وسلام.

لقد استعملت قوات الاحتلال الفرنسي مختلف أساليب القهر لإخضاع البلاد، وقد استبد بالمعمرين الجشع لانتزاع الأراضي من أصحابها، وعمل الجميع عسكريين ومعمرين على تحطيم المجتمع الجزائري. وقد وردت تلك الجرائم في كتاباتهم بصفتهم منفذين لها وشهود عيان لحدوثها.

ومن بين الكتب الفرنسية التي تعترف بجرائم المستعمرين في الجزائر ما ورد في كتاب: الكونت إبريسون عن "صيد البشر"، الذي يعترف فيه بوجود حرب المتحضرين ضدّ الأقوام، التي يَعْتَقد أنّها بدائية وبربرية، والتي تستحق الزوال بفعل التطور الحضاري، ويقول: "لقد سالت الدماء بكثرة خلال هذا الصراع... كنا نحارب ضد أمة بكاملها، تحركها عصبية مزدوجة وطنية ودينية، وكانت الحرب تتطلب منا مزجا عنيفا، ربما كانت تمليها الضرورة، لكنّها كانت مرفوضة من قبل قانون البشر وشرف أمة كبيرة مثل فرنسا"[1].

وقد اشتهر الجنرال بيجو بتطبيق ما يعرف بـــ "سياسة الأرض المحروقة" التي اتبعها في الجزائر. وتتمثل في إبعاد السكان الجزائريين عن التحالف مع الأمير عبد القادر، بتدمير مساكنهم وحرق غلالهم وإبادة حيواناتهم، فلا يبقى لهم سوى الأرض العارية يفترشون ترابها والسماء

يستظلون بها. وهي سياسة أثبتت نجاعتها، وكانت من أسباب توقف الأمير عن مواصلة المقاومة سنة 1847، والتي كان قد بدأها تحت قيادة والده محي الدين سنة 1830.

كان بيجو قد عُين حاكما على إقليم وهران في أبريل من سنة 1836 لمواجهة الأمير في المنطقة الغربية، ثم أصبح حاكما عاما على الجزائر برتبة ماريشال ابتداء من أول جانفي سنة 1841. وعندما عينته حكومته في هذا المنصب "أمرته بمواصلة الحرب حتى النهاية، وأرسلت له كل الإمدادات اللازمة، فتجاوز عدد الجنود مائة ألف جندي سنة 1262هـ/1846م، وهو عدد ضخم إذا ما قورن مع ما كان يمكن لعبد القادر أن يعبئه في كل مواجهة"[2].

وقد برر بيجو تلك الأعمال الشنيعة التي كان يرتكبها، في رسالة له إلى مسئوليه بالعاصمة باريس، حين قال: "بدون هذه الأساليب لا يمكن التغلب على هذا الشعب العجيب ولا السيطرة عليه"[3].

ويقول الجنرال دليني **Déligny** عما حدث خلال مقاومة 1864 من مجازر بالجنوب الوهراني: "كنا ندوس في طريق عودتنا على جثث قطعان قبيلة الأحرار، تنبعث منها رائحة كريهة، هناك أكثر من مائة ألف دابة تغطي سطح الأرض. لقد جاءت بقايا هذه القبيلة الكبيرة التي كانت تفتخر بعدد خيولها الأربعة آلاف وبمواردها الضخمة من شعير وإبل وبأغنامها التسعمائة ألف، جاءت بقاياهم إلى البَيَّضْ تطلب العفو والسلام"[4].

لقد ركز الفرنسيون على وسائل عيش السكان بالقضاء عليها تدميرا وحرقا لإجبارهم على الاستسلام جوعا، يذكر أحد الفرنسيين أنّ الفقر مس العرب(الجزائريين) بهذه المنطقة (واد الحمام) وذلك منذ مقاومة 1864، وأنّ الفرنسيين أخذوا كل ما وجدوه لتموين بلدة البيض. ويتحدث عن الحيوانات التي اضطر أصحابها إلى تركها، فمات العديد منها في الطريق مثلما مات أصحابها، لأنهم لم يستطيعوا الثبات بسبب أتعاب التنقل. ويواصل فيذكر أنّ الرجال تركوا نساءهم وأطفالهم بدون إعالة مما أدى إلى موتهم فيما بعد، وأنّ العدد القليل من العرب وحيواناتهم، الذين تمكنوا من الالتحاق بقبائلهم، وجدوا المزروعات قد أتلفها الجراد فسقطوا في أقسى أنواع المآسي[5].

ويقول: إنّه لا يجب أن ننسى أن سياسة "الأهْلِي" تعتمد أساسا على استعمال القوة. إنّ العطف والطيبة لا تكفي لاكتساب "الأهْلي"، إذا لم تعتمد على التفوق المادي، إذ سيظهر له ذلك ضعف وخوف"[6].

من خلال هذه النماذج الثلاثة من اعترافات الضباط الفرنسيين الذين عاشوا في فترة التوسع الأولى من الوجود الاستعماري الفرنسي؛ تتضح معالم تلك السياسة الإرهابية التي اتبعها أولئك المسئولون الفرنسيون ضد الشعب الجزائري، الذي كان آمنا في وطنه، يمارس حياته اليومية تحت ظل حكومة إسلامية، وحين غزته الجيوش الفرنسية قام يدافع عن نفسه، وكانت المواجهة غير المتوازنة بين الطرفين.

لم يكتف الفرنسيون بمواجهة المحاربين في ميادين القتال، ولكنهم عملوا على تدمير كل شي يتحرك على هذه الأرض الطيبة، لقد استحلوا دماء الشعب الجزائري كله، وراحوا يتفننون في التقتيل والتشريد، يذبحون الأشخاص ويحرقون الغلال ويدمرون البنايات.

وهم في كتاباتهم عن تلك الجرائم، يفتخرون بأعمالهم الإرهابية اللاإنسانية. لقد أقاموا معارض للدماء والأشلاء البشرية، هدفهم بث الرعب في نفوس السكان، وكسر شوكة المقاومة فيهم بأقسى أنواع الشدة والفظاظة. فالجنرال روفيغو الذي غزا قبيلة العوفية في ضواحي الجزائر، وهي نائمة مطمئنة في شهر أبريل من سنة 1832، وأبادها عن بكرة أبيها؛ يفتخر بهجومه عليها ليلا، بجيش نظامي يقوده ضابط كبير، ويحمل الأشلاء ويعرضها أكواما في باب عزون بالعاصمة. ويضع العملية في صورة البطولة التي تدعو إلى الفخر والاعتزاز، بينما هي في الحقيقة أقرب إلى عمليات سطو وقرصنة لقطاع طرق ومجرمين، لا يقف في وجههم عائق ولا تحد أعمالهم قوانين أو أخلاق.

كانت سياسة العنف مصاحبة للفرنسيين حيثما حلوا وارتحلوا، فقد كان دخولهم إلى أية منطقة من مناطق الجزائر معناه دخول التقتيل والتشريد والقهر، ومعناه المذلة والتقهقر الاقتصادي والاجتماعي. يقول فرانز فانون، وهو أحد منظري الثورة الجزائرية والمساهمين فيها: "لقد عاشت الجزائر بوصفها مستعمَرة تحت سيطرة بوليسية وعسكرية لم يسبق لها نظير في أية مستعمرة أخرى"[7].

لقد جاءت الأدلة والشهادات من الفرنسيين أنفسهم من خلال التقارير والرسائل التي كان يعدها ويبعثها الجنود والضباط إلى رؤسائهم وذويهم حول عمليات القمع والإبادة، إنهم بقايا جيش نابليون بونابرت الذي تدرب في ساحات المعارك بأوربا وجاء إلى الجزائر يكمل وينفذ ما تعلمه هناك، وما حاول أن يبدعه هنا ضد شعب أعزل، بعد أن استسلمت حكومة الدايْ وانسحبت من الميدان بعد اتفاقية الخامس من شهر جويلية سنة 1830.

الهوامش:

1- مصطفى الأشرف، ثلاث مراحل وثلاث مجرمي حرب، صحيفة الخبر ليوم 7 ماي 1996، نقلا عن مجلة أحداث، الصادرة باللغة الفرنسية.

2- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999، ص: 122.

3- أنظر: -Yves Lacoste, A. Noushi et A. Prenant, L'Algérie passé et présent, édition sociale, Paris 1960, P/271.

4- أنظر: -Djillali sari, Le désastre démographique, SNED, Alger 1982, P/199.

5-Djillali sari, IBID, P202.

6-IBID P/500.

7- فرانز فانون، من أجل إفريقيا، ترجمة محمد الميلي، ش و ن ت، الجزائر 1980، ص: 67.

أ – سعدو تالية– جامعة ابن خلدون– تيارت.

محرقة أولاد رياح – 18جوان 1845

ملخص المداخلة: شنت فرنسا الاستعمارية منذ أن وطئت أقدام ضباطها وجنودها أرض الجزائر حربا شاملة ومدبرة على الشعب الجزائري، ولعل أفضع الجرائم التي توصف بجرائم الإبادة الجماعية للسكان، تلك التي اقترفها المارشال "بيجو" وأعوانه في حق قبيلة أولاد رياح– محرقة غار الفراشيح بالظهرة– حيث أصدر أوامره للضباط كي يتصرفوا بدون شفقة ولا رحمة، وأكد لهم في رسالة بتاريخ 11 جوان 1845 بخصوص سكان منطقة الظهرة الذين تعودوا في أوقات الخطر اللجوء إلى المغارات قائلا: "إذا انسحب هؤلاء الأوغاد إلى مغارتهم فافعلوا بهم مثلما فعل "كافينياك" من قبل: أختنقوهم بالدخان الكثيف مثل الثعالب".

نفذت أوامر "بيجو" مرة أخرى في قبيلة أولاد رياح، وكان رجل هذه المحرقة الكولونيل "بيليسيه"، وفيما يلي وصف للمجزرة كما ورد في المجلة الإفريقية لسنة 1907م، العدد 51 من

خلال تقرير الكولونيل "بيليسيه" الذي أشرف بنفسه على المذبحة، والتقرير كتبه ضابط بقلمه في مكان المحرقة بتاريخ 22جوان 1845م، وسنقتطف منه بعض الفقرات:

يقول الضابط: "سيدي الماريشال، لقد أتيت كما أعلمتكم من قبل في رسالة مؤرخة في 16 جوان، تحت الرقم 05 لإقامة معسكري في "أولاد بلعمرية" عند قبيلة أولاد رياح (وهم أنصار الشريف بومعزة قائد المقاومة الشعبية بجبال الظهرة)، لقد حددت اختياري، وقررت أن أزحف ابتداء من فجر يوم 18 جوان على غار الفراشيح، هذا الملجأ الذي كما يرونه في كامل البلاد يستحيل بلوغه بالقوة، ويسمونه "جزائر الظهرة"، وبعد وصف الطريقة التي حاصروا بها المكان يواصل "بيليسيه" الحديث عن أسلوب تنفيذ الجريمة:

دعوت الفضوليين الذين يتجمعون ويلتفون في مثل هذه الحالات إلى الابتعاد، وأمرت الكابتن "رؤول" أن يستدعي رجال السخرة الذين التحقوا منذ حوالي ثلاث ساعات بفيالقهم، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، وبمجرد أن هممت بالانسحاب، انطلقت رصاصة من المغارة لتصيب فناصا من وراء "أورليان"، وعلى الساعة الواحدة كانت المراكز جاهزة للعمل، ولم أشأ أن استأنف إحراقهم قبل إنذار جديد، وأرسلت إليهم عبر المدخل السفلي وهو المنفذ الأقل خطورة، أحد المفاوضين الثلاثة الأوائل، والذي ترك المغارة مع أخيه رغم تردد الآخرين، بقي خمسة أرباع الساعة معهم دون أن يتزحزح أدنى تنازل، بلغت أقصى حدود الصبر.

على الساعة الثالثة زوالا اندفع الحريق في كل جهة، واستمر إلى الواحدة من صباح اليوم الموالي، وتمت معالجة النيران بحيث لا ينجو منها حتى الذين يحاولون الفرار، ولعلمي أن المدخل الرئيس قد يصلح لمحاولة يائسة عمدت إلى إقامة حاجز من أكياس البسكويت المملوءة بالتراب، ونصبت قطعة المدفعية على بعد 50 مترا من ذلك المدخل، وكانت النيران تسقط قطعا كبيرة من الجبس أمام المغارة، وبقدر ما كنت في تدمير، كنت أسعى لإحداث الرعب داخل المغارة من خلال إطلاق بعض القذائف التي ألحقت أضرارا بالمغارة، وتسببت شظاياها في هلاك الماشية المتزاحمة بالمدخل، أمرت بوقف القصف فلم يردوا علي إلا بنداءات حتى أمهلهم للبقاء مدة طويلة في مأمن، ولكن لسوء حظهم كان الأمر غير ذلك، لقد سببت كثرة النيران بالمغارة السفلى تدافعا قويا، وكاد الهواء الساخن أن يخنقهم جميعا.

اعتقدت أن الفوضى قد انتشرت بينهم عندما سمعت انفجارات متميزة داخل المغارة؛ فانتهزت الفرصة لإرسال مبعوث عاد ومعه بعض الرجال المنهكين الذين أخبرونا بحجم الخطر الذي حل بهم، ثم أرسلت الجند لإخراج من بقي حيا، وفقد الرغبة في التصدي لنا، وبعد جهود كبيرة تمكنا من إخراج خمسين رجلا مات بعضهم أثناء الإسعاف.

الحالة السائدة داخل المغارة أرغمتني لتوقيف هذا العمل، أثناء النهار خرج البعض منهم ويا للعجب كان بعض رجال القبائل يطلقون النار في وحشية على نساء حاولن الخروج بأنفسهن، جمعنا خلال يومين 110 شخصا، مات منهم تسعة أثناء الإسعاف، أما الآخرون فعادوا إلى بيوتهم ولكن أكثر من 500 هلكوا داخل الوهاد وأقسام المغارة الكبرى ذات الشكل البشع، "إنها سيدي الماريشال واحدة من تلك العمليات التي نفذناها رغما عنا، ولكن ندعو الله ألا نضطر أبدا لتكرارها.

ومن مصادفات الأقدار أن أكثرهم عنادا وتشددا قضوا نحبهم، وبخاصة أتباع الشريف بومعزة، وبين يدي الآن زوجة وبنت وابن الشيخ ابن نقاح من بني زروال، والذي كان خليفة الشريف بومعزة في المنطقة، هذا ما لدينا من المساجين.

إن الدرس المؤسف الذي تلقاه "أولاد رياح" ترك صدى كبيرا في البلاد، وهكذا فإن بني زنتي "وتازغاريت" كانوا يستسلمون جماعيا ببنادقهم وخيلهم، وكذلك ما بقي من قبيلة أولاد رياح، ثم يختم "بيليسيه" تقريره بتوصية خاصة للذين ساعدوه في هذه الإبادة الجماعية.

إن تقارير جنرالات الاحتلال التي كانت تبعث إلى أسيادهم كانت ولا تزال دليلا كافيا على جرائم فرنسا في حق الشعب الجزائري، وكان كل جنرالات فرنسا في الضراوة سواء من روفيقو إلى تريزيل، ثم كلوزيل وسانت أرنو ولاموريسر وبيليسيه وكافينياك وراندون وغيرهم.

---

* د. بن عتو بلبروات- قسم التاريخ- جامعة جيلالي اليابس- سيدي بلعباس.

التعذيب الفرنسي أثناء الثورة التحريرية 1954-1962م-

ملخص المداخلة: يندرج موضوع التعذيب الفرنسي أثناء الثورة التحريرية 1954-1962 ضمن جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ولا يعني هذا التحديد الزماني أن فرنسا لم تعرف التعذيب إلا مع اندلاع الثورة بل كل ما في الأمر أن التعذيب كوسيلة عنيفة لاستنطاق الجزائريين وتجميع

المعلومات، كان متزامنا مع حلول الاحتلال العسكري بالجزائر سنة 1830، واستمر على مدار القرنين التاسع عشر والعشرين، لكن اشتدت وتيرته في زمن الثورة التحريرية.

لقد لاحظنا أن التعذيب بحق الجزائريين والجزائريات كممارسة فعلية، تناقضت بشكل صارخ مع أقوال وادعاءات الفرنسيين الاستعماريين الذين حاولوا أن يقنعوا الجزائريين وشعوب العالم أن رسالتهم حضارية في الجزائر، وأن ثورتهم الديمقراطية القائمة على الإخاء، العدالة. والمساواة، لا تسمح لهم بفرض سيطرتهم على الآخرين، وأن الجزائريين هم الذين يناصبوهم العداء ويرفضون التحضر، وبالتالي لم يجد الفرنسيون والأوربيون المنتشرون بالجزائر إلا اختيار الدفاع عن أنفسهم كحق مشروع.

وفي ثنايا البحث انتبهنا إلى أن العنف كفكرة، متجذر وراسخ، لدى العديد من الشخصيات السياسية والعسكرية والفكرية، الفرنسية، ويمكن لنا ذكر مقتطفات من تصريحاتهم التي لا نراها سوى استدلالا على فكرتنا فمثلا يقول بيجو **Bugeaud**: " قبل أن نحكم وننتصر، يجب على الأهالي أن يقبلوا قواتنا. هناك ألف دليل على أنهم لا يقبلوننا إلا بالقوة...فإذا استمرينا في مراعاة الشعور الإنساني، ستظل الحرب في إفريقيا قائمة إلى الأبد، وفي هذه الحالة لا نستطيع إدراك هدفنا الوطني." وتعزيزا للفكرة يقول الدكتور بوديشون **Bodichon** :" نستطيع أن نحارب أعداءنا الإفريقيين بالنار والبارود، وإثارة الفتن بين القبائل، وهو الطريق الأسهل." ثم نصادف تصريحا مماثلا لأسقف الجزائر سنة 1844 مفاده أن المجتمعات لا تتقدم إلا بالدماء والدموع. والتصريحات التي تصب في هذا السياق كثيرة، ولهذا نجد ترجمة فعلية لهذه التصريحات عندما نتتبع أدوار الحروب الفرنسية في الجزائر من قتل جماعي دون تمييز سواء بالرصاص أو بالذبح أو بالحرق مثلما حدث لأولاد رياح بالظهرة سنة 1845 تحت عنوان محرقة الفراشيش، وما جرى لسكان الأغواط سنة 1853 الذين ذبحوا وألقي بهم في آبار المدينة وضواحيها.

اكتشفنا أن موضوع التعذيب، موضوع معقد ومتشعب وينطوي على العديد من القضايا التاريخية، لذلك ارتأينا التركيز على نقطتين علميتين في مداخلتنا، الأولى تتعلق بمراكز التعذيب وحجم انتشارها أثناء الثورة التحريرية، وتوصلنا إلى النتائج الآتية:

– تلازمت عملية نشر مراكز التعذيب عبر التراب الجزائري مع العمليات العسكرية للثورة الجزائرية.

– انتشرت مراكز التعذيب، ضد الجزائريين والجزائريات، عبر أقاليم الجزائر، في المحتشدات والمعتقلات والمزارع ومعاصر الخمر والفيلات الكولونيالية والثكنات...وكانت تقام بطريقة سرية.

– توحي لنا خريطة انتشار مراكز التعذيب عن التعداد الهائل للمعتقلين الجزائريين، وأن الاحتلال الفرنسي رأى في الاعتقال العشوائي والتعذيب، طريقة سهلة لتطويق النشاط الثوري ومن ثمة القضاء عليه في فترة وجيزة.

أما النقطة الثانية فركزت على أساليب التعذيب بغرض استنطاق المعتقلين، ووجدنا أن الدراسات التاريخية تميز بين صنفين من التعذيب، تعذيب نفسي يبدأ من طريقة الاعتقال التي قد تكون طريقة مرعبة، فمثلا يتم اقتحام المنازل عنوة وليلا ولا يترك للمعتقلين فرصة ارتداء ملابسهم، ثم يتواصل التعذيب النفسي في المعتقل حيث يمر الضحية بعملية غسل المخ، ولما يرفض الإدلاء بمعلومات مفيدة ومحددة، يقدم له أطباء عسكريون، عقارا عن طريق الحقن في الوريد–وهو من العقارات المحرمة دوليا– فتظهر عليه علامات التنويم المغناطيسي، وهنا تطرح عليه أسئلة محددة، فيجيب عنها، وبالتالي تتلاشى روح مقاومته ويصير سهلا للانقياد. ولعل غاية هذا التعذيب النفسي هو إقناع المعتقل الجزائري بشرعية وصواب السياسة الفرنسية بالجزائر، ودعوتهم للتعاون مع الفرنسيين للقضاء على جبهة وجيش التحرير الوطني.

أما الصنف الثاني فهو التعذيب الجسدي، فوجدنا أن الكتابات التاريخية قد رصدت لنا عدة أساليب، وكل أسلوب ينطوي على طرق، تعبر جميعها عن وحشية المدرسة الاستعمارية الفرنسية، وحجم الأضرار التي لحقت بالجزائريين والجزائريات. ويمكن ذكر هذه الأساليب والطرق التعذيبية كالآتي:

– التعذيب بالكهرباء بواسطة آلة "جن جن" بدرجة 220 فولت، وكانت توضع الخيوط الكهربائية في الأماكن الحساسة للجسد مثل العضو الجنسي، أسفل اللسان، شحمة الأذن، الثدي وغيرها.

– التعذيب بالماء بطرق عدة.

- التعذيب بأسلوب التعليق المنكس.
- التعذيب بالحشرات والأفاعي والكلاب.
- التعذيب بالكلاليب واقتلاع أعضاء جسدية مثل الأظافر والأسنان والأضراس.
- التعذيب بالنار.

وما تجدر الإشارة إليه أن أشكال التعذيب لا تتوقف عند ما ذكرناه سلفا، فقد كان المعتقلون يؤمرون بالزحف على بطوهم وإلا يتعرضون للضرب المبرح، ويجبرون على الوقوف لساعات، وحلق أذقانهم كل صباح، وأكل لحم الخنزير في رمضان وشرب الكحول وإتيان الفاحشة، وشرب المياه المتعفنة، والجري على الزجاج، والأمثلة بشأن أساليب التعذيب عديدة.

وفي الختام يمكن التأكيد أن التعذيب الفرنسي بالجزائر زمن الثورة التحريرية كان يمثل صورة واضحة للدرجة الوحشية الفرنسية وجزءا من جرائم الدولة الفرنسية بحق الجزائريين المدافعين عن أرضهم وكرامتهم وحريتهم، وكانت كل سنة تنقضي من عمر الثورة إلا ويتصاعد عدد مراكز التعذيب عبر ربوع القطر الجزائري حتى أن الإحصائيات تفيدنا أنه وصل عددها إلى 2600 مركز سنة 1961 ناهيك عن المراكز الغير مسجلة رسميا بطريقة عمدية، وبمعنى آخر نلاحظ أن فرنسا قررت تعذيب ثلث السكان الجزائريين الذين بلغ عددهم عشرة ملايين نسمة عشية الاستقلال، وحينها لا بد أن يستيقظ الضمير العالمي ويقرر محاكمة الأنظمة الاستعمارية التي اقترفت جرائم بحق الإنسانية، وقد يكون هذا تطورا مذهلا في مسيرة الفكر السياسي العالمي من جهة وإرساء للأمن والسلم من جهة أخرى.

---

* الأستاذة فاطمة حباش- قسم التاريخ- جامعة ابن خلدون- تيارت.

- "انتفاضة سكان الظهرة 1845/1847م".

بعد تراجع مقاومة الأمير عبد القادر بفعل تأثير سياسة بيجو المدنية والعسكرية اتخذت المقاومة طابع الانتفاضات والثورات الشعبية بزعامة شخصيات دينية ادعت فكرة المهداوية، منها انتفاضة منطقة الظهرة بقيادة الشريف بومعزة الذي تشير أغلب المصادر أن أصوله تعود إلى المغرب الأقصى من أتباع الطريقة الطيبية اسمه الكامل محمد بن عبد الله بن وداح، نزل بالجزائر مع منتصف ثلاثينات القرن 19 وقضى فترة إقامته إلى غاية 1845 في التعبد والتدين فانتشرت

بذلك شهرته الدينية في كامل مناطق حوض الشلف والونشريس والظهرة مما حفزه إلى دعوة القبائل إلى الجهاد ابتداء من 1845 مستندا على عوامل ارتبطت بسياسة بيجو منها

1*- الحملات العسكرية الموجهة ضد القبائل والأعراش ابتداء من 1841 بنية إخضاعها وتأديبها والتي تعرض على إثرها السكان إلى التقتيل الجماعي والتشريد.

2*- تبني بيجو في 1843 ترتيب عسكري قاضي بإنشاء مراكز عسكرية كخطوط دفاع وإحكام السيطرة على القبائل ومن بين هذه المراكز مركز أرنفيل الذي تولاه الجنرال سانت آرنو وأشرف هناك على عدة مشاريع استيطانية منها تهيئة 50 هكتار لزرع للحبوب وحفر الآبار وفتح الطرقات الأمر الذي تطلب مساحات واسعة من الأراضي تم الاستيلاء عليها بفعل إجراءات المصادرة في حق القبائل مما ولد لها حالة من الحقد.

3*- سياسة بيجو المدنية القاضية بإنشاء المكاتب العربية 1844 كوسيط بينهم وبين الأهالي مستندين في ذلك على الزعامات الأهلية التي دجنت لخدمة الاستعمار متخذه ألقابا مختلفة كالقايد والخليفة والآغا، ونظرا لسوء هذه الإدارة بفعل غطرسة وتعسف موظفيها مع الأهالي ولدت لهؤلاء الرغبة في الانتقام.

إذن هذه الظروف والأوضاع استغلها بومعزة وارتكز عليها في ثورته التي اتبع فيها استرتيجية حربية كالتالي:

1*- الشروع في الدعاية والإعلام ابتداء من ماري 1845 عندما نزل عند الحامد اليونسي من السواحلية إحدى فروع أولاد يونس، هذا الأخير رحب به وأقام له ضيفة جمع فيها كل أعيان المنطقة لنصرته، بإضافة إلى توجيه رسائل إلى كامل الظهرة فحصل بذلك على الدعم وزود بالأموال والأسلحة .

2*- الشروع في العمليات العسكرية متبعا نمط حرب العصابات والهجومات الخاطفة ضد الفرنسيين وعملائهم من الجزائريين نجد منها شن غارة على قايد مديونة الحاج الصادوق وعلى قايد الصبيح الحاج بلقاسم وقتلهما في أفريل 1845 وتكرر نفس المصير مع آغا الورسنيس الذي قتل قرب مازونة في 16 جويلية و آغا الصبيحات الذي قتل بدوره عندما كان في مهمة تحصيل الضرائب. وبنفس النمط استهدف مصالح الفرنسيين منها الهجوم على مرفأ تنس وتحطيم معسكر المضايق وقتل ضابط المكتب العربي لتنس بيتريكس في 1845/4/20 وفي

1845/4/22 تم الهجوم على فرقة عسكرية كانت تعسكر قرب واد الفضة وكبدوها خسائر، كما تعرضت قافلة متجهة من تنس إلى الأصنام لهجوم قرب واد علال يوم 1845/4/23 .

3*- لم يكتف بومعزة في نشاطه الثوري على أسلوب الكر والفر وإنما تواجه مع القوات الفرنسية في معارك منها معركة عين مران في 1845/4/14 حيث كان متوجها إلى الصبيحات واعترضه سانت آرنو الذي تمكن من قتل 60 رجلا وأسر 15 من أتباع بومعزة وإعدامهم، إضافة إلى معركة البعل في 1845/4/18 التي تواجه فيها سانت آرنو مع أتباع بومعزة من أولاد يونس، ومعركة أخرى التقى فيها الشريف بومعزة مع ضابط المكتب العربي لتنس لاباسي قرب تاجنة في مطلع 1846 .

ولابد من الإشارة أن قوة ثورة بومعزة دفع الفرنسيين إلى ارتكاب المجازر في حق أتباعه منهم سكان مازونة الذين تعرضوا لهجوم من طرف سانت آرنو في 1845/4/15م، وعاث فيها فسادا بمدينتهم، كما نجد المجزرة التي ارتكبها بليسي ضد أولاد رياح يوم 1845/6/17م، ونفس العمل الشنيع قام به كافنياك في حق عرش الصبيح.

وفي الأخير يمكن القول إن جهاد بومعزة لم يقتصر على الظهرة بل تعدى إلى مناطق أخرى ليشمل فليتة وجبال ديرة بسور الغزلان والصحراء مرورا بالأحرار وأولاد خليف بتيارت ثم أولاد نايل وأولاد جلال كما انضم إلى الأمير لفترة ووحدا نشاطهما.

---

* د. وادان بوغفالة- قسم التاريخ- جامعة معسكر.

- إستراتجية مقاومة الاستعمار عند الشيخ بوعمامة وأتباع الطريقة الشيخية.

ملخص المداخلة: أسس الشيخ بوعمامة بالمقرار التحتاني زاوية على طريقة أجداده حوالي عام 1875، وكان يظهر في دروس الوعظ والإرشاد التي يقدمها النزعة الاستقلالية؛ الأمر الذي دفع ضباط المكاتب العربية إلى عدم الاطمئنان إليه واتهامه بالتحريض، وطالب حكام تلمسان وسعيدة ومعسكر باعتقاله عام 1880م. لقد ذاع صيت الشيخ بوعمامة وانتشر أتباعه في هذه المناطق، وتبوأ مكانة هامة ومنزلة رفيعة بين الناس جعلت الفرنسيين يترددون في اعتقاله خوفا من ثورة أتباعه.

وتعتبر ثورة الشيخ بوعمامة من أهم ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، وتعود الأسباب الداخلية لهذه الثورة إلى سياسة الاحتلال الفرنسي في المنطقة والآثار السيئة التي خلفتها فيها. أما

الأسباب الخارجية فتعود إلى تجاوب الشيخ وتفاعله مع دعاة الخلافة الإسلامية وفكر النهضة العربية والإسلامية بزعامة جمال الدين الأفغاني والسلطان عبد الحميد الثاني.

لقد اتبع الشيخ بوعمامة في مقاومته للاستعمار إستراتجية عسكرية قائمة على مباغتة العدو وإرهابه وشق صفوفه، وتدعيم الصف الوطني وتثبيت روح الانضباط لدى الأنصار والأتباع. ورفض الشيخ الاستسلام للعدو، وظل يقاتله حتى وافته المنية عام 1908م بعدما لقب بالأمير عبد القادر الثاني.

لقد امتدت ثورة بوعمامة وعمت كل الجنوب الوهراني وهددت المناطق الشمالية؛ وهو الأمر الذي جعل السلطات الفرنسية تسارع إلى حماية التل من امتداد الثورة إليه واكتساحه. وانتقمت في أعقاب الثورة من منطقة ميزاب؛ لأنها ساندت الشيخ بوعمامة وقدمت له يد العون، فأخضعت هذه الجهات إلى سلطتها المباشرة وألغت الحكم الذاتي الذي كانت تتمتع به بموجب اتفاقية راندون 1853م.

الخصائص الثورية لمقاومة الشيخ بوعمامة:

- إلحاق الخسائر المادية والبشرية بفرنسا والأوربيين
- شق الصف الفرنسي وتدعيم الصفوف الوطنية
- تثبيت روح الانضباط لدى الأنصار
- إثارة الرعب بين صفوف أعوان فرنسا والتبشير بالثورة
- الطابع الوطني للثورة
- التدرج في التصعيد العسكري
- مباغتة العدو ومجابهته في قواعده العسكرية
- خلط أوراق العدو وإرغامه على ارتكاب بعض الحماقات
- الإصرار على مواصلة الثورة رغم الانسحاب إلى المغرب الأقصى
- تفضيل المنفى على الاستسلام

غار الفراشيش: موقع المحرقة الاستعمارية
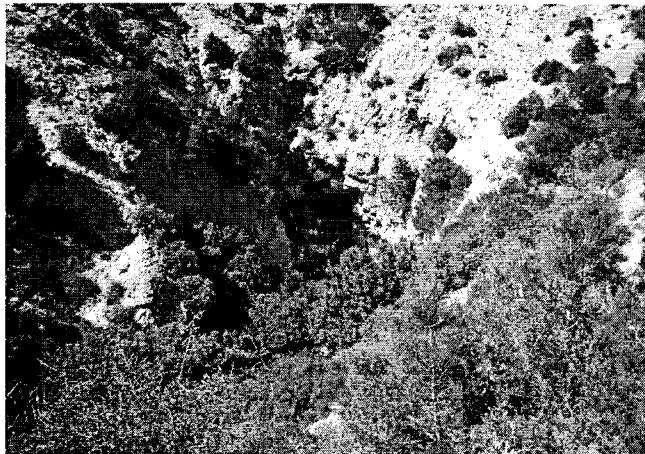
صوت الغرب

مختصون يتدارسون جرائم الإستعمار الفرنسي لمستغانم

الإصدارات الجديدة

*عنوان الكتاب: المؤنس في مصادر تاريخ المغرب والأندلس

المؤلف: الأستاذ الدكتور عبد القادر بوباية- أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.

دار النشر: كوكب العلوم للنشر والتوزيع- الجزائر.

تاريخ النشر: الطبعة الأولى- 2011م.

مقدمة: كان الفتح الإسلامي لبلاد المغرب بداية عهد جديد شهد فيه هذا الجزء من العالم الإسلامي نقلة نوعية مكنته من التخلص من الاستدمار الثلاثي القديم، كما سمحت له بلعب دور بارز في تاريخ البلاد الإسلامية إذ كان المغاربة في طليعة الفاتحين لربوع بلاد المغرب فضلا على دورهم الرئيس في فتح شبه جزيرة إيبيريا وأجزاء أخرى من القارة الأوروبية.

ساهم المغاربة كذلك في التطورات السياسية والحضارية التي شهدها هذا الجزء من العالم الإسلامي من تاريخ فتحه إلى نهاية الوجود الإسلامي بالعدوة الأندلسية وبداية التحرش الإسباني البرتغالي على سواحل شمال إفريقيا.

إن التفاصيل المتعلقة بتاريخ المغرب الإسلامي تضمّها مظان عديد المؤلفات التي أنجزها مؤرخو وكتاب المسلمين وغيرهم طيلة الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، ولذلك فإن أي عملية لإحياء هذا الماضي تقتضي من الباحث رصد كل ما أنجزه السلف عن مختلف مناحي الحياة التي عاشها هؤلاء سواء تعلق الأمر بالحياة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية والعلمية.

ومن أجل مساعدة الباحثين الشباب المقبلين على هذا العمل، وبخاصة منهم طلبة الماجستير سعيت من خلال هذا العمل إلى رصد وعرض أهم المصادر التي تساعدهم على إنجاز بحوثهم في مجال تاريخ المغرب الإسلامي.

وكان هذا العمل في الأصل مجموعة المحاضرات التي ألقيتها على طلبة الدراسات العليا في كل من قسم التاريخ وقسم الحضارة الإسلامية بجامعة وهران السانية والمركز الجامعي ببشار (جنوب غرب الجزائر)، والمركز الجامعي مصطفى اسطمبولي بمعسكر، وقد دأبت على تنقيحها، وإضافة كل جديد عقب نشر وتحقيق المخطوطات الثمينة التي تزخر بها كثير من الخزائن والمكتبات في الوطن العربي أو غيره من البلاد التي تحوي مؤلفات العرب والمسلمين.

يتضمن هذا العمل رصدا لجلّ المصادرِ التي لها علاقة بتاريخ المغرب الإسلامي، وأعني بهذا المصطلح بلاد المغرب والأندلس، حيث أعرّف بمؤلف المصدر، وتاريخ وفاته، وأهم محتويات الكتاب مع التركيز على كل ما له علاقة بتاريخ المجال الجغرافي المحدد آنفا.

ومن أجل إنجاز هذا العمل، وتقديمه في صورة مجملة ومفيدة، عدت إلى مقدمات مختلف المصادر المطبوعة الواردة في هذا البحث لأستقي منها دوافع التأليف ومحاوره الرئيسة، إضافة إلى ما جاء في مختلف الدراسات التي أنجزها من سبقني في هذا المجال، والتي سترد المعلومات المتعلقة بها في هوامش البحث.

وقد اتبعت التسلسل الزمني في عرض مختلف المصادر، وذلك من أجل تسهيل المهمة على الباحثين، حيث قسمت المصادر حسب تاريخ وفاة مؤلفيها بداية من القرن الثالث الهجري الذي يمثل بداية التدوين التاريخي عند المسلمين، ووصلت إلى القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) الذي شهد آخر المؤلفات المتعلقة بتاريخ المغرب الإسلامي، والمعتمدة بشكل أساسي على جملة من المصادر المفقودة والناقصة.

يتضمن الكتاب عرضا لأزيد من مائتي مصدر من المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية وغيرها، والتي تضمنت أخبار عن تاريخ المغرب الإسلامي من تاريخ فتحه إلى سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م.

* عنوان الكتاب: النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط

– المؤلف: الدكتور سعيد بنحمادة

– دار النشر: منشورات الزمن

– تاريخ النشر: الطبعة الأولى– 2011م.

تعتبر المسألة التعليمية رهانا حضاريا دون منازع، ومدخلا من مداخل التحول والحراك الاجتماعيين، يجعلها بحق رافعة للتنمية المستدامة، ولاستجلاء تلك الأهمية لا بد من تنويع المقاربات والمناهج، ومنها المقاربة التاريخية التي من شأنها إغناء النقاش العمومي حول تاريخ نجاحات النظام التعليمي وإخفاقاته، وأسبابها وطرق تجاوزها.

إن مجال البحث التاريخي لم يعد ضيقا، وإنما تنوعت تضاريسه واتسعت حدوده وآفاقه لتتداخل مع باقي الحقول المعرفية الأخرى؛ أضحى معها المؤرخ ملزما، لكي يؤمّن "مستقبل الكتابة التاريخية في زمن العولمة"، أن يجدد مناهجه وأدواته ومفاهيمه واهتماماته لتساير ذاكرة المجتمع وحاضره وآفاقه.

فالاقتصار على التاريخ الحدثي، لم يعد يحقق الاحترام الرمزي للمؤرخ وللسؤال التاريخي الذي قد يفقد بسبب ذلك وظيفته الحضارية. وإن ما يحقق للمؤرخ مكانته هو تشفير البنية العميقة للمجتمع والاقتصاد والثقافة في العصور السابقة.

وبناء على هذه الرؤية أصدر الباحث الدكتور سعيد بنحمادة كتابه "النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط"، من منشورات الزمن، ضمن سلسلة قضايا تاريخية عدد 12، لعام 2011م؛ في محاولة لرصد بعض الجوانب الثقافية وعلاقتها بالتحولات السياسية والاجتماعية للمغرب والأندلس؛ ولما للموضوع، في نظره، من راهنية، وقيمة معرفية ومنهجية، تمنح للمؤرخ المشروعية في اقتحام مثل هذه القضايا الآنية ذات الحساسية الاجتماعية.

والنظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط ، كما رسم ملامحه المؤلف في هذه الدراسة، لم يكن مجرد رصيد معرفي يلقن للمتعلم، وإنما كان عبارة عن اتجاه وفلسفة وسياسة متبعة، لمّا ارتبط بالمدارس، على حساب الرحلة العلمية التي اقترنت بطرق ومناهج تعليمية مختلفة عن تلك التي تعلقت بالتعليم المدرسي.

وتبعا لذلك فالمدرسة النظامية المغربية الوسيطية، كما يفهم من قراءة هذا الكتاب الممتعة قراءته، اتخذت معاني تقنية وحضارية متداخلة لكونها كانت إفرازا لوضع اجتماعي وقانوني وديني وسياسي، وتحكمت بذلك في "سوسيوجيا الأطر" التي تخرجت منها من حيث علاقتها بالمجتمع والدولة والنظام التعليمي ذاته.

كما أن ذلك النظام التعليمي لم يكن بمحيد عن المجتمع والسياسة، بل تأثر سلبا ووجوبا بالتحولات التي عرفها المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، بسبب تعاقب الدول واختلاف مذاهبها والأزمات الدورية التي كانت تظهر وتختفي بين الفينة والأخرى، وهو ما جعل التعليم يسهم في الحراك الاجتماعي آنذاك.

وقسّم الباحث هذه الدراسة إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة وملحق. أما المقدمة فهي تأطير إشكالي للموضوع. وأما الفصل الأول فيتعلق بموقف المجتمع والدولة من التعليم، في حين خصص الفصل الثاني للنظام التعليمي بين الرحلة العلمية والمدرسة النظامية، والفصل الثالث للحياة المدرسية، والفصل الرابع لسوسيولوجيا المدرسة، والفصل الخامس للنظام التعليمي بين الواقع ومشروع الإصلاح، والخاتمة هي بمثابة تجميع للخلاصات. وأما الملحق فهو وثيقة تركيبية حول ما أسماه المؤلف بالنظام الداخلي للمدرسة.

إذا كان المؤلف قد حاول إبراز بعض الجوانب المرتبطة بالتعليم، فإن هدفه من ذلك تأكيد الأهمية التاريخية للموضوع؛ فالحديث عن موقف المجتمع والدولة من المسألة التعليمية بالمغرب والأندلس، والرحلة العلمية والتعليم المدرسي، والحياة المدرسية، وسوسولوجيا التعليم، والمشاريع الإصلاحية، كلها قضايا لا زالت —حسب رأيه- تدخل في اللامفكر فيه لدى المعنيين بالبحث التاريخي، رغم أهميتها في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي خلال العصر الوسيط

ومن خلال الدراسة يتبين الموقف الإيجابي الثابت لكل فئات المجتمع والدولة من المسألة التعليمية، وقيمة الرحلة العلمية في المنظومة التعليمية الوسيطية قبل أن تتراجع ليحل محلها التعليم المدرسي النظامي المرتبط بالتحولات السياسية والاجتماعية والمالية للمغرب والأندلس، مما يعني أن التعليم لم يكن حياديا، وإنما ما ظل في بؤرة التجاذبات.

أما المناهج والطرق فاختلفت باختلاف الأسلاك، والغايات المرسومة للتعليم، والكفاءة للمهنية لهيئة التدريس.

والخلاصة الأساسية التي انتهى إليها الكتاب أن التعليم من "طبائع العمران" يتقدم بتقدمه ويتخلف بتخلفه؛ فكلما تطورت الحضارة إلا وأثرت إيجابا على المسألة التعليمة، وكلما حصل التراجع إلا واندحرت المنظومة التعليمية، وهو ما أبرزه المؤلف من خلال الوقوف على بعض المعالم الإيجابية لنظام التعليم أيام ازدهار الخلافة الأموية بقرطبة والدولة المرابطية والموحدية والمرينية بالمغرب، على خلاف المراحل الأخيرة من العصر الوسيط التي تقهقر فيها التعليم متأثرا بتراجع الاقتصاد والمجتمع والثقافة وقتئذ.

ومثل هذه القضايا هي مثار جدل واسع بين المهتمين بالمسألة التعليمية في الوقت الراهن، وهو ما يعطي للبحث التاريخي، في تقدير الذكتور سعيد بنحمادة، مكانته في الواقع المعاصر، ويكسب بعض القضايا التاريخية راهنيتها.

ولذلك لم تعد أدوات اشتغال المؤرخ واهتماماته قاصرة على التذكير بالماضي، وتتبع قيام الدولة وسقوطها، وإنما التنبيه على أخطاء الماضي المعيقة لتطور الحاضر والمانعة من استشراف المستقبل، من خلال اقتحام المنسي والمسكوت عنه واللامفكر فيه من القضايا الدفينة، عبر زمن حضاري طويل ومندمج. يقول المؤلف: "تاريخ الحضارات هو تاريخ أخطائها إذا ما استعرنا مقولة "غاستون باشلار"، ومن خلاها نقول إن تاريخ التعليم في المغرب هو تاريخ أخطائه، وأن لا حل لأخطاء اليوم إلا باستحضار أخطاء الماضي لتجاوز أخطاء المستقبل، ولعمري هذا ما يدخل في صلب اهتمام المؤرخ باعتباره "مثقفا عضويا" ذا رؤية نقدية للمجتمع بتعبير غرامشي".

* عنوان الكتاب: "الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني وتصدِّيه للخطر اليهودي بصحراء توات والصقع السوداني"، في جزئين.
- المؤلف: عبد الله حمّادي الإدريسي.
- دار النشر: مؤسسة "ابتكار للنشر والتوزيع"-أولاد جلال- بسكرة.
- سنة النشر: 1432هـ/2011م.

جمع المؤلف في هذا الكتاب نبذة من أخبار أحد أعلام الجزائر، وهو الإمام الهمام أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، المولود بمدينة تلمسان في حدود 830هـ/1426م، وفيها تضلع من العلوم بها وبغيرها من حواضر العلم بالشمال الجزائري كبجاية والجزائر، ثم دفعته الظروف إلى الهجرة نحو بلاد توات، وذلك في حدود سنة 870هـ/1465م أو قريبا منها.

لقد تناول كثير من المؤلفين سيرته؛ فمنهم من أيده في بعض آرائه ومنهم من عارضه، وبخاصة في موقفه من يهود بلاد توات، إذ قد أفتى بإهدار دماء يهود البلاد المغاربية زمانه، ومصادرة أموالهم وسبي ذراريهم ونفيهم من الأرض، وهدم كنائسهم، ومنها مثار القضية أصالة كنيستهم الوحيدة التي أحدثها سلف يهود بلاد توات منذ عصور خلت بمدينة تمنطيط قاعدة البلاد التواتية يومها.

كان قراره وحكمه في حق هذه الطائفة اليهودية مبنيا حسب نظره على نقضهم الذمّة الشرعية، من ظهورهم بغير مظاهر الذلة والصغار، وعدم التزامهم بالقصة والخف الأسود والزنّار، وإحداثهم الكنائس ببلاد الإسلام، ونحو ذلك مما هو مبسوط في كتب الفقه والسياسة الشريعة الإسلامية مما يتعلق بأحكام أهل الذمّة.

كان ذلك في حدود سنة 897هـ/1492م، وقد أثار القضية قبل هذا التاريخ، فقاتل من عارضه من أولئك اليهود ومن ناصرهم من الأعيان التواتية، وهم من كان يهود توات يسمونهم بـ"الغلائف"، وألزم تلك الطائفة اليهودية بهدم الكنيسة، وإجلائهم من البلاد التواتية وجهاتها، وكان سبب غطرسة اليهود مع ضعفهم العسكري يومها وقوتهم المالية هو اغترارهم بما كانوا يهدونه من أموال إلى أنصارهم، الأمر الذي جعل هؤلاء

الغلائف يغضون الطرف عن مخالفاتهم لأحكام أهل الذمّة الشرعية وظهورهم بمظاهر أهل الإسلام من ملبس ومركب وتوليهم الولايات ومباشرتهم شؤون المسلمين ونحو ذلك.

لقد لقي المغيلي بسبب موقفه هذا من يهود توات معارضة من قبل أنصارهم ("الغلائف")، وكان هؤلاء يستندون في معارضتهم للمغيلي ودفاعهم عن يهودهم إلى فتاوى طائفة من علماء البلاد التواتية وعلى رأسهم العلامة الجليل القدر قاضي بلاد توات يومها سيدي أبي محمد عبد الله بن أبي بكر العصنوني التواتي نزيل تمنطيط بها المتوفى سنة 927هـ/ 1520م، وهو الذي عارض الإمام المغيلي في مذهبه في النازلة اليهودية المذكورة عن اجتهاد وتحري الحق والصواب؛ فاجتهد هذا القاضي العصنوني في النازلة وفق أصول وفروع المذهب المالكي، وقد عضّد مذهب العصنوني طائفة من علماء الأمصار بأنه لا يجوز هدم كنيسة اليهود بتوات وبغيرها من بلاد الصحراء وأنهم ليسوا بناقضي الذمّة كما زعمه المغيلي، ومن هؤلاء العلماء المعارضين للمغيلي: الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري التلمساني(ت899هـ/1493م)، والشيخ أبو زكريا يحي بن عبد الله بن أبي البركات الغماري التلمساني (ت910هـ/ 1504م)، والشيخ عبد الرحمن بن سعيد التلمساني، والشيخ أبو إسحاق ابراهيم بن هلال السجلماسي(ت903هـ/ 1497م)، والشيخ أبو مهدي عيسى بن أحمد الماواسي الفاسي(ت896هـ/1490م).

وفي المقابل وقف إلى جانب المغيلي في نازلة يهود بلاد توات كل من: الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي، والشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي التلمساني، والشيخ أحمد بن يحي الونشريسي، والشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم الرصّاع الأنصاري، وقد نقل أحمد الونشريسي المذكور في معياره النوازلي كل تلك الفتاوى في النازلة اليهودية التواتية بما فيها سؤال القاضي العصنوني المذكور.

وبعد فراغ المغيلي من قتاله ليهود توات وهدم كنيستهم بتمنطيط، وإجلائهم منها كلية، بعد أن بايعه إماما ورئيسا جل أعيان وأهالي هذه البلاد التواتية وجهاتها، استخلف ابنه محمد وليس عبد الجبار كما يظنه البعض على إمارة البلاد التواتية وتخومها، ورحل سنة 897هـ/1491م مصلحا ومرشدا وداعية إلى الله تعالى إلى بلاد السودان الغربي، يتجول بين ممالكها وحواضرها الشهيرة يومها مدة تزيد على سبع سنوات؛ فأثر بفكره في سياسة تلك الممالك الإسلامية، مبينا لساستها وسلاطينها أمور وأحكام الدولة

الإسلامية، وواجبات الراعي اتجاه الرعية، وحذرهم من خطر اليهود؛ فقام أهالي هذه البلاد بطردهم من بلادهم، والتشديد عليهم بالضرب على أيديهم، وعدم السماح لهم بالتجارة في بلادهم، وإن قاموا بذلك فدماؤهم ونساؤهم وأموالهم حلال، فتفرقوا في البلاد.

وأثناء مقامه بالبلاد السودانية، رحل لأداء فريضة الحج في نحو سنة 904هـ/1498م ذهابا، و905هـ/1499م إيابا أو بعيد هذا التاريخ رفقة تلميذه عمر الشيخ جدّ الكنتيين أصحاب الزاوية الشهيرة اليوم بإقليم أزواد من مالي.

وإثر قفوله من حجته، وصله نعي ولده محمد الذي قُتل غدرا ببلاد توات على أيدي بعض طغاتها وسفلتها الأشقياء من المتشوفين للزعامة والرياسة؛ فكان السلطان أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر تحت رهن إشارة إمامنا المغيلي عندما التمس منه أن يلقي القبض على الجالية التواتية بمدينة كاغو[ڤاغو]عاصمة مملكة سنغاي يومها، وهذا ما يؤكد اتهامه لأعيان توات يومها بقتل ولده كما صرح به الكنتي في الطرائف والتلائد لا كما زعمه بعض المؤرخين لسيرته أن يهود توات هم من قتلوه، إذ كان قبل رحيله من بلاد توات قد أجلى منها من بقي منهم حيا كلية قائما بمحمو آثارهم منها إلا من أسلم منهم وحسن إسلامه، لكن سرعان ما تنازل المغيلي عن قراره عملا بنصيحة العلامة السوداني أبي المحاسن محمود بن عمر بن محمد أقيت؛ فأطلق السلطان المذكور سراح من ألقى عليهم القبض من التواتيين طاعة للمغيلي مرة أخرى.

وإثر استشهاد ولده محمد، رجع المغيلي إلى ديار توات مستطلعا للمستجدات والتغييرات السياسية الطارئة على إمارته؛ فما إن وصل إليها حتى وجد في انتظاره زعيما تواتيا ينازعه، وهو الشيخ عمرو بن عبد الرحمان التمنطيطي التواتي من آل سيدي علي بن موسى الأشراف الأدارسة، وقد جمع هذا الرجل قوة بشرية ومادية لمجابهة المغيلي وانتزاع الزعامة من يديه؛ فما كان من المغيلي إلا تجميع شيعته ومناصريه من جديد لقتال المخالفين له غير أن القدر شاء أن ينتصر عليه الخصوم، فاختار العزلة في زاويته بقصر وادي الحنة بوادي بوعلي من بلاد توات جنوب تمنطيط، واشتغل بتعليم القرآن وعلوم الدين والتأليف إلى أن توفي سنة 909هـ/1503م.

ذيل المؤلف كتابه بفصل جعل الحديث فيه عن تاريخ بلاد توات وجهاتها سمّاه: "الفوات منْ تاريخ توات وما تاخمها من صحاري الجهات"، استدرك فيه المؤلف ما فات مؤرخي هذه البلاد المتقدمين منهم أو المتأخرين ذكره وبيانه، وكان الذي أحوجه إلى هذا الفصل هو دراسة كثير من جوانب سيرة الإمام المغيلي وأفكاره، والتي لا يتم تبيين خفاياها إلا بمعرفة أحوال هذه البلاد التواتية وجيرتها الموالية إذ كانت دار هجرته وثورته على يهودها وغلائفهم،كما كانت أيضا دار إمارته الفتية، فبحث المؤلف عن تاريخ اختطاط هذه البلاد التواتية الصحراوية، وتتبع أهم مراحلها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية منذ نشأتها إلى زمن نشوتها.

كما ذَيّل المؤلف كتابه أيضا بثبت لمصادر ومراجع مادته سمّاه: "دليل مؤرخ توات وصحرائها من جميع الجهات"، رتبه ترتيبا موضوعيا خاصا قصد به إرشاد بني جنسه ممن رام التأريخ لهذه البلاد التواتية وجيرتها الموالية من ذكر أحوالها وتراجم أعلامها ونحو ذلك.
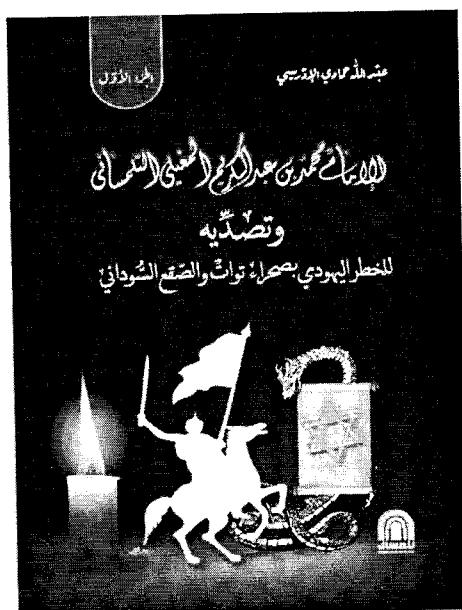
* عنوان الكتاب: فوائد من كناش

المؤلف: الشيخ أبي العباس زروق، وهو أحمد بن أحمد بن محمد البرنسي الفاسي المتوفى في مسراتة من ليبيا سنة 899هـ/1493م.

المحقق: الأستاذ محمد طيب حفيد الشيخ زروق.

دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت.

تاريخ النشر: 2011/05/04م.

تُعتبر الكناشة بمثابة الترجمة الذاتية للمؤلف حيث يُدوِّن فيها نشأته وتعلمه الأولي، ثم دراسته للعلوم وتعاطيه للصناعة، وضمن ذلك ترد إفادات تاريخية عن مجتمع فاس حيث قضى المؤلف حياته الأولى، ويتحدث بعد ذلك عن سلوكه طريق التصوّف، وسياحته في بلاد المغرب ومصر والحجاز مع ذكر شيوخ العلم الذين أخذ عنهم بهذه الجهات غير أن المعروف من هذه الترجمة الذاتية تشير افتتاحيته إلى أنه فوائد من كناش أبي العباس زروق، فضلا على أنها غير تامة في مخطوطتها بالخزانة العامة رقم ك1385 ضمن مجموع.

تعتبر هذه الكناشة مصدرًا يهم المؤرّخ للحركة العلمية والثقافية للبلاد التي عاش بها أو زارها أبو العباس زروق، وبخاصة منها بلاد المغرب الإسلامي التي عاش المؤلف في كنفها، وتتلمذ على أبرز شيوخها، ونهل العلم من مؤلفاتهم.

* عنوان الكتاب: رحلة القلصادي أو: تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب.

المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد القرشي البسطي الشهير بالقلصادي، المتوفى بباجة إفريقية سنة 891هـ/1486م.

المحقق: محمد ابو الاجفان.

دار النشر وتاريخه: 2011م.

كتاب لأبي الحسن القلصادي يسطّر فيه للحركة الفكريّة في مملكة غرناطة خلال المئة الهجريّة التاسعة، ويفيدنا بتراجم أعلام الأندلس الذين درس عليهم بمدينة بسطة وغرناطة، وينفرد بعرضٍ لبعض المناطق التي ارتحل إليها عبر تلمسان وتونس وطرابلس الغرب والقاهرة والحرمين الشريفين.

يوضح المؤلف غرضه من تأليف هذا الكتاب بقوله: "فالمقصود من هذا الموضوع أن يكون مُعرِّفا بأشياخي من أهل العلم الذين أخذت عنهم رضي الله عنهم وأرضاهم، وبرحلتي من بسطة مسقط رأسي، وموضع أول أنفاسي، مقر الألفة والأنس من جزيرة الأندلس".

تعتبر هذه الرحلة أو الفهرس من تلك المؤلفات القليلة التي أرّخت للحركة الفكرية في مملكة غرناطة خلال المائة الهجرية التاسعة، وتتضاعف أهمية الكتاب إذا علمنا أنه كان من آخر المؤلفات في هذا المجال، وفي فترة ازدادت فيها صعوبة الحديث عن الثقافة والمثقفين، وبخاصة خلال الأيام الأخيرة لدولة بني نصر.

يفيدنا المؤلف بتراجم للعلماء الذين درس عليهم بمدينتي بسطة وغرناطة، وخلال ذلك بإفادات أخرى منها عناوين الكتب المدرسية ومؤلفات بعض أساتذته التي تبرز النشاط العلمي الذي عرفته مدينة بسطة وما إليها، مع الإشارة إلى استمرار الطابع التعليمي في مدرسة غرناطة، وعرض الكتب الدراسية بها، كما يتحدث المؤلف في كتابه عن المناطق التي رحل إليها انطلاقا من العدوة الأندلسية، ومنها تلمسان وتونس وطرابلس والقاهرة والحرمين الشريفين، ويورد خلالها

معلومات عن بعض الخطط التي وقف عليها في رحلته، ويسجل أسماء العلماء من أقرانه، وأساتذته الذين يترجم لبعضهم، كما يذكر لوائح الكتب المتداولة وأسماء المدارس التي قرأ بها.

تشتمل الرحلة على ترجمة لثلاثة وثلاثين عالما أخذ عنهم القلصادي في الأندلس قبل وبعد رحلته إضافة إلى علماء أخذ عنهم في المناطق الأخرى التي زارها، ولذلك فهي تعد من الوثائق الهامة التي تصور نشاط العلماء، وطرقهم في التدريس والتعليم، والكتب التي كانوا يتداولونها، وفنون المعرفة التي يطرقونها، وآدابهم عند التلقي، وتفاوت مراتبهم في درجات العلم، وحرصهم على الإسناد، وسعيهم للحصول على الإجازة، ومكانتهم في مجتمعاتهم.
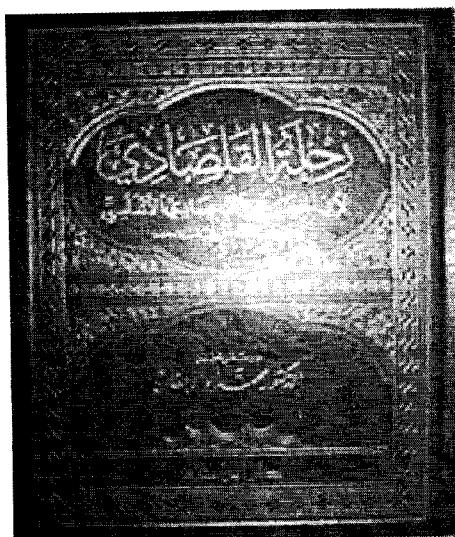
* عنوان الكتاب: أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب

المؤلف: أنطونيو دي صالدانيا

تحقيق وترجمة إلى العربية: إبراهيم بوطالب وعثمان المنصوري ولطفي بوشنتوف

دار النشر: الجمعية المغربية لتأليف والترجمة والنشر

تاريخ النشر: 2011م.

أصدرت الجمعية المغربية لتأليف والترجمة والنشر كتابا جديدا بعنوان "أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب"، والكتاب من تأليف أنطونيو دي صالدانيا، وهو نبيل برتغالي توفي في منتصف القرن السابع عشر، وقام الأستاذ أنطونيو دياش فارينيا بإعداد المخطوط الأصلي للنشر ومراجعته، وقدم له وحققه وترجمه إلى العربية الأساتذة إبراهيم بوطالب وعثمان المنصوري ولطفي بوشنتوف تحت إشراف الأستاذ إبراهيم بوطالب.

يتناول الكتاب أوضاع المغرب العامة في القرن السادس عشر وخاصة في عهد السلطان أحمد المنصور من خلال مذكرات سجلها الأسير البرتغالي دي صالدانيا خلال إقامته الطويلة بالمغرب وبمراكش على الخصوص. ويسلط الضوء على الكثير من التفاصيل والخبايا المتعلقة بهذه الفترة الهامة من تاريخ المغرب مما لا تخفى أهميته على المشتغلين بالفترة الحديثة من تاريخ المغرب.
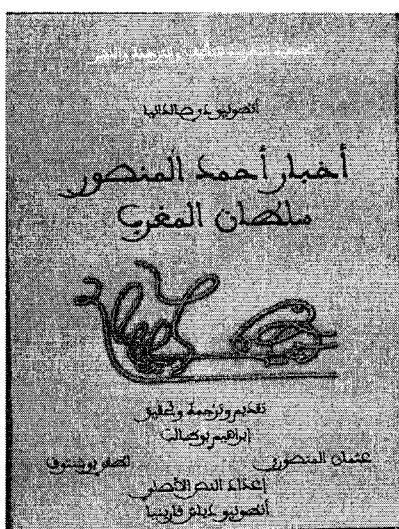
المقالات باللغة الأجنبية

maître ! ». Tel est le propre témoignage de Cheikh Sadek lors de la mémorable émission « Bonsoir culture » de l'ENTV (1993).

Références

[1] Aïssani D., *Les Rapports Intellectuels Béjaia - Tlemcen.* Conférence dans le cadre du Mois du Patrimoine, Maison de la Culture, Tlemcen, 11 Mai 2010.

[2] Aïssani D. et Hachi S., *Béjaia, Centre de Transmission du Savoir,* C.N.R.P.A.H. Alger Editions, Nouvelle Série n° 4, 2008, 188 pages, ISBN 978 – 9961 – 716 – 23 – 6 (dépôt légal 2279-2008).

[3] Aïssani D., *Les Savants de Tlemcen, les Rapports Inter-Villes et la Tradition Scientifique du Maghreb.* Actes du Colloque International "*Penseurs et Figures Illustres de Tlemcen,* CNRPAH Alger/Université de Tlemcen Ed., Palais de la Culture, Tlemcen, Avril 2011.
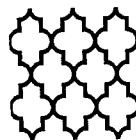
année plus tôt d'animer en incontestable maître la partie artistique de l'inauguration de la Mosquée de Paris et s'apprêtait de nouveau à représenter l'Algérie au Congrès de musique arabe qui se déroula en 1932 au Caire.

Cheikh Larbi Bensari avait donc animé en 1928 un mariage resté dans les annales. Sur cet événement, nous ne savons pas plus que n'en a gardé la mémoire citadine vacillante de la ville de Béjaia, c'est-à-dire, un souvenir impérissable. .

En souvenir de ce passage mémorable, le Cheikh a laissé deux inestimables cadeaux à la postérité. Le premier est son propre *r'bab* qui est conservé au siège de l'Association Ahbab Cheikh Sadek El Bedjaoui (cadeau de la famille de Cheikh Larbi au Cheikh Sadek) et surtout, un 78 tours de marque Pathé Marconi qui vient juste d'être exhumé par une vieille famille tlemcénienne : les Aboura. Sur ce disque, on peut lire : '*Ghonia kabailia – Cheikh Larbi Bensari et son fils Redouane* ». Les chansons ont été enregistrées en 1927 !!

27. Cheikh Saddek El Bedjaoui et l'école de Tlemcen: Sadek Bouyahia, plus connu sous le nom de Sadek El-Bedjaoui, est né le 17 décembre 1907 dans le quartier de Bab El Louz (Béjaia). Il est considéré comme l'un des maîtres incontestés de la musique andalouse maghrébine. Il a donné à l'école de Béjaia un genre spécifique.

Sa période tlemcénienne débuta en 1934 lors d'une excursion d'El Moussilia. « *Tlemcen était pour moi une nouvelle terre généreuse qu'il fallait explorer tant le genre qu'on y pratiquait était différent de celui de l'école d'Alger et proche du Hawzi Bedjaoui* ». Ce fût pour lui l'occasion de s'acquérir d'un répertoire Hawzi plus dense, mais aussi d'adopter un coup d'archet spécial, inspiré de celui de Cheikh Ben Sari au violon alto.

Il établit des liens amicaux solides avec Cheikh Larbi Ben Sari, chez qui il rencontra Omar Bakhchi et Abdelkrim Dali. A Oran, il fit connaissance avec Saoud l'oranais, Maâllem Zouzou Guennoune et Ibiho Bensaid qui ont également influencé sa personnalité musicale. « *A Tlemcen, si vous dites être de Béjaia, on vous demande si vous connaissez Cheikh Sadek. Notre père Larbi Ben Sari nous y recevait. Il était généreux, nous donnait des Qassa'id. Il y a aussi Cheikh Ghaffour, notre bon ami ... J'ai aussi connu Hadj Ennekach à Nedroma. En 1931, j'ai connu Hadj Driss Rahal. C'est un grand*

25. La *Siyaha* de Cheikh El Alawi en Petite Kabylie: Nous avons déjà souligné que quatre siècles après l'invention de la presse à imprimer, l'Algérie était resté en marge des bienfaits de l'imprimerie. Cette situation va changer dans la première moitié du XX^e siècle. A titre d'exemple, la diffusion des idées de Cheikh al-`Alawi dans la Kabylie profonde est notamment prouvée par la présence dans la *Khizana de Cheikh Lmuhub* (alors située au fin fond de la montagne des Beni Ourtilane) d'un document lithographié de 55 *Qasa'id* (poêmes en arabe populaire) d'al-`Alawi et de deux exemplaires de la première édition, datée de 1925, de l'ouvrage *Kitab ash Shaha'id wal Fatawi Fima Saha Lada al-`Ulama Min Amr Shaykh al-`Alawi al-Mustaghanmi.*

Il est indéniable que la *Tariqa al-`Alawiyya* a eu, dès 1919, une grande audience dans le Sud-Est de la Kabylie et la Vallée de la Soummam. Néanmoins, selon Augustin Berque, "*en Grande Kabylie, elle n'eut qu'un succès d'estime*".

Lors de la *Siyaha* d'al-`Alawi en 1919, un comité d'accueil avait été constitué et un itinéraire tracé. Son périple commence par Akbou, premier village à accueillir le Cheikh. Puis, ce fût le tour de Tamokra, village du célèbre Yahia al-`Aydli. Dans son témoignage, Cheikh al-`Alawi a souligné la chaleur de l'accueil et a estimé le succès de ses discours aux nombreux nouveaux adeptes. A partir de là, commence un long périple qui va le conduire dans plusieurs villages: Beni Ourtilane, Beni Chebana, Ilmayen, Adrar n'Sidi Yidir, Djaafra,...jusqu'à ce qu'elle se termine à Bordj Bou Arreridj.

Parmi les *Ulémas* de Kabylie qui ont accueilli Cheikh al-`Alawi en Kabylie, le plus en vue est Cheikh Muhammad Sediq Ben Yahia d'Ilmayen. Parmi les personnages les plus en vue liés à la *Tariqa*, citons Cheikh `Abd ar-Rahman Bouaziz, qui avait une grande *Zawiyya* et qui était affilié à la *Tariqa al-Khalwatiyya*, qui lui avait été transmise par un Cheikh de Béjaïa.

26. Le mémorable « pèlerinage » de Cheikh Larbi Bensari à la «Petite Mecque»: En arrivant à Béjaia en 1928, le Cheikh Larbi Bensari, qui avait déjà plus de 60 ans, était précédé d'une solide réputation : celle de maître incontesté de l'école « *Gharnatie* » et « *Haouzie* » de Tlemcen. Il venait une

aujourd'hui environ 624 documents. Parmi eux, une quinzaine de manuscrits très précieux ont un rapport avec Tlemcen : plusieurs copies de la *Àqida Sughra* d'as-Sanusi (y compris une traduction en langue berbère), plusieurs *Sharh* (commentaires) de la *Sughra* de différents auteurs (Mellali, Medjadi, Sakatani, as-Sanusi lui-même et un Sharh en langue berbère), un *Sharh* du traité Tlemcania en science des héritages, un *Sharh* du traité les feuilles de Ben Zekri et surtout, la *Qasidat al-Istighfar* de Sidi Boumedienne.

25. Le parlé berbère des Béni Snous: La région de Béni Snous est semi-montagneuse. Elle est située à 35 Km à l'Ouest de Tlemcen. Les Ayt Senous sont donc des Berbères de l'Oranie. La langue et la culture berbère y sont attestés depuis des siècles. Parmi les traditions connues des Ayt Senous, citons la fameuse fête de Yennayer (nouvel an berbère), qui est encore célébrée tous les 12 janvier par la population. Cette contrée a fourni de nombreux savants et souverains berbères à Tlemcen sous la dynastie des Abdelwadide. Le plus connu est Cheikh as-Sanusi (1412 – 1490), auteur de la légendaire *`Aqida as-Sughra.* Enfin, la vallée de Béni Snous possède un style architectural spécifique.

Au début du XX^e siècle, l'anthropologue Edmond Destaing, alors professeur à la Médersa de Tlemcen, a passé plusieurs années à Béni Snous et au Kef pour étudier le dialecte amazigh. Il y a notamment produit un célèbre « *dictionnaire Français – Berbère* » (dialecte des Béni Snous ». Il a également réalisé une étude remarquable sur les « *Fêtes et coutumes saisonnières chez les Béni Snous* » (1907). Voici la traduction d'un texte sur les croyances qui lui ont été dictées en berbère par Mohammed Belkheuir des Ayt Larbi : « *Dans nos montagnes des Béni Snous, l'hiver est très rigoureux. Pendant plusieurs jours, la neige, chaque année, y couvre la falaise de l'Azrou Oufernane qui domine notre village. Mais c'est au commencement du mois de mars que le froid se fait le plus vivement sentir. Il y a à cette époque une période de sept nuits et de huit jours pendant lesquels soufle un vent violent. Ce vent est d'une telle violence qu'on ne saurait répondre de la vie d'un oiseau qui, à ce moment, sortirait de son nid.*

Malgré leur caractère local et circonstanciel, les *Fatawis* d'al-Waghlisi ont été incluses dans de grands recueils des *Fatawis* à usage du monde islamique entier, et notamment– comme pour le traité *al-Waghlisiyya* elle-même– à l'usage des habitants de l'Espagne musulmane, de l'Afrique du Nord et de l'Afrique de l'Ouest musulmane. Ainsi, comme indiqué plus haut, le nombre le plus important de *Fatawis* nous a été reporté par al-Maghîlî, grand savant nord-africain qui a passé une partie importante de sa vie dans le royaume islamique de Kano, dans l'actuel Nigeria (Hiskett 1984).

22. Le Sultan des Ath Abbas, Abdelaziz aux portes de Tlemcen: L'édification de la *Kalaâ* en tant que capitale du Royaume indépendant des Ath Abbas remonte au début du 16ème siècle. Son noyau urbain est donc dû au démembrement, voire à la chute des royaumes musulmans du Maghreb. En effet, les deux fils du Sultan Hafside Abu Abdelaziz survécurent à la bataille de Béjaia et s'y réfugièrent en 1510.

Vers 1545, les Espagnols s'allient aux *Saadiens* marocains. Ces derniers marchaient sur Alger après avoir occupé Tlemcen. C'est alors qu'Abdelaziz et les Beylerbey d'Alger signent le Pacte d'*Aguemoune Ath Khiar.* Après des années de guerre, les milliers de soldats d'Abdelaziz permettent la victoire qui sera exploitée politiquement par les Turcs et jouera un rôle dans la formation de notre pays (éléments de traçage des frontières).

Le rôle éminent joué par le royaume des Ath Abbas va durer près d'un siècle et demi. Son alliance temporaire avec les Ottomans, puis avec les espagnols avait pour objectif une "restauration possible" d'un royaume puissant, du type de celui des Hammadites, au Maghreb central. Le portrait que les écrivains espagnols font du Sultan Abdelaziz est des plus élogieux. « *Fier et brave, tout acte d'honneur seul le réjouissait ; s'il ne réservait son admiration que pour ce qui était glorieux, en revanche ... En vrai guerrier et en homme, ayant conscience de sa dignité,...* ».

24. Les manuscrits tlemcéniens d'*Afniq n'Ccix Lmuhub:*

La Khizana de manuscrits de Cheikh Lmuhub a été découverte en 1994. Elle avait été *constituée par Lmuhb Ulahbib au milieu du 19e siècle à Tala Uzrar (la source aux galets) dans* le Sud Est de la Kabylie. Elle comprend

études à Tlemcen, puis les a complété à Alger et Béjaia sous la direction de `Abderrahmane Ath-Tha`aliby et Cheikh Yahia Ben Yadir. Grand défenseur de la Sunna, il s'installa au Touat ou il se fit connaître par son opposition aux juifs qui contrôlaient le commerce transsaharien. Cette polémique lui attira une hostilité au Touat et des soutiens à Tlemcen (de Cheikh Sanusi et de Cheikh Et-Tenessi). Grand voyageur, il traversa le Sahara, visita le territoire du Soudan, Kano, la ville de Kaghou, le Pays de Takrour, puis revint au Touat ou il mourut en 1504. Al-Maghili est l'auteur d'un commentaire des ventes à termes d'Ibn al-Hadjib, où il discute les opinions de Ibn Abd es-Salam et de Khalil.

Al-Maghili a eu pour maître à Alger Abderrahman ath Tha`aliby. Parmi ses maîtres bougiotes, citons le Cheikh Yahia ben Yidir qui était originaire de Tedlès (Dellys). Ce dernier avait été Cadi de Touat. Il est mort à Tamentit, au Touat, en 1472.

Al-Maghili s'est intéressé aux Fatawis du célèbre jurisconsulte de Bougie al-Waghlisi (mort en 1384). La plupart de ces dernières ont été perdues au cours des siècles. Néanmoins, il nous reste deux recueils où elles prennent une place importante : d'abord, celui d'al-Maghîlî et celui d'al-Wansharîsî. Elles peuvent être divisées en plusieurs parties : premièrement, les *Fatâwis* en relation avec les pratiques religieuses, telles que la prière, le jeûne, et le paiement de taxes religieux (*zakât, 'ashûra*). Deuxièmement, les questions qui relèvent de ce que nous appelons aujourd'hui l'état civil : les règlements concernant le divorce, les relations entre couples, la sexualité et les devoirs domestiques. Troisièmement, le domaine de l'économie, l'héritage, l'achat et la vente, les contrats de travail, etc. Prises dans leur ensemble, ces *Fatâwis* nous renseignent sur les problèmes de l'époque (manque de sécurité, problèmes économiques, tensions sociales, problèmes conjugaux), qui étaient souvent un reflet des problèmes sociaux plus larges. Le fait qu'un si grand nombre de ses *Fatâwis* ait été repris et reproduit par al-Maghîlî nous indique la pertinence de ces problèmes locaux pour le Maghreb tout entier et – vu l'importance accordée à al-Maghîlî au sud du Sahara – aussi dans les pays islamisés de l'Afrique de l'Ouest.

- Nasr ez-Zwawi a été un disciple d'Ibn Marzuk al-Hafidh et un professeur d'as-Sanusi : « *Lorsque je vins à Tlemcen, je savais par cœur le précis de jurisprudence d'Ibn al-Hadjib* ». Notre professeur Sidi Nasr n'était, en effet, venu à Tlemcen qu'après avoir parfaitement appris la langue arabe à Bougie auprès de professeurs de cette ville. Il avait été l'élève d'al Asnouny, le commentateur du poème didactique intitulé at-Tlemcaniya qui traite de partages successoraux ».

21. Les Tlemcéniens à Bougie: Plusieurs Ulémas tlemcéniens ont fait leurs études à Bougie. Parmi les plus célèbres, citons :

- Al Hacen Aberkan (mort en 1453). Il était un *Ghouth* (secours), un pôle. Il a eu pour maître : Ibn Marzuk al-Hafidh. Parmi ses élèves : Et-Tenessy, as-Sanusi. Après la mort de son père, le Cheikh partit pour l'Orient et y séjourna longtemps. C'est à Bougie qu'il fit la plus grande partie de ses études auprès des disciples de Abderrahmane al-Waghlissy et les autres savants de la ville. Il a étudié le traité d'al-Hawfy. Il a réalisé un commentaire spécifique : il avait une méthode particulière dans l'exposé des commentaires, ainsi que dans la manière de faire concorder exactement les données de la science avec les paroles d'al Hawfy. Il maitrisait parfaitement le calcul, les successions et le droit. La manière dont il enseignait le précis d'Ibn al-Hadjib était spécifique.

-Ech Cherif at-Tlemcani (1310–1370). En parlant de lui, Ibn Khaldun déclare « *c'est notre ami...* ». Il a été le disciple des deux fils de l'Imam, Abu Zeid et Abu Mouça, Amrane al Mashdaly (mort en 1344). Il a également étudié auprès d'Al-Abily. Il se rendit à Tunis en 1339. Il étudia auprès d'Ibn Abd as-Salam l'arithmétique, la géométrie, l'astronomie et les successions. Il étudia également à Bougie. C'est lui qui a formulé la célèbre phrase «*Je suis entré à Béjaia et j'ai vu la science couler de ses hommes comme l'eau coule de la source...* ». Il revint à Tlemcen et se fit un devoir d'enseigner et de propager la science. Ses succès furent tels que le Maghrib regorgea d'étudiants et devint un foyer de lumière. Il a fait partie du Conseil scientifique du Sultan (à Tlemcen et à Fès). C'est pour lui que le Sultan fit construire la *Medersa Yaqoubiya.*

21.Al-Maghili et la Kabylie: Abu Abdellah Mohamend Ibn Abdelkrim al-Maghili (Tlemcen 1425 – Touat 1503) a fait ses

Rappelons qu'al Barzuly (1339-1439) a été pendant 40 ans l'élève d'Ibn Arafa. Ce dernier lui a communiqué son savoir, sa manière de faire et sa méthode. Dans la licence qu'il a délivré à Ibn Marzuk al-Hafidh, il affirme qu'il a été le disciple d'Ibn Marzul El-Khatib (le prédicateur), sous la direction de qui il a étudié divers ouvrages.

19. Les bougiotes du *Bustan* d'Ibn Maryam: Ibn Maryam (mort en 1602) a rédigé au XVI^{e} siècle le célèbre ouvrage bio-bibliographique *al-Bustan* (le jardin). Ce traité contient par ordre alphabétique 182 biographies de savants presque tous originaires de Tlemcen, ou ayant habité dans la Cité et qui se sont distingués par leur science ou leur piété. Ce n'est pas une œuvre originale, mais plutôt une compilation d'extraits d'ouvrages bio-bibliographiques célèbres (Nayl al-Ibtihaj d'Ahmed Baba at-Tambukti, Ibn Farhun,...). Une trentaine des personnages cités ont un rapport direct avec la ville de Béjaia. Parmi les plus significatifs, citons:

- Abu Ali Mansur b. Ali b. Abdellah az-Zwawi (1310–après 1365). D'origine kabyle, il avait été à Béjaia l'élève du «*plus grand des Cheikh* », Nasr ed-Din al-Mashdali (mort en 1331). Il a eu également pour professeur Mansour El-Maschdaly (sous la direction de qui il étudia les premiers chapitres d'Ibn El-Hadjib), Abou Abdellah al-Mosaffir, Abou Ali b. Hacen, Abu Abdellah Mohammed b. Youcef El Menguelati.

Il s'installe ensuite à Tlemcen et fût une sommité dans les sciences rationnelles (arithmétique, géométrie, techniques). Il avait reçut en Andalousie une *Idjaza* (diplôme) de la part de l'Imam Ibn al-Fakhar al-Biri (d'Elvira) qui lui permit d'exercer son enseignement dans son propre cercle (cf. *Muqqadima* 431 – 432, *Nayl*, 344).

Sa notice biographique est également donnée par Ibn El-Khatib dans son ouvrage, *al-Ihata*: «*Je l'ai connu et fréquenté. Il a été, dans ces temps ci, soumis à une cruelle épreuve, à propos d'une question juridique sur laquelle il a hésité à se prononce* ». Il a quitté l'Espagne en 1365. A Tlemcen, il suivit les cours d'El-Hadramy, d'Abul'Abbès b. Yerbou'et celle du Cadi Abou Ishaq b. Yahia. Il s'est établit à Tlemcen ou il enseigne le Coran et la Science. El-Wansharissi a enregistré dans son Etalon quelques-unes de ses *Fetwas*.

long de son œuvre les théories philosophiques, les opinions des autres écoles et les croyances des autres religions. Il a notamment rédigé un commentaire de sa propre Sughra. Ce dernier, qui a fait l'objet de gloses d'al-Bajuri, a été publié plusieurs fois au Caire et à Fès, traduit en allemand par Ph. Wolff (Leipzig 1848), et en français par Luciani.

Dans le domaine des disciplines mathématiques, as-Sanusi est l'auteur d'un commentaire sur le poème didactique d'Ibn al-Yasamin (m. en 1204) sur l'algèbre et les équations, du commentaire *Sharh Qasidat al-Habbak* sur l'astrolabe et un commentaire sur le traité d'al-Hawfy intitulé « *Ce qui rend accessible et facile l'étude du livre d'al-Hawfy et épuise les questions qui y sont traitées* » rédigé alors qu'il avait 19 ans. Son maître Aberkan fût tellement émerveillé qu'il déclara « *aucun n'est comparable à celui-ci* ».

As-Sanusi a eu des rapports particuliers avec la Kabylie. Selon M. Bencheneb, il aurait également poursuivi ses études à Bougie. Parmi ses élèves, citons Belqacem az-Zwawi. D'un autre côté, il a rédigé un commentaire inachevé du traité de *Fiqh al-Waghlissiya* du jurisconsulte Abderrahmane al-Waglisi (m. 1384). Sa *Sughra* a été très populaire en Kabylie. Elle a même fait l'objet de traduction en langue berbère (voir paragraphe 24).

18. Les bougiotes du *Mi'yar* d'El Wansharisi (1428-1508): Le savant al-Wansharisi mérite le titre de «*porte-enseigne du neuvième siècle (de l'hégire)* » pour avoir rédigé «*al-Mi'yar* » (L'étalon). Dans cet ouvrage, il a exposé clairement les *Fatawis* des savants d'*Ifrikiya*, d'Andalousie et du Maghreb. Cet ouvrage en six volumes réuni toutes les opinions.

Al-Wansharisi a fait ses études auprès des professeurs de Tlemcen: Abu l'Fadhl Qasim Al-Uqbani (fils de Said), Ibn Marzouk el-Kafif (l'aveugle), Il quitte ensuite Tlemcen pour Fès en 1469 ou il se fixa. Il enseigna notamment le traité de jurisprudence d'Ibn al-Hadjib. C'est dans la bibliothèque d'un de ses élèves, le Cadi Mohammed Et-Taghleby, qu'il puisa les matériaux qui devaient servir à la composition de son livre intitulé « l'étalon », principalement pour ce qui concerne les fetwas de la ville de Fès et de l'Andalousie. Quant aux *Fetwas* de Tlemcen et de l'*Ifrikiya,* (que renferme l'étalon), il les a puisées dans al Barzuly et al-Mazouni.

maîtrise ». Fait et écrit de la main d'Ahmad b.Muhammad b. 'Utman al-Azdi, le dernier jour de Gumada 1er de l'année 708 H (=1308) ».

Parmi les autres élèves directs et importants d'Ibn al-Banna', citons le célèbre mathématicien tlemcenien al-Abili (1282 – 1356). En effet, nous savons qu'il a suivi le cours d'Ibn al-Banna à Marrakech vers 1310, avant de s'installer à Fès pour y enseigner. Les principaux témoignages le concernant proviennent des écrits des frères Ibn Khaldun: « *Ayant pris goût aux mathématiques, il fini par devenir un mathématicien éminent, entouré d'étudiants auxquels il enseignait ces sciences* ». De fait, il rejoindra Tunis, où il va devenir le maître d'Abd ar-Rahman Ibn Khaldun (mort en 1406) dans le domaine des mathématiques. C'est probablement cet enseignement qui va être à l'origine des écrits de ce dernier sur les mathématiques dans la *Muqqadima*.

Par la suite, al-Abili va rejoindre Bougie, puis Tlemcen. Il y joue un rôle important dans la structuration de l'école de mathématique de Tlemcen : Said al-Uqbani (1320–1408), Ibn Zaghu (mort en 1445), Ibn Marzuk al-Hafid (1364–1439), al-Uqbani II (mort en 1456), al-Qalacadi (1412–1486), al-Machdaly (Bougie 1419 –Alep 1461), Abu `Ali Aberkan (1353 –1453), al-Sanusi (1426-1490)...

17. Les Rapports de Cheikh Sanusi avec la Kabylie: Abu Abdellah b. Yusuf as-Sanusi (1426–1490) est originaire de la région berbérophone des Béni Snous, à 35 Km de Tlemcen. Il a étudié à Tlemcen auprès de plusieurs professeurs: Nasr az-Zwawi, El-Habbak (auprès duquel il apprit la science de l'astrolabe), Aberkan, Abderrahmane Ath Tha`aliby (en Hadith et qui lui délivra un diplôme par lequel il lui conférait le droit d'enseigner tout ce qu'il avait été lui-même autorisé à enseigner), Ibrahim at-Tazi (qui résidait à Oran et qui le revêtit du froc des Soufis), al-Qalasadi sous lequel il étudia le partage de successions et l'arithmétique et dont il reçut un diplôme l'autorisant à enseigner,...

Pour les savants du Maghreb, as-Sanusi était le rénovateur de l'islam au commencement du IXe siècle de l'hégire. Il est l'auteur de la fameuse `Aqida as-Sughra. Traitant de Dieu et de ses attributs, ainsi que de la prophétie, as-Sanusi discute tout au

A la demande de Yahia al-Aydli (mort en 1477), il a réalisé un *Sharh* (commentaire) du traité *al-Muqaddima fi al-Fiqh*, plus connu sous le nom d'*al-Waglisiyya*. Cet ouvrage d'al-Waglisi a été pendant des siècles l'ouvrage de référence des étudiants débutants. Les très nombreuses copies localisées dans plusieurs bibliothèques de la planète attestent de son importance.

16. Al-Abili, les Rapports Béjaia – Tlemcen et la Tradition Mathématique du Maghreb: Le mathématicien et jurisconsulte al-Abili (1282-1356) a joué, dans la première moitié du XIV^{e} siècle, un rôle essentiel dans la structuration de l'école mathématique de Tlemcen et dans la mise en place de la tradition scientifique du Maghreb ;

La tradition mathématique médiévale du Maghreb peut être cernée à partir d'un savoir stabilisé. En effet, c'est au cours des XIII^{e} – XIV^{e} siècles que se fixe le contenu de cette tradition et sa pédagogie, sous l'influence déterminante de l'école de Marrakech avec, à sa tête, le célèbre mathématicien Ibn al-Banna' (1256 – 1321), qui sera relayé par ses élèves, puis par ses commentateurs. Plusieurs d'entre-eux sont effectivement originaires d'Algérie et de Tunisie.

Les *isnad* représentent une chaîne d'autorités, partie essentielle de la transmission d'une tradition (ou du savoir). Abu l'Abbas Ahmed, descendant direct des princes hammadites a été un disciple direct d'Ibn al-Banna'. L'*Idjaza* (diplôme) que lui a délivré son maître, a été retrouvé dans la copie du *Talkhis*, côté 788, du fonds de manuscrits de la Bibliothèque de l'Escurial (Espagne). Ce manuscrit se termine par la mention si précieuse : « *A la fin de l'original, avec lequel cette copie a été collationnée, figure littéralement ce qui suit* :

« Ecrit par Ahmed b.al-Hassan b. 'Abderrahman b. al-Mo 'iz b. al- 'Aziz Billah b.al-Mansur b. an-Nasir b. 'Alannas b. Hammad al-Himiyari, le premier jour de Gumada II de l'année 702 de l'Hégire (=1302) ». *Puis de la main de l'auteur* : « J'autorise le jurisconsulte ... Abul 'Abbas Ahmad b. al-Hassan, ci-dessus nommé, à rapporter, d'après moi mon livre du « *Talhis A'mal al-Hisab* », mon livre « *de la connaissances des temps par le calcul* » ainsi que mon ouvrage « *de l'algèbre* », qu'il a réunis de sa main dans ce recueil ... Il a étudié ces livres, sous ma direction, d'une façon précise, et avec

les sourates. Plus précisément, il s'agit des liens entre les sourates, et dans les sourates, des liens entre les versés. Dans son ouvrage, Al-Biqa`i a attribué cette démarche et cette méthode à Abu al-Fadhl al-Mashdaly.Son commentaire commence par la sourate *al-Fatiha.* Une dizaine de phrases sont consacrées à son Maître al-Mashdaly. Al-Biqa`i écrit : « *Notre Maître Abu al-Fadhl, Rahimahu Allah, dit : si tu veux connaître les liens entre les versés et les sourates, tu dois connaître les objectifs de la sourate et progressivement aller vers cette conclusion* ». Il précise que la source d'al-Mashdaly est le grand savant de Béjaia al-Hirrali (mort à Damas en 1240).

Voici ce que dit à son sujet l'éminent mathématicien et algébriste al-Qalasadi dans sa *Rihla* (le voyage) (At-Tumbukti, page 316) : « *Nous nous sommes réunis en Egypte avec le brillant docte, le vertueux al-Machdaly. Je n'ai jamais vu quelqu'un capable d'assimiler aussi bien que lui les sciences. Il touche à tout et y réussit. Nous avons évoqué notre séjour à Tlemcen où nous avions passé des jours agréables en compagnie de savants maîtres de leurs sciences* ».

15. Ahmed Zerruq al-Barnusi, de Tlemcen à Béjaia: Béjaïa a eu le privilège d'accueillir Ahmed Zerruq al-Barnusi (Fès 846h./1443- Mesrata 899h./1493). Ce dernier a eu des maîtres prestigieux, originaires de différentes régions du pays (al-Aydli pour Tamokra, ath-Tha`aliby pour Alger, as-Sanusi pour Tlemcen), tous fortement liés à Béjaïa. Devenu professeur dans cette ville, il y rédigea son fameux ouvrage «*Qawa`id at-Tassawuf*» .

Effectivement, Ahmed Zerruq avait d'abord étudié à Tlemcen chez Sanusi, Ben Zekri, at-Tanesy et Ibrahim at-Tazi, avant d'aller à Béjaia créer une école célèbre, dont l'un des étudiants les plus en vue était Ahmed Ben Youcef, de Méliana.

Ahmed Zerruq était considéré par Ahmad Baba at-Tambucti comme étant «*l'un des derniers maîtres du Soufisme véritable, qui allie la vérité et la Shari`a*» (cf. Ibn Maryam, Nayl). Sa grande devise était « *pas de Soufisme sans [respect] du droit* » ([15], Tunis, s. d., Règle IV). A ce niveau, il y a lieu de se rappeler que beaucoup de Soufis ont été en même temps des *Fuqaha.*

décrivais ce que j'ai vu à Béjaia, pays de la piété, de la science, ma terre vraie ».

D'un autre côté, on connait les rapports d'al-Huwari avec Tlemcen. Ainsi, Ibrahim at-Tazi a fait ses études à Tunis et à Tlemcen auprès d'Ibn Marzuk al-Hafidh. Il habitait Oran. Voilà ce que dit al-Qalasadi, dans sa Rihla : « *J'allais à Oran et y séjournait chez le Cheikh Sidi Brahim qui était alors le suppléant de Sidi Muhammed al-Huwari* ».

14. Le Mathématicien Bougiote Abu El Fadhl al-Mashdaly à Tlemcen: Al-Sakhâwi dans son recueil biographique, qui a pour titre « *Lum'a an-Nuraniyya* » (La lumière éclatante sur les hommes illustres du XVe siècle), nous offre une biographie détaillée de son propre maitre Abu al-Fadhl Muhammad ben Muhammad al-Bija'i, fils du grand savant Abu Abdallah Muhammed b. Belqacem al-Mashdali (mort en 1466). Dès son jeune âge, il apprit par cœur le poème didactique en science des héritages de Abû Ishâq at-Tilimsânî (1212-1300), qui fut l'élève de l'élève d'al-Qurashî, Abī 'Alī ash-Shlūbīnī (1166-1247), et le *Talkhîs* du célèbre mathématicien marocain 'Ibn al-Bannâ' (1256 – 1321). Par la suite il a suivit des cours d'astronomie utilitaire (*al-Miqat*), de science de calcul et de logique à Bougie. Parmi ces maitres en mathématique, figure son propre père et Mûsa b. Ibrahim al-Hasnawî.

C'est en 1436 qu'Abu al-Fadhl al-Mashdâli s'est rendu à Tlemcen afin de perfectionner son instruction auprès des plus grands maitres de cette époque, en géométrie, arithmétique, science du calcul, musique, algèbre, astronomie (générale et utilitaire), instruments astronomiques (astrolabes, tables astronomiques...), science des héritages... Ayant amassé de vastes connaissances et dépassé tous ses collègues (et même certains de ses maitres) dans les sciences traditionnelles et intellectuels, Abu al-Fadhl revient à sa ville natale, Bougie, en 1440. Il enseigna dans cette ville durant une année avant de la quitter une deuxième fois pour se rendre en Orient (Egypte, Syrie, ...). Là-bas, il enseigna, en plus de certaines disciplines religieuses et linguistiques, les connaissances mathématiques du Maghreb.

Burhan ad-Din al-Biqa'i a réalisé au Caire le premier Tefsir (commentaire) du Coran basé sur la cohérence entre les versés et

d'Abderrahmane), en raison de l'attitude de son frère. Par la suite, il sera en poste à Tlemcen, au service de Abou Hammou Moussa II . Il a rédigé l'ouvrage «*Livre de l'objet des désirs des voyageurs ou l'histoire des rois de la famille des Bani Abdel'Elwad, et exposition de ce que possède de solide et stable gloire, notre Maître, le Khalife Abou Hammou* ». Ce livre décrit les événements touchant la dynastie Abdelwadide de 1236 à 1374.

En particulier, c'est grâce à son ouvrage qu'on a des informations précieuses sur la création de la *Médersa Yaqoubiya*. Le témoignage du célèbre mathématicien al-Qalasadi montre que c'est dans cette institution qu'il a suivit les cours du grand Cheikh Ibn Zaghu (mort en 1441).

12. Lissan ad Din Ibn al-Khatib et les savants de Tlemcen et de Bougie: Auteur prolifique, Lissan ad Din Ibn al-Khatib (Grenade 1313 – 1374) est un éminent historien et homme de lettre de Grenade, qui s'est distingué également en médecine. Il fut l'éleve de l'éminent médècin Abu Zakariya Yahya Ibn Hudhayl (m. 1352). Dans son traité *al-Ihata*, il a rédigé des notices biographiques sur de nombreux savants de Tlemcen et de Béjaia. C'est le cas d'al-Maqqari pour Tlemcen ou bien de Mansur al-Zwawi pour Bougie.

Il a été administrateur du Royaume de Grenade. Il accompagna le souverain Mohamed V en Afrique du Nord lorsque ce dernier a dû fuir en 1359. Il a été rétabli dans ses fonctions 03 ans plus tard, lorsque le souverain a récupéré son trône. Ibn al-Khatib a été exécuté en 1374.

13. al Huwary à Béjaia: Muhammad b. Amar al-Huwari (mort à Oran en 843h./1440) est arrivé à Béjaïa à l'époque où Ibn Khaldun avait été appelé par le prince Abu Abdellah al-Hafsi pour occuper le poste de premier ministre (*Hajib*). Ses impressions sur cette ville ont été publiées par son biographe Muhammad Ibn Said al-Andalusi dans son livre « *Rawdat al-Nasim* ». Il confirme notamment qu'il étudia auprès des deux imams, al-Waglisi et Ibn Idris. Le poème qu'il a écrit abonde d'éloges à l'intention des habitants de Béjaia : dévouement, charité, aide à l'étranger, affection vis-à-vis des pauvres,... Dans son poème intitulé *At-Tashil*, il déclare «*Ah !, si je vous*

la montagne qui s'élève au midi d'Oudjda et dont ils se servaient avant d'avoir fondé leur royaume".

Le siège de Bougie fut infructueux. Temzizdekt fut détruite de fond en comble par le sultan Abou Yahya Abou Bekr en mai 1332. Ses ruines furent réoccupées en 1509-1511 par (un autre) Abou Bekr, de même que des fortins situés en aval, *El Yakouta* et *Hisn Bekr*, de manière à assiéger Bougie prise par les Espagnols en 1509. Les murs de pisé de cette ville-forteresse subsistent toujours en partie non loin de la voie ferrée. Le lieudit a donné son nom à la ville coloniale voisine : El Kseur (« Les châteaux »).

10. Ibn Khaldun Abderrahmane, entre Béjaia et Tlemcen: *«Béjaia où je deviens Hadjeb avec une autorité absolue ».* Cette citation d'Ibn Khaldun (Tunis 1332 – Le Caire 1406) dans son autobiographie (*Ta'rif*) est significative de ses liens avec la Cité. En effet, ses écrits sur Béjaia ont permis aux historiens de clarifier de nombreux concepts en rapport avec l'Occident Musulman (al-Andalus et Maghreb): la notion de frontière, la tradition mathématique maghrébine, le renouveau des études de *Fiqh (jurisprudence)*,... En poste à Bougie, il se rendait tous les matins, après avoir expédié les affaires publiques, à la mosquée de la Casbah afin d'y enseigner la jurisprudence et les mathématiques.

On sait, de part son propre témoignage, qu'Ibn Khaldun a reçut une excellente formation en mathématique auprès du mathématicien tlemcénien al-Abili (1282–1356), un des élèves du très célèbre mathématicien marocain Ibn al-Banna (1256-1321). Vers 1368–1370, il entre au service du Sultan Zyanide de Tlemcen, Abou Hammou Moussa II. Les rapports seront conflictuels pendant de nombreuses années.

11. Yahia Ibn Khaldun, entre Tlemcen et Béjaia: « *Tlemcen, la cité du savoir, du raffinement et des bonnes manières* ». Telle est la citation de Yahia Ibn Khaldun (Tunis 1334 – Tlemcen 1379). En effet, les frères Yahia et Abderrahmane Ibn Khaldun (1332–1406) ont eu des rapports particuliers avec les villes de Béjaia et Tlemcen. Ces rapports vont par la suite avoir des répercussions sur l'histoire du Maghreb.

Yahia avait été Vizir à Bougie vers 1365 –1366. Lors de la prise de la ville, il sera malmené et pris en otage (avec la famille

Plus tard, al-'Uqbānī exerça la fonction de Cadi à Tlemcen, à Salé et à Marrakech. al-'Uqbānī a eu pour disciple plusieurs personnages illustres, tel que : son fils Qāssim al-'Uqbānī, l'imam Ibn Marzūq al-Hafid, le cheikh Ibn Zāghū.

En mathématique, al-'Uqbānī a rédigé trois commentaires explicatifs. Le premier sur le célèbre traité en science des héritages du mathématicien andalou al-Hawfi (mort en 1192). Le second ouvrage d'al-Uqbani est un commentaire du traité *at-Talkhīs*, d'Ibn al-Bannā'. Notons qu'al-'Uqbānī, dans ce dernier ouvrage, semble être l'un des derniers mathématicien maghrébins à utiliser dans ses démonstrations les propositions des Eléments d'Euclide. Enfin, le dernier commentaire d'al-Uqbani, est celui qu'il a fait sur le poème didactique en algèbre d'Ibn al-Yasamin (m. 1204). Ce dernier, composé de 54 vers, contient les algorithmes de résolution des six équations canoniques, suivis de deux méthodes de résolution des équations quadratiques non unitaire, et se termine par les règles de calcul sur les expressions algébriques.

Al-Uqbani a également rédigé un manuel sur la manière d'utiliser la méthode nouvelle qui avait été introduite par le célèbre algébriste de Bougie al-Qurashī (1184) dans le domaine des héritages. Dénommée *Tarīqat al-Farā'idh bi-l-Kussūr* (méthode des fractions en science des héritages), celle-ci est considérée par les mathématiciens des 14e et 15e siècles comme une grande innovation. Elle est basée sur la décomposition des nombres en facteurs premiers pour la réduction au même dénominateur des fractions qui interviennent dans la répartition d'un héritage donné.

9. Un territoire Abdelwadide à Béjaia : la forteresse de Lessouar – Temzizdekt: L'un des vestiges les plus intéressants de Tiklat (El Kseur – Béjaia), mais aussi l'un des plus ignorés, est la ville-citadelle Abdelwadide *Lessouar - Temzizdekt.* A partir de 1327, sur l'ordre du sultan de Tlemcen, Abou Tachfin, les Abdelwadides construisirent une forteresse destinée à bloquer Bougie. La ville antique devait être complètement ruinée à cette époque puisqu'ils choisirent de s'établir dans la plaine à 3 km au nord-est du site antique. Abou Tachfin donna à la forteresse le nom de Temzizdekt pour "*rappeler le souvenir de l'ancienne citadelle que les Abd el Wadides possédaient dans*

Aux 13e– 14e siècles, le *Mukhtassar*, prestigieux traité de jurisprudence du Malikite égyptien Ibn El-Hadjib (1175–1248) a joué un rôle central dans le renouveau des études de *Fiqh* au Maghreb. Un témoignage d'Ibn Khaldun nous renseigne sur l'action du « *plus grand des Cheikhs* », Nasir ad-Din az-Zwawi (1235–1335), qui le ramène d'Egypte à Béjaia et le fait connaître au premier cercle de ses disciples : Abu l'Abbas Ahmed Ben Amrane al-Bija'i, Ahmed Ben Idris et au Tlemcénien Ibn Marzuq al-Djad (à Béjaia dès 1328).

De nombreux élèves d'Ahmed Ben Idris ont également rédigé des travaux (*Sharh*, gloses, annotations, *Iktissar*,...) sur ce *Mukhtassar* : Ibn Marzuq al-Djad, Saïd al-Uqbani, Ibn Khaldun, Muhammad El-Machdaly. Or ces derniers ont tous été des disciples d'al-Abili dont on connaît le travail de structuration (à Marrakech, Tlemcen, Tunis et Béjaia) de l'Ecole Mathématique du Maghreb. Un bref travail de recoupement permet de constater que la plupart des membres de cette école ont rédigé des travaux sur le traité d'Ibn al-Hadjib.

Lissan ed Din Ibn El-Khatib, dans son *Ihata*, consacre une notice à Ibn Marzuk al-Djad: « *c'était une des curiosités de son siècle...* ». En 1351, il émigra en Espagne ou le Sultan l'investit des fonctions de prédicateur dans la grande mosquée de la cour et lui confia une chaire d'enseignement dans un établissement d'instruction publique. Il revient alors à Tunis en 1364, où il eu pour élève al-Barzuli. Il avait été surnommé « le Chef des savants ».

8. Le tlemcénien Al Uqbani à Béjaia (1320 – 1408): Le mathématicien Said ben Muhammad al-Uqbani naquit à Tlemcen en 1320. Il fit ses premières études en cette ville et compta parmi ses maitres Les deux fils de l'imam, al-Ābili (1282-1356) et un éminent savant de Béjaïa Amrane al-Mashdali (1271-1344) qui, on le sait d'après son biographe at-Tumbuktī, enseignait à Tlemcen, en plus de certaines disciplines religieuses, la logique et la science des partages successoraux.

A Bougie, il fut l'élève de l'éminent savant Ahmad Ben Idris al-Bijā'i (m. 1360) et exerça la fonction de Cadi de la communauté, lorsque le sultan mérinide Abī 'Inān prit possession de cette ville entre 1353 et 1358, « *à une époque où les savants foisonnaient* », précise son biographe Ibn Farhūn.

Saghir», pour avoir écrit un livre que l'on comparaît à l'*Ihya* d'al-Ghazali.

Les disciples de Sidi Bou Medienne étaient originaires de différentes régions du Maghreb. Parmi ses disciples tunisiens, citons Sidi Dahmani (mort à Tunis en 1224) et al-Mahdawi, qui avait accueilli à Tunis Ibn Arabi et avait été destinataire de sa *Risalat al-Quds* (en 600h./1203). Parmi ceux venus de l'Ouest, citons le célèbre mystique Muhammad b. Abi al-Qasim as-Sijilmasi, qui séjourna également à Bougie et «*Tawassala ila al-Haqa'iq* ». Il était disciple d'Abu Muhammad Salih, patron de la ville de Salé, lui même semble-t-il, élève de Sidi Bou Medienne.

Après son décès à El Eubbad, en novembre 1197, il deviendra le Saint patron de la ville de Tlemcen.

6. Amrane Mashdaly à la Médersa Tachfiniya: Amrane al-Mashdaly (670h./1270 – 745h./1345) a été un élève de Nasir ad-Din. Il a ainsi réalisé un *Sharh* (commentaire) du traité d'Ibn Hadjib. Spécialiste en science des héritages, il sera en poste à Tlemcen dès 727h./1327, ce qui lui conféra le titre de *Nazil Tilimsan*. Il sera reçu par Ibn Tachfine qui le nommera à la *Médersa Tachfiniya*. Il est l'auteur de *Fatawis* célèbres dont certaines sont reprises dans le traité *al-Mi`yar* d'al-Wansharisi (1430 – 1508).

Plusieurs biographes ont évoqué Amrane al-Mashdaly. Ainsi, dans le *Bughiat ar-Rawad*, Yahia Ibn Khaldun donne une courte notice sur sa vie et sa production. Voir également dans *Complément d'Histoire des Béni Zeiyan* d'at-Tenessy (pages 76 – 77), dans le *Nayl al-Ibtihaj* d'Ahmed Baba at-Tambukti (page 208) et dans le livre « *Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom* » de l'Abbè Bargès (pages 47 et 156).

7. Ibn Marzuq al-Djad et le renouveau des Etudes de fiqh au Maghreb: Il est connu sous le nom d'*al-Djad* (l'aïeul) ou d'a*l-Khatib* (le prédicateur). Ibn Farhun donne la liste de ses professeurs. Ibn Khaldun dit « *c'est notre ami, ... ses ancêtres étaient les gardiens du tombeau de Sidi Boumedienne à El Eubbed* ». Né à Tlemcen en 1310, il part avec son père en Orient vers 1327. Il s'arrêta à Bougie ou il étudia sous Nasir ad Din El Machdaly. Il excella dans les deux écritures : maghrébine et orientale.

bien vite quitter pour se retrancher avec ses partisans à l'oratoire de Mellala, situé à quelques kilomètres de la ville.
C'est là qu'il rencontra son grand futur général, Abdelmoumen ibn `Ali (qui lui succéda) et qu'il mis au point le plan de soulèvement des Almohades qui ébranla bien des trônes au Maghreb et en Andalousie. Au milieu du XII^{e} siècle, les Almohades s'attaquent à l'al Andalus (1148) et au Maghreb central (Béjaia, 1152). Ce n'est que vers 1160 que les Almohades réussirent à unifier tout le Maghreb et l'al Andalus.
Ibn Tumart est l'auteur d'*al-Murshida* (celle qui dirige) qui a été édité par Goldziher (Fontana, Alger). Ce texte religieux a été probablement rédigé dès son retour d'Orient. Il s'agit de sa première réforme dogmatique. `Abdelmoumen a joué un grand rôle dans la diffusion de ce texte qui sera enseigné partout dans les mosquées et les écoles. Un commentateur d'al-*Murshida*, Ibn Naqash, affirme que la *Murshida* était enseignée à Tlemcen.

5. Sidi Bou Medienne, de Béjaia à Tlemcen: A l'époque Almohade, deux raisons essentielles ont été à l'origine du développement rapide du Soufisme dans toutes les couches sociales de la Kabylie: la présence à Béjaïa des plus grands maîtres du Soufisme et l'esprit de tolérance de la population. En effet, Sidi Bou Medienne n'a -t-il pas affirmé que "*Béjaïa facilite, plus que d'autres villes, la recherche de ce qui est permis*".
La ville de Béjaïa a possédé le maître le plus illustre du grand mouvement mystique Maghrébin : le *Qutb* Sidi Bou Medienne (520h./1126 – 594h./1197). "*Son grand mérite, sa grande réussite, c'est d'avoir réalisé, d'une manière accessible à ses auditeurs, l'heureuse synthèse des influences diverses qu'il avait subies*". Selon R. Brunschvig, « *Avec lui, le Soufisme modéré s'adapte à la mentalité du croyant maghrébin, homme du peuple ou lettré* ». L'action de son école a permis à la ville de Béjaïa d'occuper une place éminente dans l'Islam Occidental.

Il était naturel que l'influence de Sidi Bou Medienne se fasse sentir tout d'abord à Béjaïa et même les autres «*Princes de la Science* » ne sont pas restés en dehors de sa sphère d'action : `Abd al-Haq al-Isbili (mort en 582h./1186), ainsi qu'al-Masili (m. en 1185), plus connu sous le surnom de «*Abu Hamid as-*

quantité de *Fatawis*, dont une grande partie a été transcrite dans le *Mi`yar (l'Etalon)* d'al-Wansharisi et dans les *Cas de Jurisprudence* d'El-Mazouny. Il a eu pour professeur Said al-Uqbani (1320 – 1408). Son disciple le plus fameux est le célèbre mathématicien andalou al-Qalasadi (1412–1486).

Ce dernier affirme dans sa *Rihla* qu'il « *a suivi ses leçons avec ses condisciples à la médersa appelée El-Yaqubiya. En été, Ibn Zaghu enseignait le calcul, le code des partages et la géométrie* ».

Ibn Marzuq al-Hafid (le petit fils) (1364–1439) est l'auteur d'un poème du mètre redjez sur le *Talkhis* du mathématicien marocain Ibn al-Banna (1256–1321), ainsi que sur l'art de dresser les calendriers. Cette citation de son disciple al-Qalasadi est significative: « *En arrivant à Tlemcen, je trouvais dans cette cité une foule de savants. Mais celui qui mérite avant tout une mention spéciale, c'est le Cheikh, notre professeur Ibn Marzuk al-Hafid. Il est mort en 1439. Le Sultan assista avec toute sa cour à ses funérailles dont je n'avais jamais vu les pareilles*".

Ahmed Ben Zekri (mort en 1494) est l'auteur de nombreuses *Fatawis* (décisions juridiques) qui ont été transcrites par al-Wansharisi dans son *Mi`yar* (Etalon). Ben Zekri discuta avec as-Sanusi de nombreuses questions. Chacun soutenait opiniâtrement son opinion et réfutait celle de son adversaire. Parmi ses disciples, citons Ahmed Zerruq al-Barnusi (mort en 1477).

Et-Tenessy (mort en 1493). Il naquit à Tlemcen et a eu pour maître Ibn Marzouk al-Hafid, Qasim al-Uqbani, Ibrahim at-Tazi,... On raconte que le cheikh Sidi Ahmed b. Daoud El-Andalousy, ayant été interrogé , après son départ de Tlemcen, sur le mérite particulier des savants de cette ville, répondit : « *La science est l'apanage d'Et-Tenessy, la piété caractérise as-Sanusi, et c'est Ibn Zekri qu'appartient l'excellence du professorat* ». Il est l'auteur de "l'histoire de la dynastie des Béni Zayian".

4. Le Mehdi Ibn Tumart rencontre `Abdelmoumen à Mellala (Béjaia): Au retour d'Orient vers 510h./1117 – 1118, le futur Mehdi Ibn Tumart s'arrêta à Béjaia et y déploya son activité réformatrice, notamment par sa prédication en langue berbère. Il dispensa son enseignement à la Mosquée *al- Rayhana* qu'il dû

3. Tlemcen, la Grenade Africaine: Du VIII^{e} au XIII^{e} siècle, de puissantes dynasties qui ont gouverné le Maghreb au Moyen-Age arabe ont marqué la ville de Tlemcen (Idrisside, Hammadide, Almoravide, Almohade). Chacune d'elles a laissé son empreinte.

Vers 1236, alors que l'empire almohade était affaibli par des luttes internes, un chef berbère, Yaghmoracen, des Abdelwadides (ou bien Zyanides), établit son autorité à Tlemcen et proclame l'indépendance de cette ville et de toute la province. Parmi les souverains Abdelwadides qui ont marqué l'histoire Tlemcen, Abou Hammou II (1359-1387) est celui qui a le plus contribuer à la grandeur intellectuelle de la Cité. Il rétabli les remparts de sa capitale, et rempli les caisses du trésor public. Il tenta vainement d'occuper Bougie.

Le royaume des Abdelwadides survivra jusqu'à 1555, date à laquelle Salah-Raïs, pacha d'Alger, s'en empare, tandis que le dernier souverain de Tlemcen se réfugie à Oran chez les Espagnols.

Tout au long du Moyen Âge musulman, un milieu intellectuel exceptionnel va se constituer. Dans les paragraphes suivants, nous allons évoquer ceux qui, d'une manière ou d'une autre, vont contribuer à développer les échanges Béjaia–Tlemcen.

Parmi les autres grands Cheikh qui ont fait de Tlemcen un Centre d'enseignement supérieur, citons :

Les deux fils de l'Imam. L'aîné, Abu Zeid (mort en 1342), considéré comme étant « *le docteur des Malikites à Tlemcen, le savant incomparable* » est l'auteur d'in grand commentaire sur le précis d'Ibn El-Hadjib. Le cadet est Abu Muça (m. 1348). Ibn Khaldun affirme qu'Abou Hammou leur fit batir le collège qui porte leur nom.

al-Maqqary (à Fès dès 1348. Mort à Fès en 1392), «le professeur vers qui on accourait de tous les pays ». A Béjaia, il suivi les cours de Mohamed ben Yahia al-Bahili, Mohamed ben Yaqoub al-Zarouli,... Il deviendra le Cadi de la Communauté de Fès.

Ibn Zaghu (1380-1441) est l'un des plus grands maîtres de Tlemcen. Il est l'auteur d'un commentaire de la *Tlemcaniya* sur la science des héritages d'Ibrahim Et-Tlemcani. On lui doit une

La Dynastie Hammadite (1004 – 1152) a joué un rôle de premier plan dans l'histoire et la civilisation du Maghreb central. Béjaia, qui donnera son nom aux petites chandelles (les « *bougies* ») et à partir de laquelle les chiffres arabes vont être « *popularisés* » en Europe, en deviendra sa capitale (en 1067).

Béjaia, Port de commerce: Profondément enracinée au Maghreb, Béjaïa était aussi largement ouverte sur la Méditerranée. En effet, elle devient très tôt un point de contact – un interface diraient les géographes – entre le Maghreb et l'Europe. Elle concentre les marchandises, pour les redistribuer ensuite dans diverses directions. Témoin de ces intenses échanges, la ville de Béjaia a donné son nom à un type de cuirs. Cependant, elle est surtout à l'origine du nom donné aux petites chandelles (les bougies). L'attestation du mot au début du XIV^{e} siècle montre que cette exportation était suffisamment importante au siècle précédent pour que les chandelles prennent le nom de la ville d'où provenait la cire.

Centre d'enseignement supérieur: La ville de Béjaïa était un centre d'enseignement supérieur. On y venait pour compléter sa formation au même titre qu'au Caire, à Tunis ou à Tlemcen. Plusieurs centaines d'étudiants (dont beaucoup d'européens) se pressaient dans les écoles et les mosquées où enseignaient théologiens, juristes, philosophes et savants parmi les plus réputés du monde musulman. Parmi les institutions célèbres : La Grande Mosquée, *Madinat al-'Ilm* (la Cité des Sciences), La *Khizana Sultaniya*, l'Institut Sidi Touati...

Le Dialogue Inter-Religieux: A l'époque médiévale, Béjaïa a eu le privilège d'abriter une forme de dialogue inter-religieux, à travers des événements, entrés depuis dans l'histoire Islamo-Chrétienne. Ce dialogue avait un lieu prédestiné. Il s'agit bien sûr de Beït al Hikma (la maison de la sagesse), qui symbolisait les échanges intellectuels entre musulmans et non musulmans, résidant dans la ville ou y venant de l'étranger. Tous les historiens ont souligné la signification particulière que revêt la célèbre lettre du Pape Grégoire VII au souverain Hammadite de Béjaïa, le prince al-Nasir, en 1076. Selon Mas Latrie, qui a publié ce document d'archives, *«jamais pontife romain n'a aussi affectueusement marqué sa sympathie à un prince musulman».*

Ces liens particuliers et privilégiés entre ces deux cités algériennes prestigieuses vont joué un rôle non négligeable dans la constitution de la tradition scientifique médiévale du Maghreb. Dans cet article, nous introduisons les principales aventures intellectuelles qui ont permis à ces deux cités d'être qualifiées de « jumelles ».

1-Les rapports politiques Béjaia– Tlemcen: Depuis les débuts de la présence musulmane en Afrique du Nord, deux pôles se sont affirmés, à l'Est autour de Kairouan puis de Mahdia et Tunis, et à l'ouest autour de Fès et Marrakech (mais aussi de Cordoue).

Entre ces deux pôles, l'espace du Maghreb central est soumis à une forte compétition qui prend appui sur les différentes capitales régionales qui émergent et se succèdent dont les principales sont Tahert, Tlemcen, Tubna, Msila, Ashîr, la Qal'a des Banû Hammâd et Bougie.

Depuis le milieu du XI^e^ siècle, le Maghreb occidental a été l'épicentre d'une évolution à caractère politique et religieux qui réalisa au moins temporairement à deux reprises le vieil idéal d'unification de l'al Andalus et du Maghreb. Les Almoravides conquirent le Maghreb occidental, mais échouèrent au Maghreb central et s'arrêtèrent à la zone d'influence des Bani Hammad regroupés à Béjaia. Ils purent néanmoins déferler sur l'al Andalus qui venait de subir la prise de Tolède par les Castillans. L'apparition des Almohades s'est effectuée d'abord en réaction contre la dynastie Almoravide. Fondée sur une doctrine formulée par Ibn Tumart, un berbère qui avait séjourné à Cordoue avant de se rendre à Baghdad.

À partir du XII^e^ siècle cependant, le déplacement des centres de gravité vers le nord et la Méditerranée consacre le rôle de Tlemcen et Bougie qui deviennent pour la première la capitale du sultanat abdelwadide, et pour la seconde la deuxième capitale hafside, dans la dépendance le plus souvent de Tunis, mais aussi parfois siège d'un émirat indépendant. La frontière entre les deux espaces se situe alors autour d'Alger, alternativement conquise par l'une ou l'autre puissance, mais sans que des limites fixes ne soient jamais pleinement définies ni reconnues.

2-Béjaïa, une Capitale Historique sur les rives de la Méditerranée:

Les Rapports Intellectuels Béjaia – Tlemcen

Pr Djamil Aïssani[1]

Introduction: Le 01 octobre prochain sera inaugurée au Palais de la Culture de Tlemcen, l'exposition «*Les Echanges Intellectuels Béjaia – Tlemcen*». Une trentaine d'histoires extraordinaires seront présentées au public. A côté des thèmes connus (La rencontre d'Ibn Tumart et d'Abdelmumen à Mellala, La *Qutbiya* de Sidi Bou Medienne, les frèrés Abderrahmane et Yahia Ibn Khaldun, ...), l'exposition abordera des thèmes tout à fait originaux : le jurisconsulte tlémcénien Said al-Uqbani (1320 – 1408) et la méthode des fractions en sciences des héritages de l'algébriste de Bougie al-Qurashi (mort en 1184), les études d'Abu al-Fadhl al-Machdaly (1419 – 1460) à Tlemcen, en compagnie d'al-Qalasadi et d'al-Sanusi, auprès d'Ibn Zaghu et d'Ibn Marzuq al-Hafidh, les rapports de Cheikh Sanusi avec la Kabylie, ...

En effet, de tous les rapports inter-villes, ce sont les échanges Béjaia – Tlemcen qui ont eu le plus d'impact sur le développement des activités scientifiques et culturelles au Maghreb central et en Méditerranée:

-Aux 11^{e} – 13^{e} siècles, de nombreux tlemcéniens se sont rendus à Béjaia pour poursuivre leurs études. Beaucoup d'entre-eux sont devenus de véritables savants et s'y sont installés pour enseigner ou bien pour y exercer des fonctions administratives ou juridiques. C'est le cas par exemple de Abu Farès Abdelaziz b. Omar b. Makhluf (Tlemcen 1202 – 1286). Cadi à Bougie, il va y rencontrer al-Hirrali (m. à Damas en 1240) et Ibn Mahrez. Le bio-bibliographe al-Gubrini (m. 1315) a été son élève.

-Aux 14^{e} – 15^{e} siècles, se sera le tour des bougiotes de privilégier la direction Tlemcen. C'est le cas par exemple d'Abu al Fadhl al Mashdaly (1419 – 1465).

1- Professeur de Maths- Université de Bejaia/ chercheur C.N.R.P.A.H. Alger.

temps contre la Couronne d'Aragon et les Mérinides qui furent précédemment les alliés des Nasrides. Plusieurs Sultans de Tlemcen furent élevés dans les cours d'Al-Andalus, comme le quatrième roi de la dynastie des Banou Abdelouad, Abou Tachfin fils d'Abou Hammou, élevé à la cour Nasride de Grenade où il recevra son initiation princière au palais de l'Alhambra. Tlemcen est restée longtemps une ville amarrée à l'Andalousie décrite et chantée par ses poètes. Les habitants des deux capitales avaient beaucoup d'affinités et partageaient les mêmes traditions dans l'habillement, l'art culinaire enfin, le parler avec ses inflexions particulières communes.

Mots clés: Tlemcen- histoire – siège - épreuve –résistance.

Paralelamente al desarrollo del culto a los santos, la arquitectura magrebí post almohade se caracteriza por el interés mostrado a los centros funerarios. Así, nos han llegado algunas qubbas funerarias de época abdelwadida. La *qubba* de Sidi Marzuq, que probablemente data del reinado de Yaghmurāsan, está situada en la esquina suroeste de la gran mezquita de Tlemcen. El acceso al mausoleo se realiza mediante una antecámara. El espacio funerario está rematado con una cúpula de ocho caras. La *qubba* de Sidi Ibrahim, construida por Abū Hammū II está precedida por un patio a cielo abierto. La cámara funeraria, coronada también por una cúpula de ocho caras, está profusamente decorada por paneles esculpidos en escayola que incluyen largas inscripciones coránicas.

Bibliografía

BERSC, H., GUICHARD, P. & MANTRAN, R., *Europa y el Islam en la Edad media,* Barcelona, 2001.
CAHEN, C., *El islam. Desde los origenes hasta el comienzo del Imperio Otomano*, Madrid, 1984.
IBN JALDūN, *Histoire des berbères et de dynasties musulmanes de lÀfrique septentrionale*, ed. y trad. de M. G. De SLANE, Argel 1925 (reimpresión, 1956).
IBN HAWQAL, *Description du Magreb,* trad. por M. G. De SLANE, en *Journal Asiatique*, 1842.
LEWIS, B., *Los árabes en la Historia,* Madrid, 1956.

Resumè: Tlemcen eut des échanges divers avec l'Espagne musulmane et apportait aides militaires contre la Reconquista Chrétienne. Les Nasrides signent des traités de paix avec les souverains Zianides de Tlemcen, ils deviennent alors alliés un

es el minarete de la mezquita de la kasba en Marrakech. Las torres cuadradas se rematan en un linternón y la decoración de relieves de ladrillo dibuja la red rómbica que orna el cuerpo del minarete. La presencia de un panel de red rómbica se observa en otros casos, como en Nedroma, o en los minaretes de los oratorios de Abu l-Hasan y de Sidi Ibrahim en Tlemcen. Sin embargo, la red rómbica, marca típica de la herencia decorativa almohade, no aparece en los minaretes de las mezquitas de Awlād al-Imām y de Mechouar en Tlemcen, donde las fachadas de la torre están decoradas con un panel rectangular adornado con arquerías entrelazadas.

Los soberanos abdelwadidas edificaron varias madrasas, desgraciadamente todas desaparecidas. La primera se debe a Abū Hammū II que financia hacia 1310 la construcción de la madrasa de los Awlād al-Imām, en honor de dos sabios de la región de Ténès. Hacia 1327, se construye at-Tašfīniyya, levantada por Abū Tašfīn, e implantada muy cerca de la gran mezquita de Tlemcen. Restaurada varias veces, especialmente en el siglo XV, en el reinado de Abū l-'Abbās b. Mūsà (r.1430-1461), se demolió en 1873 para construir el ayuntamiento. Conocemos su planta y varios fragmentos de su decoración. El monumento se organizó según dos ejes perpendiculares, uno que unía las dos entradas monumentales, y el otro que atravesaba el *mihrab* de la sala de oración. El patio central, de forma rectangular, está totalmente rodeado de galerías. La sala de oración presenta una disposición original, ya que va precedida de una galería decorada con una pila. En el interior, el oratorio se divide en tres partes: un sector central cubierto por una cúpula está delimitado de una y otra parte por un espacio rectangular; uno de los sectores laterales al parecer tuvo una vocación funeraria. Una última madrasa zayyanida, al-Ya'qūbiyya, se construyó en el reinado de Abū Hammū II.

siglo XV), pero sin conseguir establecer un poder central fuerte, triunfando las disensiones tribales internas. El final de la dinastía abdelwadida es tan agitado como el primer siglo de su historia. Debilitados por sus disensiones internas y por la gran influencia de las tribus árabes nómadas, los abdelwadidas se reducen a la soberanía de los españoles de Orán (1509) y después a los turcos de Argel (1517). Tlemcen, sometida un tiempo a los saadíes, está ocupada definitivamente por los turcos en 1550, poniendo fin definitivamente de este modo al poder abdelwadida.

En el dominio del arte los abdelwadidas nos han dejado varias realizaciones modestas, principalmente situadas en la capital Tlemcen. Se edificaron varios oratorios, especialmente cerca de mausoleos de personajes santos. La mezquita Sidi Abu l-Hasan, dedicada a un sabio de Ténès, se fundó en 1296 y la mezquita de Awlād al-Imām (1310), ambas de tamaño reducido, carecen de patio central. La sala de oración consta de naves perpendiculares al muro de la *qibla.* La mezquita Sidi Ibrahim, construida en el reinado de Abū Hammū II, adopta una planta similar a las dos anteriores, pero con un patio central rodeado de una galería que prolonga las naves de la sala de oración. El mihrab va precedido por una cúpula acanalada. Los edificios están cubiertos de estructura de madera, acondicionada a veces, como en el caso del oratorio de Sidi Abu l-Hasan, según las técnicas andaluzas de techos artesonados.

Aunque los abdelwadidas no construyeron muchas mezquitas nuevas, aportaron su cuidado al mantenimiento, la restauración y la ampliación de edificios preexistentes. Así, varias mezquitas del territorio zayyanida disponen de minaretes. Probablemente a Yaghmurāsan debemos los minaretes de dos mezquitas de Tlemcen: la gran mezquita y la de Agadir. En ambos casos, los minaretes se elevaron según el modelo almohade, cuyo prototipo

en varias ocasiones. Entre 1299 y 1307, los abdelwadidas se atrincheran en Tlemcen, que resiste a un largo siglo marinida. Al salir de esta prueba, Abū Hammū al-Tānī (1308-1318) y su hijo Abū Tašfīn (1318-1337), emprenden una política de consolidación del poder abdelwadida y extienden su poder al territorio de las tribus zenetas de los tujin y de los maghrawa en el valle del Chelif y de sus alrededores. Tlemcen recobra su esplendor y se beneficia, gracias a su situación central en el Magreb, de las riquezas del comercio transahariano.

Las relaciones exteriores establecidas con Aragón y Mallorca refuerzan la posición regional de los abdelwadidas, especialmente frente a los hafsidas en crisis. Las rivalidades con los marinidas ponen fin a esta calma. Tlemcen cae en manos de Abū- l-Hasan en 1337. Los marinidas, sin poder establecerse allí de forma duradera, la reocupan periódicamente, en especial en 1352, 1360 y 1370. Con Abū Hammū al-Tānī (1359-1389), monarca cultivado, nacido y criado en Al-Andalus, el poder abdelwadida recobra algo de su esplendor.

La región fue repartida entre tres dinastías beréberes: los Merinidas en fez, los Abdelwadidas en Tlemcen y los Hafsidas en Túnez. Desde el fin del siglo XV, después de la reconquista cristiana, reconquista sobre la totalidad de España poniendo fuera a los judíos y musulmanes, España continuó con sus logros, ocupó varios puertos de la costa argelina como Mers-el kebir, Orán y Bedjaia. Los abdelwadidas aceptaron el protectorado español, pero las autoridades religiosas de la ciudades portuarias apoyadas por la población reclutaron corsarios. En 1518 Argel y varios otros puertos fueron sitiados y los otomanos fueron llamados al rescate.

Posteriormente la dinastía se mantiene con dificultad, resistente a los intentos de expansión marinidas y hafsidas (en el

Los banū 'Abd al-Wād o abdelwadidas de Telemcen historia y herencia

Nourine Elaid Lahouaria [1]

Al igual que sus rivales marinidas, los abdelwadidas (asimismo denominados zayyanidas en referencia a Zayyān, padre de Yaghmurāsan, fundador de la dinastía), provienen de tribus zenetas nómadas que se desplazan en el siglo XII a la parte oeste del Magreb central. Fiel al poder central almohade, uno de los jefes de los abdelwadidas, fue investido por el califa al-Ma'mūn como gobernador de Tlemcen en 1227. En 1236, el poder tribal cae en manos de Yaghmurasan, que no tarda en mostrar sus veleidades de independencia. Desde 1240, deja de reconocer al califato almohade y se impone el título de emir de los musulmanes, que antiguamente adoptaron los almorávides. El aniquilamiento de los almohades, en 1269, desencadenó una ruda batalla comercial entre cristianos (españoles) y musulmanes por el control de los puertos del mediterráneo.

Para afirmar su poder, Yaghmurāsan debe enfrentarse a un clima hostil. No sólo hace frente a los almorávides deseosos de recuperar su autoridad en Tlemcen, sino que también resiste a las ambiciones de sus vecinos hafsidas. La rivalidad duradera con los marinidas se cristaliza un tiempo alrededor del control del puerto caravanero de Sijilmasa. Con los sucesores de Yaghmurāsan, esta rivalidad hace vacilar el poder abdelwadida

1- Enseignante d'espagnol- Faculté des Lettres, Langues et Arts- Université d'Oran.

34- Cuando Abī 'Abd Allāh sintió el peligro de su enemigo Abī al-'Abbās decidió de devolver tadelas y mejorar sus relaciones con Abū Hammū. *Al-'Ibar* .V –VI. pp. 858-860/ *At-ar'īfl*.p.98-99/ Hayiyat 'Abd al-hamīd. *'Abd al-Rahmān ibn Jaldūn fi biŷāya*.Al-Asāla.N°19.pp.191-203.
35- *Al-'Ibar.* V –VI. pp. 860-862/ Ibid.V- VII. pp. 269-271/ *At-ta'rīfl*. pp.100-102/ Hayiyat, *Abū Hammū Mūsà*.pp.114-121/ *La bugya*.V II. pp.181-198.
36- *La bugya*.V II. p.201/ *Al-'Ibar* .V- VI.-p.272-273.
37- Abū Mansūr b.'Alī b. bd Allāh al -Zwāwī, murió en 770h. *Nayl* pp.345-347/ *La bugya* .V I.p.132.
38- Sobre la separación de Yahyà y *Abī Hammū*: *Al-'Ibar* .V –VII.pp.274-277/ *Abū Hammū Mūsà*.pp.122-128/ *La bugya* .V II .p.238-239.
39- *La bugya* .V II-p.238-239.
40- Sobre el mal entendido entre al-Ganī bi-llāh b. al-ahmar y 'Abd al-'Azīz al-Marīnī (el problema de Ibn al- Jatīb Lisān al-dīn): V VII-pp.696-697y701.
Y sobre el problema de la nueva designación del sultan: *Al-'Ibar.* V- VII.p.697-698. Y sobre la posición de Yahyà: *At-ta'rīfl*. -p.295-296.
41- Sobre el fin de la resistencia: *At-ta'rīf.* pp 218-223y 227/ *Al-'Ibar* . V- VII- pp. 704-706.
-42 Sobre la muerte de Lisān al-dīn Ibn al- Jatīb: *At-ta'rīf* . p.227/ *La bugya.* V II-p.300/ *Al-'Ibar* . V- VII. p. 707-709.
La vuelta de Abū Hammū Mūsà al-Tānī a Tlemcen después de la muerte de 'Abd al-'Azīz al-Marīnī. Hayiyat- *Abū Hammū Mūsà al-Ziyānī.* pp.130- 133.
43- *At-ta'rīf* . pp. 224-227.
44-Abū Tasfīn: nació en 752h. *Al-'Ibar.* V -VII- p.280-282y 292. *La bugya.* V II-pp.17, 239, 279-286, 311-314.
45- *La bugya.* V II. p. 313-314.
46- Sobre el conflicto entre Suwayd y banū 'Amir y sobre todo en los años 777h, 778h: *Al-'Ibar.* V –VII. pp. 284-286.
47- Sobre esta trasladación y sus causas: *Al-'Ibar* . V –VII. p. 291-292.
48- La relación entre Abī Hammū Mūsà al-Tānī y sus hijos Abī Tasfīn, Abī Zayyān, 'Umayr y al-Muntasir: *Al-'Ibar* . V –VII. p:291-292.
49- Sobre estos eventos: *Al-'Ibar.* V –VII. p.292.
50- Sobre la poesía de Yahyà: *Nafh.* V- XI. pp. 212-215, 218-219 y 340-341/ *La bugya.* V II- pp. 124, 215-222, 230-234 , 297-299 y 320-325.

pp.215.215,351.486.510/Ibid V –VI.p.33/Al- Tumbuktī.*Nayl al-ibtihāŷ bī tatrīz al-dibāŷ.*Ed.Cairo.1329h.p.224.
19- Ibn al-qādī, -*Durrat*.p.21.N°56/ *Nayl* .p.68/ *At-ta'rīf* .p.48-49.
20-*Ŷudwat*.pp.112,246-247/*Nayl*.pp.145-147/*At-ta'rīf*.pp.22-23,41-44/ *Nafh*.V VIII.pp.214-219/María Jesus Viguera, *Al-Musnad al-sahīh al-hasan fī ma'ātir wa mahāsin mawlāna Abī al-hasan de ibn Marzūq*.Madrid.1973.V III.p.374/ *Bugyat*.*Ed*. Hayiyat.p.15-16.
21-*At-ta'rīf* .pp.20,38-41/ *Nafh*.-V VII.pp.163-164,384-391/ *Ŷudwat* .p.279-280/ /'Abd al-Rahmān Badawī, *Mu'alafāt ibn Jaldūn*.p.256//'Abd al-Rahmān ibn Jaldūn, *Al- 'ibar wa diwān al mubtada' wa al -jabar*.Bayrūt. 1957-V- VII.pp.515-517/Al – kattānī, *Fihris al-fahāris*.Fās.1346h-1347h.V I. pp.256.260/ Hayiyat. *La Bugia*.p.15.
22- Al-Maqqarī, *Nafh*.V- VII. p.167/ *Bugyat ar- Ruwwād* .*Ed* .Hayiyat.V I. p.11.
23- Ibn daqīq al-Sa'īd Taqiy al-dīn 'abī al-fath Muhammed b. 'Aliy b. Wahb b. Mutī' al -Qusayrī. Ibn Farhūn, *Al-dibāŷ al -mudahhab fī ma'rifati a'yān 'ulamā' al-madhab*.Cairo.1951.p.324-325.
24- Sobre 'Ab al-Abbās, al-Bana' Ahmad b. Muhammed b. 'Utmān al-Azdī al-Murrākušī.*Nayl*.pp.65-68/ *Ŷudwat* .pp.74-78/Durrat. VI.p.5-6 .N°17/ Al-Ziriklī Jayr al-Ddīn, *al- 'a'lām*.Cairo.1954-1959.Ed. N° 3.V I .p.213-214.
25- Al-Abīlī fue uno de los profesores que Yahyà b. Jaldūn trata en su libro *Bugiat*.V I. p.85.
26- *At-t'arīf*.p.15/ *'Abd al-Rahmān b. Jaldūn hayātu-hu wa turātu-hu al fikrī*. p.19-20.
27-La mayoría de los libros no Hablan de Yahyà b. Jaldūn en este período (750-757h)por eso no tenemos informaciones bastantes comparativamente con su hermano quien sabemos que estaba en la corte mariní como escritor, la sola prueba que tenemos es la llegada de un grupo de los sabios de al - Andalus a fez en el tiempo del sultan Abū 'inan, uno de ellos fue Abū al-barakāt al-balfiqī quien era uno de los profesores de Yahyà según la *Bugia*.Sobre este sabio : *Bugyat ar- Ruwwād fī dikri mulūki banī 'Abd al - Wād* .VII. p.167/ *At-t'arīf*. p.61/ Ibn al- Jatīb Lisān al-dīn, *Al-'ihāta fī 'ajbār Garnāta*. Cairo. 1319h / VII. pp. 101- 121/ *Nayl*. p. 254. 255/ *Nafh*. V-VII. pp. 391 - 408/ *Al-dībāŷ*. Pp.291-295/ *Fihris al-fahāris* .V I. p.106-107.
28- Abū 'Abd Allāh Muhammad b. Ahmed al-šarīf al-Hasanī, nació en Tlemcen en 710h y murió en 771h. Al-Ziriklī, *al-'a'lām*. V- VI p.224 /Carl BROCKELMAN, *geschichte de arabichen litteratur*.Newyork.VII. p. 318./ *Bugiat*. *E*d. Hayiyat. VI. 120/ *At-t'arīf*.pp.62-64/Al-Zarkasī, *Tārīj al-dawlatayn al-muwahidiyya wal-hafsiyya*. Ed. Túnez. 1289h /1872 d.c. p.91/ Ŷallūl Badawī, *al-šarīf Abū 'Abd Allāh al-tilimsānī*. Al- Asāla. Alger.Octobre. 1971. N°4/ pp. 48-55.
29-*Al-'Ibar*.V-VII. pp. 636 -642. *Nafh*. VIX. pp. 99. 103 / *At-tar'īf*. p. 53 - 4/ *Bugiat* . Ed. Hayiyat. V II. p. 53.54. *At-tar'īf*. p.95-96.
30- Abī 'Abd Allāh al-Hafsī, el emir de Bugia antes de la expedición de Abī Inān hacia Ifriqiyya y estar prisionero, después durante el período de Abī Sālem tuvo su libertad para combatir la extensión de Abī al-'Abbās. Tenía buenas relaciones con 'Abd al-Rahmān y su hermano. *Al-'Ibar*.V-VI. p.851 - 852 / Ibid.V-VII. p.647 / *At-ar'īf*/.pp. 67, 95 - 96.
31- *La Bugya*.V II. pp.123.125,131.
32- *Al-'Ibar*, V -VI, p853-854/Ibid. V- VII. p.264/ *At-ta'rīf*/. p.97, (sobre el oposito Zayyān. *La Bugya*.V II.p.132.133).
33- Sobre la extensión de bugya: 'Abd al-hamīd hayiyat, *Abū Hammū Mūsà al-Zayyānī hayātu-hu wa 'ataru-hu*. Sned. Alger.1974. pp.108-113/ *Al-'Ibar*. V –VI. p. 854-855/ *La bugya*.V II. pp. 148-151.

histórico virgen y rico en noticias que pueden ayudarnos a llevar estudios sobre Telemcen y sus vecinos del Magreb. No debemos ocultar también el interés literario de esta obra que desvela un nivel linguístico superior. Todo eso nos empuja a interesarse más a Yahyà b. Jaldūn y a su carrera política y literaria.

Referencias mencionadas en el artículo:

1-.'Abd al-Rahmān b. Jaldūn *.At-Ta'rīf.*ed. Ibn tawit.Cairo.1951.pp.8-11.
2- Ibidem.p.11.
3- 'Abd al-Rahmān b. Jaldūn tenía un libro que se llama *'Adab al –Kuttāb.* Sobre la formación de los escritores del estado, Véase Lévi –Provençal. *Le traité d'adab al-kātib d'abū bakr b. Jaldūn.* Arabica.Leiden.1955.V II. pp.280-288.
4- 'Abd al-Rahmān b. Jaldūn. *At-Ta'rīf.*p.12.
5- R. Brunschvig. *La berberie orientale sous les hafsides.* Paris, 1947. V I. p.80.
6- 'Abd al-Rahmān b. Jaldūn. *At- Ta'rīf.* P.12.
7- Ibidem.pp.13.14.
8- Ibidem.pp.14.17.
9- Brunschvig, Op. Cit., p.408.
10- Este libro de 'Abd al-Rahmān b. Jaldūn *At- Ta'rīf,* forma parte del volumen final del número 6 de *Al-'Ibar.*
11- Los tres hijos de Muhammed b. Jaldūn son: 'Abd al-Rahmān, Yahyà (el pequeño) y Muhammed (el mayor), este último es posible que muriera poco tiempo después de su padre. Ibn Jaldūn.Op.Cit.,pp.19-32 y 56.
12- Abū 'Abd Allāh Muhammad b. Sa'īd b. Burrāl al-Qurašī, su origen es del Andalus, tenía una reputación en muchas ciencias y sobre todo en las lecturas coránicas.*At-ta'rīf,* p.15/ Al –Maqqarī, *Nafh.*V VIII.p.218/Inan Muhammed, *'Abd al-Rahmān b. Jaldūn hayātu-hu wa turātu-hu al fikrī.* Cairo.1938. p.212.
13- Abū 'Abd Allāh Muhammad b. Ŷābir b. Muhammed b. Qāsim al -Qaysī al-Wādī. Nació en Túnez en 673hy murió en ella por la peste en 749h/1349d.c, era el profesor de los libros del hadit como *Sahīh al-Bujārī, Muwatta' al-Imām Mālik. At-ta'rīf*.p.18-19/Ibn al-Qādī, *Durrat al-hiyal fī gurrat asmā' al-riŷāl.*Ed .Allouche,Rabat. 1934.VI. p.205.206/ Al –Maqqarī, *Nafh.*V-VII. pp.125-127/'Abd al-Rahmān Badawī, *Mu'alafāt ibn. Jaldūn.*p.254-255.
14- Abū 'Abd Allāh Muhammad b. 'Abd as-Salām al-Munastīrī, al-Hawwārī al-Tūnusī, murió en 749h/1349d.c, como su omólogo al- Qaysī era un profesor de al-hadīt. *At-ta'rīf*.p.19/ *Nafh.* V .VIII.p.278.
15- Sobre la manera de enseñar de los antepasados que se basa sobre la cantidad y la memorización: Ibn.Jaldūn, Al- Muqaddima.ed.'Alī 'Abd al-wahed wafi. Cairo.1965.1968.V-IV .pp.1353-1358,1359-1363 y1365.
16- Según la *Bugia* Yahyà habló solamente de cuatro profesores suyos que son: Abū. 'Alī al-Zwāwī, Abū 'Abd Allāh al-Šarīf al-'abilī, Abū al -barakāt al-balfiqī y 'Abd al-hamīd hayiya.Ed de la *Bugia* de Yahyà fue en Argel, en 1400h/1980d.c.V I. p.120/V II.p.167.
17- "*Bugyat ar- Ruwwād fī dikri mulūki banī 'Abd al -Wād.*Ed hayiyat. Comentarios y definiciones. p.13.
18- Ibn al-qādī, *Ŷudwat al-'Iqtibās fīman halla min 'a'lām madīnat fās.*Ed fez.1309h. pp.135-189/ Ibn al-qādī, *Durrat.*V I p.219 N°579/Majlūf, *Sayārat an-nūr.*Cairo.1349h/1930d.c/V I p.221/ *At-ta'rīf.* p.45.46/*Nafh.*V V

escritor en el principio de su produción, era víctima del conflicto político, un hombre obediente a su sultan, por eso perdió su vida .

Las huellas de Yahyà b. Jaldūn:

Podemos decir que la formación de Yahyà b. Jaldūn se desarrolló gracias a los puestos admnistrativos en las diferentes cortes.Estuvo el escritor del sultan Abī Hammū Mūzà al-Tānī en Telemcen y el chambelán del emir Abī 'Abd Allāh al -Hafsī en Bugia durante mucho tiempo y todo eso para adquirir una experiencia en su vida política y cultural.

Yahyà b. Jaldūn tuvo un gran éxito en sus misiones gracias a su comportamiento personal y a sus competencias relevantes. Fue un hombre honrado, inteligente, juicioso y célebre en la poesía y el adab.

El papel de Yahyà como escritor de la corte, fue la redacción de la gloria de los sultanes, paises y sus ejércitos, también fue el reponsable de las correspondencias confidenciales del sultan además de la redacción de los actos de nombramiento de los nuevos cobernadores y las cartas titulares.

La mayoría de las cartas de Yahyà b. Jaldūn no las encontramos, pero su mejor obra además de algunos poemas, es su libro "*Bugyat ar- Ruwwād fī dikri mulūki banī 'Abd al –Wād*" .(50)

Conclusión:

Así pues, a pesar de que Yahyà b. Jaldūn no tenía una gran fama y no era conocido como su hermano'Abd al-Rahmān b. Jaldūn, y a pesar de que los investigadores no han dado importancia a este autor y a sus investigaciones elaboradas, Yahyà b. Jaldūn ha hecho un trabajo importantísimo en su corta vida.

Es lo que descubrimos en la única obra suya "*Bugyat ar-Ruwwād fī dikri mulūki banī 'Abd al –Wād*", esta obra revela primero que Yahyà b. Jaldūn fue un escritor de primer grado gracias a su amplio saber, y seguno este último fue muy notable en las responsabilidades en las diferentes cortes, sobre todo en la corte de Telemcen, cuando estuvo secretario de Abū Hammū Mūzà al-Tānī.

En conclusiones, tenemos que señalar la importancia histórica de la "*Bugya*" que la consideramos como un campo

La muerte de Yahyà b.Jaldūn:

La muerte del autor Yahyà b.Jaldūn tuvo relación con las perturbaciones en Telemcen y sobre todo el conflicto entre la tribu de Suwayd y banī 'Āmer de una parte y de otra entre el sultan y su hijo AbūTašfīn durante los años 777 – 779h. (46)
En 779h el sultan Abū Hammū Mūzà al-Tānī decidió ofrecer a su hijo Abū -Zayyān el gobierno de Orán, una de las más importantes ciudades de la región. (47)

Según 'Abd al-Rahmān b. Jaldūn, el origen de la crisis fue la aproximación de los tres hermanos Abī –Zayyān, 'Umar y al-Muntasir a supadre el sultan Abū Hammū Mūzà al-Tānī comparativamente con Abī Tašfīn. Esta situación produjo el odio y el miedo a Abī Tašfīn de perdir el poder después la muerte de su padre, por eso pidio a su padre designarle gobernador de Orán.

Abū Tašfīn pidio ayuda a la tribu de Suwayd para detener la aplicación de esta trasladación que podría dar más poder a Abī Zayyān. Era una situación muy peligrosa la que estaba viviendo Abū Hammū Mūzà al-Tānī, de una parte no tenía la voluntad de anular su decisión y de otra, no podía negar la petición de Abī Tašfīn.

La única solución a eso es ganar más tiempo, pues el sultan pidió al escritor Yahyà b. Jaldūn de retrasar el más tiempo posible la escritura de la respuesta de la petición de Abī Tašfīn, hasta encontrar una solución a este complicado problemo. (48)

El escritor Yahyà no tuvo solución sino obedecer y someterse a las órdenes del sultan: retrasar la respuesta. Era lo que empujó a algunos compañeros de Abī Tašfīn aconsejarle poniendo odio en eso, que este atraso era una maniobra por parte de Yahyà b. Jaldūn para ganar tiempo para poder ayudar a Abī Zayyān fijar su poder en Orán. Pero 'Abd al-Rahmān b. Jaldūn tenía otra versión de estas informaciones que rechazó del todo.Según él, el primer responsable de estas mentiras fue Mūsà b. Yajlaf que llevó en su corazón odio a Yahyà.

Esta situación fue la causa que empujó Abī Tašfīn a tomar la decisión de eliminar a Yahyà completamente de la corte y y aniquilarlo dándole muerte por un hombre de Abī Tašfīn en una noche de Ramadán en 780h.(49)Pues se acabó así la vida de un

El cambio del nuevo sultan , Abū -Zayyān al-Sa'īd b. 'Abd al-'Azīz (un niño de cinco años designado por ben Gāzī) y la entrada de Lisān ad-Dīn a la cárcel hasta su muerte en 776h , empujaron a Yahyà -después esta tragedia- decidir irse al palacio de Abū Hammū Mūzà al-Tānī, donde entró el primer de rabī' al-awal de 776h . (42)

La vuelta de Yahyà b.Jaldūn a la corte de Telemcen:

Después de cuatro años de separación Yahyà decidió finalmente volver a la corte de Telemcen y pedir la disculpa al sultan Abū Hammū Mūzà al-Tānī, esta vuelta tiene muchas causas como:

-la debilidad de la resistencia del ministro b. al-Gāzī después de la alianza del sultan de Granada y Muhammad b. al-Kas

-la continuación de los conflictos y las perturbaciones en la corte mariní.

- la muerte de Lisān ad-Dīn bnū al-Jatīb el mejor compañero de Yahyà.

La pérdida de la situación simítica en la corte mariní:

Por miedo de ser un sospechozo porque estaba el amigo más próximo de Lisān ad-Dīn bnū al-Jatīb.(43)

En este momento Abū Hammū Mūzà al-Tānī estaba sufriendo problemas peligrosos, esta situación obligó el sultan buscar hombres de confianza, por eso aceptó a Yahyà como uno de sos hombres.

La situación en el Magreb medio de esa época se consideró como una transición muy importante gracias a la política ofensiva de la tribu de banī 'Āmer contra el sultan, Abū Hammū Mūzà al-Tānī lo que obligó a este último dbuscar otras tribus par la alianza, eso se a realizó con la tribu de Suwayd .

Realmente aquella alianza se realizó entre la tribu de Suwayd y el hijo mayor de Abī Hammū al-Tānī, el emir AbūTašfīn, este último tuvo una gran reputación y llegó a amenazar a su padre en el poder. (44)

El dezarrollo de los problemas entre el sultan y su hijo volvieron más complicados. En esta situación, el consejero siguió normalmente su tarea administrativa aplicando las órdenes del sultan y culturalmente en la escritura de una parte de la "*Bughia*" y el aprendizaje (la poesía , el adab y la historia) . (45)

ellos habían Abū 'Abd Allāh al-Zwāwī y Abū 'Abd Allāh al-Šarīf.(39)

Entonces, este período fue la continuación del dezarrollo de su campo cultural y su experiencia en las actividades destacadas en la administración pero como siempre la instabilidad cambió la cosa.Esta situación se acabó con la expedición del sultan mariní 'Abd al-'Azīz hacia Telemcen y la huida de Abū Hammū Mūzà al-Tānī con su entorno hacia el este, después al sur donde acabó Yahyà de seguir el camino con Abī Hammū, pero decidió de juntarse al final al sultan 'Abd al-'Azīz al- Marīnī.

Yahyà en la corte del sultan al- Marīnī:

Todavía no sabemos mucho sobre la seperación del sultan Abī Hammū y Yahyà, pero este último reconoció su falta. Podemos notar eso en su libro la Bughia cuando dijo lo siguiente: «*...desde aquí le he dejado gracias a unas negras imaginaciones y algunas inclinaciones diabólicas,...y es un mal destino,...y no existe falta con reconocerlo...».*(40)

La estancia de Yahyà b.Jaldūn con los banū marīn, le dio la ocasión de encontrar los sabios y los profesores tal como Lisān ad-Dīn bnū al-Jatīb quien llegó a Telemcen en 672h. Otra vez Yahyà aprovechó de esta relación para aprender más de su conocimiento en varias especialidades.

Aquella situación continuó normalmente hasta la muerte del sultan 'Abd al-'Azīz al-Marīnī el 22 de Rabī'al-Tānī de 774h y el desplazamiento de la cotre mariní de Telemcen a Fez. Los problemas van a empezar con la desiniación de un nuevo sultan, lo que obligó a los miembros de la cotre orientarse hacia Fez para ayudar al estabilicimiento del estado. Entonces Yahyà y su amigo b. al-Jatīb fueron aces con los demás.

En Fez Yahyà guardó su posición en la corte mariní gracias a sus fuertes relaciones con Lisān ad-Dīn bnū al-Jatīb, el amigo del ministro b. al-Gāzī, pero la continuación de los conflictos y la intervención del sultan de Granada en Fez para eliminar sus opositores y especialmente el ministro b. al-Gāzī y Lisān ad-Dīn cambiaron la situación.

El sultan de Granada se alió con Mohammed b. al-Kas el sobrino de al-Gāzī, este último no pudo resistir y se acabó.(41)

relacionado con el primer hombre del estado y símbolo de la gloria y la victoria de los banū Zayyān Abū Hammū Mūzà al-Tānī .Además del nuevo camino del emirato de Bujia que se presentó en la extención sobre la soberanía del estado de banū Zayyān, lo que pasó en dī-l-hiŷŷa de 765h es que Yahyà, aprovechó la ocasión de la revolución de Abī Zayyān al-Qubbī quien perdió su derecho al poder. (35)

Abī 'Abd Allāh perdió sus tentativas contra Abī al-'Abbās sobre todo lo que pasó durante la batalla de "*Fargiwa*" y "*Setif*" al fin de 767h , y la invasión total del ejécito de Abī al-'Abbās a Bujia , que mató a Abī 'Abd Allāh imprecionó a Yahyà, este último desertó de la prisión hacia Biskra donde estaba su hermano 'Abd al-Rahmān (se escapó de Bujia en el momento de la invasión de Abī al-'Abbās). En Biskra Yahyà recibió a un mensajero de Abū Hammū Mūzà al-Tānī, quien le propuso trabajar en la corte de Telemcen sirviendo al-sultan.(36)

Yahyà b. Jaldūn en la corte de Abū Hammū Mūzà al-Tānī:

La continuación de los conflictos y las perturbaciones en la región y sobre todo la revolución de Abī Zayyān ibn Abī al-Sa'īd al- al-Tānī (el sobrinio de Abū Hammū) , obligó el sultan de Telemcen a tomar unas nuevas desiciones, premero invitar a Yahyà y su hermano 'Abd al-Rahmān a la cotre de Telemcen para ayudarle a apaciguar la situación.

En 769h y cuando el sultan Abū Hammū Mūzà al-Tānī estuvo en Maliana después una batalla contra, Abī Zayyān envió un mensajero que se llama 'Umar b.

Muhammad b. mayyan a Biskra para encontrar Yahyà y transmitirle el mennsaje del sultan que le pidió de juntarse a sus hombres del estado. Su primera misión fue el principio de las negociaciones con los Dwawda de la tribu de banū Rayah en el orden de formar una alianza contra los enemigos.

Yahyà b.Jaldūn aceptó esta misión y empezó las negociaciones con un buen éxito. En el primer de Raŷab de 679h entró a Telemcen y volvió el escritor del sultan y uno de sus consejeros. (38)

La estancia de Yahyà en el palacio de Telemcen fue un período muy importante que influyó su formación especialmente en el dominio cultural y científico, con los mejores profesores, entre

Los dos hermanos 'Abd al-Rahmān y Yahyà ocupaban puestos administrativos en la corte de Abī Salīm al- Marīnī ,(31) pero eso no era suficiente para ellos , la ocasión va a venir pronto con el movimiento de Abī Salīm hacia Telemcen en 761h, donde los dos hermanos fueron compañeros del sultan , por eso el pequeño Yahyà volvió el chambelán (al-hāŷib) del emir Abī 'Abd 'Abd Allāh al –Hafsī. (32)

Este puesto puede ser que fuese la decisión del sultan Abī Salīm al- Marīnī para ayudar al emir 'Abd Allāh a reintegrar de nuevo Bujia y Yahyà pueda jugar un papel muy importante si sabemos que tuvo buen conocemiento de los árabes de la zona , debido esto a su estancia en Beskra.

En764h Abī 'Abd Allāh al -Hafsī decidió de enviar como mensajero a Yahyà b. Jaldūn a Abī Hammū Mūzà al-Tānī en Telemcen en el orden de pedir su ayuda en frente de la extención de Abī al-'Abbās, pero los resultados no fueron concretos, esta misión fue una ocasión a Yahyà para saber más cosas sobre la vida política, cultural y sientífica de Telemcen. (33)

Después de tres meses, el sultan Abī 'Abd Allāh y su chambelán el mensajero Yahyà b. Jaldūn repitieron la misma misión por la segunda vez, llegaron a Telemcen el 8 de Ŷumāda 2 de 764h, pero otra vez la respuesta de Abī Hammū Mūzà al-Tānī fue negativa. Gracias a la intervención del sultan Abī Ishāq al-Hafsī en la cotre de Telemcen se realizó la renovación de un acuerdo de paz entre ellos.

Esta intervención hizo fin a los intentos de Abī 'Abd Allāh, si sabemos que según el acuerdo firmado y aceptado por ambos lados, el sultan Abī Ishāq tuvo que capturar al enemigo de Abī Hammū Mūzà al-Tānī, el emir Abī Zayyān ibn Abī Sa'īd al-Tānī, a condición que Telemcen rechazó de dar cualquier tipo de ayuda a Abī 'Abd Allāh al-Hafsī.

Entonces el jaque de estas misiones, lo que empujó Abī 'Abd Allāh y su compañero Yahyà a pedir de las tribus y especialmente la de Dwawda construyendo una alianza hasta la reintegración de Bujia pasíficamente en Ramadán de 765h .(34)

Como observación sobre el papel de Yahyà, no encontramos informaciones en su libro, lo que da la impresión que el interesado no quizo hablar de algo muy sensible en su libro

diferentes eventos, lo que abrió una nueva puerta de los estudios objetivos sobre todo históricos.
La presencia de Abū al-Hasan al- Marīnī duró poco tiempo, pues este último va a encontrar una oposición en la zona del sur y el 7 de muharram de 749h/1348d.c, el ejército del sultan perdió una batalla importantísima cerca del Qayrawān y así, la derrota del poder de banū marīn en Ifriqia le obligó a Abū al-Hasan abondonar Túnez hacia el Magreb. Esta situación ayuda a la vuelta del emirato de banū Hafs en Bujia y Qasantīna y banū Zayyān en Tremecén, la larga exitencia de la peste cosechó la vida a miles de los ciudadanos y sabios, entre ellos Muhammed b. Jaldūn, el padre de Yahyà (27).

Las perturbaciones políticas y sociales que estaba viviendo Túnez y sobre todo los conflictos del poder y la suberanía, fueron causas concretas que empujaron a 'Abd ar-Rahmān b. Jaldūn y su hermano Yahyà a orientarse hacia la corte mariní (28.)

La presencia de Yahyà b. Jaldūn en Fez representó un período importantísimo en su vida, porque pudo continuar sus estudios con los mejores sabios, uno de ellos fue Abū 'Abd Allāh al-charīf (29).
Entonces, como hemos dichos antes, la estancia de Yahyà b. Jaldūn en Fez fue muy rica culturalmente, su nivel va a mejorarse con el viaje de Ibn al-Jatīb a Fez en 71h/130d.c; este último era una fuente literaria y científica, esta estación dio la ocasión a Yahyà para empezar su primera experienca en la vida de la corte(30).

La actividad política de Yahyà b. Jaldūn:

Yahyà b. Jaldūn ocupó muchos puestos políticos y administrativos en diferentes cortes , con al emir Abū 'Abd Allāh al -HafSī , el sultan de los banū Zayyān Abī Hammū Mūzà al-Tānī en Telemcen y en la corte mariní con el emir'Abd al-'Azīz al- Marīnī .Como observación, el periodo de Yahyà en la corte de Telemcen se considera el más importante y el único libro suyo es la *"Bugiat"* una descripción y un estudio de la historia de ese estado, lo que da a nosotros una prueba concreta de esa importancia .

La actividad política de Yahyà antes de su servicio a Abī Hammū Mūzà al-Tānī:

Jaldūn y sobre todo durante su estancia en la casa de los banū Jaldūn. Los estudiantes aprobecharon mucho de este profesor que se considera como fuente y gracias a su largo conocimiento 'Abd al- Muhaymin participó en la formación de Yahyà b. Jaldūn sobre todo literariamente. Otra vez la peste va a coger un sabio, eso lo que pasó el 13 de šawwāl de 749h/1348d.c (22)

Abū 'Abd -Allāh Muhammad b. Ibrāhīm b. Ahmad al- abdari al- Tilimsānī al -Abīlī, nació en Tilimcen en 681h sus maestros: ibn Galbūn
(su abuelo) y Abī al-Hasan al-Tamasī en Tilimcen (23) , ibn Daqīq al -Sa'īd en Egipto (24), cuando volvió a su tierra ocupó el puesto de la financia del palacio donde continuaba sus estudios con Abī Mūsà ben al- Imām.

Al -Abīlī decidió consagrar su tiempo a los estudios y el aprendizaje de las diferentes ciencias, por eso se orientó hacia fez dejando detrás la vida de la corte y sus responsabilidades.En fez al -Abīlī aprendió mucho con el judío Jellūf al-Magilī, después su desplazó a Murrākuš en 710h y allí estudió con el sabio Abu al- 'Abbās de al-Bana hasta su muerte en 721h. (25)

La próxima estación para al -Abīlī fue las montañias de Sus donde estaba un estudiante aprendiendo más cosas y como profesor dándo lo que ha aprendido , luego se dirigió a fez como un profesor muy famoso y los estudiantes le consideraron como una fuente en varias ciencias , como eso dio a este sabio ùna posición respectada en la sociedad tan como en la corte mariní . Por eso fue uno de los más importantes compañeros del sultan Abī al-Hasan al- Marīnī durante sus expediciones hacia el Magreb central en 735h y Ifriqiya en 748h .

En Túnez Al -Abīlī fue uno de los profesores de los hijos de Muhammed b.Jaldūn durante cuatro años con un método moderno, dando a los estudiantes lo mejor de las ciencias naturales y sociales para obtener una formación lógica, lo que ayuda a comprender los eventos sociales e historícos correctamente y criticar las noticias de una manera objetiva y científica (26.)

La influencia de Al -Abīlī fue muy notable en la formación de Yahyà y su hermano 'Abd ar-Rahmān, gracias a su nuevo método basado sobre la lógica para aprender y analizar los

una armada de los sabios y los profesores de la corte mariní, lo que impulsó a los estudiantes a aprobechar de esta relación (18) Entre aquellos sabios que fueron profesores en Túnez y influyeron directamente en la formación de los estudiantes contamos con :

Abū 'Abd Allāh Muhammad b. Muhammad b. Abi al -Fadl b. sabag al_ jazrayi al-Maknāsī , murió en el nofrajio de la flota magribí serca de la costa de tadelas , al regleso de Ifriqiya en 750h / 1350d.c , tradicionista y el faquí notable , fue el premer biógrafo del celebre sufí Abū l-hasan al_ chadilī (murió en 656h / 1258 d.c) (19)

Abū al-'Abbās Ahmad b. Suayb al -fāsī , escritor , médico y secretario de la cotre mariní durante el periodo del sultan Abī Sa'īd y el su de hijo Abī al -Hasan al -Marīnī, uno de los sabios qui acompañaron al sultan al -Marīnī en su expedición , murió en Túnez por la enfermedad de la peste (20).

Abū al -Qāsim 'Abd Allāh b. Yūsuf b. Radwān al- Nayyārī al- Malaqī, nació en al- Andalus , era un estudiante del qadí Abū Ŷa'far ibn 'Abd al- Haq, Abū bakr b. Mansūr y al- Hafīd Abī hafs al- Tanjaly en Malaga y Abī –l- Hasan al- Ŷayāb en Granada , era buen conocedor de la lengua árabe, al-adab, la poesíay la documentación.Va a desarrollar su conocimiento en el Magreb con los sabios como 'Abd al- Muhaymin al-Hadramī , Ibn Ŷarbū' al-Sabtī , al -Abiliy ibn al- Naŷŷār , acompañió a Abī al-Hasan a Tremcén y Ifriqiya , llegó a ser el secretario de Abū al-Hasan y Abū inan , tenía unas buenas relaciones con 'Abd ar-Rahmān y su hermano Yahyà , murió en anfa en 748h (21).

- Abū Muhammad 'Abd al- Muhaymin b. Muhammad b. 'Abd al-Muhaymin al- Hadramī al- Sabtī , nació en Ceuta en 675h , estudiaba con los mejores profesores como Abī Ishāq al -Gafīqī al-Andalusī en Ceuta y Abī Ŷa'far b. al-Zubayr en al -Andalus , era un escritor muy famoso además de sus capacidades y su conocimiento de la lengua árabe y su campo literario

En 712 llegó a ser el escritor del sultan mantuvo su posición de la corte durante el período de Abī al-Hasan al- Marīnī además de ser miembro del consejo científico, en 748h fue uno de los compañeros del sultan en su expedición hacia Ifriqiya, donde este último va a construir buenas relaciones con la familia de los

último va a seguir el camino de sus abuelo por su papel en la actividades en la vida política y por tanto en el domino del saber y como especial en Tremecén la capital de los banū Zayyān.(10)

La formación de Yahyà b.Jaldūn

Son muy escasos las informaciones sobre la vida de Yahyà b.Jaldūn en general, pero podemos encontrar algunas informaciones importantísimas en el libro de su famoso hermano 'Ab dar-Rahmān *at-tarīf bi b. Jaldūn wa –rihlatuhu šarqan wa garban* (11) donde hay noticias sobre la vida cultural y la formación de los tres hemanos.(12)

Aquella formación de los hijos de Muhammad b.Jaldūn comenzó con uno de los grandes profesores, es ibn al-burrāl al – Qurašī quien era muy famoso en varias materias (13). Gracias a este profesor, los estudiantes aprendieron de memoria el Corān y tuvieron capacidades considerables en la especialidad de las lecturas, ademās de estudiar lo mās importante de los libros de aquella época.

En lo que concierne las ciencias religiosas encontramos los tres hermanos de Muhammad b.Jaldūn estudiaban con los mejores profesores y sabios que tenían gran reputación en Túnez como Abū 'Abd -Allāh Muhammad b. Ŷābir al-Wādī asi (14), el juez b. 'Abd as-Salām al-Munastīrī al – Hawwārī at-Tūnusī (15) 'Abd Allāh al-Ŷayyānī al- Hasa'irī al-Zarzalī y 'Abū 'Abd Allāh, Muhammad b.bahr.

La manera de la enseñanza que se basa sobre la memorización para seguir el camino de los antepasados (16), va a cambiar con la expedición del sultan Abū l-Hasan al- Marinī hacia 'Ifriqiya en 748/1348d.c

Este cambio afectó la vida política , cultural y social lo que dio la posibilidad a Yahyà y sus hermanos de encontrarse con los sabios y los profesores de la corte mariní , que acompanaron a Abū l-Hasan a Túnez. Este encuentro ayudó los estudiantes a saber otros nuevos métodos de la enseñanza.(17)

La formación de Yahyà b.Jaldūn durante el movimiento de Abī al-Hasan al- Marinī hacia Ifriqiya 748h /1348d.c

Después de un año aproximadamente de la muerte del sultan Abī Yahyà al -Hafsī, su homólogo mariní al- sultān Abū l-hasan al -marīnī empezó su expedición hacia Ifriqiya , donde entró a Túnez el 8 de Ŷumādà 2 de 748h / 1348 d.c acompañando por

--Yahyà Bouaziz. *A'lām al fikr wa al taqāfa fi al yazāir al mahrūsa*, bayrut 1955, V2, pp , 81.82.83.84.85.
--R brunschvig. *La berberie orientale sous les hafsides. Des origines a la fin du XV siécle*, Paris 1947, V II, pp.385-397.
- Encyclopédie de l'islam nouvelle ed, paris 1971, V III pp849.

Cuando los banū Jaldūn aseguraron que no se puede resistir enfrente de los españoles y durante la decadencia post almohade en España , estos últimos decidieron de dirigirse hacia el Magreb Ceuta en 630h como primer lugar después hacia Túnes donde fueron bien recibidos por el sultan Abī Zakariyya al-Hafsī en 640h. (3)

En Túnes los miembros de la familia de b.Jaldūn ocupaban puestos semíticos en la corte hafsid desde la llegada de al-Hasan b.Jaldūn el biesabuelo de Yahyà (4), después su hijo Abū Bakr Muhammad quien trabajaba en la administración de financias, ȧdemás de ser un escritor.(5) En el periodo de Abī Ishāq . Abū Bakr llegó a ser el primer responsable de la gestión del presupuesto del estado.(6)

Durante el gobierno de Abū Fares sobre Bugia en 679h, el abuelo del chambelán y jugaba un papel muy importante en los asuntos políticos tan como los militarias. (7)

Muhammad b. Abū bakr continuaba sus actividades en los puestos destacados de la adminitración y por tanto en la vida política de la danastía de los hafsiés hasta la decadencia del estado de íbn al -Lihyanī (711h-718h), cuando eligió finalmente de consagrase su vida en la abstención y el sufisimo, pero su posición en la abstención y el sufismo, pero su posicion en el corte u entre la gente quedaba mantenrse hasta su muerte en 737h.(8)

El hijo de Muhammad, Muhammad Abū bakr , el padre de Yahyà y 'Ab dar-Rahmān llevaba una vida diferente del padre de aquellos de los antepasados , una vida de la abstención y la concentración sobre los estudios de la religión y la literatura (9). Por eso estaba muy conocido en el fiqh, el adab y especialmente la poesía.

Así pués, Yahyà y su hermano, 'Abdar-Rahmān vivían en un entorno cientifico y religioso abierto sobre el adab y la poesía , un carácter de vida que influía directamente en la construcción de la personalidad y el comportamiento general de Yahyà, este

muchos otros dominios y sin duda unos de los más famosos de aquella época fueron los miembros de la familia de b Jaldūn.

La vida de Yahyà bnū Jaldūn:

Abū zakariyya Yahyà b.Jaldūn uno de los puntos claves para entender la historia de la cuenca del mar mediterraneo nació en Túnes en 1333/34d.c-734h después de dos años del nacimiento de su famoso hermano ' Ab dar-ahmān 1332d.c 732h.

Este último ha elaborado grandes trabajos e investigaciones sobre la cultura y la historia como "*kitāb –al 'ibar wa diwān al mubtada' wal jabar*", "*al- Muqaddima*", "*at-ta'rīf*"...etc, lo que llevó a los inverstigadores a concentrar mucho interés sobre lo que ha hecho, lo cual comparativamente deja Yahyà algo en penumbra.

La mayoría de los inverstigadores sobre Yahyà b. b.Jaldūn han encontrado una gran ayuda en su libro "*Bugyat al- ruād fī dikri mulūki banī abd el wād*" la principal obra suya.(1)

1-El entoro familiar:

Yahyà b.Jaldūn pertenece a una familia de alta categoría y de origen árabe de Hadramaut (yaminit) , vivían durante mucho tiempo en Sevilla como una familia respectada y muy famosa. (2)

Son muy escasos los estudios sobre el autor Yahyà b.Jaldūn y los que podemos encontrar:

Jaldūn ar-ahmān b. Jaldūn (hermano de Yahyà) , *at-tarīf bi b. Jaldūn wa –rihlatuhu šarqan wa garban* , ed ibn tawif Cairo, c.t.e , 1951.

- Al –Maqqarī Ahmad b. Muhammad al -Tilimsānī, *Nafh at-tīb min gusn al andalus al ratib*, ed. Muhy ad-dine 'Abd al-hamīd- 10 v- Cairo,1949. (Sobre la poesía de Yahyà, *al- Mawlid al - nabawī al-šarīf*-V IX- pp. 212-215, 218-219, 340-341).

-- 'Abd al- Hamīd Hayiyat ed. de *Bugiat ar-ruwwād de Yahyà b.Jaldūn*, Argelia, 1980 d. c-1400h. (Sobre Yahyà b.Jaldūn, V1, pp. 7-68).

-- Bel alfred. *Histoire des beni abd al wad rois de telemcen*, ed.et trad de la Bugiat en collaboration avec G bou-ali Argelia, Fontana, 1904.

Encyclopédie de l'islam, nouvelle édition, Paris, 1971 tome III (sobre Yahyà b.Jaldūn y su familia pp . 849-854, 855-856.

Sobre la familia b.Jaldūn y su origen:

La Vida y Obra de Yahyà b.JALDŪN

Fouad KEBDANI [1]

Introducciónn: La historia de los banū Zayyān representó una rica herencia para la civilización del norte de África y la cuenca del mar mediterráneo como el mundo islámico en general, desde aquí necisitamos estudiar esta 2poca analizando los eventos según los estudios y las investigaciones disponibles en este domino.

Varios historiadores han elaborado trabajos sobre esta epoca de la historia medieval, y sin duda unas de la mejores obras que las hemos manejado son de «'Abd ar-Rahmān b.Jaldūn ibn Marzūq y ibn Jatīb».
Vamos a estudiar la historia de los banū zayyān según la Bugia de b. jaldūn un libro casi desconocido para los investigadores, igualmente que son escasos los historiadores que hablan sobre él.

Todo eso nos empuja a abrir las páginas de este libro analizando su contenido después de dar una vista general sobre la vida del autor (el artículo de "*Bugyat ar- Ruwwād fī dikri mulūki banī 'Abd al –Wād*" fue principalmente una redación de la gloria y la victoria del sultan Abū Hammū Mūsà II) , para declarar la obediencia Yahya en su libro estudió cronológicamente la historia de un estado antes de su surgimiento hasta el periodo actual de la redación eso fue una prueba concreta de las capacidades de este autor.

Pues así oímos decir que el siglo ocho de la hégira y catorce de la era cristiana conocieron una armada de los sabios famosos que participaron en la contrución de la historia y de la civilización a través de sus papeles en la vida cultural, científica social y política. Estos últimos han desarrollado diferentes métodos del pensamiento, la filosofía, la historia, la literatura y

1-Doctorant Algerien en civilisation Espagnole- Universidad de complutense- Madrid.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

MINISTERE DE LA CULTURE	وزارة الثقافة
LA CHEF DE CABINET	رئيسة الديوان
N°........../........../CC/MC	رقم ..../..../ر.د/و.ث
ALGER, LE	الجزائر في

11 AOUT 2011

أ. د. بوبلية عبد القادر
مدير مخبر " تاريخ الجزائر"
جامعة وهران

<u>الموضوع:</u> ف/ي العدد الخاص بتلمسان في مجلة " عصور الجديدة "
<u>المرجع</u> : إرسالكم رقم 008/المؤرخ في 2011/07/07.

عطفا على إرسالكم المشار إليه في المرجع أعلاه والمتعلق بدعوتنا للموافقة على تخصيص العدد القادم من مجلة " عصور الجديدة " التي يصدرها مخبركم الموقر لمدينة وحاضرة تلمسان، على اعتبار كونها توجت هذه السنة بلقب عاصمة الثقافة الإسلامية.

وإذ أشكر لكم هذا الاهتمام فإن السيدة الوزيرة ترحب بهذه المبادرة الطيبة التي ستعزز لا محالة من إشعاع الاحتفالية وتضيف الفائدة على برنامج التظاهرة وتوثق بأسلوب أكاديمي علمي لإحدى أهم الحواضر الإسلامية في الجزائر.

وتفضلوا السيد المدير بقبول فائق عبارات الشكر والتقدير والاحترام.

رئيسة الديوان
زهيرة ياحي

Lettre de son excellence Mme le Ministre de la Culture

Summary

'OUSSOUR AL JADIDA

Scientific Revue edited by History of Algeria Laboratory Research- Oran University

Number 2
summer 1432/august 2011

ISSN 2170-1636 ردمد

Depot Légal –2011

'OUSSOUR AL-JADIDA

Scientific Revue edited by History of Algeria Laboratory Research-
Oran University

Number 2 2011

ISSN 2170-1636